«التكملة»

صلاح الأمة في علو الهمة

المجلد الثالث عشر

تأليف

دكتور/سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ أبو بكر الجزائري
الشيخ محمد صفوت نور الدين
الشيخ محمد إسماعيل المقدم
الشيخ أحمد فريد
الشيخ سعيد عبد العظيم
الشيخ ياسر برهامي
الشيخ محمد عبد المقصود
الشيخ عائض القرني
الشيخ أحمد عيسى
الشيخ أبو إسحاق الحويني
د. حمزة بن يافع الفتحي
أ.د. عبد الرحمن فوده

دار العفاني

بسم الله الرحمن الرحيم

صلاح الأمة في علو الهمة

المجلد الثالث عشر

الطبعة السابعة

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

رقم الإيداع بدار الكتاب المصرية

٢٠٦١٢ / ٢٠٠٧

دار العفاني

٣ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر - القاهرة

ت/ ٠٢/٢٥١٠٨٢٥٧ - ٠١٢/٢٥٧٧٥٧١١

فرع بني سويف - برج الري - حي الرمد - بجوار مجمع المحاكم - بني سويف

ت/ ٠٨٢/٢٣١٧٣٤٤

مطبعة العمرانية للاوفست

الجيزة : ٣٣٧٥٦٢٩٩

علو الهمة

في

الرحمة والرأفة والشفقة والرقة

علو الهمة في الرحمة والرأفة والشفقة والرقة

سبحان من وسعت رحمته كل شيء، كما وسع حمدهُ كلَّ شيء.

* استوى الرحمن على عرشه، وعرشه أشرف المخلوقات ومحيط بها قد وَسِعها، والرحمة محيطة بالخلْق؛ واسعة لهم كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات.

وما أعظم الرحمة وأشرفها وأجملها عند الله حتى يكتب الرحمن كتابها بيده:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لما قضى الله الخلق كتب في كتاب – فهو عنده موضوعٌ على العرش-: إن رحمتي تغلِبُ غضبي**»(١).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كتب ربكم على نفسه بيده – قبل أن يخلقَ الخلقَ: رحمتي سبقت غضبي**»(٢).

* فتأمَّل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة؛ ووضعه عنده على العرش، وطابِقْ بين ذلك وبين قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٦٦)، والبخاري في «صحيحه» – كتاب بدء الخلق – باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الحديث (٣١٩٤) (٢/ ٩٨٦)، ومسلم في «صحيحه» – كتاب التوبة – باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه – الحديث رقم (٢٧٥١)- (٤/ ٢١٠٧-٢١٠٨).

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٨٩)، عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٤٧٥).

[طه]. ، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان]: ينفتح لَكَ بابٌ عظيمٌ من معرفة الربِّ -تبارك وتعالى-؛ إن لم يُغْلِقْهُ عنك التعطيلُ والتجهُّمُ»[١].

□ سبحانه وسع كل شيء رحمة، وأوسع كلَّ مخلوق نعمة وفضلًا الرحمن الذي وسعت رحمته كلَّ شيءٍ، ووسعت نعمته كلَّ حيٍّ، فبلغت رحمته حيث بلغ علمُه، فاستوى على عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته، وأنزل كتبه برحمته، وأرسل رسله برحمته، وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنة برحمته، والنار أيضًا برحمته، فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته، ويُطهِّر بها أدران المُوحِّدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه مِنْ خليقته.

فتأمَّل ما في أمره ونهيه ووصاياه ومواعظه من الرحمة البالغة والنعمة السابغة، وما في حشوها من الرحمة والنعمة.

فالرحمة: هي السبب المتصل منه بعباده؛ كما أن العبودية هي السبب المتصل منهم به، فمنهم إليه العبودية؛ ومنه إليهم الرحمة.

ومن أخصِّ مشاهد هذا الاسم: شهود المصلِّي نصيبه من الرحمة؛ الذي أقامه بها بين يدي ربِّه، وأهَّله لعبوديته ومناجاته، وأعطاه؛ ومنع غيره، وأقبل بقلبِه؛ وأعرض بقلب غيره، وذلك من رحمته به»[٢].

الرحمن الرحيم:

اسمان من أسماء الله الثابتة بالكتاب والسُّنَّة وإجماع علماء الأمة،

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٢-٤٣).

(٢) «الصلاة وحكم تاركها» لابن القيم (ص١٧٣).

مشتقَّان من الرحمة على وجه المبالغة، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم، وفي كلام الإمام ابن جرير الطبري ما يُفهم منه حكاية الاتفاق على هذا[١].

واتفق أكثر العلماء على أن اسم «الرحمن» عربيٌّ لفظه، أما إنكار كفّار قريش له يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فقال سهيل: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنتَ تكتب»[٢].

* وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠)﴾ [الفرقان]. فالظاهر أنه إنكار جحود عناد وتعنُّت، ومما يدل على أنهم كانوا يعرفون هذا الاسم قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠].

□ وقد ردّ ابن جرير بشدة على من قال: أن العرب كانت لا تعرف «الرحمن» فقال: وقد زعم أهل الغباء أن العرب كانت لا تعرف الرحمن» وبيّن أن ذلك جحودًا[٣]،[٤].

الرحمن الرحيم:

* «ذُكِر الرحمن» في القرآن سبعًا وخمسين مَرّة منها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة].

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٨٤-٨٥).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) والتصريح بأن الكاتب هو علي رضي الله عنه جاء في رواية أخرى للبخاري برقم (٢٦٩٨).

(٣) «جامع البيان» للطبري (١/ ٤٤).

(٤) «مختصر النهج الأسمى» لمحمد الحمود النجدي (ص٢٨).

* وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة].

* وقوله سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم].

* وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه].

* وقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان].

* وأما اسمه «الرحيم» فقد ذُكِر مئة وأربع عشرة مرّة. منها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة].

* وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة].

* وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ وهو كثير في الكتاب، انظر مثلًا [البقرة: ١٧٣، ١٨٢، ١٩٩].

* وقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ [آل عمران].

* وقوله سبحانه: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة].

* وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود].

* وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ، ١٧٥، ١٩١] تردّدت مرارًا في الشعراء.

* وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور].

* وقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ [الإسراء]»[1].

* ولقد جاء «الرحيم» مقيَّدًا، كقوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب].

* وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة]، ومقرونا باسم الرحمن؛ كما في الفاتحة، أو باسم آخر نحو ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء: ٩]، [الروم: ٥]، [السجدة: ٦]، [يس: ٥]، [الدخان: ٤٢].

وأيضًا؛ فالرحمن جاء على بناء فعلان الدالِّ على الصفة الثابتة اللازمة الكاملة؛ كما يُشعر به هذا البناء، نحو غضبان وندمان وحيران، فالرحمن: مَنْ صِفَتُه الرحمة، والرحيم: من يرحم بالفعل»[2].

الرحمن الرحيم:

□ هناك قولان في الفرق بين هذيْن الاسمَيْن:

الأول: إن اسم «الرحمن» هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة. و«الرحيم»: هو ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه] فذكر الاستواء باسمه «الرحمن» ليعمَّ جميع خلْقه.

---

(١) المصدر السابق (ص٢٩).

(٢) «مختصر الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة» لابن القيم (٢/ ٣٤١).

* وقال: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب] فَخَصّ المؤمنين باسمه «الرحيم»(١).

والقول الثاني: هو أن «الرحمن» دالٌّ على صفة ذاتية، و«الرحيم» دال على صفة فعلية.

□ قال ابن القيم رحمه الله: «إن «الرحمن» دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه، و«الرحيم» دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل».

فالأول: دال على أن الرحمة صفته، والثاني: دال على أنه يرحم خلقه برحمته.

* وإذا أردت فهم هذا فتأمَّل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة] ولم يجيء قط «رحمن بهم» فعلم أن «رحمن» هو الموصوف بالرحمة، و«رحيم» هو الراحم برحمته. وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإنْ تنفَّست عندها مرآة قلبك لم ينجل لك صورتها»(٢).

* و«الرحمن» من الأسماء التي منع الله من التسمية بها كما قال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠] فعاد به الاسم الذي لا يشركه فيه غيره وهو «الله».

* وأما «الرحيم» فإنه تعالى وصف به نبيه ﷺ حيث قال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]. فيُقال:

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١/ ٤٣).
(٢) «بدائع الفوائد» لابن القيم (١/ ٢٤).

رجل رحيم، ولا يُقال: «رحمن».

□ قال ابن كثير: «والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يُسَمَّى به غيره، ومنها ما لا يُسَمَّى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك، فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أوَّلًا تكون بأشرف الأسماء فلهذا ابتدأ بالأخصِّ فالأخص»[١] اهـ.

صفة الرحمة لله ربِّ العالمين:

من صفات الله الثابتة بالكتاب والسنة «الرحمة»، وهي صفة كمال لائقة بذاته كسائر صفاته العلى، لا يجوز لنا أن ننفيها أو نعطلها؛ لأن ذلك من الإلحاد في أسمائه.

□ أما قول الزمخشري وأصحابه أن الرحمة مجاز في حق الله تعالى!! وأنها عبارة عن إنعامه على عباده[٢]، فهي نزعة اعتزالية قد حفظ الله تعالى منها سلف المسلمين وأئمة الدين فإنهم أقروا ما ورد على ما ورد، وأثبتوا لله تعالى ما أثبته له نبيه ﷺ من غير تصرف بكناية أو مجاز، وقالوا: لسنا أغير على الله من رسوله ﷺ[٣].

□ وقد ردّ ابن القيم رحمه الله على القائلين بأن رحمة الله مجازًا ردًا مفصلًا، وأتى بما لا مزيد عليه في كتابه «الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة»[٤].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «الكشاف» للزمخشري (١/ ٤٥).

(٣) «روح المعاني» للألوسي (١/ ٦٠).

(٤) «مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» لابن القيم (٢/ ١١٢-١٢٦).

□ قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «مما ادَّعوا أنه مجاز اسمه سبحانه «الرحمن» وقالوا: وصفه بالرحمة مجاز، قالوا: لأن الرأفة والرحمة هي رقة تعتري القلب، وهي من الكيفيات النفسية، والله منزه عنها، وهذا باطل من وجوه: أحدها: أنهم جحدوا حقيقة الرحمة فقالوا: إن نسبتها إلى الله تعالى محال، وأنه ليس برحيم بعباده على الحقيقة، وقد سبقهم إلى هذا النفي مشركو العرب الذين قال الله فيهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [الفرقان: ٦٠] فأنكروا حقيقة اسم «الرحمن» أن يسمى بذلك، ولم يكونوا ينكرون ذاته وربوبيته، ولا ما يجعله المعطلة معنى اسم «الرحمن» من الإحسان، فإن أحدًا لم ينكر إحسان الله إلى خلقه.

فإن قيل: فلو كان هذا كما ذكرتم لأنكروا اسم «الرحيم» لأن المعنى واحد.

ولا يخلو إنكارهم لهذا الاسم إمَّا أن تكون دلالته على حقيقة الرحمة أو لا، فإن كان الأول فمن أنكر أن يكون حقيقة فقد وافقهم، وإن لم يكن كذلك فمن المعلوم أن موضوع الاسم وحقيقته صفة الرحمة القائمة بموصوفها، فلو كانت حقيقة الاسم منتفية في نفس الأمر لكان طعنهم أقوى، وكان ذلك بمنزلة وصفه بالأكل والشرب والنور والجور ونحوها مما يليق به - وبالجملة فالذي أنكر أن يكون الله رحمانًا على الحقيقة هو «جهم بن صفوان» وشيعته، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومن أعظم الإلحاد في أسمائه إنكار حقائقها ومعانيها والتصريح بأنها مجازات، وهو أنواع هذا أحدها، الثاني: جحدها وإنكارها بالكلية،

الثالث: تشبيهه فيها بصفات المخلوقين ومعاني أسمائه، وأن الثابت له منها مماثل للثابت لخلقه، وهذا يذكره المتكلمون في كتبهم ويجعلونها مقالة لبعض الناس، وهذه كتب المقالات بين أظهرنا لا نعلم ذلك مقالة لطائفة من الطوائف ألبتة، وإنما المعطلة والجهمية يسمون كل من أثبت صفات الكمال لله تعالى مشبهًا وممثلًا، ويجعلون التشبيه لازم قولهم، ويجعلون لازم المذهب مذهبًا، ويسرعون في الرد عليهم وتكفيرهم.

والمقصود أن هؤلاء المعطلة الملحدين في أسماء الرب تعالى هم المشبهون في الحقيقة، لا من أثبت ألفاظها وحقائقها من غير تمثيل ولا تشبيه، ولهذا لا يأتي الرد في القرآن على هذه الفرقة التي انتصب لها هؤلاء، فإنها فرقة مقدرة في الأذهان ولا موجود لها في الأعيان، وإنما القرآن مملوء من الرد على مَنْ شبَّه المخلوق بالخالق في صفات الإلهية حتى عبده من دونه؛ لأنه هو الواقع من بني آدم، يشبهون أوثانهم ومعبودهم بالخالق في الإلهية، قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم]، أي من يساميه ويماثله، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فنفى عن المخلوق مماثلته ومكافأته ومشابهته ومساماته الذي هو أصل شرك بني آدم، فضرب المتكلمون عن ذلك صفحًا وأخذوا في المبالغة في الرد على من شبه الله بخلقه، ولا نعلم فرقة من فرق بني آدم استقلت بهذه النِّحلة وجعلتها مذهبًا تذهب إليه حتى ولا المجسمة المحضة الذين حكى أرباب المقالات مذاهبهم كالهاشمية والكرامية الذين قالوا: إن الله جسم، لم يقولوا: إنه مماثل للأجسام بل صرَّحوا بأن معنى كونه جسمًا أنه قائم بنفسه موصوف بالصفات، ومثبتو الصفات لا ينازعونهم في المعنى وإن نازعوهم في بعض المواضع.

الوجه الثاني: أن الإلحاد إما أن يكون بإنكار لفظ الاسم أو بإنكار معناه، فإن كان إنكار لفظه إلحاد فمن ادعى أن «الرحمن» مجاز لا حقيقة فإنه يجوز إطلاق القول بنفيها فلا يستنكف أن يقول: ليس بـ «الرحمن» ولا «الرحيم»، كما يصح أن يقال للرجل الشجاع ليس بأسد على الحقيقة، وإن قالوا: نتأدب في إطلاق هذا النفي، فالأدب لا يمنع صحة الإطلاق وإن كان الإلحاد هو: إنكار معاني أسمائه وحقائقها، فقد أنكرتم معانيها التي تدل عليها بإطلاقها، وما صرفتموه إليه من المجاز فنقيض معناها أو لازم من لوازم معناها، وليس هو الحقيقة، ولهذا يصرح غلاتهم معانيها بالكلية، ويقولون: هي ألفاظ لا معانى لها.

الوجه الثالث: أن هذا الحامل لكم على دعوى المجاز في اسم «الرحمن» هو بعينه موجود في اسم «العليم» و«القدير»، و«السميع» و«البصير»، وسائر الأسماء، فإن المعقول من العلم صفة عرضية تقوم بالقلب، إما ضرورية وإما نظرية، والمعقول من الإرادة حركة النفس الناطقة لجلب ما ينفعها ودفع ما يضرها أو ينفع غيرها أو يضره، والمعقول من القدرة القوة القائمة بجسم تتأتى به الأفعال الاختيارية فهل تجعلون إطلاق هذه الأسماء والصفات على الله حقيقة أم مجازًا؟ فإن قلتم: حقيقة، تناقضتم أقبح التناقض إذ عمدتم إلى صفاته سبحانه فجعلتم بعضها حقيقة وبعضها مجازًا مع وجود المحذور فيما جعلتموه حقيقة، وإن قلتم: لا يستلزم ذلك محذورًا، فمن أين استلزم اسم الرحمن المحذور، وإن قلتم: الكل مجاز لم تتمكنوا بعد ذلك من إثبات حقيقة الله ألبتة، لا في أسمائه ولا في الإخبار عنه بأفعاله وصفاته، وهذا انسلاخ من العقل والإنسانية.

الوجه الرابع: أن نفاة الصفات يلزمهم نفي الأسماء من جهة أخرى،

فإن العليم والقدير والسميع والبصير، أسماء تتضمن ثبوت الصفات في اللغة فيمن وصف بها، فاستعمالها لغير من وصف بها استعمال للاسم في غير ما وضع له، فكما انتفت عنه حقائقها فإنه تنتفي عنه أسماؤها، فإن الاسم المشتق تابع للمشتق منه في النفي والإثبات، فإذا انتفت حقيقة الرحمة والعلم والقدرة والسمع والبصر، انتفت الأسماء المشتقة منها عقلًا ولغة، فيلزم من نفي الحقيقة أن تنفي الصفات والاسم جميعًا، فالمعتزلة لا تقر بأن الأسماء الحقيقية تستلزم الصفات، ثم ينفون الصفات ويثبتون الأسماء بطريق الحقيقة كما قالوا في المتكلم والمريد، وبعض الجهمية يساعد على أن الاسم يستلزم الصفة، ثم ينفي الصفة وينفي حقيقة الاسم ويقول: هذا مجاز، فهو شر من المعتزلة من هذا الوجه، وهم خير منهم من وجه آخر، وهو أنه يتناقض فيثبت بعض الصفات وحقائق الأسماء وينفي نظيرها وما يدل عليها من حقيقة الاسم، وأهل السنة يثبتون الصفات وحقائق الأسماء، فالأسماء عندهم حقائق وهي متضمنة للصفات.

الوجه الخامس: أنه كيف يكون أظهر الأسماء التي افتتح الله بها كتابه في أم القرآن وهي من أظهر شعار التوحيد، والكلمة الجارية على ألسنة أهل الإسلام وهي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ التي هي مفتاح الطهور والصلاة وجميع الأفعال، كيف يكون مجازًا؟ هذا من أشنع الأقوال، فهذان الاسمان اللذان افتتح الله بهما أم القرآن، وجعلهما عنوان ما أنزله من الهدى والبيان، وضمنهما الكلمة التي لا يثبت لها شيطان، وافتتح بها كتابه نبي الله سليمان، وكان جبرائيل ينزل بها على النبي ﷺ عند افتتاح كل سورة من القرآن.

الوجه السادس: قولهم: «الرحمة رقة القلب» تريدون رحمة المخلوق أم

رحمة الخالق أم كل ما سُمِّي رحمة شاهدًا أو غائبًا، فإن قلتم بالأول صدقتم ولم ينفعكم ذلك شيئًا، وإن قلتم بالثاني والثالث كنتم قائلين غير الحق، فإن الرحمة صفة «الرحيم» وهي في كل موصوف بحسبه، فإن كان الموصوف حيوانًا له قلب فرحمته من جنسه رقة قائمة بقلبه، وإن كان ملكًا فرحمته تناسب ذاته، فإذا اتصف أرحم الراحمين بالرحمة حقيقة، لم يلزم أن تكون رحمته من جنس المخلوق لمخلوق، وهذا يطرد في سائر الصفات كالعلم والقدرة والسمع والبصر والحياة والإرادة إلزامًا وجوابًا، فكيف يكون رحمة أرحم الراحمين مجازًا دون السميع والعليم؟.

الوجه السابع: أن اسم الرحمة استعمل في صفة الخالق وصفة المخلوق، فإما أن يكون حقيقة في الموصوفين، أو حقيقة في الخالق مجازًا في المخلوق، أو عكسه، فإذا كانت حقيقة فيهما، فإما حقيقة واحدة، وهو التواطؤ، أو حقيقتان، وهو الاشتراك، ومحال أن تكون مشتركة لأن معناها يفهم عند الإطلاق ويجمعها معنى واحد ويصح تقسيمها، وخواص المشترك منفية عنها؛ ولأنها لم يشتق لها وضع في حق المخلوق، ثم استعيرت من المخلوق للخالق، تعالى الله عما يقول أهل الزيغ والضلال، فبقي قسمان: **أحدهما**: أن تكون حقيقة في الخالق مجازًا في المخلوق، **الثاني**: أن تكون حقيقة متواطئة أو مشتركة، وعلى التقديرين فبطل أن يكون إطلاقها على الله سبحانه مجازًا.

الوجه الثامن: أنه من أعظم المحال أن تكون رحمة أرحم الراحمين التي وسعت كل شيء مجازًا، ورحمة العبد الضعيفة القاصرة المخلوقة المستعارة من ربه التي هي من آثار رحمته حقيقة، وهل في قلب الحقائق أكثر من هذا؟ فالعباد إنما حصلت لهم هذه الصفات التي هي كما في حقهم، من

آثار صفات الرب تعالى، فكيف تكون لهم حقيقة، وله مجاز، يوضحه:

الوجه التاسع: وهو ما رواه أهل السنن عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: «**أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته**»[1] فهذا صريح في أن اسم الرحمة مشتق من اسمه الرحمن تعالى، فدل على أن رحمته لما كانت هي الأصل في المعنى كانت هي الأصل في اللفظ، ومثل هذا قول حسان رضي الله عنه في النبي ﷺ:

فشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

فإذا كانت أسماء الخلق المحمودة مشتقة من أسماء الله الحسنى كانت أسماؤه يقينًا سابقة، فيجب أن تكون حقيقة؛ لأنها لو كانت مجازًا لكانت الحقيقة سابقة لها، فإن المجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، فيكون اللفظ قد سمى به المخلوق ثم نقل إلى الخالق، وهذا باطل قطعًا.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب «الزكاة» باب «في صلة الرحم» (٢/ ٧٣٤) حديث رقم (١٦٩٤). والترمذي في كتاب «البر» باب «ما جاء في قطيعة الأرحام» (٤/ ٢٧٨) حديث رقم (١٩٠٧) وقال أبو عيسى حديث أبي سفيان عن الزهري حديث صحيح.
والبخاري في كتاب «الأدب» (١/ ١٣٢) حديث رقم (٥٣).
والبيهقي في «سننه» (٧/ ٢٦).
وابن حبان في «الموارد» (٢٠٣٣).
والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٥٨).
جميعًا من طريق الزهري عن أبي سليم عن عبد الرحمن بن عوف.. به. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٢٠).

الوجه العاشر: ما في «الصحيحين» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**لما قضى الله الخلق كتب كتابًا فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي**»(١) وفي لفظ «غلبت» وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] فوصف نفسه سبحانه بالرحمة وتسمى بالرحمن قبل أن يكون بنو آدم، فادعاء المدعي أن وصفه بالرحمن مجاز من أبطل الباطل.

الوجه الحادي عشر: أن أسماء الرب قديمة لم يستحدثها من جهة خلقه، بل لم يزل موصوفًا بها مسمى بها، والمجاز مسبوق بالحقيقة وضعًا واستعمالًا ومرتبة، وذلك كله ممتنع بالنسبة إلى أسماء الله تعالى.

فإن قيل: بعضها مستعار من بعض، وفيها الحقيقة وفيها المجاز، ومجازها مستعار من حقائقها، كالرحمن مستعار من اسم «المحسن»، وذلك لا محذور فيه.

قيل: هذا لا يصح؛ لأن الحقيقة والمجاز من عوارض الوضع والاستعمال، وهما معًا وأيًّا ما كان لم تصح دعوى المجاز فيه بوجه من الوجوه.

الوجه الثاني عشر: أنه من المعلوم أن المعنى المستعار يكون في المستعار منه أكمل منه في المستعار له، وأن المعنى الذي دل عليه اللفظ بالحقيقة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب «التوحيد» باب «قول الله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ (١٣/ ٥٣٢) حديث رقم (٧٥٥٣).
ومسلم في كتاب «التوبة» باب «في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه» (٤/ ١٥/ ٢٧١٥/ ٢١٠٨).
كلاهما من طريق الأعرج عن أبي هريرة.

أكمل من المعنى الذي دل عليه بالمجاز، وإنما يستعار لتكميل المعنى المجازي تشبيهه بالحقيقي كما يستعار الشمس والقمر والبحر للرجل الشجاع الجميل والجواد، فإذا جعل «الرحمن» و«الرحيم» و«الودود» وغيرها من أسمائه سبحانه حقيقة في العبد مجازًا في الرب لزم أن تكون هذه الصفات في العبد أكمل منها في الرب تعالى.

الوجه الثالث عشر: أن وصفه تعالى بكونه رحمانًا رحيمًا حقيقة أولى من وصفه بالإرادة، وذلك أن من أسمائه الحسنى «الرحمن» «الرحيم»، وليس في أسمائه الحسنى المريد، والمتكلمون يقولون مريد لبيان إثبات الصفة، وإلَّا فليس ذلك من أسمائه الحسنى؛ لأن الإرادة تناول ما يحسن إرادته وما لا يحسن، فلم يوصف بالاسم المطلق منها، كما ليس في أسمائه الحسنى الفاعل ولا المتكلم، وإن كان فعالًا مريدًا متكلمًا بالصدق والعدل، فليس الوصف بمطلق الكلام ومطلق الإرادة ومطلق الفعل يقتضي مدحًا وحمدًا حتى يكون ذلك متعلقًا بما يحسن تعلقه به، بخلاف «العليم» «القدير» و«العدل» و«المحسن» و«الرحمن» «الرحيم»، فإن هذه كمالات في أنفسها لا تكون نقصًا ولا مستلزمة لنقص ألبتة، فإذا قيل: إنه مريد حقيقة وله إرادة حقيقية، وليس من أسمائه الحسنى المريد، فلأن يكون رحمانًا رحيمًا حقيقة، وهو موصوف بالرحمة حقيقة، ومن أسمائه «الرحمن» «الرحيم» أولى وأحرى.

الوجه الرابع عشر: أن الرحمة مقرونة في حق العبد بلوازم المخلوق من الحدوث والنقص والضعف وغيره، وهذه اللوازم ممتنعة على الله تعالى، فإما أن تكون الرحمة اسمًا للقدر الممدوح فقط، أو الممدوح وما يلزمه من النقص، فإن كانت اسمًا للقدر الكامل الذي لا يستلزم نقصًا وذلك ثابت

للرب تعالى كانت حقيقة في حقه قطعًا، وإن كانت اسمًا للمجموع فالثابت للرب تعالى هو القدر الذي لا نقص فيه، وغاية ذلك أن يكون قد استعمل لفظها في بعض مدلوله كالعام إذا استعمل في الخصوص، والأمر إذا استعمل في الندب وذلك لا يخرج اللفظ عن حقيقته عند جمهور الناس، قيل: هذا حقيقة عندهم، فإن اللفظ يستعمل في المجموع عند إطلاقه، وفي البعض عند تقييده، والمطلق موضوع والمقيد موضوع، كما تقدم، لا سيما أكثر الناس يقولون: إن بعض الشيء وصفته ليس غيرًا له، كما أجاب مثبتو الصفات لنفاتها وحينئذٍ فلا يكون اللفظ مستعملًا في غير موضوعه، فلا يكون مجازًا.

الوجه الخامس عشرًا: أن هذا النقض اللازم للصفة ليس هو من موضوعها ولا مسمى لفظها، وإنما هو من خصوص الإضافة، فالقدر الممدوح الذي هو موضوع الصفة والنقص اللازم غير داخل في موضوعها، وكذلك لا دلالة في لفظها على العدم، والوجود غاية الكمال الذي لا كمال فوقه، وإنما ذلك من لوازم إضافتها ونسبتها إلى الرب سبحانه، فإذا موضوع لفظها مطلق المعنى الممدوح، وخصوص الإضافة غير داخل في اللفظ، وعلى هذا فإذا استعملت في حق الرب تعالى كانت حقيقة، وإذا استعملت للعبد كانت حقيقة.

فتدبر هذا فإنه فصل الخطاب فيما يطلق على الرب والعبد، واعتبر هذا فيما يطلق على المخلوق نفسه فإنه حقيقة مع دلالته على غاية المدح في المحل، وغاية الذم في محل آخر.

مثاله: قولك: هذا كلام رسول الله ﷺ وهديه وسمته، وهذا كلام

الصديق، وهذا كلام المفتري، فهذا حقيقة وهذا حقيقة، وهما في غاية التضاد والاختلاف، وهذا التعريف بالإضافة نظير التعريف باللام ينصرف إلى كل محل بحسبه ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المزمل: ١٦] هو موسى، و ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ ﴾ [النور: ٦٣] هو محمد ﷺ، فرسول دال على القدر المشترك، واللام تدل على تعريفه وتعيينه، وكل من الموضعين حقيقة، هذا مع أن اللفظ يستعمل مجردًا عن التعريف كثيرًا.

وأما لفظ الرحمة والسمع والبصر واليد والوجه والكلام فلا تكاد تستعمل إلَّا مضافة إلى محلها، فلزوم الإضافة فيها نحو لزومها في الأسماء والأعلام، ولا سيما المضافة إلى الرب كقوله: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف]. ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن]. ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الليل]. ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤]. ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص: ٧٥]. فهذه الإضافة تمنع أن يدخل في اسم الصفة شيء من خصائص المخلوقين بوجه من الوجوه، فالمحذوف الذي أوجب لهم دعوى المجاز فيها منتف بالإضافة قطعًا فلا وجه لدعوى المجاز فيها ألبتة، وهذا ظاهر جدًّا، فإنها بإضافتها الخاصة دلت على ما لا تسعه العبارة من الكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه.

الوجه السادس عشر: أن يقال لمن أثبت شيئًا من الصفات بالعقل فلا بد أن يأتي في الدلالة على ذلك بقياس شمولي أو قياس تخييلي، فتقول في الشمولي: كل فعل متقن محكم فإنه يدل على علم فاعله وقدرته وإرادته، وهذه المخلوقات كذلك فهي دالة على علم الرب تعالى وقدرته ومشيئته، وتقول في التمثيل: الفعل المتقن يدل على علم فاعله وقدرته في الشاهد،

فكان دليلًا في الغائب، والدلالة العقلية لا تختلف شاهدًا وغائبًا، فلا يمكنك أن تثبت له سبحانه بالعقل صفة أو فعلًا إلَّا بالقياس المتضمن قضية كلية، إما لفظًا كما في قياس الشمول وإما معنى كما في قياس التمثيل.

فإذا كنت لا يمكنك ثبات الصانع ولا صفاته إلَّا بالقياس الذي لا بد فيه من إثبات قدر مشترك بين المقيس والمقيس عليه، وبين أفراد القضية الكلية ولم يكن هذا عندك تشبيهًا ممتنعًا، فكيف تنكر معاني ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ وحقائقه بزعمك أنه يتضمن تشبيهًا، وهذا من أنفع الأشياء لمن له فهم، فإن الله أخبر في كتابه بما هو عليه من أسمائه وصفاته ولا بد في الأسماء المشتقة المتواطئة من معنى مشترك بين أفرادها، فجحد المعطلة حقائقها لما زعموا فيها من التشبيه، وهم لا يمكنهم إثبات شيء يعتقدونه لا بنوع من القياس المتضمن التشبيه الذي فروا منه، لا في جانب النفي ولا في جانب الإثبات، فهم منكرون ما جاءت به الرسل بما هو من نوعه أو دونه، وهذا غاية الضلال، فليتأمل ذلك.

الوجه السابع عشر: أن من ادعى أن رحمة الله مجاز أو اسمه الرحمن الرحيم، إما أن يثبت لهذا اللفظ معنًى أو لا، والثاني: يقر المنازع ببطلانه، وإذا كان لا بد من إثبات معنى لهذا اللفظ، فإما أن يتضمن محذورًا أو لا، فإن تضمن محذورًا لم يجز إثباته، وإن لم يتضمن محذورًا لم يمكن إثباته وإخراج اللفظ عن حقيقته أولى من بقاء اللفظ على حقيقته، وإثبات معناه الأصلي، إذ انتفاء المحذور عن الحقيقة والمجاز واحد، وتسلم الحقيقة وهي الأصل، فأما إخراج اللفظ عن حقيقته لأمر لا يتخلص به في المجاز ولا محذور منه في الحقيقة ولا في المجاز معنى له بل هو خطأ محض.

الوجه الثامن عشر: أن الله سبحانه وتعالى فرق بين رحمته والرضوان وثوابه المنفصل فقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة] فالرحمة والرضوان صفته والجنة ثوابه، وهذا يبطل قول من جعل الرحمة والرضوان ثوابًا منفصلًا مخلوقًا، وقول من قال: هي إراداته الإحسان، فإن إرادته الإحسان هي من لوازم الرحمة، فإنه يلزم من الرحمة أن يريد الإحسان إلى المرحوم، فإذا انتفت حقيقة الرحمة انتفى لازمها، وهو إرادة الإحسان، وكذلك لفظ اللعنة والغضب والمقت هي أمور مستلزمة للعقوبة، فإذا انتفت حقائق تلك الصفات انتفى لازمها، فإن ثبوت لازم الحقيقة مع انتفائها ممتنع، فالحقيقة لا توجد منفكة عن لوازمها.

الوجه التاسع عشر: أن ظهور آثار هذه الصفة في الوجود كظهور أثر صفة الربوبية والملك والقدرة، فإن ما لله على خلقه من الإحسان والإنعام شاهد برحمة تامة وسعت كل شيء، كما أن الموجودات كلها شاهدة له بالربوبية التامة الكاملة، وما في العالم من آثار التدبير والتصريف الإلهي شاهد بملكه سبحانه، فجعل صفة الرحمة واسم الرحمة مجازًا كجعل صفة الملك والربوبية مجازًا، ولا فرق بينهما في شرع ولا عقل ولا لغة» اهـ.

الوجه العشرون: أن النبي ﷺ قد أقسم صادقًا بارًّا **«إن الله أرحم من الوالدة بولدها»**.

وفي هذا إثبات كمال الرحمة، وأنها حقيقة لا مجازًا.

• ومرّ رسول الله ﷺ بامرأة أصيبت في السَّبْي، وكانت كلما مرّت بطفل أرضعَتْه، فقال النبي ﷺ: **«أترون هذه طارحةً ولدها في النار؟»**

قالوا: لا يا رسول الله. وهي قادرة على أن تطرحه، فقال: «**اللهُ أرحمُ من هذه بولدها**»، فإن كانت رحمة الوالدة حقيقة فرحمة الله أولى بأن تكون حقيقة منها، وإن كانت رحمة الله مجازًا فرحمة الوالدة لا حقيقة لها» اهـ.

سعة رحمة الله تبارك وتعالى وآثارها:

▫ قال ابن القيم: «فانظر إلى ما في الوجود من آثار رحمته الخاصة والعامة، فبرحمته أرسل إلينا رسوله ﷺ وأنزل علينا كتابه وعصمنا من الجهالة وهدانا من الضلالة وبصرنا من العمى وأرشدنا من الغي، وبرحمته عرفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرفنا به أنه ربنا ومولانا، وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم، هو أرشدنا لمصالح ديننا ودنيانا، وبرحمته أطلع الشمس والقمر، وجعل الليل والنهار، وبسط الأرض وجعلها مهادًا وفراشًا وقرارًا وكفاتًا للأحياء والأموات، وبرحمته أنشأ السحاب وأمطر المطر، وأطلع الفواكه والأقوات والمرعى، ومن رحمته سخر لنا الخيل والإبل والأنعام وذللها منقادة للركوب والحمل والأكل والدر، وبرحمته وضع الرحمة بين عباده ليتراحموا بها، وكذلك بين سائر أنواع الحيوان.

فهذا التراحم الذي بينهم بعض آثار الرحمة التي هي صفته ونعمته، واشتق لنفسه منها اسم «الرحمن» «الرحيم»، وأوصل إلى خلقه معاني خطابه برحمته، وبصرهم ومكن لهم أسباب مصالحهم برحمته، وأوسع المخلوقات عرشه، وأوسع الصفات رحمته، فاستوى على عرشه الذي وسع المخلوقات بصفة رحمته التي وسعت كل شيءٍ، ولما استوى على عرشه بهذا الاسم الذي اشتقه من صفته وتسمَّى به دون خلقه، كتب بمقتضاه على نفسه يوم استوائه على عرشه حين قضى الخلق كتابًا، فهو

عنده وضعه على عرشه أن رحمته سبقت غضبه، وكان هذا الكتاب العظيم الشأن كالعهد منه سبحانه للخليقة كلها بالرحمة لهم والعفو عنهم، والمغفرة والتجاوز والستر والإمهال والحلم والأناة، فكان قيام العالم العلوي والسفلي بمضمون هذا الكتاب الذي لولاه لكان للخلق شأن آخر، وكان عن صفة الرحمة الجنة وسكانها وأعمالها، فبرحمته خلقت، وبرحمته عمرت بأهلها، وبرحمته وصلوا إليها، وبرحمته طاب عيشهم فيها، وبرحمته احتجب عن خلقه بالنور، ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

ومن رحمته أنه يعيذ من سخطه برضاه، ومن عقوبته بعفوه، ومن نفسه بنفسه، ومن رحمته أن خلق للذكر من الحيوان أنثى من جنسه، وألقى بينهما المحبة والرحمة ليقع بينهما التواصل الذي به دوام التناسل وانتفاع الزوجين، ويمتع كل واحد منهما بصاحبه، ومن رحمته أحوج الخلق بعضهم إلى بعض لتتم مصالحهم، ولو أغنى بعضهم عن بعض لتعطلت مصالحهم وانحل نظامها، وكان من تمام رحمته بهم أن جعل فيهم الغني والفقير، والعزيز والذليل، والعاجز والقادر، والراعي والمرعي، ثم أفقر الجميع إليه، ثم عم الجميع برحمته.

ومن رحمته أن خلق مئة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض فأنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة نشرها بين الخليقة ليتراحموا بها، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والطير والوحش والبهائم، وبهذه الرحمة قوام العالم ونظامه»[١] .

---

(١) «مختصر الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة».

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله مئة رحمةٍ، أنزل منها رحمةً واحدةً بين الجن والإنس والبهائم والهَوامِّ، فبها يتعاطَفُون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوشُ على وَلَدِها، وأَخَّر تِسْعًا وتسعين رحمة، يرحمُ بها عباده يوم القيامة»(١).

• وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة، فأمسك عنده تسْعًا وتسعين رحمة، وأرسل في خَلْقه كلهم رحمة واحدةً، فلو يعلمُ الكافرُ بكُلِّ الذي عند الله من الرحمة لم يَيْأَس مِن الجنَّة، ولو يعلمُ المؤمنُ بالذي عند الله من العذاب لم يأمَنْ من النار»(٢).

• وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلقَ يومَ خَلَقَ السموات والأرض مائة رحمة، كُلُّ رَحْمَةٍ طباقُ ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطِفُ الوالِدَةُ على ولدِها، والوحشُ والطيرُ بعضُها على بعضٍ، وأَخَّر تسعًا وتسعين، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»(٣).

• وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلقَ مئة رحمة، رحمةً منها قسمها بين الخلائق، وتسعة وتسعين يوم القيامة»(٤).

• وقال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق مئة رحمةٍ، فبَثَّ بين خلْقِه رحمةً

---

(١) رواه مسلم، وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد، ومسلم عن سلمان، ورواه أحمد، وابن ماجه عن أبي سعيد.

(٤) صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٣٤) و«صحيح الجامع» (١٧٦٥).

واحدة، فهُم يتراحمون بها، وادَّخر عنده لأوليائه تسعةً وتسعين»(١).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَلَقَ الله مئة رحمة، فوضع رحمةً واحدةً بين خَلْقه يتراحمون بها، وخبَّأ عنده مئة إلَّا واحدة»(٢).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الرحمةَ مئةَ جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق حتى ترفع الفَرَسُ حافرها عن ولدها خشية أن تُصيبه»(٣).

• وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لوْ تعلمونَ قدْرَ رحمةِ الله لاتَّكلتم عليها»(٤).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع في الجنة أحدٌ، ولو يعلمُ الكافِرُ ما عند الله من الرحمة ما قَنَط من الجنة أحد»(٥).

وتأمل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، وابن عساكر عن معاوية بن حيدة، وأحمد، والحاكم عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٦٣٤)، و«صحيح الجامع» رقم (١٧٦٦).

(٢) رواه مسلم، والترمذي.

(٣) رواه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

(٤) صحيح: رواه البزار، وابن أبي الدنيا، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢١٦٧)، و«صحيح الجامع» (٥٢٦٠).

(٥) صحيح: رواه الترمذي عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٣٤)، و«صحيح الجامع» (٥٣٣٨).

﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ [الرحمن] كيف جعل الخلق والتعليم ناشئًا عن صفة الرحمة متعلقًا باسم الرحمن، وجعل معاني السورة مرتبطة بهذا الاسم وختمها بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن] فالاسم الذي تبارك هو الاسم الذي افتتح به السورة، إذ مجيء البركة كلها منه، وبه وضعت البركة في كل مبارك، فكل ما ذكر عليه بورك فيه وكل ما خلى منه نزعت منه البركة، فإن كان مذكى وخلى منه اسمه كان ميتة، وإن كان طعامًا شارك صاحبه فيه الشيطان، وإن كان مدخلًا دخل معه فيه، وإن كان حدثًا لم يرفع عند كثير من العلماء، وإن كان صلاة لم تصح عند كثير منهم.

ولما خلق سبحانه الرحم واشتق لها اسمًا من اسمه، فأراد إنزالها إلى الأرض تعلقت به سبحانه فقال: مه، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال: ألا ترضين أن أقطع من قطعك وأصل من وصلك؟ وهي متعلقة بالعرش لها حنحنة كحنحنة المغزل، وكان تعلقها بالعرش رحمة منه بها، وإنزالها إلى الأرض رحمة منه بخلقه، ولما علم سبحانه ما تلقاه من نزولها إلى الأرض ومفارقتها لما اشتقت منه رحمها بتعلقها بالعرش واتصالها به، وقوله: «**ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك**»[1]؛ ولذلك كان من وصل رحمه لقربه من الرحمن ورعاية حرمة الرحم قد عمر دنياه واتسعت له معيشته وبورك له في عمره ونسئ له في أثره، فإن وصل ما بينه وبين الرحمن ﷻ مع ذلك وما بينه وبين الخلق

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٨٧)، وأحمد (٦/ ٦٢)، ومسلم (٢٥٥٤) (ص١٩٨٠) عن أبي هريرة.

بالرحمة بالإحسان تم له أمر دنياه وأخراه، وإن قطع ما بينه وبين الرحم وما بينه وبين «الرحمن» أفسد عليه أمر دنياه وآخرته، ومحق بركة رحمته ورزقه وأثره، كما قال ﷺ: **«ما من ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له من العقوبة يوم القيامة من البغي وقطيعة الرحم»**(١) فالبغي معاملة الخلق بضد الرحمة، وكذلك قطيعة الرحم، وإن القوم ليتواصلون وهم فجرة فتكثر أموالهم ويكثر عددهم، وإن القوم ليتقاطعون فتقل أموالهم ويقل عددهم، وذلك لكثرة نصيب هؤلاء من الرحمة وقلة نصيب هؤلاء منها، وفي الحديث: **«إن صلة الرحم تزيد في العمر»**(٢).

وإذا أراد الله بأهل الأرض خيرًا نشر عليهم أثرًا من آثار اسمه «الرحمن» فعمر بن البلاد وأحيا به العباد، وإذا أراد بهم شرًّا أمسك عنهم ذلك الأثر فحل بهم من البلاء بحسب ما أمسك عنهم من آثار اسمه «الرحمن»، ولهذا إذا أراد الله سبحانه أن يخرب هذه الدار ويقيم القيامة أمسك عن أهلها أثر هذا الاسم وقبضه شيئًا فشيئًا، حتى إذا جاءه وعده

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢١١)، وابن حبان، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٥٦) وقال: صحيح الإسناد، وأقرّه الذهبي والبغوي في «شرح السنة» (٣٤٣٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٠٤)، و«الصحيحة» (٩١٨).

(٢) صحيح: أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (٨٠١٤) عن أبي أمامة، والطبراني في «الأوسط» (١/ ٢٨٩) ح(٩٤٣) من بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٩٣) رقم (١٠٠)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١١٥) وقال: رواه الطبراني في «الكبير» وإسناده حسن.

قبض الرحمة التي أنزلها إلى الأرض، فتضع لذلك الحوامل ما في بطونها، وتذهل المراضع عن أولادها، فيضيف سبحانه تلك الرحمة التي رفعها وقبضها من الأرض إلى ما عنده من الرحمة فيكمل بها مئة رحمة فيرحم بها أهل طاعته وتوحيده وتصديق رسله وتابعهم.

وأنت لو تأملت العالم بعين البصيرة لرأيته ممتلئًا بهذه الرحمة الواحدة كامتلاء البحر بمائه والجو بهوائه، وما في خلاله من ضد ذلك فهو مقتضى قوله: «سبقت رحمتي غضبي» فالمسبوق لا بد لاحق وإن أبطأ، وفيه حكمة لا تناقضها الرحمة، فهو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، فسبحان من أعمى بصيرة من زعم أن رحمة الله مجاز» اهـ.

«ومن أعظم ما تعلّقت به الرحمة الإلهية: «ظهور آثارها وجلالها وعظمتها في الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، والجنة والنار، ولا يفقه هذا الظهور وأماراته إلَّا مَن قدر الله حق قدره، وعلم أن ليس لرحمة الرحمن منتهى، ولا لقدر سعتها غاية، وأسعد الناس حظًا بهذه المعرفة رُسل الله وأنبياؤه، وأصفياء الرحمن وأولياؤه، ثم الناس دونهم يغترفون من بحر هذه المعرفة بقدر معرفتهم بأسماء الله وصفاته.

فمن رحمته: إذنه لمن يرضى من خلقه بأن يكونوا شفعاء مشفعين، فلا يشفعون إلَّا لمن ارتضى.

ومن رحمته: جعله أرحم ولد آدم وأرأفهم: محمدًا ﷺ سيد الشفعاء. وآخر الرسل والأنبياء، فبه خُتمت الرسالة والنبوّة، وهو أرحم ولد آدم أجمعين.

ومن رحمته: جعله أيسر الأعمال وأهونها سببًا في النجاة من العذاب،

وسبيلًا إلي الفوز بالنعيم.

ومن رحمته: إدخاله الجنة سبعين ألفًا من أمة محمد ﷺ بلا حساب ولا عقاب، ومع كل ألف سبعون ألفًا، ثم يزاد عليهم تفضلًا وتكرمًا ثلاث حثيات بكفَّي الرحمن.

ومن رحمته: جعله أثقل شيء في الميزان شهادة أن لا إله إلَّا الله، فلا يثقل معها شيء.

ومن رحمته: إدخاله الجنة بشفاعة رجل من أمة محمد ﷺ أكثر من ربيعة ومضر.

ومن رحمته: إخراجه من النار مَن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى ذرة من إيمان بشفاعة الشافعين، حتى إذا لم يبقَ لأحد غاية في شفاعة، ولا مطمع في رجاء، أخرج الرحمن برحمته مَن لم يفعل خيرًا قط من أهل التوحيد؛ فهم: «عتقاء الرحمن».

وهذا من أعظم آثار الرحمة ومقتضياتها، وهو الذي يليق بأرحم الراحمين، وحكمة أحكم الحاكمين، فهو سبحانه كتب على نفسه الرحمة، ولم يكتب عليها الغضب، وسبقت رحمته غضبه وغلبته وقهرته، ولم يسبقها الغضب ولا غلبها ولا قهرها، ووسعت الرحمة كل شيء، ولم يسع الغضب كل شيء»(١).

ومن رحمته: أن فتح باب الرحمة على مصراعيه، ودعا عباده بالإقبال عليه، واللجوء إليه، فمَن ذا الذي دعاه فلم يجبه؟! ومَن ذا الذي سأله فلم

---

(١) من مقدمة «طرائق الإرشاد ببيان سعة رحمة رب العباد» لفضيلة الشيخ أحمد بن محمد ابن شحاتة الألفي.

يعطه؟! ومَن ذا الذي دنا إليه فلم يقربه؟! ومَن ذا الذي رغب إليه فلم ينفعه؟!.

فأحب الخلق إليه: مَنْ حبَّبه إلى خلقه، وعرَّفهم به، ودلَّهم على الطريق إليه، وأبغض الخلق إليه: مَنْ بغَّضه إلى عباده، ونفَّرهم منه، وسدَّ السبل إليه.

ومن رحمته: أن ينزل كل ليلة على عباده جوادًا كريمًا، غفورًا رحيمًا، إذا بقي ثلث الليل الآخر فيقول: «**مَن يدعوني فأستجيب له؟ مَن يسألني فأعطيه؟ مَن يستغفرني فأغفر له؟**» وذلك حتى يطلع الفجر.

ومن رحمته: أن بسط يديه بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويغفر بالليل ذنوب النهار.

ومن رحمته: أن وسعت هذه الرحمة كل شيء، وأنه سبحانه واسع العفو والغفران، وأنه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، أو عبد أن يرحمه، أو طلب أن يلبِّيه، وأن أخبر سبحانه وتعالى أنه أرحم الراحمين، وأنه لا ييئس من روحه إلَّا الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلَّا الخاسرون الضالُّون.

فسبحانه! ما أعظم حلمه، وأجلَّ كرمه، وأوسع رحمته، وأحسن مغفرته، وأكبر ستره، وأيسر لطفه، وأمَنَّ عطاءه وعطفه.

لو أتاه العبد بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئًا، لأتاه بقرابها مغفرة.

فمَن لجأ إليه، ولاذ بجنابه، واحتمى بحماه أمن العذاب، ونجا عند الحساب، ونال الشرف الرفيع.

ومَن توكل على غيره، واعتمد على سواه ضاع، وظمأ وجاع، ولم

يُطعم إلَّا الضريع.

* هذه الرحمة الواحدة من تسعة وتسعين رحمة، أمر «الرحمن الرحيم» عباده المؤمنين بالنظر إلى آثارها، فقال تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ .. ﴾ [الروم: ٥٠]»[(١)].

«وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالنظر إلى مدلولات رحمة الله ﷻ، وآثارها في المَنْحِ، والإنعام، والإعطاء، والتفضُّل، والإعانة، والتأييد، والنصرة، وغير ذلك من المعاني.

* فقال تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٥٠].

فالأمر واضح وصريح للأمة في شخص النبي ﷺ بوجوب إمعان النظر، وشحذ الهمة، وإعمال الفكر في آثار رحمة الله تبارك وتعالى، التي لولاها لضلَّ العباد، وخسروا في الدنيا والآخرة، ولولاها لسلكوا سبل الشيطان، وطرق الغواية والإضلال.

* قال تعالى: ﴿ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال جلّ ذكره: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء].

فآثار رحمة الله تبارك وتعالى أجلُّ من أن يحصيها المحصي، أو يعدَّها العاد، فلا يخفى، إن شاء الله، على كل مسلم أن رحمة أرحم الراحمين التي أنزلها في الدنيا بين عباده هي قوام السماوات والأرض، وعلى الرغم من

(١) «المرحومون في السُّنَّة النبوية» لمحمود بن مصطفى الإسكندري (ص١٣-١٥) طبع دار ابن حزم.

كونها واحدة من مئة رحمة أعدَّها الله ليرحم بها عباده في الآخرة، فحصر علاماتها متعذِّر، واستقصاء دلائلها وأماراتها من الصعوبة بمكان؛ إذ كل شيء في الكون «بدايته، وبقاؤه» برحمة الله ﷻ كان، فكل نوع من أنواع الرحمة لو أنفق طالبه فيه عمره لما أدرك الغاية وما وفَّى، وإنما هي قطرات يرتشفها من بحره الهني وكفى.

* فهو سبحانه: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى].

* وقال تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦].

فمن رحمته سبحانه وتعالى: أنه لما قهر العباد، وخلق السماوات والأرض وقهرهم، وأسلمت له كل المخلوقات طوعًا وكرهًا، استوى سبحانه على عرشه استواءً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

* فلما ذكر سبحانه الاستواء لم يذكره بصفة القهر أو الغلبة إنما ذكره بصفة الرحمة، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه].

* وقال جل ذكره: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان].

ومن رحمته سبحانه وتعالى: خلق الخلائق، وتيسير سبل الحياة، وطرق المعيشة لهم، وهيأ لهم المنافع الدنيوية.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ].

* وقال جلّ ذكره: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ

شققنا الأرض شقًا ﴿٢٦﴾ فأنبتنا فيها حبًا ﴿٢٧﴾ وعنبًا وقضبًا ﴿٢٨﴾ وزيتونًا ونخلًا ﴿٢٩﴾ وحدائق غلبًا ﴿٣٠﴾ وفاكهة وأبًا ﴿٣١﴾ متاعًا لكم ولأنعامكم ﴿٣٢﴾﴾ [عبس].

* وقال سبحانه: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴿٦﴾ الذي خلقك فسواك فعدلك ﴿٧﴾ في أي صورة ما شاء ركبك ﴿٨﴾ كلا بل تكذبون بالدين ﴿٩﴾﴾ [الانفطار].

* وقال سبحانه في تعداده لنعمه على خلقه: ﴿أفرأيتم ما تحرثون ﴿٦٣﴾ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴿٦٤﴾ لو نشاء لجعلناه حطامًا فظلتم تفكهون ﴿٦٥﴾ إنا لمغرمون ﴿٦٦﴾ بل نحن محرومون ﴿٦٧﴾ أفرأيتم الماء الذي تشربون ﴿٦٨﴾ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴿٦٩﴾ لو نشاء جعلناه أجاجًا فلولا تشكرون ﴿٧٠﴾ أفرأيتم النار التي تورون ﴿٧١﴾ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴿٧٢﴾ نحن جعلناها تذكرة ومتاعًا للمقوين ﴿٧٣﴾ فسبح باسم ربك العظيم ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة].

* وسورة الرحمن كلها من هذا الباب، وفيها ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن].

* ومنها: قوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعامًا فهم لها مالكون ﴿٧١﴾ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴿٧٢﴾ ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴿٧٣﴾﴾ [يس][1].

□ ومن ذلك أيضًا: أن جعل سبحانه وتعالى القرآن الكريم آخر الكتب المنزلة من السماء إلى الأرض، فختم به سبحانه الكتب، وجعله مهيمنًا على جميعها، واختصّ به أمة النبي ﷺ دون الأمم، وجعله سبحانه رحمة لهم وبهم.

(١) المصدر السابق (ص ٣١-٣٣).

* قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف].

* وقال جلّ ذكره: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت].

ومن مدلولات الرحمة الربانية، والرأفة الإلهية: ظهور أثرها في ما شرعه للعباد من التكاليف، فجعل سبحانه التيسير هو المراد منها، وعدم العسر ورفع الحرج والمشقة من آثار هذا وعلاماته.

* قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

* وقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ ﴾ [الطلاق].

* وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة].

* وقال سبحانه: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾ [الحج: ٧٨].

وحين فُرضت الصلاة على النبي ﷺ في رحلة المعراج المباركة، وظلّ يتردد ﷺ بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وربه عَزَّ وَجَلَّ حتى أصبحت خمس صلوات بعد أن كانت خمسين صلاة، وقال فيها تعالى: «هن خمس بأجر خمسين، أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي».

ومن التشريعات التي تظهر فيها الرحمات من رب البريات سبحانه:

- تشريع كفارة اليمين بعد أن لم تكن مشروعة للأمم السابقة، فلم تُشرع لهم كفارة حنث لليمين، فشُرعت في هذه الأمة تخفيفًا عليهم.
- إباحة الغنائم، ولم تحل لأحد قبل النبي ﷺ، لما رأى سبحانه من ضعف الأمة وحاجتها.
- فتح باب التوبة والإنابة إليه سبحانه بعد أن كانت في الأمم السابقة بالقتل.

• ففي الحديث: «**لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء، ثم تبتم تاب الله عليكم**»[(١)].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

إعطاء الرحمن عَزَّ وَجَلَّ الأجر الكثير على العمل اليسير:

وإن من آثار رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ أن يعطي الأجر الكثير، والعطاء الوفير، على العمل الصغير، والفعل اليسير، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يعطي العباد على قدر أعمالهم، وإنما يعطي سبحانه على قدر رحمته وملكه، فما من شيء إلَّا وهو سبحانه يملك خزائنه، يملك أوله وآخره، أصله وفرعه، دقَّه وجليله.

* قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر][(٢)].

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٨) عن أبي هريرة وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣/ ٣٠٧): هذا إسناد حسن.

(٢) «المرحومون في السنة النبوية» (ص٣٦- ٣٧).

ومن سعة رحمة الله التي لا يُحيط بها إلا الله عَزَّوَجَلَّ (١):

١- أن الجنة هي دار المرحومين، وهي رحمة الله تعالى:

• فعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**احتجّت الجنة والنار فقالت الجنة: يدخلني الضعفاء والمساكين، وقالت النار: يدخلني الجبارون والمتكبرون، فقال الله للنار: أنتِ عذابي، أنتقم بكِ ممن شئت، وقال للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك مَن شئت، ولكل واحدة منكما ملؤها**»(٢).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه كذلك أن رسول الله ﷺ قال: «**تحاجَّت النار والجنة فقالت النار: أُثِرتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلَّا ضعفاء الناس وسقطهم وعجزهم؟ فقال الله عَزَّوَجَلَّ للجنة: إنما أنت رحمتي، أرحم بك مَن أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذِّب بك مَن أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار، فلا تمتلئ حتى يضع الله قدمه عليها فتقول: قط، قط، فهنالك تمتلئ، وينزوي بعضها إلى بعض، فلا يظلم الله من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقًا**»(٣).

٢- أن الجنة يستحقها العباد برحمة الله تعالى لا بأعمالهم:

• فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**سدِّدوا وقاربوا، وأبشِروا، واعلموا أنه لن يُدخِلَ أحدَكُم الجنةَ عملُه**»؛ قالوا: ولا أنت يا

---

(١) انظر «المرحومون في السنة».

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٦).

(٣) رواه البخاري (٧٤٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦).

رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلَّا أن يتغمَّدني الله بمغفرة ورحمة»(١).

• وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليُصيبنَّ ناسًا سفعٌ من النار، عقوبة بذنوب عملوها، ثم يُدخلهم اللهُ الجنة بفضل رحمته، فيقال لهم: الجهنميون»(٢).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كان رجلان في بني إسرائيل متواخيان، وكان أحدهما مذنبًا، والآخر مجتهدًا في العبادة، وكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب، فقال له: أقصر، فقال: خلِّني وربي، أَبُعثت عليَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة، فقُبضت روحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا، أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار»(٣).

• وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن الله عذّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم..»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨).

(٢) رواه البخاري (٦٥٦٦).

(٣) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والبيهقي في «الشعب».

(٤) صحيح: رواه أحمد عنه، وجمع بينه وبين أُبيّ بن كعب وحذيفة أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان والطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٣٧)، و«صحيح الجامع» (٥٢٤٥).

٣- رجوع المؤمنين إلى رحمة الله:

• فعن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأسه بأهل الأرض، وإن كان فيهم قوم صالحون، يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يرجعون إلى رحمة الله ومغفرته**»(١).

٤- إنعام الله عز وجل على المؤمنين بهلاك الكافرين:

• فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة أعطى الله تعالى كل رجلٍ من هذه الأمة رجلًا من الكفار، فيقال له: هذا فداؤك من النار**»(٢).

٥- بيان كونه سبحانه أرحم بالعباد من الأم بولدها بل ومن الناس أجمعين:

• وفي الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قدم على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تحلب ثدييها تبتغي إذ وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألزقته ببطنها، وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟**» قلت: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: «**لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها**»(٣).

□ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري»: «فيه إشارة إلى أنه ينبغي للمرء أن يجعل تعلُّقه في جميع أموره بالله وحده، وأن كل من فُرِضَ أن فيه

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٦/ ٤١)، والحاكم (٤/ ٥٢٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٣٠/ ٢١٨)، بسندٍ صحيح.

(٢) رواه البخاري (٥٥٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٤٣١).

رحمة ما حتى يقصد لأجلها، فالله سبحانه وتعالى أرحم منه. اهـ»(١).

فليقصد العاقل مَن هو أشد له رحمة.

مجيئ الرحمة في القرآن على عشرين وجهًا:

□ ذكر أهل التفسير أن الرحمة في القرآن على عشرين وجهًا:

أحدها: الجنة. ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وفي آل عمران: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٠٧]، وفي سورة النساء: ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ﴾ [النساء: ١٧٥]، وفي بني إسرائيل: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وفي العنكبوت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ [العنكبوت: ٢٣]، وفي الجاثية: ﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الجاثية: ٣٠].

والثاني: الإسلام. ومنه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وفي هل أتى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الإنسان:٣١].

والثالث: الإيمان. ومنه قوله تعالى في هود: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨]، وفيها: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ [هود: ٦٣].

والرابع: النبوة. ومنه قوله تعالى في الزخرف: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وفي ص: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩﴾ [ص].

والخامس: القرآن. ومنه قوله تعالى في يونس: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ

(١) «المرحومون في السُّنَّة النبوية» انظر (٤٨- ٥٣).

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]، وفي بني إسرائيل: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

والسادس: المطرُ. ومنه قوله تعالى في الأعراف: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وفي الروم: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٥٠]، وفيها ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦].

والسابع: الرزق. ومنه قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وفي الكهف: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾ [الكهف: ١٠]، وفيها: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الكهف: ١٦].

والثامن: النعمة. ومنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ [النساء: ١١٣]، وفي الكهف: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ [الكهف: ٦٥].

والتاسع: العَافية. ومنه قوله تعالى في الزمر: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

والعاشر: النصر. ومنه قوله تعالى في الأحزاب: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗ﴾ [الأحزاب: ١٧].

والحادي عشر: المنَّة. ومنه قوله تعالى في القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦].

والثاني عشر: الرقة. ومنه قوله تعالى في الحديد: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ [الحديد: ٢٧].

والثالث عشر: المغفرة. ومنه قوله تعالى في الأنعام: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والرابع عشر: السّعة. ومنه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

والخامس عشر: المودة. ومنه قوله تعالى في الفتح: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

والسادس عشر: العصمة. ومنه قوله تعالى في يوسف: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

السابع عشر: الشمس. ومنه قوله تعالى في سورة عسق ﴿الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨][1].

الثامن عشر: طول العمر، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الملك].

التاسع عشر: بمعنى سيد الرسل ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

العشرون: بمعنى نعمة المعرفة: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ [هود: ٢٨] أي: معرفة.

الحادي والعشرون: بمعنى النجاة من عذاب النيران، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النور: ١٠، ١٤، ٢٠، ٢١].

الثاني والعشرون: بمعنى الكتاب المنزل على كليم الله موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧].

الثالث والعشرون: بمعنى الثناء على إبراهيم عليه السلام: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ

(١) «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر» لابن الجوزي (ص٣٣١-٣٣٤) مؤسسة الرسالة.

وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [هود: ٧٣].

الرابع والعشرون: بمعنى إجابة دعوة زكريا عليه السلام مبتهلًا إلى الله المنّان: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾ [مريم].

الخامس والعشرون: بمعنى فتح أبواب الرَّوح والرَّيْحان: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر: ٢].

السادس والعشرون: بمعنى صفة الرحيم الرحمن: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الكهف: ٥٨].

وأخيرًا السابع والعشرون: بمعنى توفيق الطاعة والإحسان: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩][(١)].

الرحمة تقتضي الحزم لا الإهمال:

□ قال ابن القيم رحمه الله: «إنَّ الرحمةَ صفةٌ تقتضي إيصال المنافعِ والمصالح إلى العبد، وإنْ كرهتْهَا نفسه وشقَّتْ عليها. فهذه هي الرحمة الحقيقية.

فأرحم الناس من شقَّ عليك في إيصال مصالحك ودفعِ المضارِّ عنك. فمن رحمة الأب بولده: أنْ يُكْرِهَهُ على التَّأَدُّبِ بالعلم والعملِ، ويَشُقَّ عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تَعُودُ بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلَّةِ رحمته به، وإنْ ظنَّ أنَّه يرْحَمُهُ ويرفِّهُهُ ويُريحُهُ. فهذه رحمةٌ مقرونَةٌ بجهلٍ ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليطُ أنواعِ البلاءِ على العبد، فابتلاؤُه له وامتحانه ومنْعه منْ كثيرٍ من أغراضهِ

(١) انظر: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» للفيروزأبادي (٣/ ٥٥- ٥٨) طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

وشهواتِهِ: منْ رحمتِهِ به.

الابتلاء من صور رحمة الله بعباده:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن رحمته سبحانه: ابتلاءُ الخلق بالأوامر والنَّواهي رحمةً لهم وحميَّةً، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به. ومن رحمته: أنْ نغَّصَ عليهم الدُّنيا وكدَّرَها؛ لئلَّا يسكنوا إليها ولا يطمئنوا إليها ويرغبوا عن النَّعيم المُقيم في داره وجواره، فساقهم إليها بسياطِ الابتلاءِ والامتحان فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم. ومن رحمته بهم: أنْ حذَّرهم نفسه؛ لئلَّا يغترُّوا به فيعاملوه بما لا تحسنُ معاملته به. ومن رحمته أنْ أنْزل لهم كتبًا، وأرْسَل لهم الرُّسُل لكن الناس افترقوا إلى فريقين؛ فأمَّا المؤمنونَ: فقد اتَّصل الهدى في حقِّهم بالرَّحمة فصار القرآن لهم هدًى ورحمةً. وأمَّا الكافرون: فلم يتَّصل الهدى بالرحمة فصار لهم القرآنُ هدًى بلا رحمةٍ.

وهذه الرحمةُ المقارنةُ للهُدَى في حَقِّ المؤمنين رحمةٌ عاجلةٌ وآجلةٌ، فأمَّا العاجلة فما يعطيهم الله في الدُّنيا من محبَّةِ الخير والبرِّ وذوق طعم الإيمانِ ووجدان حلاوته، والفرح والسرور والأمن والعافيةِ.

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس].

فأمرهم عَزَّ وَجَلَّ بأنْ يفرحوا بفضله ورحمته، فهم يتقلَّبُون في نورِ هداهُ ويمشون به في الناس ويرون غيرهم متحيِّرًا في الظلمات، فهم أشدُّ الناس فرحًا بما آتاهم ربهم من الهدى والرَّحمة. وغيرهم جمع الهمَّ والغمَّ والبلاءَ والألم والقلق والاضطراب مع الضلالِ والحيرة.

وهذه الرحمةُ التي تحصل للمُهتدين تكون بحسب هُدَاهم، فكلما كان نصيب الواحد من الهدى أتمَّ كان حظُّه من الرَّحمةِ أوْفر، فتجِدُ الصحابة كانوا أرحم الأمَّة كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

والصِّدِّيق أرحم الأمَّة بالأُمَّةِ، فقد جمع الله له بين سعة العلم وسعة الرَّحمة. وهكذا الرَّجُلُ كلما اتسع علمه اتَّسعت رحمتُهُ. وقد وسع ربُّنا كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا فوسعت رحمته كلَّ شيءٍ، وأحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبدِ من نفسه، كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه»[1].

الرحمة في القرآن الكريم:

ارسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الله بعباده:

* قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣ ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم

---

(١) انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٧٢ – ١٧٥).

بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ
(١٥٥) أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ
لَغَٰفِلِينَ (١٥٦) أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم
بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ
سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ (١٥٧) ﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٥٢) ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (٦٣) ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا
يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا
قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (٢٠٤) ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٦١) ﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي
ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (٥٧) قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ
خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس].

* وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ

مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف].

* وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء].

* وقال تعالى: ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ

رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم].

* وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم].

* وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم].

* وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء].

* وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل].

* وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا

ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ [القصص].

* وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [القصص].

* وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت].

* وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [لقمان].

* وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف].

* وقال تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾ [الدخان].

* وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ

وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحقاف].

* وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الحديد].

التشريع من رحمة الله بعباده:

* وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ

خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنفال].

* وقال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور].

* وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب].

* وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

* وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجاثية].

* وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد].

من رحمة الله قبول التوبة والمغفرة للعاصين:

* قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ

فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩) ﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) ﴾ [النساء][(١)].

الرحمة صفة النبيين والمرسلين وعباد الله الصالحين:

* قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ

---

(١) وفي نفس الباب «من رحمة الله قبول التوبة للعاصين ارجع إلى هذه الآيات: [النساء: ٢٣]، و[المائدة: ٣]، و[المائدة: ٣٣- ٣٤]، [والمائدة: ٣٨- ٣٩]، و[المائدة: ٧٣- ٧٤]، و[الأنعام: ١٤٧]، و[التوبة: ٢٥- ٢٧]، و[التوبة: ٩١، ١٠٢- ١٠٤] و[التوبة: ١١٧- ١٨٨]، و[النحل: ١١٠، ١١٥]، و[الكهف: ٥٨]، و[النور: ٤- ٥، ١٠، ١٤، ٢٠- ٢٢، ٣٣]، و[النمل: ١١- ١٢]، و[العنكبوت: ٢٠- ٢١] و[الأحزاب: ٥] و[الأحزاب: ٢٣- ٢٤، ٧٣]، و[سبأ: ١- ٢]، و[الأحقاف: ٨]، و[الفتح: ١٤]، و[الحجرات: ٤- ٥، ١٢، ١٤]، و[المجادلة: ١٢]، و[التغابن: ١٤].

لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الكهف].

* وقال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف].

* وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح].

وجوب طلب المؤمنين للرحمة، وعلو همتهم في ذلك:

* قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ

وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس].

* وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ ﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف].

* وقال تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف].

* وقال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يوسف].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا

قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الحجر].

* وقال تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الإسراء].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الإسراء].

* وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء].

* وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الكهف].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الكهف].

* وقال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبياء].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النور].

* وقال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [الشعراء].

* وقال تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل].

* وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل].

* وقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص].

* وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات].

* وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور].

* وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠)﴾ [الحشر].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)﴾ [المزمل].

موجبات الرحمة في القرآن الكريم ضالة عالي الهمة:

عالي الهمة في طلب الرحمة والتخلّق بها حريصٌ كل الحرص على معرفة موجبات الرحمة والعمل بها.. ومن موجبات الرحمة:

(١) طاعة الله ورسوله:

* قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)﴾ [الأنعام].

(٢) تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ:

* قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣)﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥)﴾ [يس].

(٣) استماع القرآن والإنصات له:

* قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف].

(٤) الإتيان بالعبادات على وجهها الأكمل:

* قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور].

(٥) الاستغفار:

* قال تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النمل].

(٦) الإصلاح بين المسلمين المتنازعين:

* قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات].

(٧) الولاء للمؤمنين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

* قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة].

(٨) الإيمان بالله والجهاد في سبيله:

* قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦)﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١)﴾ [التوبة].

(٩) الاعتصام بالله:

* قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (١٧٥)﴾ [النساء].

(١٠) الصدقة في سبيل الله:

* قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)﴾ [التوبة].

(١١) الصبر:

* قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [البقرة].

(١٢) الشهادة في سبيل الله:

* قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ

﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝١٥٧﴾ [آل عمران].

(١٣) الإحسان:

* قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف].

(١٤) الهجرة في سبيل الله:

* قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٠٠﴾ [النساء].

(١٥) عمل الصالحات:

* قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ۝٣٠﴾ [الجاثية].

ومن رحمة الله جَمْعُ الخلْق للحساب:

* قال تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾ [الأنعام].

رحمة الله بالكافرين ابتلاء لهم:

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ۚ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝٢١﴾ [يونس: ٢١].

* وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الروم].

* وقال تعالى: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت].

* وقال تعالى: ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشورى].

وجوب شيوع الرحمة بين المؤمنين:

* قال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾ [البلد].

ومن موجبات المغفرة الواردة في السُّنَّة المطهرة:

(١٥) ذكر الله تعالى وطلب العلم:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت

من بيوت الله، يتلُون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلَّا نزلت عليهم السَّكينة،وغشيتهمُ الرحمة، وحَفَّتهمُ الملائكة،وذكرهم الله فيمن عنده»(١).

ولفظ مسلم: «من نفس.. ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلَّا نزلت عليهم السكينة،..».

(١٦) الإحسان إلى الذبيحة عند الذبح:

• عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رَجُلًا قال: يا رسول الله إني آخذ الشاة أريد أن أذبحها فأرحمها قال: «والشاة إن رحمتها رحمك الله عَزَّ وَجَلَّ»(٢).

• وقال النبي ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتمُ فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحة، وليُحِدَّ أحدُكم شَفْرَتَه، وليرِحْ ذبيحتَهُ»(٣).

(١٧) الراحمون يرحمهم الرحمن:

أقرب الناس من رحمة الله، أرحمهم لخلْقه.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٩٢) ومسلم (٢٧٠٠)، والترمذي (٣٣٧٨)، وأبو داود – واللفظ له، وابن ماجه (٣٧٩١) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٣٦، ٥/ ٣٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٩٣) عن قرة بن إياس المزني رضي الله عنه، ورواه الطبراني في «الكبير» عن قرّة بن إياس، وعن معقل بن يسار، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٦)، و«صحيح الجامع» (٧٠٥٥).

(٣) رواه أحمد مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي شيبة، والدارمي، والطيالسي، والطحاوي، والبيهقي في «سننه»، وابن الجارود عن شدّاد بن أوس.

• عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَن لا يرحم الناس لا يرحمه الله**»[(١)].

• وقد بوّب ابن حبان على حديث: «**من لا يَرْحَم لا يُرحم**» الذي سبق ذكره: «ذكر الأمر للمرء أن يرحم أطفال المسلمين رجاء رحمة الله جل وعلا إياه.. فالجزاء من جنس العمل، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء فعن أسامة بن زيد قال: كنا عند النبي ﷺ، فجاء رسول امرأة من بناته، فقال: يا رسول الله، أرسلت إليك ابنتك أن تأتيها، فإن صبيًّا لها في الموت، فقال: «**ائتها فقل لها: إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمّى، فلتصبر ولتحتسب**» قال: فلم يلبث أن رجع، فقال: يا رسول الله، إنها تقسم عليك إلّا جئتها، فقام رسول الله ﷺ وقمنا معه – رهط من الأنصار – فدخلنا، فرفع إليه الصبي، ونفسه تقعقع في صدره، ففاضت عيناه، فقال له سعد بن عبادة: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «**رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[(٢)].

وعلى هذا يظهر أن الرحمة لا تكون إلّا في السعداء[(٣)].

• فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت أبا القاسم ﷺ وهو الصادق المصدوق يقول: «**إن الرحمة لا تُنزع إلّا من شقي**»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٧٣٧٦)، ومسلم (٢٣١٩).

(٢) رواه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

(٣) تبويب ابن حبان كما في «الإحسان» (٢/ ٢٠٩).

(٤) حسن: أخرجه أحمد (٢/ ٣٠١، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩)، والطيالسي (٢٥٢٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٧٤)، وأبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٣)، وابن حبان كما في «الإحسان» (٤٦٢، ٤٦٦)، والحاكم (٤/ ٢٤٨)، والبيهقي

□ قال الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر الدمشقي الشافعي:

بادر إلى الخـير يـا ذا اللـبِّ مغتـنما ... ولا تكن عـن قليـل الخـير محتـشما

واشكر لمولاك ما أولاك مـن نعـم ... فالشكر يستوجب الإفضال والكرما

وارحم بقلبك خلـق الله وارعهـمُ ... فـإنما يـرحم الـرحمن مـن رحمـا

□ وقال الإمام أبو حفص عمر بن أحمد الشماع الشافعي:

(٨/ ١٦١)، والطبراني في «الأوسط» (٣/ ١١٥/ ٢٤٧٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ١٨٣)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٤٥٠) جميعًا من حديث أبي عثمان مولى المغيرة، عن أبي هريرة.

قال أبو عبد الله الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وأبو عثمان هذا مولى المغيرة، وليس بالنهدي، ولو كان النهدي لحكمت بصحته على شرط الشيخين، انتهى.

وقال أبو عبد الله الذهبي: صحيح، وأبو عثمان مولى المغيرة اهـ.

وقال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن. انتهى.

أما أبو عثمان مولى المغيرة بن شعبة، قال عن الحافظ: مقبول. اهـ.

وقد وثقه ابن حبان، وروى عنه منصور بن المعتمر، وهو من الكبار الثقات الأثبات.

وأبو عثمان من طبقة لم يظهر الكذب فيها، ونحن على شرطنا في ترقية حديث من كان حاله كذلك إلى الحديث الحسن.

وقد حسَّنه الترمذي، وصححه كل من الحاكم والذهبي.

وقال الأخير في «موقظته» (ص٧٩): فإن جهل عينه وحاله – يعني الراوي – فأولى أن لا يحتجوا به، وإن كان المنفرد عنه من كبار الأثبات فأقوى لحاله، ويحتج به جماعة كالنسائي وابن حبان. انتهى.

فكيف بمَن ليس بمجهول العين وروى عنه مثل منصور. والله تعالى أعلم.

انتهى نقلًا من «زوائد الأدب المفرد على الصحيحين» لمحمد بن محمود بن مصطفى الإسكندري، وهو مخطوط يسَّر الله إخراجه، وحسَّنه الألباني كما مَرّ.

كن راحمًا لجميع الخلق منبسطًا ... لهم وعاملهم بالبِشْرِ والبِشَرِ

مَنْ يرحم الناس يرحمه الإله كذا ... جاء الحديث به عن سيد البشرِ

أمَّا أن يتصف المؤمنون بالرحمة فهي منحة إلهية، وعطية ربانيَّة؛ يمنحها الله لمن شاء من خَلقه تفضلًا منه ورحمة، وليس بظالم مَن منع فضلًا، وإنما يضع ربنا تبارك وتعالى الرحمة في قلب كل رحيم، وهو القلب الرحيم؛ الذي عمّت رحمته الناس؛ لا يفرق بين أحد مِنْ الناس فيها»[1].

(١٨) قيام الليل من موجبات الرحمة:

وقد مرّ في الحديث سابقًا.

(١٩) الملّحقون في النُّسك:

وقد مرّ.

(٢٠) التطوّعُ قبل العصر:

وقد مرّ.

(٢١) العُطَاس:

وقد ورد ذكره في الأحاديث التي مرّت.

(٢٢) عيادة المريض:

• جاء أبو موسى إلى الحسن بن علي يعوده، فقال له علي رضي الله عنه: أعائدًا جئت أم شامتًا؟ قال: بل عائدًا، قال: فقال له علي رضي الله عنه: إن كنت جئت عائدًا فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن أتى أخاه المسلم عائدًا،**

(١) «المرحومون في السُّنة النبوية» (ص١٣٠ - ١٣١).

مشى في خرافة الجنة، حتى يجلس، فإذا جلس غمرته الرحمة، فإن كان غدوة، صلّى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن كان مساءً، صلّى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح»(١).

• وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن عاد مريضًا لم يزل يخوض في الرحمة حتى يجلس، فإذا جلس غُمِرَ فيها»(٢).**

(٢٣) قول الخير، أو الصمت:

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله امرءًا تكلَّم فغنم، أوْ سكتَ فَسَلِم»(٣).**

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١/ ٨١)، وأبو داود (٣١٠٠) وابن ماجه (١٤٤٢)، والحاكم (١/ ٣٤٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٧٤٢)، وقال الحاكم: هذا صحيح على شرط الشيخين وأقرّه الذهبي اهـ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٦٧)، و«صحيح الجامع» (٥٩٣٤). وخرافة الجنة هي موضع اجتناء الثمر.

(٢) صحيح: رواه ابن أبي شيبة (٣/ ٢٣٤)، وأحمد (٣/ ٣٠٤)، وابن حبان كما في «الإحسان» (٢٩٥٦)، والحاكم (١/ ٣٥٠)، والبيهقي (٣/ ٣٨٠) وغيرهم من حديث هشيم قال: أخبرنا عبد الحميد بن جعفر، عن عمر بن الحكم، بن ثوبان، عن جابر به.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقرّه الذهبي. اهـ.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢٩٧): «رجال أحمد رجال الصحيح» اهـ.

ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٢٢)، وسُمِّي عمر بـ عمر بن الحكم بن رافع، وقال ابن معين: هما واحد كما في «التهذيب» (٧/ ٤٣٦- ٤٣٧).

(٣) حسن: أخرجه هكذا البيهقي في «شعب الإيمان» (٩/ ٢١٢/ ٤٥٨٩) من حديث إسماعيل بن عياش، ثنا عمارة بن غزية الأنصاري، عن ابن شبرمة، أنه سمعه وهو يحدث عن أنس بن مالك به.

=

• وقال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ الله عبدًا قال خيرًا فغنم، أَوْ سكتَ عن سوءٍ فَسَلِم»(١).

• وقال ﷺ: «رحم الله عبدًا قال فغَنِمَ أو سكتَ فَسَلِمَ»(٢).

وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات غير أن شيخ إسماعيل بن عياش حجازي، وكان إذا روى عنهم زلق.

وعزاه العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٢٠) لابن أبي الدنيا في «الصمت» ثم قال: فيه ضعف فإنه من رواية إسماعيل بن عياش عن الحجازيين. انتهى.

وقد أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٤١) وهناد في «الزهد» (١١٠٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩/ ٢١٠/ ٤٥٨٥) جميعًا من طرق عن الحسن البصري مرسلًا.

وأخرجه ابن المبارك في «الزهد والرقائق» (٣٦٤) ومن طريقه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٤١٥) وابن أبي عاصم في «الزهد» (ص١٦) من طريق ابن لهيعة قال: حدثني خالد بن أبي عمران أن النبي ﷺ رساقه..

وله شاهد قوي أخرجه الحاكم (٤/ ٢٨٦- ٢٨٧) من طريق الربيع بن سليمان، ثنا ابن وهب، أخبرني أبو هانئ، عن عمرو بن مالك، عن فضالة بن عبيد، عن عبادة بن الصامت مرفوعًا وفيه: «قولوا خيرًا تغنموا، واسكتوا عن شر تَسْلموا».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وأقرّه الذهبي. انتهى.

وليس كما قالا وإنما هو صحيح فقط؛ فلَمْ يخرج الشيخان للربيع، ولا لعمرو بن مالك.

لذا قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٩٩): رجاله رجال الصحيح غير عمرو بن مالك الجنبي، وهو ثقة. انتهى.

فبهذا حسن الحديث. وحسّنه الألباني في «الصحيحة» (٨٥٣)، و«صحيح الجامع» (٣٤٩٢).

(١) حسن: رواه المبارك عن خالد بن أبي عمران مرسلا، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٨٥٥)، و«صحيح الجامع» (٣٤٩٦).

(٢) حسن: رواه أبو الشيخ عن أبي أمامة رضي الله عنه، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٨٥٥)، =

(٢٤) المسامحة في البيع والشراء، والاقتضاء:

• عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله عبدًا: سمْحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمْحًا إذا اقتضى»(١).

وفي رواية: «.. سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»(٢).

(٢٥) استحلال الإخوان من المظالم:

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا كانَتْ لأخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ في نَفْسٍ، أو مالٍ، فأتَاهُ، فاسْتَحَلَّ مِنْهُ قَبْلَ أنْ يُؤْخَذَ من حسَنَاتِه، فَإِنَ لمْ يَكُنْ لهُ حسَنَاتٌ، أُخِذَ مِنْ سيئَاتِ صاحِبِهِ، فتُوضَعُ في سيئَاتِهِ»(٣).

واستحَلّ: طلب أن يجعله في حِلٍّ.

يا من عَدَى ثم اعتدى ثم اقترفْ ... ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف

أبشر بقول الله في آياته ... إن ينتهوا يُغفَر لهم ما قد سلف

وعلى صاحب الحق أن يعفو ويصفح عن زلّة أخيه، فإنه علامة الإحسان..

و«صحيح الجامع» (٣٤٩٧).

(١) رواه البخاري وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري (٢٠٧٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤٩)، (٦٥٣٤) بنحوه، وهو عند الترمذي (٢٤١٩)، وابن حبان كما في «الإحسان» (٧٣٦٢)، وأبي نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٤٣)، والبيهقي (٦/ ٥٦) بهذا اللفظ.

□ قال منصور الفقيه:

وقـــال نبينـــا فـــيما رواه عـن الـرحمن في عِلِـم الغيـوب

مُحـــالٌ أن ينـــالَ العفـــوَ مَـــنْ لا يمُـنُّ بـه عـلى أهـل الـذنوب (١)

أحاديث عطرة في الرحمة:

• عن أسامة بن زيدٍ رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يأخذُني فيقْعدُني على فخذه ويقعدُ الحسن بن عليٍّ على فخْذِه الآخر، ثمَّ يضمُّهما، ثم يقول: «اللَّهُم ارحمهما فإنِّي أرحمُهما»(٢).

• وعن عوف بن مالكٍ الأشجعيِّ رضي الله عنه قال: صلَّى رسول الله ﷺ على جنازةٍ فحَفِظت من دعائه وهو يقولُ: «اللَّهُمَّ اغْفر له وارحمْهُ، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسِّع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقِّه من الخطايا كما نقَّيْت الثوب الأبيض من الدَّنس، وأبْدله، دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنَّة، وأعذْهُ من عذاب القبر - أو من عذاب النار-». قال: حتى تمنَّيْتُ أن أكون أنا ذلك الميت(٣).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «اللهُمَّ إنِّي أتَّخِذُ عندك عهدًا لن تخلفنيه. فإنَّما أنا بشرٌ. فأيُّ المؤمنين آذيْتُهُ، شتمته، لعنتهُ، جلدْتُهُ، فاجعل ذلك له صَلاةً وزكاةً وقُرْبةً تقرِّبُهُ بها إليكَ يومَ القيامَةِ»(٤).

---

(١) «بهجة المجالس» (١/ ٢٧٧).

(٢) رواه البخاري (٦٠٠٣).

(٣) رواه مسلم (٩٦٣).

(٤) رواه البخاري (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١) واللفظ له.

• وعن مالك بن الحوَيْرِثِ رضي الله عنه قال: أتينا النبي ﷺ ونحنُ شَبَبَةٌ (١) متقاربونَ، فأقَمْنا عند عشْرين ليلةً، فظنَّ أنَّا اشْتقْنَا إلى أهلنَا، وسألنا عمَّنْ تركنا في أهلِنَا فأخبرناه، وكان رقيقًا رحيمًا، فقال: «ارْجِعُوا إلى أهْلِيكُمْ فعَلِّمُوهُمْ، ومُرُوهُمْ، وصَلُّوا كما رأيْتُمُوني أُصَلِّي، وَإذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ فلْيُؤَذِّنْ لكُمْ أحَدُكُمْ، ثمَّ ليؤُمَّكُمْ أكْبَرُكُمْ» (٢).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا عَطَسَ أحَدُكُمْ فلْيَقُلِ الحَمْدُ لله، وليَقُلْ لهُ أخُوهُ - أو صاحِبُهُ - يرحَمُكَ اللهُ، فإذا قَالَ يرْحَمُكَ اللهُ، فلْيَقُلْ يَهْدِيكُمُ اللهُ ويُصْلِحُ بالكُمْ» (٣).

• وعن عياضِ بن حمارٍ المجاشِعيِّ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال ذات يومٍ في خُطْبَتِهِ: «ألَا إنَّ رَبِّي أمَرَني أنْ أُعَلِّمَكُمْ ما جَهِلْتُمْ مِمَّا علَّمَني يومي هذا: كُلُّ مالٍ نحَلْتُهُ عبدًا حلالٌ. وإنِّي خلقتُ عبَادِي حُنَفَاءَ كلَّهُمْ. وإنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّياطينُ فاجْتَالَتْهُم (٤) عن دينِهِمْ. وحرَّمَتْ عليهم ما أحْلَلْتُ لهم. وأمرتْهُم أنْ يُشْرِكُوا بي ما لم أُنزِّلْ به سُلطانًا، وإنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فَمَقَتَهُمْ، عَربهم وعجَمِهم، إلَّا بقَايا منْ أهْل الكتاب. وقال: إنَّما بعثتُكَ لأبتَلِيكَ وأبْتَلِي بكَ. وأنزلتُ عليك كتابًا لا يغْسِلُه الماءُ (٥) تقرؤُه نائمًا

(١) شببة: جمع شاب، مثل بررة جمع بار.
(٢) رواه البخاري (٦٠٠٨) واللفظ له، ومسلم (٦٧٤).
(٣) رواه البخاري (٦٢٢٤)، ومسلم (٢٩٩٢) مثله من حديث أبي موسى.
(٤) فاجتالتهم: أي استخفُّوهم فذهبوا بهم، وأزالوهم عمّا كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل. قال شمر: اجتال الرجل الشيء ذبَّه به، واجتال أموالهم ساقها وذهب بها.
(٥) كتابًا لا يغسله الماء: معناه محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على مَرِّ الزمان.

ويقظانَ. وإنَّ الله أمرني أن أحرِّقَ قريْشًا. فقلتُ: ربِّ إذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي [(١)] فيدعُوهُ خُبْزَةً. قال: استخرجهم كما استخرجوك. واغْزُهم نُغْزِكَ. وأنفقْ فَسَنُنْفِقَ عليك. وابعث جيشًا نَبْعَثْ خمسةً مثله. وقاتلْ بمَنْ أطاعك من عصَاك. قال: وأهل الجنة ثلاثةٌ: ذو سلطانٍ مقسطٌ متصدِّقٌ موَفَّقٌ. ورجلٌ رحيمٌ رقيق القلب لكلِّ ذي قرْبَى ومسلم. وعفيفٌ متعفِّفٌ ذو عيالٍ. قال: وأهل النار خمسةٌ: الضعيف الذي لا زَبْرَ له [(٢)]، الذين هم فيكم تبعًا لا يتْبَعُونَ أهلًا ولا مالًا. والخائنُ الذي لا يخْفَى له طمعٌ وإنْ دقَّ إلَّا خانهُ. ورجلٌ لا يصبحُ ولا يمْسي إلَّا وهو يُخَادِعُكَ عن أهلك ومالكَ». وذكر البُخْلَ أو الكذبَ، والشِّنْظِيرُ [(٣)] الفَحَّاشُ» [(٤)].

• عن أبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قامَ مُوسَى عليه السَّلامُ خطيبًا في بني إسرائيل، فسُئل: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. قال: فعتَبَ الله عليه إذ لم يرُدَّ العلم إليه.. الحديث. وفي آخره قال رسول الله ﷺ: «يَرْحمُ الله موسى، لودِدْتُ أنَّهُ كان صبر حتَّى يَقُصَّ علينا من أخبارهما» [(٥)].

• عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ هذه الأمَّة مرحُومَةٌ جعل الله عذابها بينها فإذا كان يوم القيامة دُفِعَ إلى كلِّ امرئٍ

---

(١) إذًا يثلغوا رأسي: أي يشدخوه ويشجُّوه كما يشدخ الخبز، أي يُكْسَر.

(٢) لا زبر له: أي لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغي، وقيل: هو الذي لا مال له، وقيل: الذي ليس عنده ما يعتمده.

(٣) الشنظير: فسّره في الحديث بأنّه الفحّاش، وهو السيئ الخُلُق.

(٤) رواه أحمد، ومسلم (٢٨٦٥).

(٥) البخاري «الفتح» (٦/ ٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠) واللفظ له.

منهم رجلٌ من أهلِ الأديانِ، فقال: هذا يكون فداءَكَ من النَّار»[١].

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: ألا أحدِّثكم عنِّي وعن رسول الله ﷺ. قلنا: بلى. قالت: لَمَّا كانت ليلتي التي كان النبيُّ ﷺ فيها عندي، انْقلب فوضع رداءَهُ، وخلع نعْلَيْه، فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه، فاضْطجع. فلم يلبثْ إلَّا ريْثَما ظنَّ أن قدْ رقدْتُ، فأخذ رداءَهُ رُوَيْدًا، وانتعل رويدًا، وفتح الباب فخرج. ثمَّ أجافَهُ[٢] رويدًا. فجعلت درْعي في رأسي[٣]، واخْتمرتُ وتقنَّعْتُ إزَارِي[٤]. ثم انطلقت على إثره. حتَّى جاء البقيع فقام فأطال القيام. ثم رفع يديه ثلاث مرَّاتٍ. ثمَّ انحرف فانحرفتُ. فأسرع فأسرعْتُ. فهرْول فهرْولْتُ فأحضر فأحضرت[٥]. فسبقته فدخلتُ. فليس إلَّا أن اضطجعت فدخل فقال: «**مالكِ؟ يا عائشُ حَشَيَا رَابِيَةً**[٦]». قالت: قلتُ: لا شيءَ. قال: «**لتخْبِرِيني أو لَيُخْبِرِنِّي اللطيفُ الخبير**». قالت: قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمِّي، فأخبرته.

---

(١) صحيح: رواه الحاكم (٤/ ٤٤٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأحمد (٤/٤٠٨) واللفظ له عن أبي بردة عن أبيه. وشعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٢٧٤) وقال مخرجه في الطبراني «الصغير» (١/ ١٠) حديث (٥)، وقال الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٦٨٥): الحديث صحيح.

(٢) أجافه: أغلقه.

(٣) فجعلت درعي في رأسي: درع المرأة: قميصها.

(٤) تقنعت إزاري: لبست إزاري.

(٥) فأحضر فأحضرت: أي فعَدَا فَعَدَوْتُ.

(٦) مالك يا عَائِشُ حشيا رابية: يعني وقع عليك الحشا وهو الربو والتهيج الذي يعرض للمسرع في مشيه والمحتد في كلامه من ارتفاع النفَس وتواتره. ورابية: أي مرتفعة البطن.

قال: «فأنْتِ السَّوَادُ الذي رأيتُ أمامي؟». قلتُ: نعم، فلهدني [(١)] في صدري لهدَةً أوجعتْنِي. ثمَّ قال: «أظَنَنْتِ أنْ يَحِيفَ اللهُ عليك ورسولُهُ؟». قالت: مهما يكْتُمِ الناسُ يعلمْهُ اللهُ. ثمَّ قال: «فإن جبْريلَ أتاني حين رأيتِ، فناداني، فأخْفَاهُ منكِ [(٢)]، فأجبْتُهُ، فأخْفَيْتُهُ منك. أو لم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابكِ، وظننْتُ أنْ قدْ رقدْتِ، فكرِهْتُ أن أوقظَكِ، وخشيتُ أن تستوْحِشِي. فقال: إنَّ ربَّك يأمُرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم». قالت: قلتُ: كيف أقولُ لهم يا رسول الله؟. قال: «قولي: السَّلامُ على أهل الدِّيارِ من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين. وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقونَ».

• عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادِّهم وتعاطفهم كمثلِ الجسد إذا اشتكى عضْوٌ تداعى له سائرُ جسده بالسَّهر والحُمَّى» [(٣)].

• وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: تقبِّلُونَ الصِّبيان فما نقبِّلهم، فقال النبيُّ ﷺ: «أو أملكُ لك أنْ نزعَ اللهُ من قلبك الرَّحْمَةَ» [(٤)].

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ ذكر «رجلًا فيمن كان سلف – أو قبلكم – آتاهُ الله مالًا وولدًا، يعني أعطاهُ. قال: فلمَّا حُضِرَ [(٥)].

---

(١) فلهدني: دفعني.

(٢) فأخفاه منك: أي الصوت.

(٣) رواه البخاري (٦٠١١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٦).

(٤) رواه البخاري (٥٩٩٨) واللفظ له، ومسلم (٢٣١٧).

(٥) فلما حُضِر: أي حضرته الوفاه.

قال لبَنيه: أيَّ أبٍ كنت لكم؟. قالوا: خير أبٍ. قال: فإنَّه لم يبتئرْ عند الله خيرًا». فسَّرها قتادة: لم يدّخِر. «وإنْ يقدم على الله يعذِّبهُ. فانظروا، فإذا متُّ فأحرقوني، حتَّى إذا صِرْتُ فحمًا فاستحقُوني. أو قال فاسهكُوني[(١)]- ثم إذا كان ريحٌ عاصفٌ فاذْرُوني فيها، فأخذ مواثيقهم على ذلك وربِّي. ففعلوا. فقال الله: كنْ، فإذا رجلٌ قائمٌ، ثم قال: أيْ عبدي، ما حملك على ما فعلت؟ قال: مخافتُكَ. أو فرقٌ منك[(٢)]، فما تلافاهُ أنْ رحمهُ الله»[(٣)].

• عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رحِمَ الله رجلًا سمْحًا إذا باعَ، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»[(٤)].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلًا قام من الليل فصلَّى، ثمَّ أيْقظ امرأتهُ فصلَّتْ، فإنْ أبَتْ نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأةً قامت من الليل فصلَّتْ، ثم أيقظتْ زوجها فصلَّى، فإنْ أبى نضحَتْ في وجهه الماءَ»[(٥)].

• عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ الله امرأً صلَّى

---

(١) فاسهكوني: أي اسحقوني، وقيل: هو دون السَّحْق.

(٢) فَرَقٌ مِنك: أيْ خوفٌ منك.

(٣) رواه البخاري (٦٤٨١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥٧).

(٤) رواه البخاري (٢٠٧٦)، وابن ماجه.

(٥) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود (١٣٠٨) واللفظ له، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم وابن حبّان، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» (١٥١٩)، وقال: حسن صحيح، و«صحيح أبي داود» (١١٨١)، و«صحيح الترغيب» (٦٢١)، و«تخريج المشكاة» (١٢٣٠)، و«صحيح الجامع» (٣٤٩٤).

قبل العصر أربعًا»[(١)].

• عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله المحلِّقِين». قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله. قال: «رَحِمَ الله المحلِّقين». قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله. قال: «رحم الله المحلِّقين». قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله. قال: «والمقصِّرِينَ»[(٢)].

• عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الرَّاحمون يرحمهم الرحمنُ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماءِ»[(٣)].

وفي لفظ: «ارحموا من في الأرض».

وزاد أحمد والترمذي والحاكم: «والرَّحِمُ شُجْنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله».

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «سدِّدُوا[(٤)] وقاربوا[(٥)] وأبْشروا، فإنَّه لا يُدخِلُ أحدًا الجنَّة عملُه»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

---

(١) حسن: رواه أحمد (٢/ ١١٧)، والترمذي (٤٣٠)، وقال: هذا حديث غريب حسن، وأبو داود (١٢٧١)، وابن خزيمة (١١٩٣)، وابن حبان، والبغوي في «شرح السنة» (٣/ ٤٧٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» وحسَّنه الألباني في «صحيح أبي داود» (١١٥٤)، و«صحيح الترغيب» (٥٨٦)، و«صحيح الجامع» (٣٤٩٣).

(٢) رواه البخاري (١٧٢٧)،ومسلم (١٣٠١) واللفظ له.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود (٤٩٤١) واللفظ له، والترمذي (١٩٢٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٢٥)، و«صحيح الجامع» (٣٥٢٢).

(٤) سدِّدوا: اطلبوا السَّدَاد أي الصواب.

(٥) قاربوا: لا نفرطوا في العبادة.

قال: «ولا أنا، إلَّا أنْ يتغمَّدَني الله بمغفرةٍ ورحمةٍ»(١).

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع النبيُّ ﷺ رجلًا يقرأُ في المسجدِ. فقال: «رحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آيةً أسقطْتهنَّ من سورة كذا وكذا». وزاد عبَّادُ بن عبد الله عن عائشة: تهجَّدَ النبيُّ ﷺ في بيتي فسمع صوت عبَّادٍ يصلِّي في المسجد. فقال: «يا عائشةُ أصوتُ عبَّادٍ هذا؟». قلتُ: نعم. قال: «اللهمَّ ارحم عبَّادًا»(٢).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت امرأتانِ معهما ابناهما، جاء الذِّئْبُ فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتُها: إنَّما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى. فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال: آتوني بالسِّكِّين أشقُّهُ بينهما. فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنُها، فقضى به للصُّغرى»(٣).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «لا تُنْزَع الرحمة إلَّا من شَقِيٍّ»(٤).

• عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرحمُ اللهُ

---

(١) رواه أحمد، والبخاري (٦٤٦٧) واللفظ له، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٥) واللفظ له، ومسلم (٧٨٨).

(٣) رواه البخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠).

(٤) حسن: رواه أحمد، والترمذي (٣، ١٩) وقال: حديث حسن، وأبو داود (٤٩٤٢)، وابن حبان، والحاكم، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٦٧)، و«تخريج المشكاة» (٤٩٦٨).

من لا يرحمُ الناسَ»(١).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ في صلاةٍ وقمنا معه، فقال أعرابيٌّ وهو في الصلاةِ: اللهم ارحمني ومحمَّدًا ولا ترحم معنا أحدًا. فلمَّا سلَّم النبيُّ ﷺ قال للأعرابي: «لقد حجَّرتَ واسعًا» يريد رحمة الله(٢).

• عن أبيٍّ بن كعبٍ رضي الله عنه أنه قال: إنَّ أبا هريرة كان حريصًا على أنْ يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال: يا رسول الله ما أول ما رأيت في أمْر النُّبُوَّة؟ فاستوى رسولُ الله ﷺ جالسًا وقال: «لقد سألت أبا هريرة، إنِّي لفي صحراء ابن عَشْرِ سنين وأشهرٍ وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رَجُلٌ يقول لرجلٍ: أهو هو؟ قال: نعم، فاستقْبلاني بوجوه لم أرها لخلقٍ قطُّ وأرواحٍ لم أجدها من خلقٍ قطُّ، وثيابٍ لم أرها على أحدٍ قطُّ، فأقْبلا إليَّ يمشيان حتى أخذ كلُّ واحدٍ منهما بعضُدي لا أجدُ لأحدهما مسًّا فقال أحدهما لصاحبه: أضْجِعْهُ. فأضجعاني بلا قصرٍ ولا هصْرٍ(٣). وقال أحدهما لصاحبه: افْلِقْ صدرهُ فهوى أحدهما إلى صدري ففلقها، فيما أرى بلا دمٍ ولا وجعٍ، فقال له: أخرج الغلَّ والحسد، فأخرج شيئًا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرَّأفةَ والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج يُشْبِهُ الفضَّةَ، ثم هزَّ إبهامَ رجلي اليمنَى فقال: اغْدُ واسلم، فرجعت بها أغْدو رقَّةً على الصغير ورحمةً للكبيرِ»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٧٣٧٦) واللفظ له، ومسلم.

(٢) رواه البخاري (٦٠١٠).

(٣) بلا قصر ولا هصر: أي بلا عنف ولا ضغط.

(٤) رواه أحمد، (٥/ ١٣٩)،وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٢٢- ٢٢٣) رواه عبدالله (يعني ابن أحمد عن أبيه) ورجاله ثقات وثقهم ابن حبان، وضعَّفه الشيخ

• عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن تؤمنوا حتى تراحموا**». قالوا: كُلُّنا رحيمٌ يا رسول الله، قال: «**إِنَّهُ ليس برحمة أحدكم صاحبهُ، ولكنَّها رحمةُ الناس، رحمةُ العامَّة**»(١).

• عن أُبَيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه أنَّه جاءَهُ ابن الديلميِّ، فقال: وقع في نفسي شيءٌ من القدَرِ، فحدِّثني بشيءٍ لعلَّ الله أنْ يُذهبهُ منْ قلبي، فقال: «**لو أن الله عذَّبَ أهل سماواته وأهل أرضه عذَّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أُحُدٍ ذهبًا في سبيل الله ما قبله الله منك حتَّى تؤمنَ بالقدر، وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليُخْطِئَكَ، وأنَّ ما أخْطأكَ لم يكن ليصيبك، ولو مُتَّ على غير هذا لدخلت النَّارَ**»، قال: ثم أتيْتُ عبد الله بن مسعودٍ، فقال مثل ذلك، قال: ثم أتيْتُ حذيفة ابن اليمان، فقال مثل ذلك، قال: ثمَّ أتيْتُ زيد بن ثابتٍ، فحدَّثني عن النَّبيِّ ﷺ مثل ذلك»(٢).

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو تعلمون قدر رحمة الله لاتَّكلتُمْ عليها**»(٣).

شعيب الأرنؤوط في «المسند» (٣١/ ١٨١)، وفيه مجهولان.

(١) قال الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٤٥٣): أخرجه الطبراني ورجاله ثقات، وقال الألباني في «الصحيحة» (١/ ٢٧٠): هو في كتاب الأدب للبيهقي حديث (١٦٧).

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٨٥) وأبو داود (٤٦٩٩) واللفظ له، وابن ماجه (٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣/ ٨٩٠) (٢٩٣٢).

(٣) صحيح: رواه البزّار، وابن أبي الدنيا، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١٣): رواه البزار وإسناده حسن، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢١٦٧)، و«صحيح الجامع» (٥٢٦٠).

• عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا**»[(١)].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن عليٍّ وعنده الأقرعُ بن حابسٍ التميميُّ جالسًا، فقال الأقرعُ: إنَّ لي عشرةً من الولد ما قبَّلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: «**من لا يرحمُ لا يُرحمُ**»[(٢)].

• عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أُحِبُّ أنَّ لي الدُّنْيا وما فيها بهذه الآية** ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]»[(٣)].

• عن عمران بن حسينٍ رضي الله عنهما قال: كانت ثقيفُ حلفاء لِبَني عقيل فأسرت ثقيفُ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، وأسرَ أصحابُ رسول الله ﷺ رجُلًا من بني عقيلٍ، وأصابُوا معه العضباء فأتى عليه رسولُ الله ﷺ وهو في الوثاقِ. قال: يا محمد، فأتاهُ. فقال: «**ما شأْنُكَ؟**». فقال: بمَ أخذتني؟، وبم أخذت سابقة الحاجِّ فقال: «**إعظامًا لذلك**»

(١) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٥٧)، والترمذي (١٩٢٠) واللفظ له وقال: حسن صحيح، ورواه الحاكم، وصححه الشيخ أحمد شاكر (٤/ ٩٥)، وكذا رواه البخاري في «الأدب المفرد»، والحميدي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٨)، و«صحيح الجامع» (٥٤٤٤).

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٧) واللفظ له، ومسلم (٢٣١٨)، وأحمد (٢/ ٢٢٨، ٢٤١، ٢٦٩، ٥١٤)، وأبو داود (٥٢١٨)، والترمذي (١٩١١).

(٣) حسن: رواه أحمد (٥/ ٢٧٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في «الأوسط» وإسناده حسن «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١٤)، وضعفه الشيخ شعيب في «المسند».

«أخذتُك بجريرة حُلفائِكَ ثقيف». ثم انصرف عنه فناداه. فقال: يا محمد، يا محمد، وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رقيقًا. فرجع إليه فقال: «ما شأنكَ؟». قال: إنِّي مسلمٌ. قال: «لو قلتها وأنت تملك أمرك، أفلْحْتَ كلَّ الفلاحِ»، ثم انصرف فناداهُ فقال: يا محمد، يا محمد، فأتاه فقال: «ما شأْنُكَ؟». قال: إنِّي جائعٌ فأطعمني. وظمآنٌ فاسقني. قال: «هذه حاجَتُكَ». ففُدِيَ بالرَّجُلين.. الحديث(١).

• عن النعمان بن بشيرٍ رضي الله عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ على المنبر: «من لم يشكر القليلَ لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكُرِ الله، التَّحدُّثُ بنعمة الله شُكْرٌ، وتركها كفرٌ، والجماعةُ رحمةٌ والفرقةُ عذابٌ»(٢).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الملائكةُ تصلِّي على أحدكم ما دام في مصَلَّاهُ الذي صلَّى فيه ما لم يُحدثْ، تقول: اللهمَّ اغفرْ له، اللهمَّ ارْحَمْهُ»(٣).

• عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: إنَّ نبيَّ الله ﷺ دخل نخْلًا لبني النجَّارِ. فسمع صوتًا ففزعَ. فقال: «من أصحابُ هذه القبُور؟». فقالوا: يا رسول الله، ناسٌ ماتوا في الجاهليَّة. فقال: «تعوَّذُوا بالله منْ عذاب النَّارِ، ومن فتنةِ الدجَّالِ». قالوا: وممَّ ذاك يا رسول الله؟. قال: «إنَّ المؤمنَ إذا وُضعَ في قبْره أتاهُ ملكٌ فيقول له: ما كنت تعبدُ؟ فإن اللهُ هدَاهُ، قال: كنت

---

(١) رواه مسلم (١٦٤١).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٧٨) واللفظ له، والقضاعي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٢٧٦) (٦٦٧).

(٣) رواه البخاري (٤٤٥) واللفظ له، ومسلم (٦٤٩) باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة.

أعبدُ الله، فيُقَالُ له: ما كنت تقول في هذا الرَّجُلِ؟ فيقول: هو عبد الله ورسوله، فما يسأل عن شيءٍ غيرها. فيُنطلقُ به إلى بيتٍ كان له في النارِ، فيُقالُ له: هذا بيتك كان لك في النار، ولكن الله عصمك ورحمكَ، فأبدَلكَ به بيتًا في الجنَّةِ، فيقول: دعوني حتَّى أذْهبَ فأُبَشِّرَ أهلي، فيقال له: اسكن، وإنَّ الكافر إذا وُضِع في قبره أتاهُ ملكٌ فينتهره، فيقول له: ما كنت تعبُدُ؟ فيقول: لا أدري، فيقالُ له: لا دريتَ ولا تليْتَ، فيقال له: فما كنت تقول في هذا الرَّجُلِ؟، فيقولُ: كنت أقولُ ما يقولُ النَّاسُ، فيضْربُهُ بمطراقٍ من حديدٍ بين أذنيه فيصيح صيحةً يسمعها الخلقُ غير الثقلين»(١).

• عن زيد بن خالد الجهنيِّ ﷺ قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصُّبح بالحديبية في إثْر السماءِ(٢) كانت من الليل، فلما انصرفَ أقْبلَ على الناس فقال: «هل تدرونَ ماذا قال ربُّكُم؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ. فأمَّا من قال: مُطِرْنَا بفضْلِ الله ورحمته فذلك فؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكبِ، وأمَّا من قال: مطرنا بنوءِ(٣) كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي، مؤمنٌ بالكوكبِ»(٤).

• عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدْخل الله أهل الجنَّة الجنَّة. يُدخل من يشاءُ برحمته، ويدخل أهل النَّار النَّارَ، ثم

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٧٥١) واللفظ له، وذكره المنذري في «مختصر أبي داود» (٧/ ١٣٨) وقال: أخرج النسائي طرفًا منه، وقال الألباني في «صحيح أبي داود» صحيح (٣/ ٩٠٠) (٣٩٧٧) وكذا رواه أحمد (٢٣٣).

(٢) السماء: المطر.

(٣) ناء النجم: سقط النجم أو طلع.

(٤) رواه البخاري (٤١٤٧)، ومسلم (٧١) واللفظ له.

يقول: انظروا، مَنْ وجدتم في قلبه مثْقال حبَّةٍ من خرْدَلٍ من إيمانٍ فأخرجوه، فيُخْرجُونَ منها حُمَمًا (١) قد امْتُحِشُوا (٢)، فيُلْقون في نهر الحياةِ أو الحيا فينْبُتون فيه كما تنبُتُ الحبَّةُ إلى جانبِ السَّيلِ. ترَوْها كيف تخرُجُ صفراءَ ملتويَةً»(٣).

• عن شدَّادِ بن أوسٍ رضي الله عنه أنَّه قال: ثنتان حفظتُهما عن رسولِ الله ﷺ، قال: «إنَّ الله كتب الإحسانَ على كلِّ شيءٍ. فإذا قتلتم فأحسنُوا القتلةَ، وإذا ذَبحْتُمْ فأحْسِنوا الذَّبْح، وليُحِدَّ أحدكم شفْرَتَهُ، وليُرْح ذبيحَتَهُ»(٤).

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: أعْتَمَ (٥) النبيُّ ﷺ ذات ليلةٍ، حتى ذهبَ عامَّةُ الليل، وحتى نام أهلُ المسجدِ ثمَّ خرج فصلَّى، فقال: «إنَّهُ لوقتها لولا أن أشُقَّ على أمَّتي»(٦).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما كلبٌ يُطيفُ بركيةٍ (٧) كاد يقتله العطش، إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل فنزعتْ مُوقَهَا (٨) فسقتْهُ فغفر لها به»(٩).

---

(١) حمما: فَحْما.

(٢) امتحشوا: احترقوا.

(٣) رواه البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤) واللفظ له.

(٤) رواه مسلم (١٩٥٥).

(٥) أعتم: أخَّر العشاء حتى اشتد الظلام (١١) رواه البخاري (٥٦٩)، ومسلم (٦٣٨) واللفظ له.

(٦) رواه البخاري (٥٦٩)، ومسلم (٦٣٨) واللفظ له.

(٧) يطيف بركِيَّة: أي يدور حول بئر.

(٨) مُوقها: أي خُفَّها، فارسي معرَّب.

(٩) رواه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا صلَّى أحدُكُمْ للناس فليُخَفِّفْ، فإن في الناس الضعيف والسَّقِيم وذا الحاجة**»[(١)].

• عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ، فانطلق لحاجته فرأيْنا حُمَّرةً[(٢)] معها فرخان فأخذنا فرخيْها فجاءت الحمَّرةُ فجعلت تفرِّشُ[(٣)]، وجاء النبي ﷺ فقال: «**من فجَعَ هذه بولدها؟ رُدُّوا ولدها إليها**» ورأى قرْية نمْلٍ قد حرَّقْناها، فقال: «**منْ حرقَ هذه؟**». قلنا: نحن، قال: «**إنَّه لا ينْبغي أن يُعذب بالنار إلَّا ربُّ النَّارِ**»[(٤)].

• عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أنه دخل دار الحكم بن أيوبَ، فرأى غلمانًا -أوْ فتيانًا- نصبُوا دجاجةً يرمُونها، فقال أنسٌ: «نهى النَّبيُّ ﷺ أن تُصْبَرَ البهائِمُ[(٥)]»[(٦)].

• وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يرحم صغيرنا، ويعرفُ حقَّ كبيرنا، فليس منّا**»[(٧)].

• وقال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنَا، ويوقرُ**

---

(١) رواه البخاري (٧٠٢)، ومسلم (٤٦٧) واللفظ له.

(٢) الحمرة: طائر صغير يشبه العصفور.

(٣) تفرش: أي تفرش جناحيها وتقرب من الأرض وترفرف.

(٤) صحيح: رواه أبو داود (٥٢٦٨) وقال الألباني (٣/ ٩٨٨) (٤٣٨٨): صحيح.

(٥) تصبر البهائم: أي تُحبَس لتُرْمَى حتى تموت.

(٦) رواه البخاري (٥٥١٣)، ومسلم (١٩٥٩).

(٧) صحيح: رواه البخاري في «الأدب المفرد»، وأبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٨)، و«صحيح الجامع» (٦٥٤٠).

كبيرَنا»[١].

• وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس مِنَّا مَنْ لم يُجِلَّ كبيرَنا، ويَرْحَمْ صغيرَنا، ويعرفُ لعالِمنا حقَّه»[٢].

• عن عمرو بن حبيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خابَ عبدٌ وخَسِرَ، لم يجعل الله تعالى في قلبه رحمة للبشر»[٣].

• وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: علِّمني دعاء أَدعو به في صلاتي، قال: «قل: اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلَّا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم»[٤].

• قال رسول الله ﷺ: «ارحم مَن في الأرض، يرحمْكَ مَن في السماء»[٥].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أنس، ورواه البخاري في «الأدب المفرد» عن ابن عمرو، وأحمد والترمذي والطبراني في «الكبير» عن ابن عباس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢١٩٦)، و«صحيح الجامع» (٥٤٤٥).

(٢) حسن: رواه أحمد، والحاكم في «المستدرك» عن عبادة بن الصامت، وحسّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٦)، و«صحيح الجامع» (٥٤٤٣).

(٣) حسن: رواه الدولابي في «الكنى»، وأبو نعيم في «المعرفة»، وابن عساكر، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٤٥٧)، و«صحيح الجامع» (٣٢٠٥).

(٤) رواه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥)، والترمذي (٣٥٣١)، وابن ماجه (٣٨٣٥)، والنسائي (٣/ ٥٣)، وكذا رواه أحمد (١٤، ٧).

(٥) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن جرير، والطبراني في «الكبير»، والحاكم في «المستدرك» عن ابن مسعود، وكذا رواه الطيالسي، والطبراني في «الأوسط»، وفي «الصغير»، وأبو نعيم، والخطيب في «تاريخ بغداد» وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٢٥)، و«صحيح الجامع» (٨٩٦).

• وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه رأى النبي ﷺ على المنبر يقول: «**ارحموا تُرْحَمُوا واغْفِرُوا يُغفَر لكم، ويلٌ لأقماع**[(١)] **القوْل، ويلٌ للمُصِرِّين الذين يُصِرُّون على ما فعلوا وهُمْ يعلمون**»[(٢)].

المرحومون بالذات:

نطق النبي ﷺ - وهو الذي لا ينطق عن الهوى - وإذا استُجيب، وأخبرنا عن أسماء مَنّ الله عليهم على لسان نبيه ﷺ بالرحمة، وليست للحصر، ففضل الله واسع وهو المنان الجواد الذي علا فوق كل جواد، وبه جادَ من جاد:

١- نبي الله لوط عليه السلام **:**

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يرحم الله لوطًا؛ لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»[(٣)].

* وذلك في قوله تعالى عن لسان نبيه لوط عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾ [هود: ٨٠].

---

(١) الأقماع: جمع قِمع، والقِمع يكون من مادة ملساء، بحيث تمر فيها السوائل دون أن تشرب هذه الأقماع من السوائل التي تُصَبُّ فيها شيئًا، فالذين يسمعون النُّصْح ولا ينتصحون، مثلهم كالأقماع لا ينتفعون بما يُصَبُّ فيها، فوَيْلٌ أي: هلاكٌ وعذاب لهم على عدم استفادتهم مع سماعهم وعلمهم. انظر «الأربعون في فضل الرحمة والراحمين» لمحمد بن علي بن طولون - (٣٥- ٣٦) تحقيق السيد أبو عمه - طبع دار الصحابة.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢/ ١٦٥، ٢١٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٤٨٢)، و«صحيح الجامع» رقم (٨٩٧).

(٣) رواه البخاري (٣٣٨٧).

فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في الذروة من قومه، لكنه كان مهاجرًا من بلده، وأهل سدوم لم يكونوا عشيرته، وأقاربه فهو من العراق فقد كان لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ يأوى إلى ركن شديد وهو الله سبحانه وتعالى..

فالزم يديكَ بحبلِ الله معتصِمًا   فإنه الرُّكْنُ إن خانتكَ أركانُ

٢- كليم الرحمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ :

• عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفًا البكالي يزعم أن موسى ليس بموسى بني إسرائيل إنما هو موسى آخر، فقال: كذب عدو الله، حدَّثنا أبيُّ بن كعب عن النبي ﷺ: «قام موسى النبي خطيبًا في بني إسرائيل فسُئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أن عبدًا من عبادي بِمَجْمَعِ البحرين هو أعلم منك، قال: يا رب وكيف به؟ فقيل له: احمل حوتًا في مكتل فإذا فقدته فهو ثَم، فانطلق وانطلق بفتاه يوشع بن نون وحملا حوتًا في مكتل حتى إذا كانا عند الصخرة وضعا رؤوسهما وناما فانسلَّ الحوت من المكتل ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ ولم يجد موسى مسًّا من النصب حتى جاوز المكان الذي أُمر به فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ قال موسى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ فلما انتهيا إلى الصخرة إذا رجل مسجًّى بثوب – أو قال: تسجَّى بثوبه – فسلَّم موسى فقال الخضر: وأنَّى بأرضك السلام، فقال: أنا موسى، فقال موسى بني إسرائيل، قال نعم، ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علَّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علَّمكه لا أعلمه ﴿قَالَ

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينة، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما فعُرِف الخضر فحملوهما بغير نَوْل، فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر فقال الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلَّا كنقرة هذا العصفور في البحر، فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه، فقال موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها!! ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ فكانت الأولى من موسى نسيانًا. فانطلقا فإذا غلام يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده، فقال موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ قال ابن عيينة: وهذا أوكد ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ قال: الخضر بيده فأقامه فقال له موسى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ قال النبي ﷺ: «يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما»(١).

• وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ أناسًا في القسمة فأعطى الأقرع بن حابس مئة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب فآثرهم يومئذٍ في القسمة، قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عُدِلَ فيها، وما أريد بها وجه الله، فقلت:

---

(١) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم، والترمذي، والنسائي.

والله لأخبرن النبي ﷺ، فأتيته، فأخبرته، فقال: «فمَن يعدل، إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»(١).

• وقال ﷺ: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى لو صبرَ لرأى من صاحبه العجب العُجَاب»(٢).

• وقال ﷺ: «رحم الله موسى قد أُوذِي بأكثرَ من هذا فصبرَ»(٣).

وإني أدلك، بتوفيق الله ﷻ، على موقفين أوذي فيهما نبي الله موسى عليه السلام من قومه، استحق بهما وبغيرهما أن يدعو له رسول الله ﷺ بالرحمة، وقد نالها، عليه الصلاة والسلام.

• فلقد أخرج البخاري، ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى عليه السلام كان رجلًا حييًا ستيرًا، لا يُرى من جِلْدِهِ شيء، فقالت بنو إسرائيل: ما يتستر هذا التستر إلَّا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدرة(٤)، وإما آفة، وإن الله ﷻ أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام. فخلا يومًا وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملإٍ من بني إسرائيل فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله ﷻ، وأبرأه مما يقولون، وقام للحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله، إن بالحجر

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، والحاكم عن أُبيّ، وزاد البارودي «العجاب» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٠١).

(٢) رواه البخاري (٣١٥٠).

(٣) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن ابن مسعود.

(٤) الأدرة: كبر في حجم الخصيَيْن، فهو آدر.

لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا». قال: «**فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ٦٩﴾ [الأحزاب]**»[(١)].

وفي هذا الحديث فوائد كما قال الإمام النووي في «المنهاج»[(٢)].

«ومنها: ما ابتُلي به الأنبياء والصالحون من أذى السفهاء والجُهّال وصبرهم عليهم كم صبر كليم الرحمن موسى عليه السلام على تَعَنُّت وإباء وجحود وتكذيب، وإيذاء بني إسرائيل الذي طمس الله بصيرتهم وأعماهم عن قبول الحق».

□ والموقف الثاني لإيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام، ما حكاه الحافظ ابن كثير في «تفسيره».

* من رواية ابن أبي حاتم، عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

□ قال: «صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون عليه السلام، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: أنت قتلته، كان ألين منك، وأشد حياءً، فآذوه من ذلك.. وذكر تمام الخبر».

□ قال – يعني: ابن جرير –: «وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى، وجائز أن يكون الأول هو المراد، **فلا قول أولى من قول الله** عز وجل».

□ قلت – أي ابن كثير–: «**يحتمل أن يكون الكل مرادًا** وأن يكون معه

(١) رواه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩).
(٢) «المنهاج» (٨/ ١٤٢ – ١٤٣).

غيره، والله أعلم»[١] انتهى.

رسول الله ﷺ، وموسى نبي الله ﷺ قد ضربا أروع الأمثلة في صبر وحلم الدعاة إلى الله، وما أحوج الدعاة إلى الله إلى حلم يحجزهم عن الخوض مع السفهاء في سفههم وباطلهم»[٢].

٣- الكريم بن الكريم بن الكريم نبي الله يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام أجمعين:

• قال رسول الله ﷺ: «**رَحِمَ الله أخي يوسُف لو أنا أتاني الرسول بعد طول الحَبْس لأسرعتُ الإجابة حين قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾**»[٣].

□ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السَّعْدِي في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف].

«وقال الملك لمن عنده: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ أي: بيوسف عليه السلام بأن يخرجوه من السجن ويُحْضِروه إليه، فلمَّا جاء يوسفَ الرسولُ، وأمره بالحضور عند الملِك؛ امتنع عن المبادرة إلى الخروج حتى تتبيَّن براءته التَّامَّة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام، فقال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ يعني به المَلِك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: اسأله ما شأنهن

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٦٤٢- ٦٤٣).

(٢) «المرحومون في السُّنَّة» (٢١٧- ٢١٩).

(٣) صحيح: رواه أحمد في «الزهد»، وابن المنذر عن الحسن مرسلًا، وصحّحه الألباني في «الصحيحة» (١٨٦٧)، و«صحيح الجامع» (٣٤٩١).

وقصّتهن؛ فإن أمرهنَّ ظاهر متَّضح ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[(١)].

يا لاستعلاء الإيمان وعظمة يوسف عليه السلام.

٤- هاجر أم إسماعيل عليها السلام:

• قال ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: «**يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسماعيلَ، لو تركتْ زمزَمَ - أو قال: لوْ لم تغرِفْ منَ الماءِ - لكانتْ عينًا معينًا» وأقبلَ جُرْهم فقالوا: أتأذنينَ أنْ ننزِلَ عندك؟ قالت: نعم، ولاحقَّ لكم في الماءِ، قالوا: نعم**»[(٢)].

روى البخاري بسنده عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أول ما اتخذ الناس المنطق من قِبَلِ أم إسماعيل اتخذت منطقًا لتعفّي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفَّى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٥٢)- للسعدي طبع دار ابن الجوزي.

(٢) أخرجه البخاري في مواضع (٢٣٦٨، ٣٣٦٢، ٣٣٦٣، ٣٣٦٤، ٣٣٦٥) من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس بألفاظ مختلفة، مطولًا، ومختصرًا.

وقد أخرج الإمام أحمد (٥/ ١٢١)، وابن حبان كما في «الإحسان» (٣٧١٣) وغيرهما من حديث جرير قال: سمعت أيوب يحدث، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: «إن جبريل حين ركض زمزم بعقبه جعلت أم إسماعيل تجمع البطحاء» قال النبي ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ هَاجَرَ، لوْ تَرَكَتْها كانتْ عَيْنًا مَعِينًا**».

مرارًا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يُضيِّعنا، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِيَّةِ حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفِد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوَّى أو قال: يتلبَّط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا فلم ترَ أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات.

• قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «**فذلك سعي الناس بينهما**»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تسمَّعت فسمعت أيضًا فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غواث، فإذا هي بالمَلك عند موضع زمزم فبحث بعقبه – أو قال: بجناحه – حتى ظهر الماء، فجعلت تُحوِّضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

• قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم – أو قال: لو لم تغرف من الماء – لكانت زمزم عينًا معينًا**».

قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن هاهنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يُضيع أهله. وكان البيت مرتفعًا

من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرِيًا أو جريَّين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال: وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم.

• قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «**فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس**» فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشبَّ الغلام وتعلَّم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شبَّ فلما أدرك زوَّجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوَّج إسماعيل..»[١]. الحديث.

• وقال ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل، لولا أنها عَجِلت لكانت زمزم عَيْنًا مَعينًا**»[٢].

موقف لأم إسماعيل تعجز كل الكلمات، وتعجز عنه كل رجالات الأرض.. موقف يشع منه نور اليقين والثقة بالله والتوكل على الله عز وجل وتفويض الأمور إليه..

لا تُـــدَبِّرْ لـــك أمـــرًا فـــأولو التـــدبير هلكـــى

(١) «صحيح الجامع» - كتاب الأنبياء (٣٣٦٤).

(٢) رواه البخاري، وأحمد (١/ ٢٥٣، ٣٤٧، ٣٦٠) عن ابن عباس، وأحمد (٥/ ١٢١) عن أُبيّ.

سَـــلِّمِ الأمـــرَ تجِـدْنا نحـــن أَوْلَى بـــك منــكَ

وصارت خطواتها بين الصفا والمروة رُكْنًا من أركان الحج.. فرحم الله أم إسماعيل.. فخر نساء الدنيا مَدى الأزمان والأيّام.

٥- الصديق الأكبر: أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّهم في أمرِ الله عمرُ، وأصدقهم حياءً عثمانُ، وأقرؤهم لكتاب الله أُبيٌّ بن كعب، وأفرضُهم زيدُ بن ثابتٍ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذُ بنُ جبلٍ، ولكلِّ أُمّةٍ أمينٌ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح»**[(١)].

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٧٩٠)، وابن ماجه (١٥٤)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (١٨٢)، وابن حبان كما في «الإحسان» (٧١٣١)، والحاكم (٣/ ٤٢٢)، والبيهقي (٦/ ٢١٠) جميعًا من حديث عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي ثنا خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أنس به.

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وقال أبو عبد الله الحاكم: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وهو كما قالوا رحم الله الجميع.

وقد تابع عبد الوهاب على إسناده الثوري ووهيب.

فقد أخرجه أحمد (٣/ ١٨٤)، وفي «فضائل الصحابة» (٧١٦)، وابن ماجه (١٥٥)، والطحاوي في «شرح المشكل» (١/ ٣٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٢٢)، والبيهقي (٦/ ٢١٠)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٩٩١)، والبغوي في «شرح السنَّة» (٣٩٣٠) من طريق سفيان الثوري، عن خالد به.

وأما رواية وهيب فقد أخرجها أحمد (٣/ ٢٨٠)، والطحاوي في «المشكل» (١/ ٣٥١)، والطيالسي (٢٠٩٦)،والنسائي في «فضائل الصحابة» (١٣٨)، والبيهقي (٦/ ٢١٠) من طريق وهيب عن خالد الحذاء به.

=

• وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أرأفُ أمَّتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّهم في دين الله عمر، وأصدَقُهم حياءً عثمان، وأقضاهم عليٌّ، وأفرضهم زيدُ بن ثابت، وأقرؤهم أُبيٌّ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذُ بن جبلٍ، ألَا وإنّ لكُلِّ أُمَّةٍ أمينًا، وأمين هذه الأمَّة أبو عبيدة بن الجرّاح»[(١)].

□ وقد وقف الصدِّيق رضي الله عنه موقفًا تجلّت فيه رحمته وشفقته على أمة النبي ﷺ. وهو قتال مانعي الزكاة، والمرتدِّين؛ إذ لو تُرك هؤلاء لفُتح باب شر على الأمة جمعاء؛ فرحمها الله عز وجل بأبي بكر رضي الله عنه.

• وذلك أن النبي ﷺ لما قُبِض ارتدّ عامة العرب، إلَّا أهل مكة والمدينة، والبحرين من عبد القيس، ومنع بعضهم الزكاة، وهَمَّ أبو بكر رضي الله عنه بقتالهم، فكره ذلك أصحاب النبي ﷺ، وقال عمر رضي الله عنه: كيف تقاتل

وهذه أسانيد في غاية الصحة، وقد تكلم بعض أهل العلم في أسانيده.

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ١١٧): إسناده صحيح، إلَّا أن الحافظ قالوا: إن الصواب في أوله الإرسال، والموصول منه ما اقتصر عليه البخاري والله أعلم. انتهى.

قال العلامة الألباني: علّة غريبة. اهـ.

وقد أخرج البخاري (٣٧٤٤) من حديث عبد الأعلى، ثنا خالد، عن ابن قلابة، ثني أنس ابن مالك في ذكر أبي عبيدة.

قال ابن بدران في «تهذيب تاريخ ابن عساكر» (٦/ ١٦٤): وقد أكثر الحافظ ابن عساكر في تخريج حديث: «لكل أمة أمين» حتى كاد أن يلحقه بالتواتر. انتهى.

والحديث صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٢٤)، و«صحيح الجامع» (٨٩٥).

(١) صحيح: رواه أبو يعلى، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٦٨)، و«السلسلة الصحيحة» (١٢٢٤).

الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: **لا إله إلَّا الله، فمَن قال: لا إله إلَّا الله، عصم مني ماله ونفسه إلَّا بحقه، وحسابه على الله** عَزَّ وَجَلَّ؟». فقال أبو بكر: فوالله لأقتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها[١].

□ وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: كرهت الصحابة رضي الله عنهم قتال مانعي الزكاة، وقالوا: أهل القبلة، فتقلّد أبو بكر رضي الله عنه سيفه، وخرج وحده، فلم يجدوا بدًّا من الخروج في أثره».

□ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «كرهنا ذلك في الابتداء، ثم حمدناه في الانتهاء».

□ قال أبو بكر ابن عباس: «سمعت أبا حصين يقول: ما ولد بعد النبيين مولود أفضل من أبي بكر رضي الله عنه لقد قام مقام نبي من الأنبياء في قتال أهل الردّة»[٢].

حالبُ الشياه للعجائز، والعاجن بيديْه خبز اليتامى:

□ قال ابن الجوزي عن الصديق رضي الله عنه: «إنه لما استُخلِف أصبح غاديًا إلى السُّوق، وكان يحْلُبُ للحَيِّ أغنامهم قبل الخلافة، فلما بُويع، قالت جاريةٌ من الحيِّ: الآن لا يحْلُبُ لنا. فقال: بل لأحْلُبَنَّها لكم، وإني لأرجو ألَّا يُغَيِّرني ما دخلتُ فيه»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر.

(٢) انظر: «معارج القبول» (٤/ ٢٥٧- ٢٥٨).

(٣) «التبصرة» لابن الجوزي (١/ ٤٠٠).

إنسان انتهى إليه كل ما في الإسلام من حنانٍ ونجدة وعطفٍ ورحمةٍ، خُلِق هكذا.. وخُلِق لهذا.

□ قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في يوم موته: «كنت للمؤمنين أبًا رحيمًا، صاروا عليك عيالًا.. كنتَ على الكافرين عذابًا صبًّا ولهَبًا، وللمؤمنين رحمةً وأنْسًا وحِصنًا».

فرضي الله عن أرحم الأمة الصديق.

ومن رحمته عتقه لإخوته في الدين من أيدي الكافرين.

□ قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «أعتق ابو بكر رضي الله عنه سبعةً مِمَّن كان يُعذَّب في الله عز وجل، منهم بلالٌ وعامرُ بن فُهَيرة»[1].

٦- الصحابي الجليل أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

• قال رضي الله عنه: «كنت أرعى غنمًا لعقبة بن أبي مُعَيْط، فمرّ بي النبي ﷺ، فقال لي: «**يا غلام، هل من لبن؟**» قلت: نعم، ولكني مؤتمن، قال: «**فهل من شاة لم ينز عليها الفحل؟**» قال: فأتيته، فمسح ﷺ ضرعها، فنزل اللبن، فحلبه في إناء، فشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: «**انقلصي**» فانقلصت، فقلت: يا رسول الله، علِّمني من هذا القول، فمسح رأسي وقال: «**يرحمك الله، إنك غلام مُعَلَّم**»[2].

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» وقال: صحيح على شرط الشيخيْن، ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩)، و(١/ ٤٥٣، ٤٥٧، ٤٦٢)، وابن أبي شيبة (١١/ ٥١٠)، والطيالسي (٣٥٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٥)، وابن حبان كما في «الإحسان» (٦٥٠٤، ٧٠٦١)، والطبراني في «الكبير» (٨٤٥٦، ٨٤٥٧)، وفي «الصغير» (٥١٣) وغيرهم، جميعًا من طرق من حديث عاصم بن بهدلة، عن زر بن =

٧- الصحابي الجليل عامر بن الأكوع رضي الله عنه:

▫ عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلًا فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر، ألا تُسمِعُنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلًا شاعرًا، فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فاغفر فداءً لك ما أبقينا ... وثبِّت الأقدام إن لاقينا
وألقِيَنْ سكينةً علينا ... إنَّا إذا صيح بنا أبينا
وبالصياح عوَّلوا علينا

• فقال رسول الله ﷺ: «مَن هذا السائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع، قال: «يرحمه الله»، قال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به، فأتينا خيبر فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة، ثم إن الله تعالى فتحها عليهم، فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي فُتِحت عليهم أوقدوا نيرانًا كثيرة، فقال النبي ﷺ: «ما هذه النيران؟ على أي شيء توقدون؟» قالوا: على لحم، قال: «على أي لحم؟» قالوا: لحم حُمُر الإنسية، قال النبي ﷺ: «أهريقوها واكسروها». فقال رجل: يا رسول الله أو نهريقها ونغسلها، قال: «أو ذاك» فلما تصافَّ القوم كان سيف عامر قصيرًا فتناول

حبيش، عن ابن مسعود به.
قال الذهبي في «السير» (١/ ٤٦٥): هذا حديث صحيح الإسناد اهـ.
وعاصم بن أبي النجود حسن الحديث، ومن دونه كلهم قد توبعوا.
وقوله: «علمني من هذا القول»: يعني: القرآن، كما جاء مصرَّحًا به في بعض الروايات.

به ساق يهوديٍّ ليضربه ويرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبة عامر فمات منه، قال: فلمَّا قفلوا قال سلمة: رآني رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي قال: «ما لك؟» قلت له: فداك أبي وأمي، زعموا أن عامرًا حبط عمله، قال النبي ﷺ: «**كذب مَن قاله إن له لأجرَيْن** – وجمع بين إصبعيه – **إنه لَجاهِدٌ مجاهِدٌ قلَّ عربيٌّ مشى بها مثله**»(١).

فرضي الله عن عامر، ورحمه، وقد فعل.

٨- الصحابي الجليل عبّاد بن بشر رضي الله عنه:

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع النبي ﷺ رجلًا يقرأ في المسجد، فقال: «**رحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتهن من سورة كذا وكذا**».

• وزاد عباد بن عبد الله عن عائشة رضي الله عنها: تهجَّد النبي ﷺ في بيتي، فسمع صوت عبَّاد يصلي في المسجد، فقال: «**يا عائشة، أصوت عبَّاد هذا؟**» قلت: نعم، قال: «**اللهم ارحم عبَّادًا**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٤١٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في مواضع (٢٦٥٥، ٥٠٣٧، ٥٠٣٨، ٥٠٤٢، ٦٣٣٥).
وفي الموضع الأول زاد البخاري تعليق عباد بن عبد الله بن الزبير، عن عائشة في التصريح باسم عباد رضي الله عنه.
قال الحافظ في «فتح الباري» (٥/ ٣١٤): وصله أبو يعلى من طريق محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة.
وأخرجه محمد بن نصر المروزي في «قيام الليل» كما في «إتحاف المهَرة» (٢١٧٧٢)، وكذا «مختصر قيام الليل» للمقريزي.
وقال الحافظ كذلك في «الإصابة» (٢/ ٢٦٣): وفي الصحيح عن عائشة أن النبي ﷺ سمع صوت عباد بن بشر فقال: «اللهم ارحم عبادًا» فإما عني أنه حديث صحيح، =

٩- أمُّ سليم بنت ملحان رضي الله عنها:

• عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ لم يكن يدخل بيتًا بالمدينة غير بيت أم سليم، إلَّا على أزواجه، فقيل له، فقال: «**إني أرحمها؛ قتل أخوها معي**»[(١)].

١٠- الأنصار رضي الله عنهم:

• عن أبي سعيدٍ الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبتَ، قسمتَ في قومك وأعطيتَ عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء. قال: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال: يا رسول الله ما أنا إلَّا امرؤ من قومي وما أنا؟! قال: «**فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة**» قال: فخرج سعد فجمع الناس في تلك الحظيرة قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم، فلما اجتموا أتاه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار.

قال: فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهلٌ، ثم قال: «**يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم وجِدَةٌ وجدتموها في**

هو في «الصحيح» معلقًا مجزومًا به.

وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/ ٣٤٢): وقال محمد بن إسحاق.. عن عائشة قالت: تهجّد رسول الله ﷺ فسمع صوت عبّاد فقال: «**اللهم اغفر له**».

(١) رواه البخاري (٢٨٤٤).

أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلَّالًا فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألَّف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بل الله ورسوله أمَنُّ وأفضل، قال: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟» قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المَنُّ والفضل؟ قال: «أمَا والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقْتُم وصُدِّقتُم، أتيتَنا مُكذَّبًا فصَدَّقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فأغنيناك، أوجَدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لُعاعةٍ من الدنيا تألَّفْتُ بها قومًا ليُسْلِمُوا وَوَكلتُكُم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكتُ شِعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قَسْمًا وحظًّا. ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرَّقنا(١).

١٠- الصحابي الأنصاري وامرأته اللَّذان أكرَمَا ضيْفَهما:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «إني مجهود» فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلَّا ماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلَّا ماء، فقال: «مَن يُضيف هذا الليلة رحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله

---

(١) إسناده صحيح: رواه أحمد في «مسنده» في «مسند المكثرين» وهو في «الصحيحين» مختصرًا ومطوَّلًا.

فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلَّا قوت صبياني، قال: فعلِّليهم بشيء فإذا دخل ضيفُنا فأطفئي السراج وأريه أنَّا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه، قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»[١].

أحاديث طيبة في الرحمة:

من الرحمة الإحسان إلى الضعيف وإعطاؤه حقه:

- قال رسول الله ﷺ: «إني أُحَرِّج حق الضعيفيْن: اليتيم والمرأة»[٢].
- وقال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يُقدِّس[٣] أمَّة لا يأخذ الضعيف حقَّه من القوي، وهو غير مُتعتَعٍ[٤]»[٥].
- وقال ﷺ: «إن الله تعالى لا يُقدِّس أمَّة لا يُعطون الضعيف منهم حقَّه»[٦].
- وقال ﷺ: «إنه لا قُدِّست أُمَّةٌ لا يأخذُ الضعيفُ فيها حقَّهُ غيرَ

---

(١) رواه البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤).

(٢) حسن: رواه الحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وابن ماجه، وابن حبان، وكذا رواه أحمد عن أبي هريرة، وحسّنه الألباني في «الصحيحة» (١٠١٥)، «وصحيح الجامع» (٢٤٤٧).

(٣) أي لا يُطهِّرها من الذنوب، ولا يُنزِّهها من المعايب.

(٤) أي: من غير أن يصيبه ما يزعجه.

(٥) صحيح: رواه البيهقي في «سننه» عن سفيان بن الحارث، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٥٧) و«تخريج المشكاة» (٣٠٠٤).

(٦) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٥٨)، و«تخريج المشكاة» (٣٠٠٤).

متَعْتع»(١).

رحمة الخدم والموالي والرقيقُ والإحسان إليهم وعِتقُهم:

• عن علي رضي الله عنه قال: كان آخر كلام النبي ﷺ: «الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما مَلَكَتْ أيمانكم (٢)»(٣).

• وقال ﷺ: «الصلاةَ وما مَلَكَتْ أيمانُكم، الصلاة وما ملكت إيمانُكُم»(٤).

• وقال ﷺ: «اتقوا الله في الصلاة، وما ملكتْ أيمانكم»(٥).

• وقال ﷺ: «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»(٦).

• وقال ﷺ: «لا تضربوا إماء الله»(٧).

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه عن أبي سعيد، والطبراني في «الكبير» عن معاوية، وابن مسعود، والبزار عن عائشة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٢١).

(٢) يعني: من العبيد والإماء.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وابن ماجه عن علي، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٢٣٩)، و«صحيح الجامع» (٤٦١٦).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبّان عن أنس، ورواه أحمد، وابن ماجه عن أم سلمة، ورواه الطبراني في «الكبير» عن ابن عمر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٧٣).

(٥) صحيح: رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» عن علي، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢١٧٨)، و«صحيح الجامع» (١٠٥).

(٦) صحيح: رواه البخاري في «الأدب المفرد» عن علي، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢١٧٨)، و«صحيح الجامع» (١٠٦).

(٧) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، والدارمي، وابن حبّان عن إياس بن عبد الله بن أبي ذئاب، وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٣٢٦١)، و«صحيح الجامع» (٧٣٦٠).

• وقال ﷺ: «إخوانكم خولُكُم(١)، جعلكم الله قنية(٢) تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليُطعمه من طعامه، وليلبسه من لباسه، ولا يُكلِّفه ما يغلبه، فإن كلَّفه ما يغلبه فليُعِنْهُ»(٣).

• وقال ﷺ: «أرقَّاءكم(٤) أرقَّاءكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، وإن جاؤوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تُعذِّبوهم»(٥).

• وقال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يُؤتَوْن أجرهم مرّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيِّه، وأدرك النبي ﷺ فآمن به، واتَّبعه وصدَّقه، فله أجْران، وعَبْدٌ مملوكٌ أدَّى حق الله وحقَّ سيِّده، فله أجران، ورجلٌ كانت له أَمَةٌ فغذَّاها فأحسن غذاءها، ثم أدَّبها فأحسن تأديبها، وعَلَّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها وتزوَّجها فله أجران»(٦).

• قال رسول الله ﷺ: «أجيبوا الدَّاعِي، ولا تردوا الهَدِيَّة، ولا تضربوا المسلمين»(٧).

---

(١) أي: خدمكم.
(٢) أي: مملوكين.
(٣) رواه أحمد، والبخاري، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه عن أبي ذر.
(٤) أي: حافظوا على عبيدكم وأكرموهم.
(٥) حسن: رواه أحمد (٤/ ٣٥- ٣٦) عن يزيد بن حارث، ورواه أحمد، وابن سعد عن زيد بن الخطاب، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٧٤٠)، و«صحيح الجامع» (٩٠٥).
(٦) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن أبي موسى.
(٧) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، والطبراني في «الكبير» والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٦١٦)، و«صحيح الجامع» (١٥٨).

• وقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما أعطاه خادمًا ليخدمه: «اذهب فإن في البيت ثلاثة، منهم غلامٌ قد صلَّى فخذه، ولا تضربهُ، فإنا قد نُهينا عن ضرب أهل الصلاة»[(١)].

• وقال رسول الله ﷺ: «كيف يُقدِّس الله أُمَّةً لا يأخذُ ضعيفُها حقَّهُ من قوِّيها، وهو غير مُتَعْتَع؟»[(٢)].

• وقال رسول الله ﷺ: «كيف يُقدِّس الله أمَّةً لا يُؤخَذُ من شديدهم لضعيفهم؟»[(٣)].

• وقال ﷺ: «مَن فَرّق بين والدةٍ[(٤)] وولدها، فَرَّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»[(٥)].

• وقال رسول الله ﷺ: «مَن لايَمَكُم[(٦)] مِن خَدَمِكُم فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ومن لا يلايمكم منهم، فبيعوه، ولا تعذِّبوا خَلْق الله»[(٧)].

---

(١) حسن: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي أمامة، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (١٤٢٨)، و«صحيح الجامع» (٨٦٠).

(٢) صحيح: رواه أبو يعلى، والبيهقي في «سننه» عن بريدة، ورواه ابن ماجه عن أبي سعيد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥٩٧).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه في «سننه»، وابن حبان عن جابر، وصححه الألباني في «مختصر العلو» (٥٨)، و«صحيح الجامع» (٤٥٩٨).

(٤) أي: مِن نساء السَّبي.

(٥) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، والترمذي، والحاكم في «المستدرك» عن أبي أيوب، وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٣٣٦١)، و«صحيح الجامع» (٦٤١٢).

(٦) لا يمكم: أي وافقكم وساعدكم.

(٧) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود عن أبي ذر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧٣٩)، «وصحيح الجامع» (٦٦٠٢).

• وقال ﷺ: «للملوك طعامُه وكِسْوَتُه، لا يُكَلَّفُ من العمل إلَّا ما يُطيق»(١).

• وقال ﷺ: «من أعتق رقبة مسلمة كانت فداؤه من النار»(٢).

• وقال رسول الله ﷺ: «عِتق النسمة(٣) أن تنفرد بعتقها، وفكُّ الرَّقبة أن تُعين في عتقها»(٤).

• وقال ﷺ: «أيُّما امرئٍ مُسلم أعتقَ امْرءً مسلِمًا فهو فكاكه من النار يُجزى بكُلِّ عظمٍ منه عظْمًا منه، وأيُّما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مُسلمة، فهي فكاكها من النار، يُجزى بكل عظم منها عظمًا منها، وأيُّما امرئ مسلم أعتق امرأتيْن مسلمتيْن فهما فكاكُه من النار، يُجزَى بكُلِّ عظْمَيْن منها عَظْمًا منه»(٥).

ابن عمر رضي الله عنهما الرحيم يعتق ألف إنسان:

□ عن نافع قال: «ما مات ابن عمر حتى أعتق ألف إنسان، أو زاد»(٦).

---

(١) رواه أحمد، ومسلم، والبيهقي في «سننه».
(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي عن عمرو بن عبسة، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٥٠).
(٣) النَّفْس والروح.
(٤) صحيح: رواه الطيالسي عن البراء، وكذا رواه أحمد، وابن حبان، والطحاوي، والدارقطني، والبيهقي في «سننه»، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢/ ٤٧)، و«الصحيحة» (١٢٢٤)، و«صحيح الجامع» (٣٩٧٦).
(٥) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن عبد الرحمن بن عوف، ورواه أبو داود، وابن ماجه، والطبراني في «الكبير» عن مرة بن كعب، ورواه الترمذي عن أبي أمامة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٧٠٠).
(٦) انظر: «سير أعلام النبلاء» ترجمة عبد الله بن عمر (٣/ ٢٠٣- ٢٣٩)، و«نزهة الفضلاء» (١/ ٢٥٧).

رحمة اليتامى والإحسان إليهم هم والأرامل والمساكين:

• قال رسول الله ﷺ: «أتحبُّ أن يلين قلبُك، وتُدرِكَ[١] حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامَك، يَلنْ قلبُك وتدرك حاجتَك»[٢].

• وقال رسول الله ﷺ: «أدْنِ اليتيم منك، وأَلْطِفهُ، وامسح برأسه، وأطْعِمهُ من طعامِك، فإنَّ ذلك يلينُ قلبَك، ويدرك حاجتك»[٣].

• وقال ﷺ: «إن أردت أن يلين قلبك فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم»[٤].

• وقال ﷺ: «أنا وكافِلُ اليتيم هكذا»[٥].

• وقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم له أوْ لغيره في الجنَّة، والساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»[٦].

---

(١) أي: تظفر بها وتنالها.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن أبي الدرداء، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٥٤)، و«صحيح الجامع» (٨٠).

(٣) حسن: رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» وابن عساكر عن أبي الدرداء، ورواه الضياء، والبيهقي وحسّنه الألباني في «الصحيحة» (٨٥٤)، و«صحيح الجامع» (٢٥٠).

(٤) حسن: رواه الطبراني في «مكارم الأخلاق»، والبيهقي في «شعب الإيمان» وأحمد عن أبي هريرة، وحَسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٨٥٤)، و«صحيح الجامع» (١٤١٠).

(٥) رواه أحمد، والبخاري، وأبو داود، والترمذي عن سهل بن سعد.

(٦) صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط» عن عائشة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٤٧٦).

أبو المساكين رحيم القلب جعفر بن أبي طالب السيد الشهيد الطيّار رضي الله عنه:

□ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كُنّا نُسمِّي جعفرًا «أبا المساكين»، كان يذهب بنا إلى بيته، فإذا لم يجدْ لنا شيئًا، أخرج إلينا عُكَّة [١] أثرها عسل، فنشقُّها ونلعَقُها» [٢].

أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية رضي الله عنها:

□ قال الذهبي «السير»: «تدعى أيضًا: أم المساكين، لكثرة معروفها أيضًا» [٣].

وهي أخت أم المؤمنين ميمونة لأُمها.

رحمة البنات والإحسان إليهنّ:

• قال رسول الله ﷺ: **«مَن عال [٤] جاريتيْن حتى يُدْرِكا [٥] دخلتُ أنا وهو الجنَّة كهاتيْن»** [٦].

• وقال ﷺ: **«من كان له ثلاثُ بناتٍ، فصبَرَ عليهنَّ، وأطعمهنَّ، سقاهُنَّ، وكساهُنَّ من جِدَتِهِ [٧]، كُنَّ له حجابًا من النار يوم القيامة»** [٨].

---

(١) العُكَّة: ظرف السمن.

(٢) انظر ترجمة جعفر بن أبي طالب في «السير» (١/ ٢٠٦- ٢١٧)، و«نزهة الفضلاء» (١/ ٣٩).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢١٨).

(٤) أي: قام برعايتهن.

(٥) يبلغا.

(٦) رواه مسلم، والترمذي، والحاكم عن أنس.

(٧) أيْ: من ماله الذي بذل جهده في كَسْبه.

(٨) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه عن عقبة بن عامر، وصححه الألباني في «الصحيحة» =

• وقال ﷺ: «من ابتُلي من هذه البنات بشيءٍ، فأحسن إليهنَّ، كُنَّ له سِتْرًا من النار»[(١)].

يا له من دين لو أنّ لو رجالاً:

انظر إلى آثار الرحمة التي بثَّها الإسلام في نفوس أتباعه، وإلى العواطف الكريمة، والمشاعر النبيلة التي تفيض بالرِّفْق والمرحمة، وتتدفّق بالبرِّ والخير، والتي تجلَّت فيما عُرِف بنظام «الوقف الخيري» عند المسلمين.

□ وانظر إلى العجب العجاب في هذه الأمثلة التي كانت موجودة في ديار المسلمين وبلادهم ودولتهم:

وقف الزبادي:

وقف تُشترى منه صحاف الخزف الصيني، فكل خادم كُسِرَت آنيته، وتُعرِّض لغضب مخدومه، له أن يذهب إلى إدارة الوقف فيترك الإناء المكسور، ويأخذ إناءً صحيحًا بدلًا منه، وبهذا ينجو من غضب مخدومه عليه.

وقف الكلاب الضالة:

وقف في عدة جهات يُنفق من ريعه على إطعام الكلاب التي ليس لها صاحب استنقاذًا لها من عذاب الجوع، حتى تستريح بالموت أو الاقتناء.

وقف الأعراس:

وقف لإعارة الحُلِيِّ والزينة في الأعراس والأفراح،يستعير الفقراء منه ما يلزمهم في أفراحهم وأعراسهم، ثم يُعيدون ما استعاروه إلى مكانه.

---

(٢٩٣)، (١٠٢٧)، و«صحيح الجامع» (٦٤٨٨).

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي عن عائشة.

وبهذا يتيسر للفقير أن يبرز يوم عرسه بِحُلَّةٍ لائقة ولعروسه أن تُجلى في حُلَّةٍ رائقة، حتى يكتمل الشعور بالفرح، وتنجبر الخواطر المكسورة.

وقف الغاضبات:

وقف يُؤسس من ريعة بيت. ويُعَد فيه الطعام والشراب، وما يحتاج إليه الساكنون، تذهب إليه الزوجة التي يقع بينها وبين زوجها نفور، وتظل آكلة شاربة إلى أن يذهب ما بينها وبين زوجها من الجفاء وتصفو النفوس، فتعود إلى بيت الزوجية من جديد.

وقف مؤنس المرضى والغرباء:

وقف يُنفق منه على عدة مؤذنين، من كل رخيم الصوت حسن الأداء، فيُرتِلون القصائد الدينية طول الليل، بحيث يُرتِّل كلٌّ منهم ساعة، حتى مطلع الفجر، سعيًا وراء التخفيف عن المريض الذي ليس له من يُخَفِّف عنه، وإيناس الغريب الذي ليس له من يُؤنسه.

وقف خداع المريض:

وقف فيه وظيفة من جملة وظائف المعالَجة في المستشفيات، وهي تكليف اثنين من الممرضين أن يقفا قريبًا من المريض، بحيث يسمعهما ولا يراهما، فيقول أحدهما لصاحبه: ماذا قال الطبيب عن هذا المريض؟ فيرد عليه الآخر: إن الطبيب يقول: إنه لا بأس فهو مرجوٌّ البرء، ولا يوجد في علته ما يُشغل البال، وربما نهض من فراش مرضه بعد يومين أو ثلاثة أيام.

وهكذا سلك الواقفون كل مسالك الخير، فلم يدعوا جانبًا من جوانب الحياة دون أن يكون للخير نصيب فيه.

وبهذا إنما يصدرون عن إحساسات إنسانية عميقة، تنفذ إلى مواطن

الحاجة التي تعرض للناس في كل زمان ومكان.

ولا شك أن العقيدة هي صاحبة الفضل في خلق هذه الأحاسيس الرقيقة، وإيقاظ تلك المشاعر السامية التي تنبهت لتلك الدقائق، في كل زاوية من زوايا المجتمع وكل منحى من مناحي الحياة، ولم يكفهم أن يكون برهم مقصورًا على حياتهم القصيرة، فأرادوا صدقة جارية، وحسنة دائمة، يُكتب لهم أجرها ما بقيت الحياة وبقي الإنسان»[١].

«أما المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعي، فقد كانت عجبًا من العجب، فهناك مؤسسات للُّقطاء واليتامى لختانهم ورعايتهم، ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجزة، يعيشون فيها موفوري الكرامة لهم كل ما يحتاجون من سكن وغذاء ولباس وتعليم أيضًا.

وهنالك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين ورفع مستواهم وتغذيتهم بالغذاء الواجب لصيانة صحتهم، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم ويخدمهم.

ومؤسسات لتزويج الشباب والفتيات العزّاب ممن تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور.. فما أروع هذه العاطفة وما أحوجنا إليها اليوم!.

□ ومنها مؤسسات لإمداد الأُمّهات بالحليب والسكَّر، وهي أسبق في الوجود من جمعية نقطة الحليب عندنا، مع تمحُّضها لخير الخالص لله عَزَّوَجَلَّ، وقد كان من مَبَرَّات صلاح الدين أنه جعل في أحد أبواب القلعة – الباقية حتى الآن في دمشق – ميزابًا يسيلُ منه الحليب، وميزابًا آخر يسيل منه الماء

(١) «الإيمان والحياة» (ص٢٨٦ – ٢٨٧) للدكتور يوسف القرضاوي – مكتبة وهبة.

المذاب فيه السكر تأتي إليه الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر..»[(١)].

ومن الرحمة صِلة الأرحام:

• قال رسول الله ﷺ: **«أحب الأعمال إلى الله إيمان بالله ثم صلة الرحم، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأبغض الأعمال إلى الله الإشراك بالله ثم قطيعة الرحم»**[(٢)].

• وقال ﷺ: **«أرحامكم أرحامكم»**[(٣)].

• وقال ﷺ: **«إن الله تعالى خَلَق الخلْق، حتى إذا فرغ مِن خلْقه قامت الرَّحِم، فقال: مَهْ[(٤)] قالت: هذا مقام العائذ[(٥)] بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضيْنَ أن أَصِلَ من وصلك، وأن أقطع من قطعَكِ؟ قالت: بلى يا رب! قال: فذلك لك»**[(٦)].

• وقال رسول الله ﷺ: **«إن الرَّحِم شُجْنة[(٧)] آخذة بحُجْزة[(٨)] الرحمن،**

---

(١) «من روائع حضارتنا» للدكتور مصطفى السباعي (ص٩٨- ٩٩)- طبع دار السلام.

(٢) حسن: رواه أبو يعلى عن رجل من خثعم، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٦).

(٣) صحيح: رواه ابن حبّان في «صحيحه» عن أنس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٣٨)، و«صحيح الجامع» (٨٩٤).

(٤) مَهْ:استفهام، معناه: ما تقولين؟.

(٥) أي: هذامقام المستجير بك.

(٦) رواه البخاري، ومسلم، والنسائي عن أبي هريرة.

(٧) متشابكة متماسكة.

(٨) الحجزة: الوسط، وهو موضع شد الإزار، والمعنى التجأت إليه واعتصمت واستجارت به.

تصل من وصلها، وتقطع من قطعها»[(١)].

• وقال ﷺ: **«بلُّوا [(٢)] أرحامكم ولوْ بالسَّلام»[(٣)].**

• وقال رسول الله ﷺ: **«الرَّحِم شجنة من الرحمن، قال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته»[(٤)].**

• وقال ﷺ: **«الرَّحِم مُعَلَّقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومَن قطعني قطعه الله»[(٥)].**

• وقال رسول الله ﷺ: **«قال الله تعالى: أنا خلقت الرحم، وشققت[(٦)] لها اسمًا من اسمى، فمن وصلَها وَصَلْتُه، ومن قطعَها قطعْتُه، ومَن بتَّها بتَتُّه»[(٧)].**

---

(١) حسن: رواه أحمد في «مسنده» عن ابن عباس، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (١٦٠٢)، و«صحيح الجامع» (١٦٢٩).

(٢) المراد: صِلوها بما يجب أن يُوصَل به.

(٣) حسن: رواه البزار عن ابن عباس، والطبراني في «الكبير» عن أبي الطفيل، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أنس وسويد بن عمرو الأنصاري، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٣٨).

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة وعن عائشة.

(٥) رواه مسلم عن عائشة.

(٦) المراد: أخذت لها اسمًا من اسمي.

(٧) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، وأبو داود، والترمذي، والحاكم عن عبد الرحمن بن عوف، ورواه الحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٢٠)، و«صحيح الجامع» (٤٣١٤).

رحمة الحيوان والرِّفق به:

• قال رسول الله ﷺ: «إذا سافرتم في الخصب[١] فأعطوا الإبل حظها من الأرض[٢]، وإذا سافرتم في السَّنة[٣] فأسرعوا عليها السير، وإذا عرَّستم[٤] بالليل فاجتنبوا الطريق، فإنها طرق الدواب. ومأوى الهوام[٥] بالليل»[٦].

• وقال رسول الله ﷺ: «إذا سرتم في أرض خصبة فأعطوا الدواب حظّها، وإذا سرتم في أرض مجدبة فانجوا[٧] عليها، وإذا عرَّستم فلا تعرَّسوا على قارعة الطريق[٨]، فإنها مأوى كل دابة»[٩].

• وقال ﷺ: «إنهُ عُرِضتْ عليَّ الجنةُ والنارُ، فقرُبَتْ مني الجنَّةُ، حتى لقدْ تناوَلتُ منها قِطْفًا[١٠]، قصُرتْ[١١] يَدي عنهُ، وعُرِضَتْ عليَّ النَّارُ

---

(١) أي: بأرضٍ فيها نبات وعشب.
(٢) أي: من نبات الأرض؛ تأكله.
(٣) أي: بالأرض التي انعدم النَّبت فيها أوْ قَلَّ.
(٤) أي: نزلتم للراحة والنوم.
(٥) الحشرات.
(٦) رواه مسلم، وأبو داود،والترمذي وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة.
(٧) أسرعوا عليها.
(٨) أوسطه وأعلاه.
(٩) صحيح: رواه البزار عن أنس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥٧)، و«صحيح الجامع» (٥٩٩).
(١٠) عُنقودًا.
(١١) أي: عجزت عنه فلم تبلغه.

فَجعلْتُ أتأخَّرُ رَهبةً أن تَغْشاني[١]، ورأيتُ امرأةً حِمْيَرِيَّةً سَوداءَ طَويلةً[٢]، تُعذَّبُ في هرَّةٍ[٣] لها ربَطتْها، فلمْ تُطعِمْها، ولم تَسقِها، ولم تَدعْها تأكلُ منْ خَشاشِ[٤] الأرضِ، ورأيتُ فيها أبا ثمامةَ عَمرو بنَ مالكٍ يَجرُّ قُصبَهُ[٥] في النارِ، وإنهمْ كانوا يقولونَ: إنَّ الشَّمسَ والقمرَ لا يَنكسفانِ إلَّا لموتِ عظيمٍ، وإنهُما آيتانِ مِنْ آياتِ الله، يُريكمُوهما، فإذا انكَسَفا فصلُّوا حتى تَنجَليَ[٦]»[٧].

• وقال رسول الله ﷺ: «يا أيُّها الناسُ! إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتان من آياتِ الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أَحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتم شيئًا من ذلك فصلوا حتى تنجلي، إنه ليس من شيءٍ توعدَونه إلَّا وقد رأَيتُه في صلاتي هذه، ولقد جيءَ بالنار حِين رأيتُموني تأخرتُ مخافة أن يصيبَني من لفحها[٨]، حتى قلتُ: يا ربِّ وأنا فيهم؟ ورأيت فيها صاحبَ المِحجَن، يَجُرُّ قُصْبَهُ في النار، كان يسرق الحاجَّ بمحجنه، فإن فُطِن به قال: إنما تعلَّق بمحجني! وإن غُفِل عنه ذَهب به، حتى رأَيتُ فيها صاحبةَ الهِرَّة التي ربطتها فلم تُطعِمها، ولم تتركها تأكلْ من خشاش الأرض

---

(١) أي: تصيبني وتُحيط بي.

(٢) حمير: قبيلة باليمن.

(٣) هرَّة: قِطّة.

(٤) حشرات الأرض، وصغار الطير.

(٥) أمعاءَه.

(٦) تظهر وتنكشف.

(٧) رواه مسلم عن جابر.

(٨) حرِّها ووهجِها.

حتى ماتت جوعًا»[١].

• وقال رسول الله ﷺ: «لا تُمَثِّلُوا بالبهائم»[٢].

• وقال ﷺ: «عِرِضت عليَّ الجنَّةُ، حتى لوْ مدَدْتُ يدي تناولتُ من قطوفها، وعُرِضت عليَّ النارُ، فجعلْت أنفخُ خشيةَ أنْ يغْشاكم[٣] حرُّها، ورأيتُ فيها سارقَ بدنة[٤] رسول الله، ورأيتُ فيها أخا بني دعدَع سارقَ الحجيجِ[٥]، فإذا فُطِنَ[٦] له قال: هذا عملُ المحجنِ[٧]، ورأيتُ فيْها امرأةً طويلةً سوداءَ تعذَّب في هرَّةٍ ربطتها، فلم تُطعمها، ولم تسْقِها، ولم تدَعها تأكُلُ من خُشاش الأرض حتّى ماتت، وإنَّ الشَّمسَ والقَمر لا ينكسِفان لموت أحدٍ ولا لحياته، ولكنَّهما آيتانِ من آيات الله، فإذا انكسف أحدهما فاسعوا إلى ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ»[٨].

• وقال رسول الله ﷺ: «في الكبدِ الحارَّةِ[٩] أجرٌ»[١٠].

(١) رواه أحمد في «مسنده»، ومسلم عن جابر.

(٢) صحيح: رواه النسائي، عن عبد الله بن جعفر، وابن عساكر عن ابن عمر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٤٣١)، و«صحيح الجامع» (٧٤٥١).

(٣) يصيبكم.

(٤) بقرة أو ناقة.

(٥) الحُجّاج.

(٦) تُنُبِّه له.

(٧) المحجن: عصا غليظة ملتويّة العنق كالسِّنّارة.

(٨) صحيح: رواه النسائي عن ابن عمر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٠٠١).

(٩) الحيوان الحي الذي لم نُؤمر بقتله، الذي عطش من شدَّة الحرِّ.

(١٠) صحيح: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن سراقة بن مالك، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٤٧)، و«صحيح الجامع» (٤٢٥٤).

• وقال رسول الله ﷺ: «قد دنَتْ مِنِّي الجنَّةُ، حتى لو اجترَأتُ عليْها[١] لجِئتُكم بقُطَافِ منْ قُطافِها، ودَنت منِّي النارُ حتى قلتُ: أيْ رَبِّ وأنا معهم؟ فإذا امرأةٌ تَخدِشُها[٢] هِرَّةٌ، قلتُ: ما شَأنُ هذهِ؟ قالوا: حبَسَتْها حتى ماتَت جُوعًا، لا هيَ أطعمتْها، ولا أرسلتها تأكُلُ منْ خُشَاشِ الأرضِ»[٣].

• وقال رسول الله ﷺ: «بينما رجلٌ يمشِي بطرِيق اشتدَّ عليه العطش، فوجدَ بِئرًا فنزلَ فيها، فشرِبَ منها، ثمَّ خرجَ، فإذا هو بكلبٍ يلهثُ[٤]، يأكُلُ الثرى[٥] منَ العطشِ، فقال: لقدْ بلغَ هذا الكلبَ منَ العطشِ مِثلُ الذي بلغَ بي، فنزلَ البئرَ، فملأ خُفَّهُ ماءَ، ثمَّ أمسكَ بفيهِ، ثمَّ رَقَى[٦]، فسقَى الكلبَ، فشكر الله، فغفر لهُ، في كلِّ ذاتِ كبدٍ رطبَةٍ أجرٌ[٧]»[٨].

• وقال رسول الله ﷺ: «غُفِرَ لامرأةٍ مُومِسةٍ[٩]، مرَّتْ بكلبٍ على رأس رَكيٍّ[١٠] يلهثُ، كادَ يقتُلُه العطشُ، فنزعتْ خُفَّها فأوثقته بخِمارِها،

---

(١) أيْ: أقدمتُ عليها.
(٢) تجرحها فتشق جلدها.
(٣) رواه البخاري عن أسماء بنت أبي بكر.
(٤) يُخرج لسانه من شدّة العطش.
(٥) التراب.
(٦) صعد وعلا.
(٧) كل حيوان لم يُؤمَر بقتله، به رطوبة الحياة.
(٨) رواه مالك، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود عن أبي هريرة.
(٩) زانية.
(١٠) بئر.

فنَزَعَت [(١)] له من الماءِ، فغُفِرَ لها بذلك» [(٢)].

• وقال رسول الله ﷺ: «عُذِّبت امرأةٌ في هرَّةٍ؛ حبستها حتى ماتتْ جوعًا، فدَخلتْ فيها النار، قال الله: لا أنتِ أَطْعَمْتِيها ولا سقيْتِيها حين حبسْتيها، ولا أنتِ أرسلْتيها [(٣)]، فأكلَتْ منْ خَشاشِ الأرضِ» [(٤)].

• وقال رسول الله ﷺ: «عُذِّبت امْرأةٌ في هِرٍّ ربطتهُ، حتى مات، ولم تُرْسلهُ فيأكلَ من خَشاش الأرضِ، فوجبت لها النارُ بذلك» [(٥)].

• وقال رسول الله ﷺ: «دخلتِ امرأةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ ربطتْها؛ فلمْ تطعِمهَا، ولمْ تدعْها تأكلُ مِنْ خَشاشِ الأرضِ؛ حتَّى ماتتْ» [(٦)].

• وقال رسول الله ﷺ: «لعنَ الله مَنْ مثَّلَ [(٧)] بالحيوانِ» [(٨)].

• وقال ﷺ: «لقدْ دنَتْ مِنِّي الجَنَّةُ، حتَّى لو اجترأتُ عليها لجِئتُكمْ بقِطَافٍ منْ قِطافِها، ودَنَتْ مني النارُ حتى قُلتُ: أيْ رَبِّ! وأنَا فيهِمْ؟ ورأيتُ امرأة تَخدِشُها هِرَّةٌ لها، فقُلتُ: ما شَأنُ هذهِ؟ قالَ: حبَسَتْها حتَّى

---

(١) أخرجت.

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة، وكذا رواه أحمد، ومسلم.

(٣) تركتيها.

(٤) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن ابن عمر، والدارقني في «الأفراد» عن أبي هريرة.

(٥) صحيح: رواه أحمد عن جابر، وصححه الألباني في «الإرواء» (٦٥٦)، و«صحيح الجامع» (٣٩٩٦).

(٦) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وابن ماجه عن أبي هريرة، وروراه البخاري عن ابن عمر.

(٧) نكّل به وشوَّهه.

(٨) رواه أحمد،والبخاري، ومسلم، والنسائي عن ابن عمر.

ماتَتْ جُوعًا، لا هيَ أَطعمَتْها، ولَا هيَ أرسلَتها تأكُلُ منْ خَشَاشِ الأرضِ»[١].

• وقال ﷺ: «لكَ في كلِّ ذاتِ كبدٍ حرَّى أجرٌ»[٢].

• وقال رسول الله ﷺ: «مَن رَحِم ولو ذبيحة عُصفورٍ، رحمه الله يوم القيامة»[٣].

□ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إذا أخصبت الأرض فانزلوا عن ظهركم، وأعطُوه حقَّهُ من الكَلأ، وإذا أجدبت الأرض فامضوا عليها، وعليكم بالدلجة؛ فإن الأرض تُطوى من الليل»[٤].

□ وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «إيَّاكُم أن تتَّخذوا ظهور دوابكم منابر؛ فإن الله – تعالى – إنما سخَّرها لكم لتبلغكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالِغيه إلَّا بشقِّ الأنفس، وجعل لكم الأرض؛ فَعَلَيْها فاقضوا حاجاتكم»[٥].

• وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو غُفِر لكم ما تأتون إلى

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، وابن ماجه عن أسماء بنت أبي بكر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٣١).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن مخول السلمي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٥٦).

(٣) حسن: رواه البخاري في «الأدب المفرد»، والطبراني في «الكبير» والضياء في «المختارة» عن أبي أمامة، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٧)، و«صحيح الجامع» (٦٢٦١).

(٤) صحيح: انظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٨٢).

(٥) صحيح: رواه أبو داود، والبيهقي في «سننه»، وابن عساكر عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٢)، و«صحيح الجامع» (٢٦٩١).

البهائم لغُفِر لكم كثير»(١).

• وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان العباس يسير مع النبي ﷺ على بعير قد وسمه في وجهه بالنار، فقال: «ما هذا المِيْسَمُ يا عبّاس؟!» قال: ميسم كُنّا نَسِمُه في الجاهلية. فقال: «لا تسموا بالحريق»(٢).

• وعن يحيى بن سعيد: أن رسول الله ﷺ رُؤيَ وهو يمسحُ وجه فرسِه بردائه، فسُئِل عن ذلك؟ فقال: «إني عُوتبت الليلة في الخيل»(٣).

رِفْق الإسلام بالحيوان ورحمته تدعو للعجب والدهشة:

* يا لعِظم الإسلام حين يُقرر لعالم الحيوان خصائصه وطبائعه وشعوره ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] فله حق الرفق والرحمة كحق الإنسان.

• قال ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»(٤).

• وقال ﷺ: «مَن أُعْطِي حظَّه من الرِّفْق، فقد أُعْطي حَظَّهُ من الخيْر، ومَنْ حُرِم حَظَّهُ من الرِّفْق، فقد حُرِم حظَّهُ من الخير»(٥)، وجعل الرحمة بالحيوان قد تُدخِل صاحبها الجنة، كما أن القسوة عليه تُدخِل النار كما مَرّ

(١) حسن: رواه أحمد في «مسنده»، والطبراني في «الكبير»، وحسّنه الألباني في «الصحيحة» (٥١٤)، و«صحيح الجامع» (٥٢٧٤).

(٢) صحيح: انظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٠٥).

(٣) صحيح: انظر: «السلسلة الصحيحة» (٣١٨٧).

(٤) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» عن جرير، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٣٨١).

(٥) صحيح: رواه أحمد، والترمذي عن أبي الدرداء، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥١٩) و(٨٧٤) و«صحيح الجامع» (٦٠٥٥).

في الأحاديث السابق ذكرها.

• وتمضي الشريعة في تشريع الرحمة بالحيوان، فتحرِّم المُكث طويلًا على ظهره وهو واقف، فقد قال ﷺ: «**اركبوا هذه الدوابَّ سالمة، وابتدعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي**»[١].

• وتُحرِّم إجاعته وتعريضه للضّعف والهزال، فقد مرّ ﷺ ببعير قد لصق ظهر ببطنه فقال: «**اتقوا الله في البهائم المعجمة، فاركبوها صالحةً، وكلوها صالحة**»[٢].

كما يحرِّمُ الإسلامُ إرهاقَ الحيوان بالعملِ فوقَ ما يتحمَّل.

• عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: أَرْدَفني رسول الله ﷺ ذاتَ يومٍ فَأَسَرَّ إليَّ حديثًا لا أحدِّث به أحدًا من النَّاس، وكان أحبُّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفًا[٣] أو حائشَ نخلٍ، قال: فدخل حائطًا لرجلٍ من الأنصار فإذا جملٌ، فلمّا رأى النبيَّ ﷺ حَنَّ وذَرَفَتْ عيناهُ، فأتاهُ النبيُّ ﷺ فمسح ذِفْرَاهُ[٤]، فقال: «**منْ رَبُّ هذا الجملِ. لمنْ هذا الجمل؟**». فجاء فتًى من الأنصارِ فقال: لي يا رسول الله. فقال: «**أفلا تتَّقِي الله في هذه**

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، وأبو يعلى، والطبراني في «الكبير»، والحاكم في «المستدرك» عن معاذ بن أنس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢١)، و«صحيح الجامع» (٩٠٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن خزيمة، وابن حبان عن سهل بن الحنظلية، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣)، و«صحيح الجامع» (١٠٤).

(٣) الهدف: ما ارتفع من بناءٍ ونحوه.

(٤) ذفراه: ذفري البعير: الموضع الذي يعرق من قفاه.

البهيمَةِ التي ملَّكَكَ اللهُ إيَّاها، فإنَّه شَكَى إليَّ أنَّك تُجِيعُهُ وتُدْئِبُهُ[١]»[٢].

• ونهى عن اتخاذ الحيوان هدفًا لتعليم الإصابة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا شيئًا فيه الرُّوحُ غرضًا»[٣].

• ونهى عن وسمها في وجوهها بالكيّ بالنار، فقد قال ﷺ: «لعنَ اللهُ مَن يَسِمُ في الوَجْه»[٤].

وما أروع هذه الرحمة بالحيوان:

• اسمعوا ما أروع هذه الرحمة بالحيوان وأبلغ دلالتها على روح حضارتنا. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كنا مع رسول الله في سفر، فرأينا حُمَّرة – طير يشبه العصفور- معها فرخان لها، فأخذناهما فجاءت الحمّرة تعرّش –ترفرف بجناحيها-، فلما جاء رسول الله ﷺ قال: «**من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها**». ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال: «**من أحرق هذه؟**» قلنا: نحن، قال: «**إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلَّا رب النار**»[٥].

---

(١) تُتْعِبَهُ وتشقيه.

(٢) صحيح: رواه أبو داود في «سننه» (٢٥٤٩)، وقال الأرناؤوط في «جامع الأصول» (٤/ ٥٢٧): «إسناده صحيح وهو عند مسلم بدون قصة الجمل».

(٣) رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجه عن ابن عباس.

(٤) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس، ورواه مسلم، وأبو داود وابن حبان عن جابر. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢١٤٩)، و«صحيح الجامع» (٥١١٠).

(٥) صحيح: رواه أبو داود عن ابن مسعود، ومسلم عن كعب بن مالك، صحح الألباني حديث أبي داود في «الصحيحة» رقم (٢٥)، (٤٨٧)، و«صحيح الجامع» (٢٤٢٥).

وعلى ضوء هذه التعاليم يقرر الفقهاء المسلمون من أحكام الرحمة بالحيوان ما لا يخطر بالبال، فهم يقررون أن النفقة على الحيوان واجبة على مالكه، فإن امتنع أجبر على بيعه أو الإنفاق عليه، أو تسييبه إلى مكان يجد فيه رزقه ومأمنه، أو ذبحه إذا كان مما يؤكل. وقد ذهبوا إلى ما هو أبعد من هذا، فقال بعضهم: «إذا لجأت هرة عمياء إلى بيت شخص وجبت نفقتها عليه حيث لم تقدر على الانصراف». ومنعوا من تحميل الحيوان أكثر مما يطيق، ورتبوا على هذا نتائج حقوقية في حق من استأجر حيوانًا للحمل أو الركوب فحمّله أكثر مما يستطيع، فألزموه بضمان ثمنه لمالكه. وتعرضوا لمقدار ما يستطيع البغل والحمار حمله، ومن الطريف أن بعض الفقهاء قدر لكل منهما مقدارًا لم يرض فقيهًا آخر، فعقب على ذلك بقوله: لعمري إن هذا إنصاف للبغل وإجحاف كبير بالحمار. أما جناية الحيوان على غيره، فهي جبار، أي مهدرة، فالحيوان لا يعاقب بما جنى على غيره، وإنما يعاقب صاحبه إذا فرط في حفظه وربطه.

هذه هي مبادئ الرفق بالحيوان في حضارتنا وتشريعنا. فكيف كان الواقع التطبيقي لها؟.

• بينما رسول الله ﷺ في بعض سفره، إذ سمع امرأة من الأنصار تلعن ناقة لها وهي تركبها. فأنكر ذلك عليها وقال: «**خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة**»، وأُخذت الناقة وتركت تمشي في الناس لا يعرض لها أحد[(١)].

• وقال ﷺ: «**لا وأيمُ الله، لا تصاحبنا راحلة عليها لعنة**»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم عن أبي بردة.

□ ومر عمر برجل يسحب شاة برجلها ليذبحها فقال له: «ويلك قُدْها إلى الموت قودًا جميلًا».

وهكذا كان طابع حضارتنا رفقًا بالحيوان وعناية به من قبل الدولة والمؤسسات الاجتماعية.

أما عناية الدولة فليس أدل على ذلك من أن خلفاءنا كانوا يذيعون البلاغات العامة على الشعب يوصونهم فيها بالرفق بالحيوان ومنع الأذى عنه والإضرار به.

فقد أذاع عمر بن عبد العزيز في إحدى رسائله إلى الولاة أن ينهوا الناس عن ركض الفرس في غير حق.

وكتب إلى صاحب السكك – وهي وظيفة تشبه مصلحة السير- أن لا يسمحوا لأحدٍ بإلجام دابَّته بلجام ثقيل، أو أن ينخسها بمقرعة في أسفلها حديدة.

وكان من وظيفة المحتسب – وهي وظيفة تشبه في بعض صلاحياتها وظيفة الشرطي في عصرنا الحاضر- أن يمنع الناس من تحميل الدواب فوق ما تطيق، أو تعذيبها وضربها أثناء السير، فمن رآه يفعل ذلك أدَّبه وعاقبه: «ويجبرهم المحتسب على فعل ذلك لما فيه من المصلحة، ولا يحمّلون الدواب أكثر من طاقتها، ولا يسوقونها سوقًا شديدًا تحت الأحمال، ولا يضربونها ضربًا قويًّا، ولا يوقفونها في العراص – الساحات العامة- وعلى ظهورها أحمالها؛ فإن هذا كله نهت الشريعة المطهرة عن فعله. وعليهم أن يراقبوا الله ﷻ في علف الدابة وعليقها، ويكون موفرًا عليها بحيث يحصل به الشبع، ولا يكون مبخوسًا ولا نزرًا».

وأما المؤسسات الاجتماعية: فقد كان للحيوان منها نصيب كبير.

وحسبنا أن نجد في ثبت الأوقاف القديمة أوقافًا خاصة لتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقافًا لرعي الحيوانات المسنة العاجزة. ومنها أرض المرج الأخضر – التي يقام عليها الآن الملعب البلدي بدمشق - فإنها وقف للخيول العاجزة التي يأبى أصحابها أن ينفقوا عليها لعدم الانتفاع بها، فترعى في هذه الأرض حتى تموت. ومن أوقاف دمشق وقف للقطط تأكل منه وترعى وتنام، حتى لقد كان يجتمع في دارها المخصصة لها مئات القطط الفارهة السمينة التي يقدم لها الطعام كل يوم وهي مقيمة لا تتحرك إلَّا للرياضة والنزهة.

وهذا كله يدلك على روح الشعب الذي بلغ من الرفق بالحيوان إلى هذا الحد وهو ما لا تجد له مثيلًا. ولعل أصدق أمثال عن روح الشعب في ظل حضارتنا، أن ترى صحابيًّا جليلًا كأبي الدرداء يكون له بعير فيقول له عند الموت: «يا أيها البعير لا تخاصمني إلى ربك فإني لم أكن أحملك فوق طاقتك».

□ وأن صحابيًّا كعدي بن حاتم كان يفتّ الخبز للنمل ويقول: «إنهن جارات لنا ولهن علينا حق».

□ وأن إمامًا كبيرًا كأبي إسحاق الشيرازي كان يمشي في طريق ومعه بعض أصحابه، فعرض له كلب فزجره صاحبه فنهاه الشيخ وقال له: «أما علمت أن الطريق مشترك بيننا وبينه؟»[1].

وبضدِّها تتبيَّن الأشياء.. أين حضارة الإسلام من ظُلُماتِ الغرب:

«لا نستطيع أن نقدِّر هذه الظاهرة البارزة في حضارتنا وموقفها الإنساني الكريم مع الحيوان إلَّا إذا عَلِمنا كيف كان يعامل الحيوان في

(١) «من روائع حضارتنا» (ص٨٧- ٨٩).

العصور القديمة والوسطى، وكيف كان موقف الأمم منه ومِن جناياته وتعذيبه.

وأول ما يلفت النظر في ذلك أنك لا تجد في تعاليم تلك الشعوب ما يحمل على الرفق بالحيوان ووجوب الرحمة به. ومن ثم فلا تجد له حقوقًا على صاحبه من نفقة ورعاية.

ويلفت النظر بعد ذلك أخذ الحيوان بجناياته إذا جنى أو جنى صاحبه، ومعاملته في المسؤولية كمعاملة الإنسان العاقل المفكر! وهذا أغرب ما تضمنه تاريخ العصور القديمة والوسطى حتى القرن التاسع عشر، فقد كان الحيوان يحاكم فيها كما يحاكم الإنسان. ويحكم عليه بالسجن والتشريد والموت كما يحكم على الإنسان الجاني تمامًا!.

ففي شرائع اليهود: «إذا نطح ثور رجلًا أو امرأة وأفضى ذلك إلى موت النطيح، وجب رجم الثور، وحرم أكل لحمه ولا تبعة على مالكه إذا لم يكن الثور معتادًا النطح، فإذا كان ذلك من عادته، وأنذر الناس صاحبه فلم يعبأ بإنذارهم وأهمل رقابته حتى تسبب في هلاك رجل أو امرأة، كان جزاء الثور الرجم وجزاء صاحبه الإعدام».

وهناك حالة ثانية يعاقب فيها الحيوان في شرائع اليهود، وهي ما إذا واقع رجل أو امرأة بهيمة وجب قتل الحيوان والرجل أو المرأة معًا.

وفي شرائع قدماء اليونان: كانت عندهم محكمة خاصة لمحاكمة الحيوانات والجمادات المتسببة في هلاك إنسان، وكان يطلق على هذه المحكمة اسم «البريتانيون» وهو اسم المكان الذي كانت تعقد جلساتها فيه. ومما ذكره أفلاطون في كتابه القوانين: إذا قتل حيوان إنسانًا كان

لأسرة القتيل الحق في إقامة دعوى على الحيوان أمام القضاء، ويختار أولياء الدم القضاة من المزارعين. وفي حال ثبوت الجريمة على الحيوان يجب قتله قصاصًا، وإلقاء جثته خارج البلاد، ويستثنى من ذلك القتل الناشئ عن مبارزة بين الإنسان والحيوان في مسرح الألعاب العمومية، فإن هذا لا يترتب عليه شيء. وإذا سقط جماد على إنسان فقتله، اختار أقرب الناس إلى القتيل قاضيًا من جيرانه ليحكم على الجماد أن ينبذ خارج الحدود، ولم تكن مسؤولية الحيوان عندهم قاصرة على حالات القتل، بل هو مسؤول كذلك في الجنايات التي دون القتل. فإذا عض كلب إنسانًا وجب على صاحب الكلب أن يسلم كلبه إلى المجني عليه مكمومًا ومشدودًا في الوثاق يثأر لنفسه منه كيف يشاء، بالقتل أو التعذيب أو غيرهما. وكذلك كان الحيوان عندهم يُعاقب على جناية سيده أو أسرته في بعض الحالات، فمن حُكِم عليه بالإعدام لجريمة ارتكبها ضد الدين أو الدولة كان هو وأسرته وحيواناته وممتلكاته محكومًا عليها بالحرق أو التدمير أو المصادرة.

أما قدماء الرومان: فقد تضمنت شرائعهم مادة تقضي بعقوبة الإعدام على الثور وصاحبه إذا نقل الثور أثناء الحرث الحد الفاصل بين الحقل المحروث والحقل المجاور له. وأقرت عقوبة الكلب الذي يعض إنسانًا بوجوب التخلي عنه للمعضوض يتصرف فيه كما يشاء، وكذلك إذا رعى الحيوان عشبًا غير مملوك لصاحبه.

وكذلك الحال عند قدماء الجرمان من عقوبة الحيوان كما كان عند الرومان واليونان.

أما عند قدماء الفرس: فالأمر أعجب وأطرف، ذلك أن الكلب

المصاب بالكَلَب إذا عض خروفًا فقتله، أو إنسانًا فجرحه، تقطع أذنه اليمنى، فإن تكرر ذلك منه قطعت أذنه اليسرى، وفي المرة الثالثة تقطع رجله اليمنى، وفي الرابعة تقطع رجله اليسرى وفي الخامسة يستأصل ذنبه!.

وعند الأمم الأوربية في العصور الوسطى: كانت فرنسا أول أمة أوربية مسيحية أخذت في القرن الثالث عشر بمبدأ مسؤولية الحيوان ومعاقبته بجرمه أمام محاكم منظمة بنفس الطرق القانونية التي يحاكم فيها الإنسان. ثم أخذت به سردينيا في أواخر القرن الرابع عشر. ثم بلجيكا في أواخر القرن الخامس عشر. وفي هولندا وألمانيا وإيطاليا والسويد في منتصف القرن السادس عشر. وظل العمل به قائمًا عند بعض شعوب الصقالبة حتى القرن التاسع عشر!.

كانت محاكمة الحيوان عند الأوربيين تقوم على ادعاء المجني عليه أو النيابة العامة، ثم يتقدم وكلاء الدفاع عن الحيوان المجرم، وقد تقضي المحكمة بحبس الحيوان احتياطيًّا! ثم يصدر الحكم بعد ذلك وينفذ على ملأ من الجمهور كما كان ينفذ في الإنسان. وقد يكون الحكم بإعدام الحيوان رجمًا أو بقطع رأسه أو بحرقه، أو بقطع بعض أعضائه قبل إعدامه، ولا يظنن أحد أن هذه المحاكمة كانت هزلية للتسلية، بل كانت جدية تمامًا، بدليل ما يرد للأسباب الموجبة للحكم على الحيوان من مثل قولهم: «يحكم بإعدام الحيوان تحقيقًا للعدالة» أو «يقضى عليه بالشنق جزاء لما ارتكبه من جرم وحشي فظيع!» ومن طريف ما يذكر هنا أن من الأسباب التي كانت تحمل الأوربيين على رفع القضايا على الحيوان: تعديه على قوانين الطبيعة في نظرهم، فكان يتهم بالسحر وهي جريمة كان

مرتكبوها يُعاقبون بالإحراق بالنار، وكانوا يحتفلون احتفالًا كبيرًا بتنفيذ العقوبات على الحيوان، فيأتي الجلّادون بقطع من الحطب، ويضعونها في وسط أحد الميادين، وتحضر القطط المحكوم عيها، كل هرة في قفص من حديد وعندما يحين وقت تنفيذ العقوبة يحضر بعض القساوسة يصحبهم بعض الحكام، فيتقدم أحدهم وفي كلتا يديه شعلتان من نار لإشعال الحطب، ثم يأمر أحد الحكام بقذف القطط في النار حتى تصبح رمادًا عقوبة لها على ممارستها السحر!»(١).

◻ يقول الدكتور مصطفى السباعي: «إن حضارتنا امتازت بأمريْن لا مثيل لهما عند الأمم القديمة وبعض الأمم الحديث اليوم:

أولهما: إقامة مؤسسات اجتماعية للعناية بالحيوان وتطبيبه وتأمين معيشته عند العجز والمرض والشيخوخة.

ثانيهما: أن حضارتنا خلت من محاكمة الحيوان لأنها نادت برفع المسؤولية الجنائية عنه قبل ثلاثة عشر قرنًا من مناداة الحضارة الحديثة بذلك. كما أن حضارتنا خلت من مظاهر القسوة والتحريش بين الحيوانات، وهي التي كانت معترفًا بها رسميًّا لدى اليونان والرومان، ولا تزال معترفًا بها في أسبانيا حيث تقام الحفلات الكبرى لمصارعة الثيران، وهي بلا شك وحشية من بقايا وحشية الغربيين القدماء وفي العصور الوسطى.. قد تنزهت عنها حضارتنا»(٢).

---

(١)«من روائع حضارتنا» (ص٨٩- ٩٠).

(٢)المصدر السابق (ص٩٣).

عمرو بن العاص رضي الله عنه وحمامة (أو يمامة) الفسطاط:

□ يروى المؤرخون أن عمرو بن العاص رضي الله عنه في فتح مصر نزلت حمامة بفسطاطه – خيمته- فاتخذت من أعلاه عشًّا، وحين أراد عمرو الرحيل رآها، فلم يشأ أن يهيِّجها بتقويضه، فتركه وتكاثر العمران من حوله فكانت مدينة الفسطاط».

□ قال الرافعي أديب الإسلام: «وشاع الخبر أنه [١] لما أمر بفسطاطه أن يُقوَّض أصابوا يمامة قد باضت في أعلاه، فأخبروه فقال: «قد تحرَّمَت في جوارنا، أَقِرُّوا الفسطاط حتى تطير فراخها فأقرُّوه!!».

على فُسطاط الأمير يمامةٌ جاثمة تَحْضُن بيضَها
تركها الأميرُ تصنَعُ الحياة، وذهبَ هو ليصنع الموت!
يمامة سعيدة، ستكونُ في التاريخ كهُدْهُد سليمان،
نُسِب الهدهدُ إلى سليمان، وستنسبُ اليمامةُ إلى عمرو [٢].

أحاديث من رياض النُّبُوَّة:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أَتَى أحدَكُم خادِمه بطعامِهِ قدْ كفاهُ علاجُه ودخانُه فليُجلسه معه، فإنْ لم يجلسه معه فليتناوله أكلةً أوْ أكلتين»**[٣].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: **«إذا أتى أحدكم خادِمُهُ بطعامٍ قد وَلِيَ**

(١) أي عمرو بن العاص رضي الله عنه.
(٢) «وحي القلم» للرافعي (١/ ٢٤، ٢٥) – دار الكتب العلمية.
(٣) رواه أحمد البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

حرَّهُ ومشقَّته ومُؤْنَتَهُ فليُجلسهُ معه، فإن أبى فليُناولهُ أكْلَةً في يده»(١).

• وقال رسول الله ﷺ: «من لا يَرْحَم لا يُرْحَم، ومَنْ لا يَغفِر لا يُغفِر له، ومن لا يتُب لا يُتَب عليه»(٢).

• وقال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم لا يُرْحَم، ومن لا يَغفِرْ لا يُغفر له»(٣).

• وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ بعث سريَّةً فغنموا وفيهم رجل، فقال لهم: إني لستُ منهم، عشقت امرأة فلحقتها، فدعوني أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بي ما بدالكم، فنظروا فإذا امرأة طويلة أدماء فقال لها: أسلمي حبيش قبل نفاذ العيش..

أرأيت لو تبعتكم فلحقتكم ... بحلية أو أدركتكم بالخوانقِ

أما كان حقٌّ أنْ يُنَوَّل عاشقٌ ... تكلفَ إدلاج السُّرَى والودائقِ

قالت: نعم فدَيْتك، فقدّموه فضربوا عنقَه، فجاءت المرأة فوقفت عليه، فشهقت شهقة ثم ماتت، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أُخبِر بذلك، فقال: «أما كان فيكم رجلٌ رحيم؟!»(٤).

• عن رباح بن ربيع رضي الله عنه قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فرأى

---

(١) صحيح: انظر: «السلسلة الصحيحة» (١٢٨٥)، (٢٥٦٨).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن جرير، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٦٠٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» عن جرير، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٩٩).

(٤) صحيح: انظر: «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٥٩٤).

الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلًا فقال: «**انظر علام اجتمع هؤلاء؟**» فجاء فقال: امرأة قتيل. فقال: «**ما كانت هذه لتقاتل!**». قال: وعلى المقدِّمة خالد بن الوليد رضي الله عنه، فبعث رجلًا فقال: «**قل لخالد: لا يقتلنَّ امرأة ولا عسيفًا**»(١).

• وعن طارق الأشجعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قل اللهم اغفر لي، وارحمني، وعافِني، وارزقني، فإنَّ هؤلاء تجمعُ لك دُنْيَاكَ وآخرتك**»(٢).

• أن النبي ﷺ: «**نهى عن المُثْلة**(٣)»(٤).

• وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: «**نهى عن قتل النساء والصبيان**»(٥).

• وعن أبي أيوب رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «**نهى عن قتل الصَّبر**»(٦).

• عن أبي عنبة الخولاني يرفعه إلى النبي ﷺ: «**إن لله آنيةً من أهل الأرض، وآنيةُ ربِّكم قلوب عباده الصالحين، وأحبُّها إليه ألينُها وأرقُّها**»(٧).

---

(١) صحيح: انظر: «السلسلة الصحيحة» رقم (٧٠١).
(٢) رواه أحمد، ومسلم، وابن ماجه.
(٣) تشويه القتيل.
(٤) صحيح: رواه الحاكم عن عمران، والطبراني في «الكبير» عن ابن عمر، وعن المغيرة، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٢٣٠)، و«صحيح الجامع» (٦٨٩٩).
(٥) رواه البخاري ومسلم.
(٦) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان عن أبي أيوب، وكذا رواه أحمد ومسلم عن جابر.
(٧) حسن: رواه الطبراني في «الكبير»، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (١٦٩١)، =

• وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «إنه من أُعطِي حظه من الرِّفْق، فقد أُعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار يُعَمِّران الديار، ويزيدان في الأعمار»(١).

• وعن عبيد الله بن معمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما أُعْطِيَ أهلُ بيتٍ الرِّفق إلَّا نفعهم، ولا منعوه إلَّا ضَرَّهُم»(٢).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «المملوك أخوك؛ فإذا صنَعَ لك طعامًا فَأَجلِسه مَعَك، فإنْ أَبَى فأَطْعِمْهُ، ولا تضربوا وُجُوهَهُم»(٣).

• عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي للمؤمن أن يكون لعَّانًا»(٤).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لصِدِّيق أن يكون لعَّانًا»(٥).

• وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال لها: «يا عائشة ارفقي؛ فإن الله إذا أراد بأهلِ بيتٍ خيرًا دلَّهم على باب الرِّفْق»(٦).

و«صحيح الجامع» (٢١٦٣).

(١) صحيح: انظر: «الصحيحة» رقم (٥١٩).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٤٢)، و«صحيح الجامع» (٥٥٤١).

(٣) صحيح: انظر: «الصحيحة» (٢٥٢٧).

(٤) صحيح: انظر: «الصحيحة» رقم (٢٦٣٦).

(٥) رواه أحمد، ومسلم، والبخاري في «الأدب المفرد».

(٦) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٦/ ١٠٤)، والمنذري (٢/ ٢٦٢). وقال: رواه أحمد والبزار من حديث جابر ورواتها رواة «الصحيح» وقال الهيثمي في «المجمع»

وفي رواية: «إذا أراد الله بأهل بيتٍ خيرًا دَلَّهم على الرِّفق».

الرحمة والرأفة، والشفقة والرِّقة:

الرحمة:

□ تدور مادَّةُ (رح م) حول معنى الرِّقَّة والعطف والرَّأْفة، يقول ابن فارسٍ: «الرَّاءُ والحاء والميم أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الرقَّة والعطف والرَّأفة. يقال من ذلك رحمهُ يرحَمُه إذا رَقَّ له وتعطَّفَ عليه، والرُّحْمُ والمَرْحمةُ والرَّحْمَةُ بمعْنًى»[(١)].

□ ويقول الجوهري: «الرحْمَةُ: الرِّقَّةُ والتَّعطُّفُ. والمَرْحمةُ مثله، وقد رحمته وترحَّمتُ عليه، وتَراحَمَ القومُ: رَحِمَ بعضهم بعضًا.. ورجُلٌ مرْحُومٌ ومُرَحَّمٌ، شُدِّد للمبالغة والرُّحم بالضمة: الرَّحْمةُ. قال تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾ [الكهف]»[(٢)].

الرأفة لغةً:

□ مصدر قولهم: رَؤُفَ به يرْؤُفُ رأفةً ورآفـةً وهو مأخـوذٌ من مــادَّةِ (ر أ ف) التي تدُلُّ كما يقول ابن فارسٍ على الرِّقَّةِ والرَّحْمةِ، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]، وقرِئَتْ رآفةٌ، والرَّأفةُ أشدُّ الرَّحْمة، وقيل: هي أرقُّ من الرَّحمة، ولا تكادُ تقع في الكراهةِ، والرَّحمةُ قد تقع في

(٨/ ١٩): «رواه أحمد ورجال الثانية رجال «الصحيح»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٢٣١).

(١) «مقاييس اللغة» لابن فارس (٢/ ٤٩٨).

(٢) «الصِّحاح» للجوهري (٥/ ١٩٢٩) رحم.

الكراهةِ للمصلحة، يقول أبو زيدٍ: رؤُفْتُ بالرجُل أرؤُفُ رأفةً ورآفةً، ورأفْتُ به أرْأُفُ (كذلك) ورئِفتُ به رأَفًا، قال: كلٌّ من كلام العرب[1]

والرَّؤوفُ اسمٌ للمولى ﷻ وصفةٌ من صفات رسوله الكريم ﷺ.

الرَّؤوفُ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى:

□ من صفات الله ﷻ التي سُمِّيَ بها «الرَّؤوفُ» ومعناها الرحيم لعباده العطوفُ عليهم بألطافه، وفيه لغتان قرأَ بهما جميعًا: «رؤوفٌ على فعول، وهي قراءةُ أهل المدينة ورؤُفٌ على فَعُلٍ، فمن الأول قول كعبِ بن مالكٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه:

نُطِيـــعُ نَبِيَّنَـــا وَنُطِيـــعُ رَبًّـــا ... هُـــوَ الـــرَّحْمَنُ كَـــانَ بِنَـــا رَؤُوفَـــا

□ ومن الثَّاني قول جريرٍ:

يَـــرَى لِلْمُـــسْلِمِينَ عَلَيْـــهِ حَقًّـــا ... كَفِعْـــلِ الْوَالِـــدِ الـــرَّؤُوفِ الـــرَّحِيمِ

□ فالله ﷻ هو الرَّؤوفُ لأَنَّهُ المتناهي في الرَّحْمة بعباده لا راحمَ أرْحَمُ منه ولا غاية وراء رَحْمته، وقد يقال أيضًا: «رَأْفٌ» بسكون الهمزةِ، ومن ذلك قول الشاعر:

فَـــآمِنُوا بِنَبِـــيٍّ لَا أَبَـــا لَكُـــمُ ... ذِي خَـــاتَمٍ صَـــاغَهُ الـــرَّحْمَنُ مَخْتُـــومِ

رَأْفٍ رَحِـــيمٍ بِأَهْـــلِ الـــبِرِّ يَـــرْحَمُهُمْ ... مُقَرَّبٍ عِنْدِ ذِي الْكُـــرِسيِّ مَرْحُـــومِ

□ ونقل ابن منظورٍ عن الفرَّاءِ أنه يقال أيضًا: «رَئِفٌ بِكَسْر الهمزةِ»[2].

---

(١) «مقاييس اللغة» (٢/ ٤٧١)، و«الصحاح» (٤/ ١٣٦٢).

(٢) «الصحاح» (٤/ ١٣٦٢)، و«لسان العرب» (١٥٣٤) ط. دار المعارف.

◻ وقال الغزاليُّ: «الرَّؤُوفُ (معناه) ذو الرَّأْفةِ، والرَّأْفةُ شدَّةُ الرَّحمة»[(١)].

◻ وقال ابن الأثير: «هو الرَّؤُوف بعباده العطوف عليهم بألطافه»[(٢)].

الرؤوف من صفة المصطفى ﷺ والمؤمنين:

* جاء وصف النبي ﷺ بالرَّءُوف والرحيم في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

◻ فالرَّؤوفُ (هنا) شديد الرَّحْمة، و«الرحيم» الذي يريد لهم الخير، وقيل: رؤوفٌ بالطَّائعين ورحيمٌ بالمذنبين.

◻ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سمَّاهُ «المولى» باسمين من أسمائه، وفي الجمع بينهما دلالةٌ على أنَّ في كلٍّ منهما معنًى ليس في الآخر على نحو ما ذكرهُ أهلُ العلمِ».

◻ يقول النيسابُوريُّ: «ومن رأْفَتِهِ ﷺ أنَّه أَمَرَ بالرِّفقِ كما قال: إن هذا الدِّين متينٌ فأوْغِلْ فيه برفْقٍ ومن رحمته قيل له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهاهنا نكتةٌ وهي أنَّ رأفتهُ ورحمته لما كانت مخلوقةً اختُصَّت بالمؤمنين فقط، وكانت رأفتُه ﷻ ورحمته للناس عامَّةً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة] وهناك نكتةٌ أخرى هي أنَّ رحمته ﷺ عامَّةٌ للعالمين وأما رحمته المضمومة إلى الرَّأفةِ فخاصَّةٌ بالمؤمنين، وكأنَّ الرَّأفة إشارةٌ إلى ظهور أثر الدعوة في حقِّهم فالمؤمنون أُمَّةُ الدعوةِ

---

(١) «المقصد الأسنى» (١٤٠).

(٢) «النهاية» لابن الأثير (٢/ ١٧٦).

والإجابة جميعًا وغيرهم أمَّةُ الدَّعوة فقط»[(١)].

الرأفة اصطلاحًا:

□ قال الكفويُّ: «الرَّأفةُ مبالغةٌ في رحمةٍ مخصوصةٍ هي رفع المكروه وإزالةُ الضُّرِّ»[(٢)].

بين الرحمة والرأفة:

□ قال بعض العلماء: الرحمة هي أن يوصِّل إليك المسارَّ، والرَّأفةُ هي أنْ يدفع عنك المضارَّ، والرَّأفةُ إنما تكون باعتبار إفاضةِ الكمالاتِ والسعادات التي بها يستحقُّ الثَّوابَ، والرَّحمة من باب التَّزكيةِ والرَّأفة منْ باب التخْليَةِ، وذكر الرحمة بعد الرَّأْفةِ مُطَّرِدٌ في القرآن الكريم لتكون أعمَّ وأشمل»[(٣)].

□ وقال ابن الأثير: «الرَّأْفةُ أرَقُّ من الرَّحمةِ، ولا تكادُ تقع في الكراهةِ، والرحمةُ (قَدْ) تقعُ في الكراهةِ للمصلحةِ»[(٤)].

الشفقة لغةً:

□ هي الاسم من الإشفاقِ، وكذلك الشَّفقُ وهي مأخوذةٌ من مادَّةِ (ش ف ق) التي تدُلُّ -كما يقول ابن فارسٍ- على رِقَّةٍ في الشيءِ فمنْ ذلك قولهم: أشفقتُ من الأمر إذا رَقَقْتُ وحاذَرْتُ، وربما قالوا: شَفِقْتُ، وقال

---

(١) «زاد المسير» (٣/ ٥٢١)، و«غرائب القرآن» للنيسابوري «بهامش الطبري» (١١/ ٤٦).

(٢) «الكليات» للكفوي (ص٣٧٨).

(٣) المرجع السابق.

(٤) «النهاية» (٢/ ١٧٦).

أكثر أهل اللغة: لا يُقال إلَّا أشفقت وأنا مُشْفِقٌ «وشَفِيقٌ».

□ وقال ابن منظورٍ: «الشَّفَقُ والشَّفقة: الخيفة من شدَّةِ النُّصْح والشَّفَقُ أيضًا الشفقة، وهو أنْ يكون الناصحُ – من عدم بلوغِ النُّصْح خائفًا على المنصوحِ، والشَّفِيقُ: النَّاصِحُ الحريصُ على صلاح المنصوح. والشَّفَقُ والشَّفقة أيضًا رِقّةٌ من نُصْحٍ أو حُبٍّ يؤدي إلى خوف»[(١)].

اصطلاحًا:

□ قال الرَّاغبُ: «الإشفاقُ «والشَّفقةُ» عنايةٌ مختلطةٌ بخوفٍ؛ لأن المشفق يحبُّ المشفَقَ عليه، ويخافُ ما يلحَقُه (من أذًى) فإذا عُدِّي بـ «مِنْ» فمعنى الخوْفِ فيه أظهر، وإذا عُدِّيَ بـ «في» فمعنى العناية فيه أظهرُ»[(٢)].

□ وقال المناويُّ: «الشَّفَقةُ: صرفُ الهمَّةِ إلى إزالةِ المكرُوهِ عن الناس»[(٣)].

الرفق لغةً:

□ أصل المادَّة يدلُّ على موافقةٍ ومقاربةٍ بلا عنفٍ، يقول ابن فارس: «الرَّاءُ والفاءُ والقاف أصلٌ واحدٌ يدلُّ على موافقةٍ ومقاربةٍ بلا عنْفٍ، فالرِّفق خلافُ العُنْفِ. وفي الحديثِ: «إن الله – جَلَّ ثَنَاؤُهُ- يُحِبُّ الرِّفق في

---

(١) «مقاييس اللغة» (٣/ ١٩٧)، و«الصحاح» للجوهري (٤/ ١٥٠١)، و«لسان العرب» (ص٢٢٩٢)، و«النهاية» لابن الأثير (٢/ ٤٨٧).

(٢) «المفردات» للراغب (٢٦٤)، وإلى مثل هذا ذهب كل من الكفوي في «الكليات» (٤٦٩)، والفيروزأبادي في «بصائر ذوي التمييز» (ص٣٣)، إلا أنهما ذكرا «على» بدلًا من «في» لمعنى العناية، ولا تعارض بين الرأيَيْن؛ لأن الفعل أشفق يُعَدَّى بكليْهما للأمر نفسه.

(٣) وإلى مثل هذا ذهب الجرجاني في «التعريفات» (١٢٧).

الأمرِ كلِّهِ»، هذا هو الأصل، ثم يُشْتَقُّ منه كلُّ شيءٍ يدعو إلى راحةٍ وموافقةٍ. يقال: رفق بالأمر، وله، وعليه يرفقُ رِفْقًا، ورفُقَ يرْفُقُ، ورَفِقَ «الرجلُ»: لَطُفَ، ورفق بالرَّجُل وأرْفق بمعنًى، حكاهُ أبو زيدٍ، وكذلك ترفَّق به، ويقال: أرْفقْتُهُ: أيْ نفعْتُهُ، وأولاه رافِقَةً أيْ رفْقًا، وهو به رفيقٌ: لطيفٌ».

□ ويقول اللَّيثِ: «الرِّفْقُ: لين الجانب، ولطافةُ الفعل، وصاحبه رفيقٌ، وقد رفق يرفق، وإذا أمرْتَ قلت: رِفْقًا، ومعناه: ارْفقْ رفقًا، ويقول ابن الأعرابيِّ: «رفَقَ: انتظَرَ، ورفُقَ: إذا كان رفيقًا بالعمل، ويقولُ أبو زيدٍ: «رفق الله بك ورفق عليك رفقًا ومرفقًا، وأرْفقك الله إرفاقًا، وفي حديث المزارعةِ: نهانا عن أمرٍ كان بنا رافقًا، أي ذا رفقٍ، والرِّفْقُ: لين الجانب وهو خلافُ العُنفِ، وفي الحديث: «**ما كان الرِّفْقُ في شيءٍ إلَّا زَانَهُ**». وفي الحديث: «**في إرْفَافِ ضَعِيفِهِمْ وسَدِّ خَلَّتِهِمْ**»، أي: إيصال الرِّفق إليهم، وفي الحديث الآخر: «**أنْتَ رَفيقٌ والله الطَّبِيبُ**»، أي ترْفُقُ بالمريض وتتلطَّفُه والله الذي يُبرئه ويعافيه.

والرِّفقُ والمرفقُ والمرفِقُ: ما استُعِينَ به، وقد ترفَّقَ به وارتفَق، وفي التنزيل: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف]»[1].

□ وقال في «النهاية»: «وفي حديث الدعاء: «**وألحقْني بالرَّفيقِ الأعلى**».

الرَّفيقُ: جماعة الأنبياءِ الذين يسكنُونَ أعلى علِّيِّين وهو اسمٌ جاء على فعيلٍ، ومعناه الجماعةُ كالصديق والخليطِ يقعُ على الواحدِ والجمع، وقيل معناه: أي بالله ﷻ يُقال: «اللهُ رَفِيقٌ بِعبادِهِ»، من الرِّفْقِ والرَّأفَةِ فهو فعيلٌ

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (٢/ ٤١٨)، و«القاموس» (٣/ ٢٣٦).

بمعنى فاعلٍ»[(١)].

واصطلاحًا:

هو لينُ الجانبِ بالقول والفعل والأخذُ بالأسهل، وهو ضدُّ العُنْفِ[(٢)].

حقيقة الرفق:

□ قال الغزاليُّ في «الإحياءِ»: «اعلم أنَّ الرِّفقَ محمودٌ ويضادُّهُ العُنْفُ والحدَّةُ. والعُنْفُ نتيجةُ الغضبِ والفظاظَةِ، والرِّفقُ واللِّينُ نتيجةُ حسن الخلق والسلامة، وقد يكون سبب الحدَّةِ الغضب وقد يكون سببها شدَّةُ الحرص واستيلاؤُهُ بحيث يدهشُ عن التَّفكُّر ويمنع من التثبُّتِ فالرِّفقُ في الأمور ثمرةٌ لا يُثمِرُها إلَّا حسن الخلق، ولا يحسِّنُ الخلق إلَّا بضبطِ قوَّةِ الغضب وقوَّةِ الشَّهْوةِ وحفظهما على حَدِّ الاعتدالِ. ولأجل هذا أثنى رسول الله ﷺ على الرِّفق وبالغ فيه».

□ قال سفيان الثَّورِيُّ لأصحابِهِ: «تدْرُونَ ما الرِّفْقُ؟. قالوا: قل يا أبا محمدٍ، قال: أن تضع الأمور في مواضعها: الشِّدَّةُ في موضعها واللِّينُ في موضعه والسيفُ في موضعه والسوطُ في موضعه». وهذه إشارةٌ إلى أنَّه لا بدَّ من مزْجِ الغلظَةِ باللِّينِ والفظاظةِ بالرِّفقِ، كما قِيل:

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

---

(١) «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٢٤٦)، و«لسان العرب» لابن منظور (١٠/ ١١٨)، و«الصحاح» (٤/ ١٤٨٢).

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٤٤٩) و«دليل الفالحين» لابن علان (٣/ ١٩).

فالمحمودُ وسطٌ بين العنفِ واللِّينِ كما في سائرِ الأخلاقِ، ولكن لَمَّا كانت الطِّبَاعُ إلى العنْفِ والحدَّةِ أميل كانت الحاجةُ إلى ترْغيبهم في جانب الرِّفْقِ أكثر، فلذلك كثر ثناءُ الشرع على جانب الرِّفق دونَ العُنْفِ[١].

□ وقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعديُّ: «ومن أسمائه تعالى: «الرَّفِيقُ» في أفعاله وشرعه. ومن تأمَّل ما احتوى عليه شرعه من الرِّفْقِ وشرع الأحكام شيئًا بعد شيءٍ وجريانها على وجهِ السَّدَادِ واليُسْر ومناسبة العباد وما في خلقه من الحكمة إذ خلق الخلق أطْوارًا ونقلهم من حالةٍ إلى أخرى بحكم وأسرارٍ لا تُحيطُ بها العقول، وهو تعالى يُحبُّ من عباده أهل الرِّفقِ، ويُعْطي على الرِّفق ما لا يُعطي على العُنفِ. والرِّفقُ من العبدِ لا يُنَافي الحزْمَ، فيكون رفيقًا في أموره متأنِّيًا، ومع ذلك لا يفوِّتُ الفرصَ إذا سنحتْ، ولا يُهْمِلُها إذا عرضت»[٢].

* قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه].

مع الرأفة في القرآن الكريم:

* قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٨٤ - ١٨٥).

(٢) «توضيح الكافية الشافية» (٢٣).

ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ ﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ ﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النور].

* وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الحديد].

الرؤوف صفة النبي ﷺ:

* قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة].

النهي عن الرأفة في حدود الله:

* قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور].

الرأفة من صفة المؤمنين من أتباع المسيح عليه السلام:

* قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد].

الأحاديث الواردة في الرِّفق:

• عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة إن الله رفيق**

يحبُّ الرِّفق في الأمر كله»[١].

• وعنها رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «يا عائشة! إن الله رفيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ، ويُعطي على الرفق مالا يُعطي على العنف، وما لا يُعطي على ما سواه»[٢].

• عن عائشة رضي الله عنها أنَّ يهودَ أتوُا النبيَّ ﷺ، فقالوا: السَّامُ عليكم. فقالت عائشة رضي الله عنها: عليكم ولعنكُمُ الله وغضب الله عليكم. قال: «مهلًا يا عائشة عليك بالرِّفْقِ وإيَّاكِ والعُنْفَ والفُحْشَ». قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟. قال: «أو لمْ تسمَعِي ما قلتُ؟! ردَدْتُ عليهم فيُسْتَجَابُ لي فيهم ولا يُستجابُ لهم فيَّ»[٣].

• عن عائشة زوج النبيِّ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الرِّفق لا يكون في شيءٍ إلَّا زَانَهُ، ولا يُنزَعُ من شيءٍ إلَّا شانَهُ»[٤].

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللَّهُمَّ من ولِيَ منْ أمْر أمَّتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشقُقْ عليه، ومنْ ولِيَ من أمرِ أمَّتِي شيئًا فرفقَ بهم فارْفُقْ بِهِ»[٥].

• عن جريرٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ»[٦].

• عن ظهيرِ بن رافعٍ رضي الله عنه قال: لقد نهانا رسولُ ﷺ عن أمرٍ كان بنا رَافِقًا. قلت: ما قال رسول الله ﷺ فهو حقٌّ. قال: دعاني رسول الله ﷺ

---

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري (٦٠٣٠).

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٤).

(٥) رواه مسلم(١٨٢٨).

(٦) رواه أحمد ومسلم (٢٥٩٢)، وأبو داود، وابن ماجه.

قال: «**مَا تَصْنَعُونَ بِمَحَاقِلِكُمْ؟**». قلتُ: نؤاجرُها على الرَّبيع [(١)] وعلى الأوْسُقِ من التمر والشَّعير. قال: «**لا تفعلوا ازرَعوها أو أزْرِعُوها أوْ أمسِكُوها**». قال رافعٌ: قلتُ: سمعًا وطاعةً [(٢)].

• عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ في مسيرٍ له، فحَدا الحادي. فقال رسول الله ﷺ: «**ارْفقْ يا أنْجَشَةُ ويْحَكَ بالقوارِيرِ**» [(٣)].

• وعن سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه قال: استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نساءٌ من قريشٍ يكلِّمْنَهُ ويستكثِرْنَهُ عاليةً أصواتهنَّ، فلما استأذن عمر قُمْن يبْتَدِرنَ الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يضحَكُ فقال عمر رضي الله عنه: أضحك الله سِنَّكَ يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**عَجِبْتُ من هؤلاء اللاتي كُنَّ عندي، فلما سمِعْنَ صوتك ابْتَدَرْنَ الحجَابَ**». قال عمر: فأنت يا رسول الله أحَقُّ أن يهبنَ. ثم قال عمر: أي عدُوَّاتِ أنفسهنَّ أتهبْنني ولا تهَبْنَ رسول الله ﷺ. قلن: نعم. أنت أغلظُ وأفظُّ منْ رسول الله ﷺ! قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيدهِ ما لَقِيكَ الشيطَانُ قَطُّ سَالِكًا فجًا إلَّا سلك فَجًّا غيرَ فَجِّكَ**» [(٤)].

• عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أخبر رسول الله ﷺ أنَّه يقول: لأقومَنَّ الليل ولأصومَنَّ النهار ما عِشْتُ. فقال رسولُ الله ﷺ: «**أنت الذي تقولُ ذلك؟**». فقلت له: قد قلتــه يا رسول الله. فقال رسول الله

(١) الربيع: النهر.
(٢) رواه البخاري (٢٣٣٩).
(٣) رواه البخاري (٦٢٠٩).
(٤) رواه البخاري (٣٦٨٣)، ومسلم (٢٣٩٦) واللفظ له.

ﷺ: «فإنك لا تَسْتَطيع ذلك فصُمْ وأفْطِر، ونَمْ وقُمْ، وصُمْ من الشَّهْر ثلاثة أيام، فإنَّ الحسنةَ بعشْرِ أمثالها وذلك مثلُ صيامِ الدَّهْرِ». قال: قلتُ: فإنِّي أُطِيقُ أفضل من ذلك. فقال: «صمْ يومًا وأفطِرْ يومينِ». قال: قلت: فإنِّي أُطيقُ أفضل من ذلك يا رسول الله، قال: «صمْ يومًا وأفطر يومًا، وذلك صيامُ داودَ عليه السلامُ: وهو أعْدَلُ الصِّيام». قال: قلت: إني أطيق أفضل من ذلك. قال رسول الله ﷺ: «لا أفضل من ذلك». قال عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما: لأن أكون قبِلتُ الثلاثة الأيامِ التي قال رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ منْ أهْلِي ومَالي (١).

• عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: أخبرني من هو خيرٌ منِّي أنَّ رسول الله ﷺ قال لعمَّارٍ حين جعل يحفرُ الخندقَ وجعل يمسحُ رأسَهُ ويقولُ: «بُؤْسَ ابنِ سُمَيَّةَ تَقْتُلُكَ فِئَةٌ باغيَةٌ» (٢).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أصابني جهدٌ شديدٌ، فلقيتُ عمر بن الخطاب فاستقْرَأْتُهُ آيةً من كتاب الله، فدخل دارَهُ وفتحها عليَّ فمشَيْتُ غير بعيدٍ فخرَرْتُ لوجهي من الجهْدِ والجُوعِ، فإذا رسول الله ﷺ قائمٌ على رأسي فقال: «يا أبا هريرة». فقلت: لبيْكَ رسول الله وسعْدَيْكَ، فأخذ بيدي فأقامَنِي وعرف الذي بي، فانْطلق بي إلى رحْلِهِ، فأمر لي بِعُسٍّ منْ لبنٍ فشرِبْتُ منه ثم قال: «عُدْ فاشْرَبْ يا أبا هرٍّ». فعدت فشَرِبْتُ، ثم قال: «عُدْ». فعدتُ فشرِبْتُ حتى استوى بطني فسار كالْقِدْحِ (٣)، قال: فلقيتُ

---

(١) رواه البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١٥٩) واللفظ له.

(٢) رواه مسلم (٢٩١٥).

(٣) القِدْح: السهم الذي لا ريش له.

عمر وذكرت له الذي كان من أمري، وقلتُ له: تَوَلَّى ذلك من كان أحقَّ به منك يا عمر، والله لقد استقْرَأتكَ الآية ولأنا أقْرأُ لها منك. قال عمر: والله لأنْ أكُونَ أدخلتُكَ أَحَبُّ مِنْ أنْ يكون لي مثلُ حُمْرِ النَّعَم[١].

• عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركمْ بمَنْ يَحْرُمُ على النَّار، وبِمَنْ تَحْرُم عليه النار، على كُلِّ قريب هَيِّن سَهْلٍ**»[٢].

وفي رواية: «**بمن تحرم عليه النار غدًا؟ على كل هين، ليِّنٍ قريب سهل**»[٣].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ أعرابيًّا بالَ في المسجد فثارَ إليه الناس ليقَعُوا به فقال لهم رسول الله ﷺ: «**دَعوه وأهرِيقُوا على بوله ذنوبًا منْ ماءٍ أو سَجْلًا[٤] من ماءٍ، فإنما بُعثتم مُيَسِّرين ولم تُبْعَثُوا معسِّرِينَ**»[٥].

• عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ دخل عليها وعندها امرأةٌ، قال: «**من هذه؟**». قالت: فلانة تذكر من صلاتها. قال: «**مَهْ عليكم بِمَا تُطِيقُونَ فو الله لا يَمَلُّ اللهُ حتَّى تَمَلُّوا وكان أَحَبُّ الدِّينِ إليه ما داوم عليه صاحِبُهُ**»[٦].

---

(١) رواه البخاري (٥٣٧٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٤٨٨) وقال: حديث حسن صحيح، وقال الأرناؤوط في تحقيق «جامع الأصول» (١١/٦٩٨) وهو كما قال. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٣٥).

(٣) صحيح: رواه أبو يعلى عن جابر، والترمذي، والطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود، وكذا رواه أحمد، وابن حبان، والطبراني في «الأوسط»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٣٨)، و«صحيح الجامع» (٣٦٠٩).

(٤) السَّجْل: الدلوْ المملوءة الكبيرة.

(٥) رواه البخاري (٦١٢٨).

(٦) البخاري (٤٣).

• عن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ رأى شيخًا يُهادَى بين ابنَيْهِ، قال: «ما بالُ هذا؟» قالوا: نذر أن يَمْشي، قال: «إنَّ الله عنْ تعْذِيب هذا نفسَه لغنيٌّ»، وأمره أنْ يركب (١).

• عن عثمان بن أبي العاص الثقفيِّ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال له: «أُمَّ قوْمَكَ». قال: قلت: يا رسول الله، إنِّي أجِدُ في نفسي شيئًا، قال: «ادْنُهْ». فجلَّسَني بين يديه ثمَّ وضع كفَّهُ في صدْري بين ثدْييَّ، ثم قال: «تحوَّلْ». فوضعها في ظهْري بيْن كتِفَيَّ، ثم قال: «أُمَّ قوْمكَ، فمنْ أمَّ قومًا فليخفِّفْ فإنَّ منهم الكبير، وإنَّ فيهم المريض، وإنَّ فيهم الضَّعيف، وإنَّ فيهم ذَا الحاجةِ، وإذا صلَّى أحدكم وحْدَهُ فليُصَلِّ كيف شَاءَ» (٢).

• عن أبي قتادة رضي الله عنه أنَّهُ طلب غريمًا له فتوارَى (٣) عنه ثم وجدهُ فقال: إنِّي مُعْسِرٌ فقال: آللهِ؟ قال: آللهِ. قال: فإنِّي سمعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَرَّهُ أنْ يُنْجِيَهُ اللهُ منْ كرَبِ يوم القيامةِ، فليُنفِّسْ عنْ معسرٍ أو يضعْ عنهُ» (٤).

• عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالتْ: جاءَتْني مسكينَةٌ تحْمِلُ ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمراتٍ، فأعطتْ كلَّ واحدةٍ منهما تمْرةً، ورفعتْ إلى فيها تمرةً لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها فشَــقَّتِ التَّمْرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعَتْ لرسولِ الله ﷺ فقال:

---

(١) رواه البخاري (١٨٦٥)، ومسلم (١٦٤٢) واللفظ له. يهادَى يمشي بينهما متوكِّئا عليهما لضعفه.

(٢) رواه مسلم (٤٦٨).

(٣) استتر عن غريمه.

(٤) رواه مسلم (١٥٣٦).

«إنَّ الله قدْ أوْجَبَ لها بها الجنَّة، أو أعْتَقها بها من النَّار»(١).

• عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا صلَّى أحدكُمْ للنَّاس فليُخَفِّفْ، فإنَّ منهم الضعيف والسَّقِيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليُطوِّلْ ما شاءَ»(٢).

• عن أنس بن مالكٍ ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال:«إنِّي لأدْخُل في الصلاة وأنا أريدُ إطالتَها فأسْمَعُ بكاءَ الصبيِّ فأتجوَّزُ ممَّا أعلمُ منْ شدَّةِ وجْدِ أمِّه من بُكائِهِ»(٣).

• عن أبي هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إيَّاكم أنْ تتَّخذوا ظهور دوابِّكمْ منابِرَ، فإنَّ الله إنما سخَّرَها لكم لتبلِّغكمْ إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيهِ إلَّا بشقِّ الأنفس وجعل لكم الأرض، فعليها فاقْضُوا حاجتكُمْ»(٤).

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيَّاكُمْ والوصال». قالوا: فإنَّك تواصِلُ يا رسول الله، قال: «إنَّكُمْ لسْتُمْ في ذلك مثلي إنِّي أبِيتُ يُطْعمني ربِّي ويسْقِيني، فاكْلَفُوا من العمل ما تُطِيقونَ»(٥).

• عن أبي هريرة ﷺ قال: بعث النبيُّ ﷺ خيْلًا قِبَلَ نجْدٍ، فجاءتْ برجلٍ من بني حنيفة يقالُ له ثمامةُ بن أُثالٍ، فربطُوه بساريةٍ من سوارِي

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٠).

(٢) رواه البخاري (٧٠٣)، واللفظ له، ومسلم (٤٦٧).

(٣) رواه البخاري (٧٠٩) واللفظ له، ومسلم (٤٧٠).

(٤) حسن: رواه أبو داود (٢٥٦٧) في «سننه»، وقال الأرناؤوط في تحقيق «جامع الأصول» (٤/ ٥٢٨) إسناده حسن.

(٥) رواه البخاري (١٩٦٦)، ومسلم (١١٠٣) واللفظ.

المسجدِ، فخرج إليه النبيُّ ﷺ فقال: «**ما عندك يا ثُمامَةُ**[١]؟». فقال: عندي خيرٌ يا محمَّد إنْ تقتُلْني تقْتُلْ ذا دمٍ، وإنْ تنعم تنْعِمْ على شاكرٍ. وإنْ كنت تريدُ المال فسلْ منه ما شئت. فتُرِكَ حتى كان الغدُ، ثمَّ قال له: «**ما عندك يا ثُمامةُ؟**». قال: ما قلت لك: إنْ تنعِمْ تنْعِمْ على شاكرٍ. فتركه حتَّى كان بعد الغد، فقال: «**ما عند يا ثمامة؟**». قال: ما قلت لك. فقال: «**أطلقوا ثُمامة**». فانطلق إلى نخْلٍ قريبٍ من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أنْ لا إله إلَّا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. يا محمَّدُ، والله ما كان على الأرض وجْهٌ أبغض إليَّ من وجْهِكَ، فقدْ أصبح وجْهُكَ أحبَّ الوجوه إليَّ. والله ما كان من دينٍ أبغض إليَّ منْ دينكَ، فأصبح دينُكَ أحبَّ الدِّين إليَّ. والله ما كان من بلدٍ أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدُكَ أحبَّ البلادِ إليَّ. وإنَّ خيْلك أخذتْني وأنا أريدُ العمْرَةَ. فماذا ترى؟ فبشَّرَهُ رسول الله ﷺ وأمرهُ أنْ يعتمر. فلمَّا قدم مكَّة. قال له قائلٌ: صبوتَ. قال: لا. ولكنْ أسلمتُ مع محمدٍ رسول الله ﷺ. ولا والله لا يأتيكم من اليمامةِ حَبَّةُ حنْطةٍ حتى يأذن فيها النبيُّ ﷺ[٢].

- عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَلَقَّتِ الملائكة روح رجُلٍ ممَّنْ كان قبْلكم، فقالوا: أعمِلتَ من الخير شيئًا؟. قال: لا. قالوا: تذكَّرْ. قال: كنْتُ أُدَاينُ الناس فآمر فتْيَاني أنْ ينظروا المعْسِرَ ويتجوَّزُوا عن الموسرِ. قال: قال الله عز وجل: تجوَّزُوا عنه**»[٣].

---

(١) ما عندك يا ثمامة: أي ما تظنُّ أني فاعل بك.

(٢) رواه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤).

(٣) رواه البخاري (٢٠٧٧)، ومسلم (١٥٦٠) واللفظ له.

• عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما كان رسول الله ﷺ في سفرٍ فرأى رجُلًا قد اجتمع الناس عليه، وقد ظُلِّلَ عليه. فقال: «ما لهُ؟». قالوا: رجلٌ صائمٌ فقال رسول الله ﷺ: «ليس مِنَ البِرِّ أنْ تصوموا في السَّفَرِ»(١).

• عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنَّا مع رسولِ الله ﷺ في سفرٍ فانطلق لحاجَتِهِ فرأيْنَا حُمَّرةً معها فرخَانِ فأخذْنا فرْخَيْها فجاءت الحمَّرة فجعلت تفرِشُ فجاءَ النبيُّ ﷺ فقال: **«مَنْ فجَعَ هذه بولدِهَا، رُدُّوا ولَدَها إليها»**.

• عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمريْنِ إلَّا أخذ أيسرَهُمَا ما لم يكنْ إثمًا، فإنْ كان إثْمًا كان أبْعدَ الناس مِنْهُ وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلَّا أنْ تُنْتَهك حُرْمَةُ الله فينتقم لله بها»(٢).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ نفَّسَ عنْ مُؤْمنٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدنيا نفَّسَ الله عنه كُرْبَةً من كرب يوم القيامةِ، ومن يسَّرَ على مُعْسرٍ يَسَّرَ الله عليه في الدنيا والآخرةِ، ومنْ ستر مسلمًا سترهُ في الدُّنْيا والآخرة والله في عونِ العبد ما كان العبدُ في عَوْنِ أخيهِ»**(٣).

• عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: **«يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا وسكِّنُوا ولا تُنَفِّرُوا»**(٤).

---

(١) رواه أحمد والبخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١٥) واللفظ له، وأبو داود، والنسائي عن جابر، وابن ماجه عن عمر.

(٢) حسن: رواه أبو داود (٢٦٧٥)، وحسّنه الأرناؤوط في تحقيق «جامع الأصول» (٤/ ٥٢٩).

(٣) رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٤) رواه مسلم (٢٦٩٩).

• عن أمِّ خالدٍ بنْتِ خالد بن سعيدٍ رضي الله عنها قالت: أتيْتُ رسول الله ﷺ مع أبي وعليَّ قميصٌ أصفرُ. قال رسول الله ﷺ: «سَنَه سنَه». قال عبد الله وهي بالحبشيَّةِ «حسنةٌ»، قالت: فذهبتُ ألْعَبُ بخاتم النبُوَّةِ فزبَرَني[(١)] أبي؛ قال رسول الله ﷺ: «دَعْها». ثم قال رسول الله ﷺ: «أبْلِي وأخْلِقِي، ثُمَّ أبْلِي وأخْلِقِي، ثُمَّ أبْلِي وأخْلِقِي»[(٢)].

• وعن معدان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اللهَ رفيقٌ يحبُّ الرِّفْق، ويرضاهُ، ويعينُ عليه ما لا يُعين على العنفِ، فإذا ركبتم هذه الدواب العُجْمَ فنزِّلوها منازِلَها، فإن أجدبت الأرض فانجوا عليها؛ فإن الأرض تُطوى بالليل ما لا تُطوَى بالنهار، وإياكم والتعريس بالطريق فإنه طريق الدواب، ومأوى الحيات»[(٣)].

• قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق، ويُعطي عليه ما لا يُعطي على العنف»[(٤)].

---

(١) زبرني: نهرني.

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٣).

(٣) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٨٢)، و«صحيح الجامع» (١٧٧٠).

(٤) صحيح: رواه البخاري في «الأدب والمفرد»، وأبو داود عن عبد الله بن مغفل، وابن ماجه، وابن حبان عن أبي هريرة، وأحمد والبيهقي في «شعب الإيمان» عن علي، والطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة، والبزار عن أنس، وكذا رواه الدارمي، والخرائطي، وابن حبان، وأبو نعيم في «الحلية»، والضياء في «المختارة»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٧١).

عُلُوّ همة الرسول ﷺ في الرحمة:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾:

* سبحان من رفع قَدْرَ رسولِ الله ﷺ فقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء].

□ «هو رحمةٌ للإنسان، إذ عَلَّمه الرحمن، وسَكَب في قلبه نورَ الإيمان، ودَلَّه على طريق الجِنان.

- هو رحمةٌ للشيخ الكبير، إذ سهَّل له العبادة، وأرشده لحُسنِ الخاتمة، وأيقظه لتدارُكِ العمرِ واغتنامِ بقية الأيام.

- هو رحمةٌ للشاب، إذ هداه إلى أجملِ أعمالِ الفُتُوَّة وأكملِ خِصال الصِّبا، فوجَّه طاقتَه لأنبلِ السجايا وأجلِّ الأخلاق.

- وهو رحمةٌ للطفل، إذ سقاه مع لَبَنِ أُمِّه دِينَ الفطرة، وأسمعه ساعةَ المَولِدِ أذانَ التوحيد، وألبَسه في عهدِ الطفولة حُلَّةَ الإيمان.

- وهو رحمةٌ للمرأة، إذْ أنصفَها في عالَمِ الظُّلْم، وحَفِظ حقَّها في دنيا الجَوْر، وصان جانبَها في مهرجانِ الحياة، وحَفِظ لها عفافَها وشَرَفها ومُستقبلها، فعاش أبًا للمرأة وزوجًا وأخًا ومُرَبِّيًا.

- وهو رحمةٌ للوُلاة والحُكَّام، إذْ وضع لهم ميزانَ العدالة، وحَذَّرهم من مَتَالِفِ الجَور والتعسُّف، وحَدَّ لهم حدودَ التبجيل والاحترام والطاعة في طاعةِ الله ورسوله.

- وهو رحمةٌ للرعِيَّة، إذْ وقف مدافعًا عن حقوقها، مُحَرِّمًا الحيفَ، ناهيًا

عن السَّلب والنَّهْب والسَّفك والابتزاز والاضطهاد والاستبداد»[(١)] .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾:

أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، مَن آمن به، ومَن لم يؤمنْ به، والبشريةُ كلُّها قد تأثَّرت بالمنهج الذي جاء به – سابقًا لها – طائعةً أو كارهةً، شاعرةً أو غيرَ شاعرة؛ وما تزالُ ظِلالُ هذه الرحمةِ وارفةً، لمن يريدُ أن يستظلَّ بها، ويستروحَ فيها نسائمَ السماء الرخيَّة، في هجير الأرض المُحرِق.. إن البشرية اليومَ لفي أشدِّ الحاجة إلى حسِّ هذه الرحمةِ ونداها، وهي قلقةٌ حائرة، شاردةٌ في متاهات المادية، وجحيمِ الحروب، وجفافِ الأرواحِ والقلوبِ.

• قال رسول الله ﷺ: «**إنما أنا رحمةٌ مهداةٌ**»[(٢)] .

أيةُ نَفسٍ حانيةٍ نفسُ رسول الله ﷺ!، كانت الرحمةُ مُهجتَه.. تنتشرُ الرحمةُ لديه ﷺ حتى يُغطِّي دِفؤها كلَّ مقرورٍ، وحتى تشملَ الأحياءَ جميعًا من إنسانٍ وحيوان.. ويدورُ قلبُه الكبيرُ مع دواعي الرحمة حيث تدور، والرحمةُ عنده ليست نافلةً من نوافل البرِ، بل واجبًا من واجبات الرشد، وتَبِعةً من تَبِعات الحياة.. فالكلمةُ الطيبةُ رحمة، والنظرةُ العاطفةُ رحمة، والصَّفحُ الجميلُ رحمة، وعيادةُ المريض رحمة، بل وتشميتُ العاطسِ رحمة.. وسنفرد لرحمته الحانية فصلًا خاصًّا في كتابنا المقبل.. ونكتفي هنا

(١) «محمد ﷺ كأنك تراه» لعائض القرني (ص١٠٦ – ١٠٧) طبع دار ابن حزم.

(٢) صحيح: أخرجه ابن سعد، والحكيم عن أبي صالح مرسلًا، والحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم (٤٩٠)، و«صحيح الجامع» برقم (٢٣٤١)، وكذا أخرجه الدارمي، والبيهقي في «شعب الإيمان».

بأروعِ نماذجِ الرحمة تُجاهَ حِفْنةٍ من النمل:

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَرَصتْ نملةٌ نَبيًّا من الأنبياء، فأَمَرَ بقريةِ النَّمل فأُحرقتْ، فأوحى اللهُ تعالى إليه: أنْ قَرَصَتْكَ نملةٌ أَحْرَقت أُمَّةً من الأمم تُسَبِّح؟!**»(١).

انظروا كيف تتألَّقُ إنسانيةُ محمدٍ ﷺ ورحمتُه، وكيف تسمو وتُشرق!! انظروا، إن الذي يؤاخذُه الله في هذه القصَّة ويعاتبُه على تخلِّيه عن الرحمة تُجاهَ حفنةٍ من النمل، ليس فردًا عاديًّا.. بل هو نبيٌّ من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

إن الصورة على بساطتها تتضمَّنُ أروعَ نماذجِ الرحمةِ على الإطلاق، وتكشفُ عن رحمةِ محمدٍ ﷺ العَذْبة.. كما لا يُكشف شيءٌ مثلها.

حفنةٌ من النمل، لا يدرك الناسُ لها — ولا لآلاف مثلِها قَدْرًا — أيَّ قَدْرَ، ترتفعُ في عين «محمد» ﷺ إلى الحدِّ الذي يُتصوَّرُ لها عنده قداسةٌ وحُرمة!.

وتُقَدَّس حقوقُها إلى الحدِّ الذي يؤاخَذُ عنده نبيٌّ من الأنبياء؛ لأنه اعتدى عليها..!! بل إنه حينَ يأمرُ بقتلِ حشرةٍ سامَّةٍ تفترسُ الناس بلَدْغِها.. يجعلُ المَهارةَ في قتلِها مرادفةً للرحمة بها.. انظروا:

• قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ وَزَغَةً في أَوَّلِ ضرْبَةٍ، كُتِب له مئَةُ حَسَنَة، ومَن قَتَلها في الضَّرْبَة الثَّانية، فلهُ كذا وكذا حسنَة، وإِنْ قتلها في الضَّرْبة الثالثة، فله كذا وكذا حَسَنة**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

(٢) رواه أحمد، ومسلم عن عائشة.

إن الوَزَغة حشرةٌ سامةٌ كالأفعي، والخَلاصُ من شرِّها ضروري.. ولكن حتى هنا لا يَنسَى «محمد» ﷺ فينشئُ مِن مثوبةِ الله سبحانه جائزةً لمن يُجهِزُ على تلك الحشراتِ القاتلة، دونَ أن يُسَبِّب لها ألَمًا – أيَّ ألم – !! أجلْ، جائزةٌ لمن يُصيبُ الهدفَ دون أن يُبعثَ منه أنين..!!.. ذلك أنَّ الرفقَ والرحمةَ عند محمد ﷺ هو جوهرُ الحياة وزينتُها.

هذه وَمْضةٌ من وَمَضاتِ رحمةِ محمدٍ رسول الله ﷺ.. رحمتُه بالناس.. ورحمتُه بالأحياء جميعًا.. رحمةُ الرحمةِ المهداة الذي أرسله الله رحمةً للعالمين.

□ كان عطوفًا يرأمُ مَن حوْله ويُوَدُّهم ويدومُ لهم على المودَّة طولَ حياته.. وليس في سجلِّ المودةِ الإنسانية أجملُ ولا أكرمُ من حنانه على مُرضعته «حليمة»، ومن حفاوته بها وقد جاوز الأربعين؛ فيلقاها هاتفًا بها: «أُمِّي أُمِّي»، ويَفرشُ لها رِداءَه، ويُعطيها من الإبل والشاءِ ما يُغنيها في السَّنة الجَدْباء.

□ ولقد وفدتْ عليه «هوازنُ» وهي مهزومةٌ في وقعة «حُنين»، وفيها عمٌّ له من الرضاعة؛ لأجل هذا العمِّ من الرضاعة تشفَّع النبيُّ ﷺ إلى المسلمين أن يردُّوا السَّبْي من نساءٍ وأبناء، واشترى السَّبْي ممَّن أبَوْا رَدَّه إلَّا بمال.

وحضنتْه في طفولته جاريةٌ عَجماء، فلم يَنْسَ لها مودَّتها بقيَّة حياته.

• وشَغَله أن يَنْعَمَ بالحياة الزوجية ما يشغلُ الأبَ من أمر بناته ورَحِمِهِ، فقال لأصحابه: «**مَن سرَّه أن يتزوَّج امرأةً من أهل الجنة فليتزوَّجْ أمَّ أيمن**».. وما زال يُناديها: «**يا أُمَّهْ، يا أُمَّه**»؛ كلما رآها وتحدَّث إليها، وربما رآها في واقعةِ قتالٍ تدعو اللهَ وهي لا تدري كيف تدعو بلكنتها

الأعجميَّة، فلا تُنسيه الواقعةُ الحازبةُ أن يُصغيَ إليها ويَعطِفَ عليها.

وقد اتسع عطفُه حتى بَسَطه للأحياء كافَّة، فـ «كان يُصغي للهرَّة الإناءَ فتشرب، ثم يتوضأ بفضلها»[(١)].

وكان يواسي في موتِ طائر يلهو به أخو خادمهِ[(٢)]، ويُوصي المسلمين بالدوابِّ، وكرَّرَ الوِصايةَ بها.

بل شَمِل عطفُه الأحياءَ والجمادَ كأنَّه من الأحياء؛ فكانت له قَصْعَةٌ يُقال لها: «الغرَّاء»، وكان له سَيْفٌ مُحلًّى يسمى «ذا الفقار»، وكانت له دِرْعٌ موشَّحةٌ بنُحاسٍ تُسمَّى «ذات الفضول»، وكان له سَرْجٌ يسمَّى «الداج»، وبِساطٌ يسمَّى «الكز»، ورَكْوة تسمَّى «الصادر»، ومِرآةٌ تسمَّى «المدلة»، ومقراضٌ يسمَّى «الجامع»، وقضيب يسمَّى «الممشوق».

وفي تسميته تلك الأشياءَ بالأسماء معنَى الألفة، التي تجعلُها أشبَهَ بالأحياءِ المعروفين، مِمَّن لهم السِّماتُ والعناوين، كأنَّ لها «شخصيةً» مقرَّبةً تُميِّزُها بين مثيلاتها، كما يتميَّز الأحبابُ بالوجوه والملامح والكُنَى والألقاب.

□ وكان له ﷺ مع هذه العاطفة الجيَّاشةِ والرحمةِ الشاملة: ذَوقٌ سليم يُضارعُها رِفعةً ونُبلًا في رعايةِ شعور الناس أتمَّ رعايةٍ وأدلَّها على الكرَمِ والجود؛ «كان إذا لَقِيه أحدٌ من أصحابه فقام معه؛ قام معه، فلم ينصرفْ

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم في «الحلية» عن عائشة، ورواه أبو داود، وابن ماجه والطحاوي، والدارقطني في «الأفراد»، والبيهقي في «السنن» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٨٣٤).

(٢) «يا أبا عُمير، ما فعَل النُّغير؟».

حتى يكونَ الرجلُ هو الذي ينصرف عنه، وإذا لَقِيَه أحدٌ من أصحابه فتناول يَدَه، ناوَله إيَّاها، فلم يَنزعْ يَدَه منه حتى يكونَ الرجلُ هو الذي يَنزعُ منه.. وكان إذا وَدَّع رجلًا أخذ بيده، فلا يَدَعُها حتى يكونَ الرجلُ هو الذي يَدَعُ يده».

□ «وانظرْ إلى زيد بن حارثة ﷺ الذي خُطِف من أهله وهو صغير، ثم اهتدى إليه أبوه واهتدى هو إلى أبيه على لهْفَةِ الشوقِ بعد يأسٍ طويل، فلما وجب أن يختارَ بين الرَّجْعةِ إلى آله وبين البقاءِ مع رسول الله ﷺ، اختار البقاءَ مع السيِّد على الرجْعة مع الوالد»[١].

□ لقد اعتلى رسول الله ﷺ الذِّروة الساميةَ في السماحة، بسماحةِ الكريم، وما أحدٌ أرحمَ ممَّن يرحمُ المفتَرين على سُمْعةِ أهلِه وهناءةِ بيتِهِ وأمانِ سِرْبه.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾:

أخرج ابن جرير بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ قال: من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأُمم من الخسف والقذف[٢].

وعنه قال: هذا عام للبر والفاجر، فمن أصابه تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن كفر به صرفت عنه العقوبة إلى الموت والقيامة[٣].

---

(١) «عبقرية محمد» للعقّاد (ص٩٠- ٩٤) بتصرف – دار الكتب الحديثة.

(٢) «تفسير الطبري» (١٧/ ١٠٦).

(٣) «زاد المسير» لابن الجوزي (٥/ ٣٩٨).

وقيل: أريد بها أهل الإيمان دون أهل الكفر.

□ قال الطبري: «القول الذي روي عن ابن عباس، وهو أن الله تعالى أرسل نبيه محمدًا ﷺ رحمة لجميع العالم مؤمنهم وكافرهم، فأما مؤمنهم فإن الله هداه به وأدخله بالإيمان به وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة، وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله».

□ قال الزمخشري: «أُرسل ﷺ رحمة للعالمين؛ لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه، ومن خالف ولم يتبع فإنما أُتي من عند نفسه حيث ضَيَّع نصيبه منها، ومثاله: أن يُفجِّرَ الله عينًا غَديقة فيسقي ناسٌ زروعهم ومواشيهم بمائها فيفلحوا، ويبقى ناس مفرطون عن السقي فيضيعون، فالعين المفجرة في نفسها نعمة من الله ورحمة للفريقين، ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها، وقيل: كونه رحمة للفجار من حيث أن عقوبتهم أُخِّرت بسببه وأمنوا به عذاب الاستئصال»(١).

□ وقال الفخر الرازي: «إنه عليه السلام كان رحمة في الدين والدنيا، أما في الدين؛ فلأنه ﷺ بُعث والناس في جاهلية وضلالة وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم؛ لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم، فبعث الله تعالى محمد ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب فدعاهم إلى الحق وبيَّن لهم سبيل الثواب وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة مَن كانت همته طلب الحق فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار وكان التوفيق قرينًا

---

(١) «الكشاف» للزمخشري (٢/ ٥٨٦).

له، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وأما في الدنيا؛ فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه»[١].

□ قال الحافظ ابن كثير: «يخبر تعالى أن الله جعل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قَبِل هذه الرحمة، وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة، ومَن ردَّها وجحدها خسر الدنيا والآخرة.

فإن قيل: فأي رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب.. عن ابن عباس قال: مَن آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومَن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف.. وفي لفظٍ: مَن تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومَن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف»[٢] اهـ.

• وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «**إني لم أُبعث لعانًا، وإنما بُعثت رحمة**»[٣].

□ وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»: «ذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه ما أرسل هذا النبي الكريم، صلوات الله وسلامه عليه، إلى الخلائق إلَّا رحمة لهم؛ لأنه جاءهم بما يسعدهم، وينالون به كل خير من

---

(١) «التفسير الكبير» للفخر الرازي (٢٢/ ٢٣٠).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٧٩).

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» - كتاب البر والصلة والآداب - باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٤/ ٢٠٠٦).

خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه، ومَن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيَّع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى، وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلًا قال: لو فجّر الله عينًا للخلق غزيرة الماء، سهلة التناول، فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها، فتتابعت عليهم النِّعم بذلك، وبقي أناس مفرطون كسالى عن العمل، فضيَّعوا نصيبهم من تلك العين، فالعين المفجرة في نفسها رحمة من الله، ونعمة للفريقين، ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم].

وقيل: كونه رحمة للكفار من حيث: أن عقوبتهم أُخِّرت بسببه، وأمنوا به عذاب الاستئصال، والأول أظهر.

* وما ذكره جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة: من أن ما أرسله إلَّا رحمة للعالمين، يدل على أنه جاء بالرحمة للخلق فيما تضمَّنه هذا القرآن العظيم، وهذا المعنى جاء موضحًا في مواضع من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[العنكبوت].

* وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦][1] الآية اهـ.

□ قال شيخ الإسلام ابن القيم في «جلاء الأفهام» (ص٢٨٥.. وما بعدها): «وهو محمود ﷺ بما يملأ به الأرض من الهدى، والإيمان، والعلم النافع، والعمل الصالح، وفتح به القلوب، وكشف به الظلمة عن أهل

(١) «أضواء البيان» (٣/ ١٦٨).

الأرض، واستنقذهم من أسر الشياطين، ومن الشرك بالله تعالى، والكفر به، والجهل به؛ حتى نال أتباعه شرف الدنيا والآخرة، فإن رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها، فإنهم كانوا بين عبَّاد أوثان، وعبَّاد صلبان، وعبَّاد نيران، وعبَّاد الكواكب، ومغضوب عليهم قد باؤوا بغضب من الله، وحيران لا يعرف ربًّا يعبده، ولا بماذا يعبده، والناس يأكل بعضهم بعضًا، مَن استحسن شيئًا دعا إليه، وقاتل مَن خالفه، وليس في الأرض موضع قدم مشرق بنور الرسالة، وقد نظر الله سبحانه إلى أهل الأرض، فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلَّا بقايا من آثار دين صحيح، فأغاث الله به ﷺ البلاد والعباد، وكشف به تلك الظلَم، وأحيا به الخليقة بعد الموت، فهدى به من الضلالة، وعلَّم به من الجهالة، وكثَّر به بعد القلة، وأعزّ به بعد الذلة، وأغنى به بعد العيلة، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، فعرف الناس ربهم ومعبودهم غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدأ وأعاد، واختصر وأطنب في ذكر أسمائه وصفاته وفعاله وأحكامه، حتى تجلّت معرفته سبحانه في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت سحابة الشك والريب عنها كما ينجاب السحاب عن القمر ليلة إبداره ولم يدعْ لأُمتهِ حاجة في هذا التعريف لا إلى من قبله، ولا إلى مَن بعده، بل كفاهم، وشفاهم، وأغناهم عن كل مَن تكلَّم في هذا الباب ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت].

وعرّفهم حالهم بعد القدوم على ربهم أتم تعريف، فكشف الأمر وأوضحه، ولم يدع بابًا من العلم النافع للعباد المقرِّب لهم إلى ربهم إلَّا فتحه، ولا مشكلًا إلَّا بيَّنه وشرحه، حتى هدى الله به القلوب من ضلالها،

وشفاها به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يُحمد منه ﷺ؟! وجزاه عن أمته أفضل جزاء.

* وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] أنه على عمومه.

وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته ﷺ، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه والمحاربون، فالذين عجّل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر، وأما المعاهدون له، فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرًّا بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون؛ فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم، وأموالهم، وأهلهم، واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها.

وأما الأمم النائية عنه، فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنين قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها؛ فلم يخرج بذلك عن أن يكونْ رحمة لهم، لكن لم يقبلوها. اهـ كلامه رحمه الله باختصار يسير.

* ومن ذلك ايضًا: قوله الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

يخبر ربنا ﷻ الأمة، في معرض الامتنان عليها ببعثة النبي ﷺ، ويعدِّد لها الصفات التي يعرفونها عنه ﷺ.

□ قال العلامة الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» (١/ ٥٠٨): «هذه الآية الكريمة تدل على أن بعث هذا الرسول الذي هو من أنفسنا، الذي هو متَّصف بهذه الصفات المشعرة بغاية الكمال، وغاية شفقته علينا هو أعظم منن الله تعالى، وأجزل نعمه علينا، وقد بيّن ذلك في مواضع أخر.

* كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

* وقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم].

* وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] إلى غير ذلك من الآيات. اهـ كلامه رحمه الله.

□ وقال ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد»: «وأما نبي الرحمة، فهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين، فرحم به أهل الأرض كلهم: مؤمنهم وكافرهم، أما المؤمنون فنالوا النصيب الأوفر من الرحمة، وأما الكفار، فأهل الكتاب منهم عاشوا في ظله وتحت حبله وعهده، وأما مَن قتله منهم هو وأمته، فإنهم عجلوا به إلى النار، وأراحوه من الحياة الطويلة التي لا يزداد بها إلَّا شدة العذاب في الآخرة»[(١)]. اهـ.

(١) «زاد المعاد» (١/ ٩٥- ٩٦).

□ قال القاضي عياض في «الشفا»: «وأما الشفقة والرحمة والرأفة لجميع الخلق، فقد قال الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]»[١].

• وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشَرُ الناسُ على قدمه، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي**»، وقد سمّاه الله رؤوفًا رحيمًا[٢].

• وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يسمِّي لنا نفسه أسماء فقال: «**أنا محمد، وأحمد، والمقفِّي، والحاشر، ونبي الرحمة، ونبي الملحمة**»[٣].

□ قال ابن القيم رحمه الله، في «جلاء الأفهام»: «فذكر رسول الله ﷺ هذه الأسماء؛ مبيِّنًا ما خصَّه الله تعالى به من الفضل، وأشار إلى معانيها، وإلَّا فلو كانت أعلامًا محضة لا معنى لها، لم تدل على مدح؛ ولهذا قال حسان رضي الله عنه[٤]:

---

(١) «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٢٢-١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤)، وجملة «وقد سمّاه الله..» جزم البيهقي أنها مدرجة من كلام ابن شهاب الزهري، وأقرّه عليه الحافظ ابن حجر.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٥٥).

(٤) البيت في «ديوانه» (ص١٣١) وفي شرحه للبرقوقي: «وهذا البيت ليس من قول حسان، وإنما هو لأبي طالب ضمّنه حسان شعره» اهـ أفاده الشيخ مشهور حسن سلمان في تعليقه على «جلاء الأفهام» وجزم الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٦٤١) بنسبته إلى أبي طالب.

وشــق لــه مــن اســمه ليجلّــه   فذو العـرش محمـود وهـذا محمَّـدُ

ثم قال: ومما يُحمد عليه ﷺ: ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق، وكرائم الشيَم، فإن مَن نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ؛ علم أنها خير أخلاق الخلق، وأكرم شمائل الخلق، فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثًا، وأحلمهم، وأجودهم، وأشدهم احتمالًا، وأعظمهم عفوًا ومغفرة، وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلَّا حلمًا كما روى البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أنه قال في صفة رسول الله ﷺ في التوراة: **«محمد عبدي ورسولي، سمَّيته المتوكل، ليس بفظٍّ، ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا: لا إله إلَّا الله، وأفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا»**(١).

□ وأرحم الخلق وأرأفهم بهم، وأعظم الخلق نفعًا لهم في دينهم ودنياهم، وأفصح خلق الله، وأحسنهم تعبيرًا عن المعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة الدالة على المراد، وأصبرهم في مواطن الصبر، وأصدقهم في مواطن اللقاء، وأوفاهم بالعهد والذمة، وأعظمهم مكافأة على الجميل بأضعافه، وأشدهم تواضعًا، وأعظمهم إيثارًا على نفسه، وأشد الخلق ذبًّا عن أصحابه، وحماية لهم، ودفاعًا عنهم، وأقوم الخلق بما يأمر به، وأتركهم لما ينهى عنه، وأوصل الخلق لرحمه، فهو

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٨).

أحق بقول القائل:

بـــرْدٌ عـــلى الأدنـــى ومرحـــةٌ وعلى الأعادي مازِنٌ[(١)] جَلْدُ»[(٢)]

◻ قال في «التفسير الكبير»: «إن هذا الرسول منكم، فكل ما يحصل له من العز والشرف في الدنيا فهو عائد إليكم، وأيضًا فإنه بحال يشق عليه ضرركم، وتعظم رغبته في إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم، فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم في حقِّكم، والطبيب المشفق ربما أقدم على علاجات صعبة يعسر تحملها، والأب الرحيم ربما أقدم على تأديبات شاقة، إلَّا أنه لما عرف أن الطبيب حاذق وأن الأب مشفق صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة، وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان، فكذا هنا لما عرفتم أنه رسول حق من عند الله فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة لتفوزوا بكل خير»[(٣)].

• عن أبي أمامة ﵁ قال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال لي: **«يا أبا أمامة، إن من المؤمنين مَن يلين له قلبه»**[(٤)].

فما حظ «الرحمة المهداة» ﷺ من هذا الحديث.

---

(١) المازن: هو الصلب.. انظر: «لسان العرب».

(٢) «جلاء الأفهام» (ص٢٧٨)، وما بعدها.

(٣) «التفسير الكبير» للفخر الرازي (١٦/ ٢٣٥).

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٧)، والطراني في «المعجم الكبير» (٨/ ١٢٢)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٥٠٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٦٣): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وقال في موضع آخر (١٠/ ٢٧٦): رواه الطراني ورجاله قد وثِّقُوا، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٨٦) رقم (١٠٩٥).

□ ولله در أحمد شوقي إذ يقول:

وإذا رحمت فأنت أمٌّ أو أبُ ... هذان في الدنيا هما الرحماء

□ بل والله فوق ما قال شوقي:

نسينا في ودادك كل غالٍ ... فأنت اليوم أغلى ما لدينا
نلامُ على محبَّتكم ويكفي ... لنا شرفٌ نلامُ وما علينا
ولمّا نلقكُم لكنَّ شوقًا ... يُذكِّرنا فكيف إذا التقينا
تسلَّى الناسُ بالدنيا وإنَّا ... لعمر الله بعدك ما سَلَيْنَا

□ صلى الله عليك يا سيد البشر..

تذوب شخوص الناسِ في كُلِّ لحظة ... وفي كل حينٍ أنت في القلب تكبُرُ

رحمته بقومه وصبره عليهم رجاء أن يسلموا أو تسلم ذريتهم:

• فعن عائشة رضي الله عنها قالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمر بما شئت فيهم – قال-: فناداني ملك الجبال وسلّم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»، فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله

من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»[١].

• وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ حكى نبيًّا من الأنبياء، ضربه قومه، حتى أدموا وجهه، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: «رب اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»[٢].

لقد تجلّت رحمته العظيمة في حرصه الشديد ﷺ على هداية قومه رغم إيذائهم الشديد له.

* قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف].

* وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر].

* وقال تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل].

شفقته ورأفته بالجاهل من أمته:

• عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه: بينا أنا أصلِّي مع رسول الله ﷺ إذا عطس رجلٌ من القوم فقلتُ: يرحمك الله فرماني القومُ بأبصارِهم. فقلتُ: واثُكْلَ أمِّيَاهُ ما شأنكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضْرِبونَ بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يُصَمِّتُونِي لكنِّي سكتُّ. فلمَّا صلَّى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمِّي! ما رأيتُ معلِّمًا قَبْلَهُ ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣١) واللفظ له، ومسلم (١٧٩٥) والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٤٠٦) والطبراني، والأخشبان جبلان في مكة.

(٢) رواه البخاري (٣٤٧٧) و(٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢).

نهرني ولا ضربني ولا شتمني. قال: «**إنَّ هذه الصلاة لا يَصْلح فيها شيءٌ من كلام الناس إنَّما هو التَّسْبِيحُ والتكْبِيْرُ وقراءَةُ القرْآنِ**» أو كما قال رسول الله ﷺ [(١)].

• وفي رواية فُليح عن هلال بن علي به عند أبي داود قال: لما قدمتُ على رسول الله ﷺ عَلِمْتُ أمورًا من أُمورِ الإسلامِ، فكان فيما عَلِمْتُ أنْ قال لي: «**إذا عطسْتَ فاحمد الله، وإذا عطس العاطِسُ فحمِدَ الله فقُلْ: يرحَمُكَ الله**». قال: فبينما أنا قائمٌ مع رسول الله ﷺ في الصلاةِ إذْ عطس رجل فحمدَ اللهَ. فقلتُ: يرْحمُكَ الله رافعًا بها صوْتِي، فرمَاني الناسُ بأبْصارهم حتَّى احتملني ذلك فقلتُ: ما لكم تنظرون إليَّ بأعْينٍ شُزْرٍ؟ قال: فسبَّحُوا، فلمَّا قضى رسول الله ﷺ قال: «**مَنِ المُتكَلِّم؟**». قيلَ: هذا الأعرابي فدعاني رسول الله ﷺ فقال لي: «**إنَّما الصَّلاةِ لقرَاءَةِ القُرآنَ وذِكْرِ الله جَلَّ وعزَّ، فإذا كنت فيها فليكن ذلك شأنك**»، فما رأيت معلِّمًا قطُّ أرْفَق من رسول الله ﷺ.

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام أعرابيٌّ فبال في المسجد، فتناوله الناسُ، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «**دَعُوهُ، وهَريقوا على بولِه سَجْلًا**[(٢)] من ماء

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه»- كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٧/ ٣٨١)، وأحمد (٥/ ٤٤٧، ٤٤٨)، وأبو داود في «سننه»- كتاب الصلاة، باب تشميت العاطس في الصلاة (١/ ٥٧٠- ٥٧٣)، وابن حبان (٤/ ١٠)، والطبراني (١٩/ ٤٠٢) وأبو عوانة (٢/ ١٥٧)، وابن أبي شيبة (٢/ ٤٣٢)، والدارمي (١/ ٣٥٣) والطحاوي (١/ ٤٤٦)، والبيهقي (٢/ ٢٤٩- ٢٥٠).

(٢) السجل: الدلو الضخم.

أو ذَنُوبًا[(١)] من ماء فإنَّما بُعِثْتُم مُيَسِّرِينَ ولم تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»[(٢)].

• وفي رواية أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخل أعرابي المسجد ورسول الله ﷺ جالسٌ فقال: اللهُمَّ اغفر لي ولِمُحمَّدٍ ولا تغفر لأحدٍ معنا، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «**لقد احتظرت واسِعًا**»، ثمَّ ولَّى حتَّى إذا كان في ناحية المسجد فشج[(٣)] يبلو، فقال الأعرابيُّ بعد أن فقه: فقام إليَّ بأبي وأُمِّي فلم يُؤَنِّبْ ولم يَسُب فقال: «**إن هذا المسجد لا يُبال فيه، وإنَّما بُني لذكر الله وللصَّلاة**»، ثم أمر بسَجْلٍ من ماء فأفرغ عَلى بوله[(٤)].

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه بينما نحنُ في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء إعرابيٌّ فقام يبول في المسجد، فقال أصحابُ رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ. قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُزْرِمُوهُ[(٥)] دَعُوهُ**»، فتركوهُ حتَّى بالَ، ثُمَّ إنَّ رسولَ الله ﷺ دعاهُ فقال: «**إنَّ هَذه المساجد لا تصْلُح لشيءٍ مِن هذا البَوْل ولا القَذَرِ، إنَّما هي لذكر الله عَزَّ وَجَلَّ والصَّلاةِ وقراءِ القرآن**»، أو كما قالَ رسولُ الله

(١) هي الدلو ملأى بالماء قاله الخليل.
(٢) رواه البخاري في «صحيحه»- باب: صب الماء على البول في المسجد «الفتح» (١/ ٣٢٣)، و«الأدب» باب ٨٠ «الفتح» (١٠/ ٥٢٥)، ورواه أحمد (٢/ ٣٨٢)، (٢/ ٢٨٢)، و(٢/ ٢٣٩)، وأبو داود (١/ ٢٦٤)، والنسائي (١/ ٤٣)، (١/ ١٤٢)، والترمذي (١٤٧)، وأبو يعلى (٥٨٥٠) والبيهقي (٢/ ٤٢٨)، وابن خزيمة (١/ ١٥٠)، وابن حبان (٢/ ٣٣٩، ٣٤٠) وعبد الرزاق (١/ ٤٢٣)، والحميدي (٢/ ٤١٩) رقم (٩٣٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٢/ ٧٩).
(٣) الفشج: تفريجُ ما بيْن الرِّجليْن.
(٤) «سنن ابن ماجه»- الطهارة وسننها- باب (٧٨) (١/ ١٧٦) رقم (٥٢٩).
(٥) لا تزرموه: أي لا تقطعوا عليه البول.

ﷺ، قال: فأمر رجلًا من القوم فجاء بدَلْوٍ مِنْ ماء فشَنَّه [(١)] عليه [(٢)].

اشفاقه ورأفته بالأمة إذا هاجت الريح:

• فعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم ريح، أو غيم، عرف ذلك في وجهه، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرَّ به وذهب عنه، فسئل، فقال: «**إني خشيت أن يكون عذابًا سلط على أمتي**» [(٣)].

وهذا الحديث من جملة رحمته ﷺ بالأمة المحمدية، حتى إنه ليخشى أن تكون الريح مأمورة من قِبل ربها ﷻ بإنزال العذاب بأمته ﷺ:

• فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله إذا أراد رحمة أمة من عباده، قبض نبيَّها قبلها، فجعله لها فرطًا وسلفًا، وإذا أراد هلكة أمة، عذّبها، ونبيها حي، فاقرّ عليه بهلكتها حين كذّبوه وعصوا أمره**» [(٤)].

• وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسّم، وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى

---

(١) أي: صَبّه.

(٢) رواه مسلم – الطهارة- باب وجوب غُسل البول وغيره من النجاسات (١/ ٢٣٦) واللفظ له، ورواه البخاري (١٠/ ٤٤٩)، وأحمد (٣/ ٢٢٦) (٣/ ١١٠، ١١٤، ١٦٧)، والنسائي، وأبو عوانة (١/ ٢١٤)، وابن حبان، وابن خزيمة، والدارمي (١/ ١٨٩) والبيهقي، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» (ص٧١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٦، ٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٨٨) مُعَلَّقًا، ووصله أبو يعلى والحاكم، وصححه الألباني في «مختصر مسلم» (١٥٩٦) و«صحيح الجامع» (١٧٠٧).

غيمًا أو ريحًا عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية، فقال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، وقالوا: هذا عارض ممطرنا»**[(١)].

رحمته بأمته في التشريع والتكليف:

أ- التماس العذر لمن غاب عن الفريضة، ورحمته بتيسير قضائها:

• فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«مَن نسي صلاة، فليصلِّها إذا ذكرها»**.

• وفي لفظ: **«مَن نسي صلاة، أو نام عنها، فليصلِّها إذا ذكرها»**[(٢)].

وفي الحديث من التيسير والتخفيف على الأمة، ورحمتها فيما إذا نسيت أو نامت، فالنسيان والنوم من عوارض الأهلية التي يمتنع الحكم على صاحبها بشيء من الأحكام حتى يزول هذا العارض، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة].

□ قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٠٦- ٣٠٧): ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ «أي: إن تركنا فرضًا على جهة النسيان، أو

---

(١) رواه أحمد، ومسلم واللفظ له عن عائشة.

(٢) رواه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤).

فعلنا حرامًا كذلك ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: الصواب في العمل جهلًا منا بوجهه الشرعي.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال الله: نعم».

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة، وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمدًا ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيفي السهل السمح..

وقوله: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي: من التكاليف والمصائب والبلاء، لا تبتلنا بما لا طاقة وقِبل لنا به. اهـ بتصرف يسير»[(١)]، [(٢)].

وفي حديث الباب: رحمة الله عز وجل التي أخبر بها على لسان رسوله ﷺ، أن النائم والساهي المخطئ والمكره وغير هؤلاء، ممن اتصفوا بوصفهم، معذورون بهذه الأوصاف حتى تزول عنهم، ويلزمهم الإتيان بما فاتهم، لا سيما وأن هذه الأوصاف والأحوال العارضة ليست في مقدور المكلفين، أو انتفت شبهة التعمُّد فيهم.

• فعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على مَن لم يصلِّ الصلاة حتى يجيء وقت صلاة أخرى»**[(٣)].

---

(١) «المرحومون بالسُّنَّة» (ص٩٣).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٣) رواه مسلم (٦٨١)، وأحمد (٥/ ٢٩٨)، وأبو داود (٤٣٧)، والترمذي (١٧٧)، والنسائي (١/ ٢٩٤)، والطحاوي في «شرح المعاني» (١/ ٤٠١)، وابن خزيمة =

• وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[(١)].

(٩٨٩)، وابن حبان كما في «الإحسان» (١٤٦٠)، والبيهقي (٢/ ٢١٧) من طرق عديدة عن أبي قتادة به.

(١) صحيح بطرقه: قال الشوكاني في «فتح القدير» (١/ ٣٨٨- ٣٨٩): وقد أخرج ابن ماجه، وابن المنذر، وابن حبان في «صحيحه»، الطبراني، والدارقطني، والحاكم، والبيهقي في «سننه»، من حديث ابن عباس..
وأخرجه أحمد، وابن ماجه من حديث أبي ذر مرفوعًا.
والطبراني من حديث ثوبان، ومن حديث ابن عمر.
والطبراني والبيهقي من حديث عقبة بن عامر.
وأخرجه ابن عدي في «الكامل» وأبو نعيم من حديث أبي بكرة.
وأخرجه ابن أبي حاتم من حديث أم الدرداء.
وأخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد من حديث الحسن مرسلًا.
وأخرجه عبد بن حميد من حديث الشعبي مرسلًا، ثم قال: وفي أسانيد هذه الأحاديث مقال، ولكنها يقوي بعضها بعضًا، فلا تقصر عن رتبة الحسن لغيره، وقد تقدم حديث: «إن الله قال: قد فعلت» وهو في «الصحيح»، وهو يشهد لهذه الأحاديث. اهـ.
وقد استنكر هذا الحديث أبو حاتم الرازي، وضعّفه ابن عدي، على أن بعض أسانيد هذه الأحاديث يخلو من القدح لا سيما ما رواه الطحاوي في «شرح المعاني» (٣/ ٩٥)، والدارقطني (٤/ ١٧٠)، وابن حبان كما في «الإحسان» (٧٢١٩)، والبيهقي (٧/ ٣٥٦) جميعًا من حديث بشر بن بكر، عن الأوزاعي، عن عطاء بن أبي رباح، عن عبيد بن عمير، عن ابن عباس به، وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين خلا بشر بن بكر فهو على شرط البخاري وحده.
وقد تابعه أيوب بن سويد عن الأوزاعي كما عند الحاكم (٢/ ١٩٨)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.
وراجع «جامع العلوم والحكم» شرح هذا الحديث، وكذا «العواصم والقواصم»

وهذا من رحمة النبي ﷺ في نفي الحرج والعنت والمشقة عنهم في أمور التشريع والتكاليف.

وقد بوَّب الإمام ابن حبان على هذا الحديث بقوله: ذكر الإخبار عما وضع الله بفضله عن هذه الأمة.

ب- رحمته ﷺ في تيسير أداء العبادات:

□ فعن غضيف بن الحارث ؓ قال: قلت لعائشة: أرأيت النبي ﷺ يا أم المؤمنين، أكان يوتر من أول الليل، أو من آخرة؟ قالت: ربما أوتر من أول الليل، وربما أوتر من آخره. قلت: الله أكبر، الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة. قلت: يا أم المؤمنين، أرأيت رسول الله ﷺ كان يغتسل من الجنابة من أول الليل، أو من آخره؟ قالت: ربما اغتسل من أول الليل، وربما اغتسل من آخره. قلت: الله أكبر، الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة. قلت: يا أم المؤمنين، أرأيت النبي ﷺ أكان يجهر بصلاته أم يخافت بها؟ قالت: ربما جهر بصلاته، وربما خافت بها. قلت: الله أكبر، الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة[١].

(١/ ١٩٢) وما بعدها، وصحّح الحديث الألباني في «الإرواء» (٨٢)، و«تخريج المشكاة» (٦٢٩٣)، و«صحيح الجامع» (١٧٣١).

(١) صحيح: أخرجه (٦/ ٤٧)، ومن طريقه أبو داود (٢٢٦)، والنسائي (١/ ١٢٥) مختصرًا جميعًا من حديث برد بن أبي العلاء، عن عبادة بن نسي، عن غضيف بن الحارث.

وهذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات، وغضيف اختلف في صحبته.

وقد رواه أحمد (٦/ ٧٣)، ومسلم (٣٠٧)، وأبو داود (١٤٣٧) وغيرهم أيضًا من حديث عائشة غير أن السائل: عبد الله بن أبي قيس.

وقول غضيف رضي الله عنه: «اللهم أكبر، الحمد الله الذي جعل في الأمر سعة» من أول الدلائل على رحمة النبي ﷺ حتى في أفعاله التشريعية ليقتدي به المسلمون من بعده، وجعل الأمر من الرحمة بهم، والتخفيف عليهم ونفي العنت والمشقة.

شفقته على أمته مِن أن تُفرَضَ عليهم تكاليف لا يطيقونها:

•فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج ليلة في جوف الليل فصلّى في المسجد، وصلّى رجال بصلاته، فأصبح الناس فتحدّثوا، فاجتمع أكثر منهم، فصلّى فصلَّوا معه، فأصبح الناس فتحدّثوا فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ فصلّى بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله، حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهّد ثم قال: «**أما إنه لم يخف علي مكانكم، ولكني خشيت أن تُفرض عليكم فتعجزوا عنها**» فتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك[(١)].

• ومن هذا أيضًا ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه ذكر أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «يا أيها الناس إن الله قد افترض عليكم الحج» فقام رجل فقال: أكل عام يا رسول الله؟ قال: فسكت عنه، حتى أعادها ثلاث مرات قال: «**لو قلت: نعم، لوجبت، ولو وجبت ما قمتم بها، ذروني ما تركتكم، فإنما هلك الذين من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا**

(١)رواه البخاري (١١٢٩)، ومسلم (٧٦١) كلاهما من حديث ابن شهاب، عن عروة، عنها به.

نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»(١).

رحمته لأمته بتحذيرها مما يضرها وإخبارها بما سيحدث لها:

فمن ذلك تحذيره ﷺ لأمته من الدجَّال، وهذا أمر قد اشترك فيه كل الأنبياء السابقين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهو: التحذير من الدجَّال، غير أن رسول الله ﷺ زاد الأمر بيانًا؛ وذلك بسبب رحمته ﷺ بأمته:

• فعن ابن عمر رضي الله عنهما في حديث ابن صياد الشهير، قال: فقام رسول الله ﷺ، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجَّال، فقال: «**إني أنذركموه، ما من نبي إلَّا قد أنذر قومه، لقد أنذر نوح قومه، ولكني أقول لكم فيه قولًا لم يقله نبي لقومه: تعلموا أنه أعور، وأن الله ليس بأعور**»(٢).

• والشاهد من الحديث: قوله ﷺ: «**ولكني أقول لكم فيه قولًا لم يقله نبي لقومه**» رحمة وشفقة وعناية منه ﷺ بأمته، وحرصًا عليها من أن تُفتن بهذا الدجال.

• ومن ذلك أيضًا: ما جاء عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ خرج يومًا فصلَّى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «**إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أُعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، والله ما أخاف**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٨)، ومسلم (١٣٣٧)، والنسائي (٥/ ١١٠)، وابن حبان كما في «الإحسان» (٣٧٠٤)، والبيهقي (٤/ ٣٢٦) جميعًا من حديث الربيع بن مسلم، ثني محمد بن زياد، ويوسف بن سعد، عن أبي هريرة به.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٢٧)، ومسلم (٢٩٣٠) وغيرهم كثير من حديث الزهري عن سالم عن ابن عمر.

عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف أن تتنافسوا فيها»[(١)].

ومن رحمته بأمّته وشفقته عليها:

* عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ تَلَا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾.. الآية [إبراهيم: ٣٦].

* وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة].

فرفَعَ يَدَيْهِ وقال: «**اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وبَكى، فقال الله عز وجل: يا جِبْرِيل، اذْهبْ إلى محمدٍ - وربُّكَ أعْلَمُ - فسلْهُ ما يُبكيْكَ؟ فأتاهُ جبريلُ عليه السلام فسألهُ فأخبرهُ رسول الله ﷺ بما قال - وهو أعلم - فقال الله عز وجل: يا جِبْريل اذهبْ إلى مُحمدٍ فقل إنَّا سنُرْضيْكَ في أمَّتِكَ ولا نسُؤءكَ**»[(٢)].

من كمال شفقته ورحمته بأمته أنه اختبأ دعوته شفاعة لأمته:

• عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل نبي دعوة دعا بها في أمته، وخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**»[(٣)].

• وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لكل نبي دعوة دعاها لأمته،**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٩٦)، ومسلم (٢٢٩٦) من حديث الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عقبة به.

(٢) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب دعاء النبي ﷺ وبكائه شفقةً عليهم (١/ ١٩١)، ورواه النسائي في «التفسير» (١/ ٦٢٣)، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٢١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٢٧٧)، وابن حبان (٩/ ١٧٩ رقم ٧١٩١)، وابن منده في «الإيمان» (٣/ ٨٤٧ رقم ٩٢٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠١).

وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»[(١)].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله تعالى مَن مات من أمتي لم يشرك بالله شيئًا»[(٢)].**

رحمته بأهل الكبائر من أمته:

وتتجلّى هذه الرحمة التي بثّها الله عز وجل في قلب نبي الرحمة ﷺ في إثباته الشفاعة لأهل الكبائر من الأمة.

• فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وأنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[(٣)].**

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٥) بنحوه، ومسلم (٢٠٠) واللفظ له.

(٢) رواه مسلم (١٩٩).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤٣٦)، وابن ماجه (٤٣١٠)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص٢٧١)، وابن حبان كما في «الإحسان» (٦٤٦٧)، والحاكم (١/ ٦٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٠٠).

جميعًا من طرق عن جعفر بن محمد، عن أبيه «محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب»، عن جابر بن عبد الله به.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، يستغرب من حديث جعفر ابن محمد. اهـ.

وأخرجه أحمد (٣/ ٢١٣)، وأبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص٢٧٠) وابن حبان كما في «الإحسان» (٦٤٦٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٣٢)، والحاكم (١/ ٦٩) جميعًا من طرق عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك به.

=

رحمته وشفقته على اليتامى:

• عن بشر بن عقربة الجهني ﷺ قال: استُشْهد أبي مع النبي ﷺ في بعض غزواته، فمرّ بي النبي ﷺ وأنا أبكي فقال لي: «**اسكت أما ترضى أن أكون أنا أبوك وعائشة أمك؟**»(١).

• وعند البزار عن بشير قال: لقيت رسول الله يوم أُحُد فقلتُ: ما فعل أبي؟ فقال: «**استشهد رحمة الله عليه**»، فبكيتُ فأخذني فمسح رأسي وحملني معه.

رأفته ورحمتُه بالمماليك:

• عن أبي مسعود البدري ﷺ قال: كنتُ أضربُ غلامًا لي بالسَّوْطِ، فسمعتُ صوتًا من خلْفي: «**اعلم أبا مسعود!**» فلم أفهم الصوت مِن الغَضَبِ، قال: فلمَّا دَنَا منِّي إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقولُ: «**اعلَمْ**

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وأقرّه الذهبي. اهـ.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. اهـ.

وهذا الحديث من الأحاديث التي لا مرية في صحتها إلى رسول الله ﷺ، بل جزم ابن أبي عاصم أن أخبار الشفاعة لرسول الله ﷺ ثابتة ثبوت التواتر. انظر «السنة» (ص٣٨٥).

(١) صحيح: رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٧٨)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٤٧٥)، ورواه البزار «كشف الأستار» (٢/ ٣٨٥) رقم (١٩١٠) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٦١): «رواه البزار وفيه من لا يُعرف، وفي الطريق الثاني عبد الله بن عوف القاري ترجم له ابن أبي حاتم الرازي ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وكذا الراوي عنه حجر بن الحارث الغساني ذكرهما ابن حبان في «الثقات» (٥/ ٤٢)، (٨/ ٢١٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٣٢٤٩).

أَبَا مسْعُود! اعْلَمْ أبا مسْعُودٍ!». قال: فألقيْتُ السَّوْط [١] من يَدِي، فقال: «اعْلَمْ أبا مسْعُودٍ أنَّ الله أقْدَرُ عليك منْكَ على هذا الغُلامِ»، قال: فقلتُ: لا أضْربُ ممْلُوكًا بعدهُ أبدًا[٢].

• وفي رواية أبي معاوية عن الأعمش به: فسمعتُ مِنْ خلفي صوتًا: «اعْلَم أبا مسعود، لله أقدرُ عليكَ منك علَيْه»، فالتفتُّ فإذا هو رسول الله ﷺ، قلتُ: يا رسول الله، فهُوَ حرٌّ لوَجْهِ الله، فقال: «أما إن لو لم تفعل لَمَسَّتك النَّارُ أو للفحتك النار»[٣].

• عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنَّ زِنْبَاعًا أبا روحٍ وجَدَ غلامًا له مع جاريةٍ له فجدَعَ أنْفَهُ وجَبَّهُ [٤]، فأتى النبي ﷺ فقال: «مَنْ فعل هذا بك؟». قال: زِنْبَاع، فدعاهُ النَّبيُّ ﷺ فقال: «ما حملك عَلى هذا؟». فقال: كانَ منْ أمْره كذا وكذا، فقال النبيُّ ﷺ للعبد: «اذهبْ فأنتَ حُرّ». فقال: يا رسول الله، فمَوْلَى مَنْ أنا؟ قال: «موْلَى الله ورسولِه»، فأوْصَى به رسول الله ﷺ المسلمين. قال: فلما قُبِضَ رسولُ اللهَ ﷺ جاء إلى أَبي بكر فقال: وَصِيَّةُ رسول الله ﷺ قال: نعم، نُجْري عليك النفقة وعَلى عيالك، فأجْراها عليه، حتى قبض أبو بكر، فلما استُخْلف عمرُ جاءَه فقال: وَصِيَّةُ رسول الله ﷺ قال: نعم، أين تريد؟ قال: مصر، فكتب عمرُ إلى صاحب مصرَ أن يعطيَه أرضًا يأكُلها[٥].

---

(١) في رواية جرير عن الأعمش «فسقط السَّوْط من يدي من هيبته».

(٢) رواه مسلم – كتاب الإيمان – باب (٨) (٣/ ١٢٨٠ – ١٢٨١).

(٣) «الأدب المفرد» – باب: أدب الخادم – «فضل الله الصمد» (١/ ٢٦٧).

(٤) جَبَّه: قَطَع مذاكيره.

(٥) رواه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٨٢).

ومن شفقته على الخادم:

□ عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قطُّ بيده ولا امرأة ولا خادمًا إلَّا أن يجاهد في سبيل الله، وما نِيل منه شيءٌ قط فينتقم من صاحبه إلَّا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم الله عز وجل»[١].

□ وعن أنس رضي الله عنه قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: «أُفٍ» ولا: لم صنعتَ؟ ولا: ألا صنعتَ»[٢].

• وعند أبي نعيم: «خدمت رسول الله ﷺ سنين، فما سبَّني سبّة قط، ولا ضربني ضربة، ولا انتهرني، ولا عَبَس في وجهي، ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه، فإن عاتبني عليه أحدٌ من أهله، قال: «**دعُوه فلو قُدِّر شيءٌ لكان**»[٣].

شفقته ﷺ على الفقراء والجوعى من المسلمين:

شفقته على أهل الصُّفَّة:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: الله الذي لا إله إلَّا هُوَ إنْ كنتُ لأعْتَمِدُ بكَبِدي[٤] على الأرضِ مِنَ الجُوعِ، وإنْ كنتُ لأشُدُّ الحجرَ على بَطْني مِنَ الجُوعِ. ولقدْ قعدْتُ يومًا على طريقهم الذي يَخرجون منه، فمَرَّ أبو بكرٍ فسألتُهُ عنْ آيةٍ منْ كتاب الله، ما سألتُهُ إلَّا ليُشْبِعَني[٥] فمَرَّ فلمْ يفعَلْ، ثمَّ

(١) رواه مسلم – كتاب الفضائل – باب ٢٠، (٤/ ١٨١٤).
(٢) رواه البخاري – كتاب الأدب – باب حسن الخلق، والسخاء وما يكره من البخل «فتح الباري» (١٠/ ٤٥٥).
(٣) «دلائل النبوة» لأبي نعيم (ص١٤١).
(٤) أي: ألصق بطني.
(٥) مِن الشبع.

مرّ بي عُمر فسألته عن آيةٍ من كتاب الله ما سألته إلّا ليشبعني فمرّ فلم يفعل مَرَّ بي أبو القاسِم ﷺ فتبَسَّم حينَ رآني وعرَفَ ما في نفْسي وما في وَجْهي، ثمَّ قال: «**يا أبا هِرّ**»، قلتُ: لبَّيْك يا رسول الله، قال: «**الْحَقْ**»، ومضَى فتَبَعْتُه، فدخل فاسْتأْذَنَ فأذنَ لي، فدخل فوجد لبنًا في قَدح فقال: «**مِنْ أين هذا اللَّبنُ؟**» قالوا: أهداهُ لك فلانٌ – أو فلانةُ- قال: «**أَبا هِرّ**»، قلتُ: لبَّيْك يا رسول الله، قال: «**الحَق إلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فادْعُهم لي**»، قال: وأهْلُ الصَّفة أضيافُ الإسلام، لا يأووْنَ إلى أهلٍ ولا مالٍ ولا على أحد، إذا أتتْهُ صدقةٌ بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتتْهُ هديةٌ أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءَني ذلك، فقلتُ: وما هذا اللبنُ في أهل الصُّفَّة؟ كنتُ أحقَّ أنا أن أُصيب مِنْ هذا اللَّبَن شرْبَةً أتقوَّى بِهَا، فإذا جاءُوا أَمرني فكنتُ أنا أعْطيهم، وما عَسى أنْ يَبلغني مِنْ هذا اللَّبَن، ولم يكنْ مِنْ طاعةِ الله وطاعَةِ رسُوْلِهِ ﷺ بُدٌّ، فأتيتهم فدعَوتُهُمْ، فأقْبَلوا فاستأذَنُوا فأذن لهم، وأَخذُوا مجالسهم منَ البيْتِ. قال: «**يا أبا هِرّ**»، قلتُ: لبَّيْك يا رسول الله، قال: «**خُذْ فأَعْطِهِمْ**»، فأخذتُ القَدَحَ فجعلتُ أعطيهِ الرَّجُل فيشْربُ حتَّى يرْوَى ثمَّ يَرُدُّ عليَّ القدحَ، فأُعطيه الرَّجُل فيشْرَبُ حتى يرْوَى ثمَّ يَرُدُّ عليَّ القدح حتى انتهيتُ إلى النبيِّ ﷺ وقدْ رَوِيَ القوْمُ كلُّهم، فأخذ القدح فوضعهُ على يده فنظر إليَّ فتبسَّمَ فقال: «**يا أبا هِرّ**»، قلتُ: لبَّيْك يا رسول الله، قال: «**بقيتُ أنَا وأنتَ**»، قلت: صدقْتَ يا رسول الله، قال: «**اقْعُدْ فاشْرَبْ**» فقعدتُ فشرِبْتُ. فقال: «**اشْرَبْ**»، فشَرِبْتُ، فما زالَ يقولُ: «**اشْرَبْ**» حتى قلتُ: لا والذي بعثَك بالحقِّ ما أجدُ له مسْلكًا،

قال: «فأرِني» فأعطيته القدح فحمد الله وسمَّى وشرب الفضْلة[(١)] .

• وعن طلحة بن عمرو البصري ﷺ قال: كان الرجلُ منا إذا قدم المدينة فكان له بها عِرِّيف نزل على عريفه، وإن لم يكن له بها عريف نزل الصُّفَّة، فقدمت فنزلت الصُّفَّة فكان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مُدّ من تمر بين اثنين ويكسونا الخنف، فصلى بنا رسول الله ﷺ بعض صلاة النهار، فلما سلم ناداه أهل الصُّفَّة يمينًا وشمالًا: يا رسول الله، أحرق بطوننا التمر وتخرقت عنا الخنف، فمال رسول الله ﷺ إلى منبره فصعده فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر الشدة ما لقي من قومه حتى قال: **«ولقد أتى عليَّ وعلى صاحبي بضع عشرة وما لي وله طعام إلَّا البرير»**، قال: قلتُ لأبي حرب: وأي شيء البرير؟ قال: طعام رسول الله ﷺ تمر الأراك، فقدمنا على إخواننا هؤلاء من الأنصار، وعظم طعامهم التمر فواسونا فيه، والله لو أجد لكم الخبز واللحم لأشبعتكم منه، ولكن عسى أن تدركوا زمانًا حتى يُغدى على أحدكم بجفنة ويراح عليه بأخرى.

قال: فقالوا: يا رسول الله، أنحن اليوم خير أم ذاك اليوم؟ قال: **«بل أنتم اليوم خير، أنتم اليوم متحابون، وأنتم يؤمئذٍ يضرب بعضكم رقاب بعض»** أراه قال: **«متباغضون»**.

• وعن المنذر بن جرير عن أبيه ﷺ قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ في صدر النَّهار، قال: فجاءه قوم حُفاة عُراة مجتابي النِّمار[(٢)] أو

(١) رواه البخاري في «صحيحه»- كتاب الرقاق باب (١٧) «فتح الباري» (١١/ ٢٨١).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٤٨٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٥) (٤/ ٥٤٩) واللفظ له، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٧٦). وصححه الحاكم، والترمذي.

العَبَاءِ[(١)]، متقلِّدي السُّيوف، عامَّتهم من مُضَرَ، بل كلهم من مُضَرَ، فتمعَّر [(٢)] وجهُ رسول الله ﷺ لَمَّا رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالًا فأذَّن وأقامَ فصلَّى ثم خطبَ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ①﴾ [النساء] والآية التي في الحشر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر] تصدَّق رجلٌ من ديناره، ومن درهمه، ومن ثوبه من صاع بُرِّه من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرةٍ».

قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بُصرَّة كادت كفُّهُ تَعْجِزُ عنها، بل قدْ عجِزتْ، قال: ثم تتابع الناسُ حتى رأيت كَوْمَيْن [(٣)] من طعامٍ وثيابٍ حتى رأيت وَجْهَ رسول الله ﷺ يتهلَّل [(٤)] كأنه مُذْهَبِة [(٥)] فقال رسول الله ﷺ: «**من سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً فلهُ أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنَّةً سيئةً كان عليه وزرها ووزرُ من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من**

---

(١) النِّمار: جمع نَمِرة بفتحها، وهي ثياب صوف فيها تنمير. وقوله: مجتابي النمار، أي: خرقوها وقوروا وسطها راجع «شرح مسلم» للنووي (٧/ ١٠٢).

(٢) العباء: جمع عباءة وعباية لغتان: نوع من الأكسية.

(٣) أي: تغيَّر.

(٤) كومين: بفتح الكاف وضمها قال ابن سراج: هو بالضَّم اسم لما كُرِّم، وبالفتح المرة الواحدة والكُومة: الصبرة، والكوم: العظيم من كل شيء، والكوم: المكان المرتفع كالرابية. قال القاضي عياض: فالفتح هنا أولى؛ لأن مقصوده الكثرة، والتشبيه بالرابية.. راجع «شرح النووي».

(٥) أي: يستنير فرحًا وسرورًا.

أوزارهم شيء»(١).

• وعند الطبراني: قدم على رسول الله ﷺ وفدُ عبد القيس مجتابي النمار عليهم أثر الضر، فساؤه ما رأى من هيئتهم، فدخل منزله ثم خرج فأمر بالصدقة وحرض عليها ثم قال: «**ليتصدق الرجل من صاع بره..**»(٢).

• عن عباد بن شرحبيل رضي الله عنه قال: أصابَتْني سَنَة (٣) فدخلتُ حَائِطًا من حِيْطان المدينة، ففركتُ سُبْلًا فأكلتُ وحملتُ في ثوبي، فجاء صاحبه فَضَربني وأخذ ثَوْبي، فأتيتُ رسول الله ﷺ فقال له: «**ما عَلَّمت إذْ كان جَاهِلًا، ولا أَطْعَمْتَ إذْ كان جَائِعًا**»، أو قال: «**سَاغِبًا**»، وأمره فردَّ عليَّ ثوبي وأَعْطاني وسقًا (٤) أو نصف وسق من طعام (٥).

• وعند النسائي: قدمتُ مع عُمومتي المدينة، فدخلتُ حَائِطًا مِن حِيْطانِها ففركتُ منْ سنبله، فجاء صاحب الحائط فأخذ كِسَائي وضَربني،

---

(١) ذكر القاضي وجهيْن في «تفسيره»: أحدهما: معناه فضة مذهبة فهو أبلغ شيء في حسن الوجه وإشراقه. والثاني: شبَّهه في حسنه ونوره بالمذهبة من الجلود وجمعها مذاهب، وهي شيء كانت العرب تصنعه من جلود وتجعل فيها خيوطًا مذهبة يرى بعضها أثر بعض.

(٢) رواه أحمد (٤/ ٣٥٨)، ومسلم – كتاب الزكاة باب (٢٠) (٢/ ٧٠٣) رقم (١٠١٧) واللفظ له وللنسائي (٥/ ٥٦)، والطيالسي «منحة المعبود» (٢/ ٣٨) (٢٠٥٤)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٠٩)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٩٢)، وابن حبان (٣٢٩٧)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٣٧٣) (٢/ ٣٧٤) والبيهقي (٤/ ١٧٥).

(٣) السَّنة: القحط والجدب.

(٤) الوسق: ستون صاعًا.

(٥) رواه أبو داود في «سننه»- كتاب الجهاد- باب: في ابن السبيل يأكل من التمر (٣/ ٨٩).

فأتيتُ رسول الله ﷺ أستعدي عليْه، فأرسلَ إلى الرَّجل فجاؤوا به، فقال: «مَا حملكَ عَلى هذا؟». فقال: يا رسول، إنه دخل حائطي فأخذ منْ سُنْبله ففركَهُ، فقال رسول الله ﷺ: «ما علَّمتَهُ إذْ كان جاهلًا، ولا أطعمتَهُ إذْ كان جَائعًا، ارْدُدْ عليْه كِسَاءَه» وأمر لي رسول الله ﷺ بوسق أو نصف وسق[١]، [٢].

• وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: شهدت الأضحى مع رسول الله ﷺ بالمصلي، فلما قضى خطبته أُتي بكبش فذبحه بيده، وقال: «بسم الله وبالله، اللهم إن هذا عني وعمن لم يضح من أُمَّتي»[٣].

□ قال الحَليمي: «وهذا أبلغ ما يكون من البرِّ والشفقة»[٤].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند النبيِّ ﷺ إذ جاءه رجلٌ فقال: يا رسول الله، هلكت، قال: «ما لك؟» قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ: «هل تجد رقبة تعتقها؟» قال: لا، قال:

---

(١) «سنن النسائي» - آداب القضاة باب- الاستعداء (٨/ ٢١٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤/ ١٦٦) ورواه أبو داود، والنسائي وابن ماجه (٢/ ٧٧١)، وأبو داود الطيالسي، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٣٣). وصححه الحاكم (٤/ ١٣٣) ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٢٥٦) في ترجمة عباد ابن شرحبيل رضي الله عنه: روى حديثه أبو داود، والنسائي وابن أبي عاصم بإسناد صحيح. وقال الذهبي في «الميزان» (١/ ٤٠٢): هذا إسناد صحيح غريب - انظر «الأربعون في الشفقة والرحمة» لعطا الله عبد الغفار أبو مطيع السندي (ص٥٦- ٥٧)- طبع أضواء السلف.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣٦٢).

(٤) «شعب الإيمان» (٢/ ١٦٥).

«**فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟**» قال: لا، قال: «**فهل تجد إطعام ستين مسكينًا؟**» قال: لا، قال: فمكث النبي ﷺ، فبينا نحن على ذلك أتى النَّبيُّ ﷺ بعَرَق فيها تمر - والعرق: المكتل - قال: «**أين السائل؟**» فقال: أنا، قال: «**خذ هذا فتصدق به**»، فقال الرجلُ: على أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها - يريد الحرَّتين - أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحْك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال: «**أطعمه أهلك**»(١).

ومن ذلك: شفقته على أعرابي:

□ عن أنس بن مالك رضي الله عنه: كان النَّبيُّ ﷺ رحيمًا، وكان لا يأتيه أحدٌ إلَّا وعده، وأنجز له إن كان عنده، وأقيمت الصلاة وجاء أعرابي فأخذ بثوبه فقال: إنَّما بقي من حاجتي يسيرة وأخاف أن أنساه، فقام معه حتى فرغ من حاجته ثم أقبل فصلى»(٢).

رحمته بالصبيان والعيال وآل بيته:

• عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «**كان أرحم الناس بالصبيان والعِيال**»(٣).

---

(١) رواه البخاري - كتاب الصوم - باب ٣٠ «فتح الباري» (٤/ ١٦٣).

(٢) صحيح: رواه البخاري في «الأدب المفرد» (فضل الله الصمد) (١/ ٣٧٥)، وفي «التاريخ الكبير» (٤/ ٢١١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥/ ١٢٩) (٢٠٩٤)، و«صحيح الجامع» (٤٨١٥).

(٣) صحيح: رواه عساكر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٨٩)، و«صحيح الجامع» (٤٧٩٧) وهو عند مسلم (٢٣١٦) «ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله».

• وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «كان رحيمًا بالعيال»[(١)].

وبأبي وأمي رسول الله ﷺ أرحم البشر هذه رحمته للصبيان:

أ- ملاطفته لهم:

• عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «**يا أبا عمير، ما فعل النغير؟**»- طائر كان يلعب به- قال: ونُضح بساط لنا، قال: فصلّى عليه وصفَّنا خلفه[(٢)].

□ قال الإمام النووي رحمه الله: «أما النغير: فبضم النون، تصغير النغر بضمها وفتح الغين المعجمة، وهو طائر صغير، جمعه نغران»[(٣)].

ب- دعاؤه للصبي المريض:

□ عن الجعيد بن عبد الرحمن قال: «رأيت السائب بن يزيد بن أربع وتسعين جلدًا معتدلًا فقال: قد علمت ما مُتِّعتُ به – سمعي وبصري- إلَّا بدعاء رسول الله ﷺ، إن خالتي ذهبت بي إليه، فقالت: يا رسول الله، إن ابن أختي شاك، فادع الله له، قال: فدعا لي رسول الله ﷺ».

□ وفي رواية: «إن ابن أختي وقع، فَمسحَ رأسي، ودعا لي بالبركة، وتوضّأ فشربت مِنْ وَضوئه، ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه»[(٤)].

---

(١) صحيح: رواه الطيالسي عن أنس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٩٤)، و«صحيح الجامع» (٤٨١٤).

(٢) رواه البخاري (٦١٢٩، ٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠)، وأحمد (٣/ ١١٩)، والترمذي (١٩٨٩)، وابن ماجه (٣٧٢٠، ٣٧٤٠).

(٣) «شرح مسلم» للنووي (٧/ ٣٨٢- ٣٨٣).

(٤) رواه البخاري (٣٥٤٠، ٣٥٤١، ٥٦٧٠).

جـ- تقبيله لهم، ومداعبته لهم:

• وقد مرّ قوله ﷺ لأعرابي لا يقبل صبيانه «وأَوَ أَمْلِكُ إن كان الله نزع منكم الرحمة؟».

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يقبِّل الحسن، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت واحدًا منهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنه من لا يَرحم لا يُرحم»(١).

• فانظر، وفقني الله وإياك، كيف كان يفعل النبي ﷺ، وصحابته الكرام، من تقبيل الصبيان، فأنكر الأعراب ذلك، فاتهمهم النبي ﷺ بأن الرحمة قد نُزعت منهم، ولا تُنزع إلَّا من شقي، كما في الحديث، بل وجعل ﷺ تقبيل الأولاد علامة على الرحمة، بل وسببًا لنيل رحمة الله عز وجل، فكما أن مَن لا يَرحم لا يُرحَم، كذلك، بمفهوم المخالفة، يُرحم مَن يَرحم، فالراحمون يرحمهم الرحمن، «وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»(٢).

د- وسلامه ﷺ عليهم إذا مرّ بهم:

□ فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ على غلمان فسلّم عليهم.

وفي رواية أنه كان يمشي مع رسول الله ﷺ فمرّ بصبيان فسلَّم عليهم»(٣).

□ قال الإمام النووي رحمه الله: «وفيه: استحباب السلام على الصبيان

---

(١) رواه مسلم (٢٣١٨)، وأبو داود (٥٢١٨)، والترمذي (١٩١١).

(٢) «المرحومون في السنة» (ص٧٨).

(٣) رواه البخاري (٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨)، والترمذي (٢٦٩٦)، وأبو داود (٥٢٠٢).

المميزين، والندب إلى التواضع، وبذل السلام للناس كلهم، وبيان تواضعه ﷺ، وكمال شفقته على العالمين»(١) اهـ.

ومن شفقته ﷺ على أطفال المسلمين:

هـ- تحنيكه ﷺ لمن ولد من أولاد المسلمين:

□ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «وُلد لي غلام، فأتيت به النبي ﷺ، فسمّاه إبراهيم، فحنّكه بتمرة، ودعا له بالبركة، ودفعه إلي، وكان أكبر ولد أبي موسى»(٢).

□ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أتى النبي ﷺ بصبي يحنّكه، فبال عليه، فأتبعه الماء»(٣).

□ وعن أسماء رضي الله عنها: «أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة، قالت: فخرجت وأنا مُتِمٌّ، فأتيت المدينة، فنزلت قباء، فولدت بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنَّكه بالتمرة، ثم دعا له فبرك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام، ففرحوا به فرحًا شديدًا؛ لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم»(٤).

و- رحمته ﷺ بالولد الميت وبكاؤه عليه:

• فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أمرني رسول الله ﷺ فأتيته بابنة

(١) «شرح مسلم» للنووي (٧/ ٤٠٤) باب استحباب السلام على الصبيان.

(٢) رواه البخاري (٥٤٦٧)، (٦١٩٨).

(٣) رواه البخاري (٥٤٦٨)، ومسلم (٢٨٦).

(٤) رواه البخاري (٥٤٦٩) ومسلم.

زينب، ونفسها تقعقع كأنها في شن، فقال رسول الله ﷺ: «**لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكلٌّ إلى أجل**» قال: فدمعت عيناه، فقال له سعد بن عبادة: أترق؟! أوَلم تَنْهَ عن البكاء؟! فقال رسول الله ﷺ: «**إنما هي رحمة، جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[(١)].

• وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين - وكان ظئرًا لإبراهيم- فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبَّله وشمَّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك - وإبراهيم يجود بنفسه- فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟! فقال: «**يا ابن عوف، إنها رحمة**» ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلَّا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[(٢)].

• وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لَمَّا حُضِرتْ بنتٌ[(٣)] لرسول الله ﷺ صغيرة، فأخذها رسولُ الله ﷺ فضمَّها إلى صدْره ثم وضع يده عليها، فقضت وهي بين يدي رسول الله ﷺ، فبكت أُم أيمن فقال لها رسول الله ﷺ: «**يا أُم أيمن أتبكين ورسول الله ﷺ عندك؟**». فقالت: ما لي لا أبكي ورسول الله ﷺ يبكي. فقال رسول الله ﷺ: «**إنِّي لستُ أبكي ولكنَّها رَحْمَة**». ثم قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن بخير على كل حال، تنزع نفسه من**

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

(٢) رواه البخاري (١٣٠٣) «الفتح» (٣/ ١٧٢)، ومسلم، وأحمد (٣/ ١١٢) وابن سعد، والبيهقي (٢/ ٢٦٣)، والطيالسي في «مسنده» والقين: الحدّاد. والظئر: التي ترضِع غير ولدها، ويُطلَق على زوجها.

(٣) لعلها ابنة زينب بنت رسول الله ﷺ انظر «فتح الباري» (٣/ ١٥٦).

بيْن جنبيْه وهو يحمد الله عَزَّوَجَلَّ»[١].

وعند أحمد [٢]: «وهي تجود بنفسها، فوقع عليها فلم يرفع رأسه حتى قبضت، قال: فرفع رأسه وقال: «الحمد لله، المؤمن بخير تنزع نفسه بين جنبيه وهو يحمد الله عَزَّوَجَلَّ».

شفقته ﷺ على ابن ابنته:

• عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أرسلتْ ابنةُ النبيِّ ﷺ إليه: أنَّ ابنًا لي قُبِضَ، فأتنا، فأرسل يُقرئ السلام ويقولُ: «**إنَّ لله مَا أخذ، ولَه مَا أعطى، وكُلٌّ عنده بأجَلٍ مسمًّى، فلْتَصْبِرْ ولْتَحْتَسِبْ**»، فأرسلتْ إليهِ تُقسمُ عليه ليأْتِيَنَّها، فقامَ ومعه سعدُ بنُ عُبادةَ ومعاذُ بن جبلٍ وأُبيُّ بنُ كعبٍ وزيدُ بن ثابت ورجالٌ، فرُفِعَ إلى رسول الله ﷺ ونفَسُهُ تقعْقَعُ – قال: حسبته أنَّه قال: كأنها شنٌّ – ففاضَتْ عيناهُ، فقال سَعْدٌ: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: «**هذه رحمةٌ جَعَلَها اللهُ في قُلوبِ عبادِه، وإنَّما يرْحَمُ اللهُ مِنْ عبادِهِ الرُّحماء**»[٣].

وفي رواية شعبة عن عاصم عنده: فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «**هذِه رحمةٌ وضَعَها اللهُ في قُلوبِ مَنْ شاءَ مِنْ عبادِهِ، ولا يرحمُ اللهُ من**

---

(١) «سنن النسائي» – كتاب الجنائز – باب في البكاء على الميت (٤/ ١١).

(٢) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٧٣) (١/ ٢٦٨) والنسائي (٤/ ١١)، والترمذي في «الشمائل» (ص٢٥٧)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٩٤) والبزار «كشف الأستار» (١/ ٣٨٣) وصححه الضياء المقدسي، ورمز له السيوطي بالحسن، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٣٢).

(٣) «صحيح البخاري» – كتاب الجنائز – باب (٣٢) «الفتح» (٣/ ١٥١).

عباده إلَّا الرُّحماءَ»[١].

شفقته على الحسن والحسين رضي الله عنهما:

• عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يخْطُبنَا، إذْ جاء الحسنُ والحسيْنُ عليهما السلام عليهما قمِيصَانِ أحْمرانِ يمْشيان ويعْثُرانِ، فنزل رسولُ الله ﷺ مِنَ المنْبَرِ فحملهُمَا ووضعهُمَا بيْنَ يديْهِ، ثمَّ قال: «صَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فنظَرْتُ إلَى هذَيْن الصَّبِيَّيْنِ يمْشِيانِ ويعْثُرانِ فلمْ أصْبِرِ حتَّى قطَعْتُ حَدِيْثي ورفعْتُهما»[٢].

• وفي رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عند ابن مردويه: أنَّ رسول الله ﷺ بينما هو يخطب النَّاس عَلى المنبر خرج الحُسَيْن[٣] بن علي رضي الله عنه فوطئ في ثَوْبٍ كان عليْه فسقط فبكى، فنَزَلَ رسولُ الله ﷺ عن المنْبر، فلمَّا رأى

(١) «صحيح البخاري»- كتاب الجنائز- باب (٩٠) «الفتح» (١٠/ ١١٨)، رواه البخاري ومسلم (٢/ ٦٣٥- ٦٣٦)، وأحمد (٥/ ٢٠٤) (٥/ ٢٠٧)، وأبو داود (٣/ ٤٩٢)، والنسائي (٤/ ١٩)، والبيهقي (٤/ ٩٥، ٦٨)، وعبد الرزاق (٣/ ٥٥١).

(٢) صحيح: رواه الترمذي- المناقب (٥/ ٦٥٨ رقم ٣٧٧٤) واللفظ له، وأحمد (٥/ ٣٥٤)، وفي «فضائل الصحابة» (٢/ ٧٧١) رقم (١٣٥٨) وابن أبي شيبة (١٢/ ٩٩)، والنسائي (٣/ ١٥٦)، وابن ماجه (٢/ ١١٩٠) رقم (٣٦٠٠)، وابن خزيمة (٣/ ١٥٢) رقم (١٨٠٢)، (٢/ ٣٥٥) رقم (١٤٥٦)، وابن حبان (٧/ ٦١٢ رقم ٦٠٠٦)، والحاكم (٤/ ١٨٩)، وابن عساكر (٤/ ٩١٠) وكذا رواه أبو يعلى وابن راهوية والبزار، وابن مردويه والضياء المقدسي. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وصححه ابن خزيمة وابن حبان، والحاكم، والضياء المقدسي، والألباني.

(٣) عند الطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ ٣٤): الحسن.

الناسُ أسْرعوا إلى الحُسين رضي الله عنه يتعاطونه، يعطيه بعضهم بعضًا حتَّى وَقع يَدِ في رسول الله ﷺ فقال: «**قَاتَلَ اللهُ الشَّيْطَانَ، إنَّ الوَلَدَ لفِتْنَةٌ، والَّذِي نفْسِي بِيَدِه مَا دَريتُ أنِّي نَزَلْتُ عَنْ مِنْبَرِي**».

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي صلاة العشاء، وكان الحسن والحسين يثبان على ظهره، فلما صلَّى قال أبو هريرة رضي الله عنه: يا رسول الله، ألا أذهب بهما إلى أُمِّهما؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا**»، فبرقت برقة فما زالا في ضوءها حتى دخلا إلى أمهما»(١).

شفقته ﷺ على أمامة بنت زينب ابنته:

□ عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يُصلِّي وهو حَامِلٌ أمامةَ بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، ولأبي العاص بن ربيعة بن عبد شمس، فإذا سَجَد وَضَعَها، وإذا قام حَمَلها»(٢).

□ وعند مسلم: «رأيتُ النَّبيَّ ﷺ يَؤُمُّ الناسَ وأُمامة بنت أبي العاص وهي ابنة زينب بنت النَّبيِّ ﷺ عَلَى عاتقه، فإذا ركع وضعها، وإذا رفَع من السُّجود أعادها»(٣).

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٥١٣)، و«فضائل الصحابة» (٢/ ٧٨٥) رقم (١٤٠١)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٤٥)، والحاكم (٣/ ١٦٧) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأقرَّه العراقي في «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار» (٢/ ١٨).

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (١/ ١٧٠) باب: جامع الصلاة، والبخاري (١/ ٥٩٠)، ومسلم، وأبو داود، والدارمي.

(٣) رواه مسلم- كتاب المساجد ومواضع الصلاة- باب جواز حمل الصبيان في الصلاة (١/ ٣٨٥-٣٨٦).

□ وعند أبي داود قال: «بينما نحن ننتظر رسول الله ﷺ للصَّلاة في الظُّهر أو العصر، وقد دعاه بلال للصَّلاة إذْ خرج إلينا وأُمامة بنت أبي العاص بنت ابنته عَلَى عنقه، فقام رسول الله ﷺ في مصلاه وقمنا خلفه وهي في مكانها الذي هي فيه، قال: فكبَّر فكبرنا، قال: حتى إذا أراد رسولُ الله ﷺ أن يركع أخذَها فوضعها ثم ركع وسَجَدَ، حتى إذا فرغ من سجوده ثم قام أخذها فردها في مكانها، فما زال رسول الله ﷺ يصنع هذا ذلك في كلِّ ركعةٍ حتى فرغَ من صلاته ﷺ»[(١)].

□ قال ابن حجر في «الفتح»: «وفيه تواضعه وشفقته على الأطفال وإكرامه لهم جبرًا لهم ولوالديهم»[(٢)].

شفقته على صبيان بيت النبوَّة رضي الله عنهم:

□ عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قَدِمَ منْ سفرٍ تُلقِّي بصبْيَانِ أهْلِ بيته، قال: وإنَّهُ قَدِمَ منْ سفر فسُبق بي إليْهِ فحملني بين يديْه، ثُمَّ جيء بأَحدِ ابْنَي فاطمة رضي الله عنها فأردفَهُ خلْفَه، قال: فأدْخَلنا المدِيْنة ثلاثة على دَابة»[(٣)].

□ وعند أبي داود: كان النبيُّ ﷺ إذا قَدِم منْ سَفَر استُقبل بنا فأيُّنَا أولًا جعله أمامه، فاستُقبل بي فحملني أمامَه، ثم استقبل بحَسَن أو حُسَين

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (١/ ٥٦٣) واللفظ له، والبغوي في «شرح السنة» (٣/ ٢٦٥).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٥٩٢).

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» – فضائل الصحابة– باب فضائل عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما (٤/ ١٨٨٥).

فجعله خلْفَه فدخلنا المدينة وإنا كذلك»[(١)].

□ وعند أحمد: «لو رأيتَني وقُثم وعبيد الله ابني عبَّاس ونحنُ صبيان نلعبُ إذْ مرَّ النبيُّ ﷺ عَلى دابَّةٍ فقال: «ارفعوا هذا إليَّ»، قال: فحملني أمامه، وقال لقثم: «ارفعوا هذا إليَّ» فجعله وراءَهُ، وكان عُبيد الله أحبّ إلى عباس من قُثم فما استحى من عمِّه أن حمل قُثمًا وتركه، قال: ثم مسح على رأسي ثلاثًا، وقال كلَّما مسح: «اللَّهُمَّ اخلُفْ جعفرًا في ولده»، قال: قلتُ لعبد الله: ما فعل قُثم؟ قال: استشهد.

قال: قلتُ: الله أعلم بالخير ورسوله بالخير. قال: أجل[(٢)].

شفقته على آل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

• عن أسماء بنت عُمَيْس رضي الله عنها قالت: لَمَّا أصيب جعفر وأصحابه دخلت على رسول الله ﷺ وقد دبغت أربعين منيئة وعجنت عجيني وغسلت بنيَّ ودهنتهم ونظفتهم فقال رسول الله ﷺ: «**ائتني ببني جعفر**»، قالت: فأتيته بهم، فشمهم وذرفت عيناه، فقلتُ: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أَبَلَغَكَ عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «**نعم، أصيبوا هذا اليوم**». قالت: فقمت أصيح، واجتمع إليَّ النساء، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: «**لا تُغفِلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعامًا؛ فإنهم قد شُغِلوا بأمر صاحبهم**»[(٣)].

(١) «سنن أبي داود» (٣/ ٥٩) رقم (٢٥٦٦).

(٢) «مسند أحمد» (١/ ٢٠٥).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٦/ ٣٧٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٥٧): روى أبو داود وغيره بعضه، ورواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال «الصحيح».

شفقته على ابنته زينب رضي الله عنها:

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثتْ زينب رضي الله عنها في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة رضي الله عنها أدخلتها بها على أبي العاص، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقةً شديدة وقال: «**إنْ رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها الذي لها**». قالوا: نعم. وكان رسول الله ﷺ أخذ عليه أو وعده أن يخلي سبيل زينب إليه، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار، فقال: «**كونا ببطن يَأجج**[1] **حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها**»[2].

شفقة النبي ﷺ على أزواجه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن:

• عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ كان يقولُ لهنَّ: «**إنَّ أمَركُنَّ لَمَّا يهمُّني بعدي، ولن يصبر عليكُنَّ إلَّا الصابرون**»، ثم تقول لي: سقى الله أباك من سلسبيل الجنة. تريد عبد الرحمن بن عوف، وكان أعطى نساء رسول الله ﷺ مالًا بأربعين ألفًا وصلهن به»[3].

---

(١) يَأجِج: قال المنذري في «مختصر سنن أبي داود» (٤/ ٢٦): موضع على ثمانية أميال من مكة.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٣/ ١٤٠) رقم (٢٦٩٢) وأحمد (٦/ ٢٧٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٤٢٨)، والحاكم (٣/ ٢٣، ٢٣٦، ٣٢٤) و(٤/ ٤٤)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ١٥٤) وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي».

(٣) صحيح: رواه أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٧٣٢) رقم (١٢٥٨).

تخفيفه ﷺ الصلاة عند سماع بكاء الصبي:

• عن أبي قتادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنِّي لأقومُ في الصَّلاة أريدُ أن أطوِّل فيها فأسمعُ بكاء الصَّبِيِّ فأتجوَّزُ في صلاتي كراهيةَ أنْ أشقَّ عَلَى أمِّه**»(١).

□ وفي رواية ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه: قال أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يسمع بكاء الصَّبي مع أمِّه وهو في الصلاة فيقرأ بالسورة الخفيفة أو بالسورة القصيرة»(٢).

شفقته ورحمته لكبار الرجال من صحابته رضي الله عنهم:

• قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: اشتكى سعد ابن عبادة شكوى، فأتاه رسول الله ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم، فلما دخل وجده في غشيته، فقال: قد قضى يا رسول الله، فبكى رسول الله ﷺ، فلما بكى رسول الله ﷺ بكوا، فقال: «**ألا تسمعوني، إن الله جلّ وعلا لا يعذِّب بدمع العينن ولا بحزن القلب، ولكن يعذِّب بهذا أو يرحم**» أشار إلى لسانه(٣).

ومن شفقته ﷺ على قومه:

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل على رسولِ الله ﷺ رجُلان فكلَّماه

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٢٠١- ٢٠٢) «الفتح»، وأحمد (٥/ ٣٠٥)، وابن أبي شيبة، وأبو داود (١/ ٤٩٩ رقم ٧٨٩) وابن ماجه (١/ ٣١٦- ٣١٧).

(٢) رواه مسلم (١/ ٣٤٢)- الطهارة- باب (٣٧)، وأحمد (٣/ ١٥٦)، وأبو يعلى (٣/ ٣٣٢، ٢٦١، ٣٨٤)، وأبو عوانة (٢/ ٩٧)، وأبو الشيخ والبيهقي (٢/ ٣٩٣).

(٣)أخرجه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤).

بِشيْءٍ لا أدري ما هو، فأغضباه فلعنَهُمَا وسبَّهُما، فلمَّا خَرجا قلتُ: يا رسول الله! من أصاب من الخير شيئًا ما أصابَهُ هذان. قال: «**وما ذاك؟**» قالت: قلتُ: لعنتهُمَا وسببتهُما. قال: «**أو ما علمتِ ما شارطتُ عليه ربِّي؟ قلتُ: اللهُمَّ إنَّما أنا بشر، فَأيُّ المسْلمين لعنتهُ أو سببتهُ فاجْعلهُ له زكاةً وأجرًا**»(١).

• وعن أنس رضي الله عنه قال: كانتْ عندَ أمِّ سُلَيم يَتيمَةٌ – وهي أمُّ أنس– فرأى رسولُ الله ﷺ اليتيمَةَ فقال: «**آنْتِ هِيَهْ، لقدْ كَبِرْتِ لا كبرَ سِنُّكِ**»، فرجعَتِ اليَتيمَةُ إلى أمِّ سُليْم تبْكي، فقالت أمُّ سُلَيْم: ما لك يا بُنية؟! قالت الجاريةُ: دعا عليَّ نبيُّ الله ﷺ أنْ لا يُكْبر سنِّي، فالآنَ لا يكبرُ سِنِّي أبدًا أوْ قالت قَرْني. فخرجتْ أمُّ سُليم مسْتَعجلةً تلوثُ خمارَهَا حتَّى لقيتْ رسولَ الله ﷺ، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**ما لك يا أُمُّ سُلَيْم؟**» فقالت:يا نبيَّ الله، أَدَعوْتَ على يَتيمتي؟ قال: «**وَمَا ذاكِ يا أمَّ سُلَيْم؟**» قالت: زَعمتْ أنَّكَ دعوْتَ أن لا يكْبَرَ سِنُّها ولا يكبرَ قَرْنُها. قال: فضحك رسولُ الله ﷺ ثمَّ قال: «**يا أُمَّ سُلَيْم! أما تعْلَمِين أنَّ شَرْطي على رَبِّي اشترطتُ على ربِّي فقلت: إنَّما أنا بشر، أرضى كما يرضى البشر، وأغْضَبُ كما يَغْضَبُ البشرُ، فأيُّما أحد دعَوْتُ عليهِ منْ أمَّتي بدَعْوةٍ ليسَ لها بأهْلٍ أنْ يجْعلها لَهُ طهُورًا وزكاةً وقُربةً يُقرِّبُهُ بها منهُ يوم القيامة**»(٢).

(١) رواه مسلم – كتاب البر والصلة والأدب– باب (٢٥) (٤/ ٢٠٠٧)، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٤٥).

(٢) أخرجه مسلم، وابن حبان في «صحيحه» (٧/ ٥١٨) (٥٧٦٤).

ومن شفقته على الشباب:

• عن أبي أمامة ﷺ قال: إن فتى شابًّا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القومُ عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: «**أدنه**» فدنا منه قريبًا قال: فجلس، قال: «**أتحبه لأُمك؟**» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**»، قال: «**أفتحبه لابنتك؟**» قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**»، قال:«**أفتحبه لأُختك؟**» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**»، قال: «**أفتحبه لعمتك؟**» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**»، قال: «**أفتحبه لخالتك؟**». قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**»، قال: فوضع يده عليه وقال: «**اللَّهُمَّ اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه**»، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيءٍ [١].

شفقته على جابر بن عبد الله رضي الله عنهما:

• عن جابر ﷺ قال: غزا رسولُ الله ﷺ إحدى وعشرين غزوة بنفسه، شهدت تسع عشرة، غبتُ عن اثنتين [٢]، فبينا أنا معه في بعض غزواته [٣]، إذ أعيا ناضحي [٤] تحت الليل فبرك، وكان رسول الله ﷺ في آخرنا في أخريات الناس فيزجي [٥] الضَّعيفَ ويردف ويدعو لهم، فانتهى

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٥٦- ٢٥٧).

(٢) هما غزوة بدر وأحد، كما عند مسلم (٣/ ١٤٤٨)، وأحمد (٣/ ٣٢٩).

(٣) هي غزوة ذات الرقاع.

(٤) أي: جملي.

(٥) أي: يُسوق، ليلحقه بالرِّفاق انظر «النهاية» (٢/ ٢٩٧).

إليَّ وأنا أقولُ: يا لهف أُمَّتاه! وما زال لنا ناضح سواء. فقال: «**من هذا؟**». قلتُ: أنا جابر بأَبي وأُمي يا رسول الله. قال: «**ما شأنك؟**». قلتُ: أعيا ناضحي. فقال: «**أمعك عصا؟**». قلتُ: نعم، فضربته ثم بعثه ثم أناخه ووطئ على ذراعه وقال: «**اركبْ**»، فركبت فسايرته فجعل جملي يسبقه. فاستغفر لي تلك الليلة خمسًا وعشرين مرة. فقال لي: «**ما ترك عبد الله من الولد؟**» يعني: أباه. قلتُ: سبع نسوة. قال: «**أترك عليه دينًا؟**». قلتُ: نعم. قال: «**فإذا قدمت المدينة فقاطعهم فإن أبوا فإذا حضر جداد نخلكم فآذنِّي**»، وقال لي: «**هل تزوجت؟**». قلتُ: نعم. قال: «**بمن؟**». قلتُ: بفلانة بنت فلان – بأيّم كانت المدينة-. قال: «**فهلا فتاة تلاعبها وتلاعبك؟**». قلتُ: يا رسول الله، كنَّ عندي نسوة خرق [١]- يعني أخواته- فكرهتُ أن آتيهن بامرأة خرقاء، فقلتُ: هذه أجمع لأمري. قال: «**فقد أصبت ورشدت**». فقال: «**بكم اشتريت جملك؟**». قلتُ: بخمس أواق من ذهب. قال: «**قد أخاناه**»، فلما قدم المدينة أتيته بالجمل، فقال: «**يا بلال أَعطه خمس أواق من ذهب يستعين بها في دين عبد الله وزده ثلاثًا واردد عليه جمله**». قال: «**هل قاطعت غرماء عبد الله؟**». قلتُ: لا يا رسول الله. قال: «**أترك وفاء؟**». قلتُ: لا. قال: «**لا عليك إذا حضر جداد نخلكم فآذني**»، فآذنته فجاء فدعا لنا، فاستوفى كل غريم ما كان يطلب تمرًا ووفاء، وبقي لنا ما كنَّا نجدُّ وأكثر، فقال رسول الله ﷺ: «**ارفعوا ولا تكيلوا**» فرفعنا فأكلنا منه زمانًا [٢].

---

(١) جمع خرقاء وهي الحمقاء الجاهلة.

(٢) صحيح: رواه ابو الشيخ في «أخلاق النبي»- ما رُوي في رفقة بأمته ﷺ (ص٦٨)
=

رحمته ﷺ بالنساء:

• لقد أوصى رسول الله ﷺ في أعظم الأيام يوم عرفة بالنساء فكان مما قاله بأبي هو وأمي: «**فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك، فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**»(١).

□ قال الإمام النووي رحمه الله في معرض الكلام على فوائد هذا الحديث العظيم: «فيه: الحث على مراعاة حق النساء، والوصية بهن، ومعاشرتهن بالمعروف، وقد جاءت أحاديث كثيرة صحيحة في الوصية بهن، وبيان حقوقهن، والتحذير من التقصير في ذلك»(٢) اهـ.

□ ومن رحمته بالأمهات تخفيف الصلاة عند سماع بكاء الأطفال كما مرّ سابقًا من ذلك:

رحمته ﷺ للنساء الباكيات على موتاهن:

• فعن عتيك بن الحارث: أن جابر بن عتيك أخبره أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت، فوجده قد غلب عليه، فصاح به، فلم يجبه، فاسترجع رسول الله ﷺ وقال: «**غُلبنا عليك يا أبا الربيع**»، فصاحت النسوة وبكين وجعل ابن عتيك يُسكتهن، فقال رسول الله ﷺ: «**دعهن،**

بلفظه، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرّجاه ووافقه الذهبي، وحسّنه النووي في «المجموع» (٤/ ٢٤٨) وأخرجه مسلم مختصرًا.

(١) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٢) «شرح مسلم» للنووي (٤/ ٤٤٣- ٤٤٤).

فإذا وجب فلا تبكين باكية» قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟ قال: «**إذا مات**» قالت ابنته: والله إني كنت لأرجو أن تكون شهيدًا، فإنك كنت قد قضيت جهازك؛ فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته، وما تعدُّون الشهادة؟**». قالوا: القتل في سبيل الله. قال رسول الله ﷺ: «**الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله: المبطون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمطعون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجُمع شهيد**»(١).

ومن رفقه ﷺ:

□ عن جابر بن سمرةَ رضي الله عنهما قال: «صلَّيْتُ مع رسول الله ﷺ صلاة الأولَى، ثُمَّ خرج إلى أهلِهِ وخرجْتُ معه، فاستقبله وِلْدانٌ فجعل يمْسَحُ خَدَّيْ أحدهمْ واحدًا واحدًا. قال: وأمّا أنا فمَسَحَ خَدِّي. قال: فوجدْتُ لِيَدهِ بَرْدًا أوْ رِيحًا كأنَّما أخْرَجها منْ جُؤْنَةِ عطَّارٍ»(٢).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قدم الطُّفَيلُ بن عمرٍو الدَّوسيُّ وأصحابهُ على النبيِّ ﷺ، فقالوا: يا سول الله إنَّ دَوْسًا عصَتْ وأبَتْ فادْعُ اللهُ عليها،

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٤٤٦)، وأبو داود (٣١١١)، والنسائي (٤/ ١٣)، وابن حبان (٣١٨٩، ٣١٩٠) «الإحسان»، والحاكم (١/ ٣٥١- ٥٣٢)، والبيهقي (٤/ ٦٩- ٧)، والبغوي في «شرح السنة» (١٥٣٢) وهذا إسناد رجاله رجال الشيخين خلا عتيك بن الحارث، روى له مالك في «الموطأ» ووثّقه ابن حبان، على أن للحديث شواهد كثيرة منها ما رواه البخاري (٢٨٢٩)، ومسلم (١٩١٤) عن أبي هريرة. والمرأة تموت بجمع أي: تموت بحملها، أي: وهو مجتمع فيها. أو هي التي تموت بِكْرًا.

(٢) رواه مسلم (٢٣٢٩).

فقل: هلكتْ دَوْسٌ. قال: «**اللهم اهْدِ دَوْسًا وَائتِ بِهِمْ**»(١).

• عن أنسٍ ﵁ قال: كان رسولُ الله ﷺ منْ أَحْسَنِ الناس خُلقًا، فأرسَلَني يوْمًا لحاجَةٍ فقلتُ: والله لا أذْهبُ! وفي نفْسِي أنْ أذْهبَ لِمَا أمَرَني به نبيُّ الله ﷺ فخَرَجْتُ حتَّى أمُرَّ على صبْيانٍ وهم يلعبون في السُّوقِ فإذا رسول الله ﷺ قدْ قَبَضَ بقفايَ مِنْ ورائي، قال: فنظرتُ إليه وهو يضحكُ فقال: «**يا أُنَيْسُ أذَهَبْ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟**». قال: قلت: نعمْ أنا أذهبُ يا رسول الله»(٢).

• وقال ﷺ: «**لولا أن أشُقَّ على أمتي لأمرتُهم بالسِّواك عند كلِّ صلاة**»(٣).

• وعن زيد بن خالد الجهني ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لولا أن أَشُقَّ على أمتي لأمرتهم بالسِّواك عند كل صلاة، ولأَخَّرت العِشاء إلى ثلث الليل**»(٤).

• وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لولا أن أشقَّ على أمتي لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء، ومع كل وضوء بسواك**»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤).

(٢) رواه مسلم (٢٣١٠).

(٣) رواه مالك، وأحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن أبي هريرة، وأحمد، وأبو داود، والنسائي عن زيد بن خالد الجهني.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والضياء، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣٧)، و«صحيح الجامع» (٥٣١٥).

(٥) حسن: رواه أحمد، والنسائي عن أبي هريرة، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣١٨).

رحمته بالجِنّ:

• عن عامر الشعبي قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟. فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود، فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ فقال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذ هو جاء من قِبل حراء، فقلنا: يا رسول الله، فقدناك، فطلبناك، فلم نجدك، فقال: «**أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن**»، قال: فانطلق بنا، فأرانا نيرانهم وسألوه الزاد، فقال: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم**»، فقال رسول الله ﷺ: «**فلا تستنجوا بالعظم ولا بالبعر، فإنه زاد إخوانكم من الجن**»[١].

□ قال الإمام النووي رحمه الله في شرح «مسلم» (٤/ ١٧٠) معنى: «استطير»: طارت به الجن، ومعنى «اغتيل»: قتل سرًّا، والغِيلة – بكسر الغين –: هي القتل في خفية. اهـ.

• وفي الحديث: رحمة النبي ﷺ بالجن حيث قال: «**أتاني داعي الجن فذهبت معه**»، وفيه من الموافقة، وعدم الممانعة في ذهابه إليهم واستجابته ولدعوتهم، وفيه: «**فقرأت عليهم القرآن**» رأفة وشفقة بهم، في دعوتهم، والرغبة في هدايتهم، ورحمتهم بإخراجهم من الظلمات إلى النور، ثم بعد ذلك تخصيص طعام لهم، وعلف لدوابهم.

• ولتلحظ، وفّقني الله وإياك لمحابه، قوله ﷺ: «**فإنه زاد إخوانكم من**

(١) رواه مسلم (٤٥٠).

الجن»، فلفظ الأخوة يُشعر بالرأفة والرحمة، وأن لهم من الحقوق ما لبني البشر من المؤمنين.

فسبحان مَن أودع هذه الرحمة في قلب النبي الكريم ﷺ»[١].

رحمته وشفقته بالعجماوات من الحيوان والطير:

□ عن يعلى بن مرة رضي الله عنه قال: لقد رأيتُ من رسول الله ﷺ ثلاثًا ما رآها أحدٌ قبلي ولا يراها أحد من بعدي، لقد خرجت معه في سفر حتى إذا كنا ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبي لها فقالت..

قال: وكنت عنده جالسًا ذَاتَ يَوْمٍ إذْ جَاءه جَمَلٌ يخبب حتَّى صوّب[٢] بجِرانهِ بَيْن يَديْه ثمَّ ذَرفتْ عيناهُ، فقال: «**وَيْحَكَ، انظرُ لمنْ هذا الجمل، إنَّ لهُ لشأنًا**»، قال: فخرجتُ ألتَمِسُ صاحبَه فوجدتُهُ لرجلٍ من الأنْصار، فدعوتُهُ إليْه فقال: «**مَا شأن جَملِكَ هذا؟**» فقال: ومَا شأْنه؟. لا أدْري والله ما شأْنُه، عَمِلْنا عليه ونضحْنا عليه حتَّى عجَزَ عن السّقايةِ فائْتَمرنَا البارِحَة أنْ ننَحرهُ ونُقَسِّم لَحمَهُ. قال: «**فلا تَفْعل، هَبْهُ لي أَوْ بِعْنِيْه**». فقال: بلْ هو لك يا رسول الله قال: فوسَمهُ بِسمة الصَّدقةِ ثُمَّ بَعَثَ بهِ[٣].

● **وفي رواية عبد الله بن حفص عن يعلى بن مرة:**

بيْنَا نحنُ نسير معه مررنا ببعير يُسْنَى عليه، فلمّا رآهُ البعير جَرْجَرَ ووضع جرَانَهُ، فوقف عليه النبيُّ ﷺ فقال: «**أيْنَ صاحِبُ هذا البعير؟**» فجاءَ، فقال: «**بِعنيهِ**»، فقال: لا بل أهبه لك، فقال: «**لا، بِعينهِ**»، قال: لا بل

---

(١) «المرحومون في السُّنَّة» (ص٨٨- ٨٩).

(٢) في «الترغيب» للمنذري، و«الشمائل» لابن كثير: «ضَرَبَ».

(٣) «مسند أحمد» (٤/ ١٧٠).

نَهَبُهُ لك وإنَّهُ لأهْلِ بيتٍ ما لهم معيْشَةُ غيره، قال: «أما إذا ذكَرْتَ هذا مِنْ أمرِه، فإنَّه شكى كثرةَ العَمل وقِلَّة العَلف»[(١)].

• وفي رواية المنهال بن عمرو عن يعلى بن مرة عند أحمد:

«ما لبعيرك يشكوك، زعم أنك سانيه حتى إذا كبر تريد أن تنحره»، قال: صدقتَ والذي بعثك بالحق نبيًّا، قد أردت ذلك، والذي بعثك بالحق لا أفعل[(٢)].

• وفي رواية حُكيمة عن يعلى بن مرة عند أبي نعيم:

«أتدرون ما يقول هذا؟ زعم أنه خدم مواليه أربعين سنة، حتى إذا كبر نقصوا من علفه وزادوا في عمله، حتى إذا كان لهم عرس أخذوا الشفار لينحروه»، فأرسل إلى مواليه فقص عليهم، قالوا: صدق والله يا رسول الله. قال: «إنِّي أحب أن تدعُوهُ لي» فتركوه[(٣)].

• وفي رواية عثمان بن يعلى عن أبيه عند الطبراني:

«يا يعلى انطلق إلى أهل هذا البعير فاشتره منهم، وإن لم يبيعوك فقُلْ: إن رسول الله ﷺ يوصيكم به»، قالوا: أيم الله، لقد نضحنا عليه عشرين سنة، وإن كنَّا لنريد أن ننحره بالغداة، فأما إذا وصانا به رسولُ الله ﷺ فإنا لا نألوه خيرًا»[(٤)]، [(٥)].

---

(١) «مسند أحمد» (٤/ ١٧٣)، و«الدلائل» للبيهقي (٦/ ٢٣)، ولأبي نعيم (ص٣٢٧)، و«شرح السُّنَّة» للبغوي (١٣/ ٢٩٥).

(٢) «مسند أحمد» (٤/ ١٧٣).

(٣) «الدلائل» (ص٣١٨).

(٤) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٣/ ٢٥٥).

(٥) صحيح: روى هذا الحديث عن يعلى بن مرة:

عبد الرحمن بن عبد العزيز عند الإمام أحمد:

=

شفقته ﷺ على الحُمرة:

وقد مرّ الحديث.

وعبد الله بن حفص عند أحمد وأبي نعيم والبيهقي كلاهما في «الدلائل» والبغوي، و«المنهال» عند أحمد والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ٢٦٥)، ووكيع في «الزهد» (٣/ ٨٢١)، وحكيمة عند أبي نعيم. وعبد الله بن يعلى عند الطبراني (٢٣/ ٢٦١)، والبيهقي (٦/ ٢٢)، وعثمان بن يعلى عند الطبراني (٢٣/ ٢٥٥).

وابن يعلى (غير منسوب) عند ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ٣٩٥) رقم (٢٦٩٥).

قلتُ: وفي بعض طرق هذا الحديث عند الطبراني والحاكم والبيهقي عن المنهال بن عمرو عن يعلى بن مرة عن أبيه.

قال البيهقي: مرَّة أبو يعلى هو مرة بن أبي مرة الثقفي وقيل في: عن يعلى نفسه انه قال: رأيت وهذا أصح والأول وهم قاله البخاري يعني: روايته عن أبيه وهم إنما هو عن يعلى نفسه.

والحديث أخرجه الحاكم كما تقدم وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبيُّ.

وقال المنذري في «الترغيب» (٣/ ٢٠٦): بعد ما ذكره من طريق الإمام أحمد كما في الطريق الأول هنا وقال: إسناده جيد.

وقال الحافظ ابن عبد البر قبله في «التمهيد» (١/ ٢٢١): ومن أحسنها وكلها حسن ما حدثنا عبد الوارث ابن سفيان فذكر حديث المنهال عن يعلى بن مرة عن أبيه.

وقال: وروى عن يعلى من وجوه.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في «الشمائل» (ص٢٦٧) بعد ما ذكره من عدة طرق: فهذه طرق جيدة متعددة تفيد غلبة الظن أو القطع عند المتبحرين أن يعلى بن مرة حدث بهذه القصة في الجملة وقد تفرد بها كله الإمام أحمد دون أصحاب الكتب الستة.

وقال الحافظ الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٦): رواه أحمد بإسنادين والطبراني بنحوه، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح.

والحديث صححه الألباني في «سلسلة الصحيحة» رقم (٤٨٥).

• أخرج الإمام أبو داود السجستاني رحمه الله من حديث عامر الرام أخي الخُضْر رضي الله عنه قال: إني لببلادنا إذْ رفعت لنا راياتٌ وألوية فقلتُ: ما هذا؟ قالوا: هذا لواء رسول الله ﷺ، فأتيته وهو تحت شجرة قد بُسِط له كساء وهو جالس عليه وقد اجتمع إليه أصحابه فجلست إليهم، فذكر رسول الله ﷺ الأسْقام، فقال: «**إن المؤمنَ إذا أصابه السَّقم ثم أعفاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذُنوبه وموعظة له فيما يستقبل، وإنَّ المنافقَ إذا مرض ثم أعفي كان كالبعير عَقله أهله ثم أرسلوه فلم يدر لِمَ عقلوه ولم يدر لم أرسلوه؟**» فقال رجلٌ ممن حوله: يا رسول الله، وما الأسقام؟ والله ما مرضت قَطُّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**قُمْ عنَّا، فلستَ منَّا**». فبينا نحن عنده إذْ أقبل رجلٌ عليه كساء وفي يده شيء قد التفَّت عليه، فقال: يا رسول الله، إنِّي لما رأيتك أقبلت إليك فمررت بغيضة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر، فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أُمهن فاستدارت على رأسي، فكشفت لها عنهن فوقعت عليهن معهن، فلففتهن بكسائي فهي أولاء معي، قال: «**ضعهنَّ عنك**»، فوضعتهن وأبتْ أُمهن إلَّا لزومهنَّ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أتعجبون لرحم أم الأفراخ فراخها؟**» قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «**والذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أمِّ الأفراخ بفراخها، ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتَهُنَّ وأُمهُنَّ معهن، فرجع بهنَّ**»(١).

---

(١) صحيح: رواه أبو داود في «سننه»- كتاب الجنائز (٣/ ٤٦٩) رقم (٣٠٨٩) والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٣٩) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١/ ٣٣) رقم (٢٥).

رحمته بالجماد «جذع النَّخْلة»:

لقد بلغت رحمة رسول الله ﷺ مبلغًا فاق كل وصف، ولم تصل إليه رحمة إنسان من البشر.

□ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه، فحنَّ الجذع، فأتاه فمسح يده عليه»[(١)].

• وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقومُ يَوْم الجُمعةِ إلى شجرةٍ أو نخلةٍ، فقالت امرأة من الأنصار أو رجلٌ: يا رسول الله ألا نجعلُ لك مِنبَرًا؟ قال: «إنْ شِئْتُم» فجعلوا لهُ مِنبرًا.

فلما كان يوم الجمعة دُفع إلى المنبرِ، فصَاحَتْ النخلةُ صِيَاحَ الصبيِّ، ثُمَّ نزلَ النَّبيُّ ﷺ فضمَّهُ إليْه، يَئنُّ أنين الصبيِّ الذي يُسكَّنُ، قال: «**كانتْ تبكي عَلى ما كانتْ تسمعُ من الذِّكر عندها**»[(٢)].

□ وعن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: «كَانَ النَّبيُّ ﷺ إذا خطبَ يستندُ إلى جذعِ نخلة مِنْ سوارِي المسجد فلما صنع لهُ منبره اسْتوى علَيْه اضْطربَتْ تِلك السارية كحنين الناقةِ، حتَّى سمعها أهلُ المسجد، حتى نزل إليها فاعتنقها فسكنت[(٣)]»[(٤)].

وعنه أيضًا قال: «كان المسجد مسقوفًا على جذوع من النخل، فكان

(١) رواه البخاري (٣٥٨٣).

(٢) رواه البخاري (٣٥٨٤)- كتاب المناقب، باب علامات النوبة «فتح الباري» (٦/ ٦٠١)، وأحمد، وابن أبي شيبة، وأبو نعيم، والبيهقي، وابن بشكوال وابن عساكر.

(٣) وفي رواية: فسكَتَتْ.

(٤) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٢٩٥)، والنسائي، والشافعي، وعبد الرزاق، وأبو عوانة.

النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع المنبر، فكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار، حتى جاء ﷺ فوضع يده عليها، فسكنت»[١].

• وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كَانَ يقومُ يومَ الجمعةِ فيسند ظهره إلى جذعٍ منصوبٍ في المسجد فيخطب فجاء رومي فقال: ألا نضع لك شيئًا تقعد وكأنك قائم؟ فصنع له منبرًا له درجتان، ويقعد عَلى الثالثة. فلما قعد نبيُّ الله عَلى المنبر خار[٢] الجذع خوار الثور حتى ارتج المسجد بخواره حزنًا عَلى رسول الله ﷺ، فنزل إليه رسول الله ﷺ من المنبر فالتزمه وهو يخور، فلما التزمه رسول الله ﷺ سكتَ، ثمَّ قال: «**والذي نَفْسِي بِيدَهِ لَوْ لَمْ أَلتَزِمْهُ مَا زَالَ هكَذَا حتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ حُزْنًا عَلى رَسُولِ الله**»، فأَمَر بِهِ رسول الله ﷺ فدُفِنَ، يعني: الجذع»[٣].

□ قال القاضي عياض: «حديث أنين الجذع، وهو في نفسه مشهور منتشر، والخبر به متواتر، قد أخرجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر، منهم: أبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وسهل بن سعد، وأبو سعيد الخدري، وبريدة، وأم سلمة، والمطلب بن أبي وداعة، كلهم يحدّث بمعنى هذا الحديث، قال الترمذي: وحديث أنس صحيح»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٥٨٥).

(٢) الخُوَار: صوْت البقر.

(٣) صحيح: رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٣/ ١٤٠) رقم (١٧٧٧). قال الترمذي: «وحديث أنس صحيح».

(٤) «الشفا» (١/ ٣٠٣) وانظر: «نظم المتناثر من الحديث المتواتر» (ص١٣٤).

□ كان الحسن إذا حدّث بهذا بكى وقال: «يا عباد الله، الخشبة تحنُّ إلى رسول الله ﷺ شوقًا إليه لمكانه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه»(١).

وعلى درب الرحمة النيِّر الودود نسير:

• عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**قال لي جبريلُ: لو رأيتني وأنا آخذٌ من حَمَاءِ البحر فأدُسُّه في فِيّ**(٢) **فرعون؛ مخافةُ أن تُدركه الرحمة**»(٣).

وفي فضل التراحم:

• عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كلَّ واحدةٍ منها تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمها ابنتاها فشقَّت التَّمرة التي كان تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها فذكرتُ الذي صنعتْ لرسول الله ﷺ فقال: «**إنَّ الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار**».

وفي رواية: ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل عليَّ النبي ﷺ فحدثته حديثها، فقال النبيُّ ﷺ: «**من ابتُلِي من البنات بشيء فأحسن إليهن كُنَّ سترًا**»(٤).

---

(١) «المرحون في السنة» (ص١٠٤).

(٢) فِيّ: أي فم.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وكذا رواه الترمذي، والطيالسي، وابن جرير، والخطيب، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٠١٥)، و«صحيح الجامع» (٤٣٥٣).

(٤) رواه البخاري في «صحيحه»- كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (١٠/ ٤٢٦) «الفتح»، ومسلم -كتاب البر- باب فضل الإحسان إلى البنات (٤/ ٢٠٢٧)

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ ومعه صبي، فجعل يضمّه إليه، فقال النبيُّ ﷺ: «**أترحمه؟**» قال: نعم، قال: «**فالله أرحم بك منك به، وهو أرحم الراحمين**»(١).

رُحَماء بينهم:

«في غزوة الخندق رمى سعدَ بن معاذ الأنصاري سيد الأوس رضي الله عنه رجلٌ من المشركين من قريش يقال له: حبان بن العرقة بسهم، فقال: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله فقطعه، فدعا الله تعالى فقال: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من قريظة، وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية فرقاً كلمه، وبعث الله الريح على المشركين: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥﴾ [الأحزاب].

فلحق أبو سفيان بتهامة، ولحق عيينة بن بدر بن حصين ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فأمر بقبة فضربت على سعد في المسجد ووضع السلاح.

قالت عائشة رضي الله عنها -راوية الحديث-: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: أقد وضعت السلاح، والله ما وضعت الملائكة السلاح، فاخرج إلى بني قريظة فقاتلهم، فأمر رسول الله ﷺ بالرحيل ولبس لأمته، فخرج فمرَّ على بني غنم وكانوا جيران المسجد فقال: «**من مرَّ بكم؟**» فقالوا: مرَّ بنا دحية الكلبي، وكان دحية تشبه لحيته وسنته ووجهه بجبريل عليه السلام، فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمسة وعشرين يومًا فلما اشتد حصرهم واشتد البلاء عليهم، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروا أبا لبابة

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٧٧).

فأشار إليهم بيده أنه الذبح، فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فقال رسول الله ﷺ: «**انزلوا على حكم سعد بن معاذ**» فنزلوا، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد فحُمِل على حمار له إكاف من ليف، وحف به قومه فجعلوا يقولون: يا أبا عمرو! حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية ومن قد علمت، لا يرجع إليهم قولًا، حتى إذا دنا من ديارهم التفت إلى قومه فقال: قد أتى لسعد أنه لا يبالي في الله لومة لائم، فلما طلع على رسول الله ﷺ قال أبو سعيد: قال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم فأنزلوه**»، قال عمر: سيدنا الله، قال: أنزلوه فأنزلوه، قال له رسول الله ﷺ: «**احكم فيهم**»، قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلهم، وتسبي ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله**»، قال: ثم دعا اللهَ سعدٌ فقال: اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك، فقال: فانفجر كَلْمُهُ، وكان قد برأ حتى ما بقي منه إلَّا مثل الخرص، قالت: فرجع رسول الله ﷺ ورجع سعد إلى قبته التي كان ضرب عليه رسول الله ﷺ.

قالت: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر.

قالت: فوالذي نفسي بيده، إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (١٤/ ٤٠٩- ٤١١)، وأخرجه ابن سعد كما ذكر السيوكي في «الدر المنثور» (٧/ ٥٤١).

لله درك يا عمر:

□ عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: «خرجت مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إلى السوق فلحقت امرأة شابة فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجي وترك صبية صغارًا، والله ما ينضجون كراعًا، ولا لهم زرع ولا ضرع، وخشيت أن تأكلهم الضّبُع (١)، وأنا بنتُ خفاف بن إيماء الغفاري وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ، فوقف معها عمر ولم يمض ثم قال: مرحبًا بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطًا في الدار فحمل عليه غرارتين ملأهما طعامًا وحمل بينهما نفقة وثيابًا، ثم ناولها بخطامه، ثم قال: اقتاديه فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أكثرت لها، قال عمر: ثكلتك أُمُّك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنًا زمانًا فافتتحاهُ ثم أصبحنا نستفيء سهمانِنا فيه» (٢).

الرحمة بحرٌ لا ساحِلَ له:

□ قال الفخر الرازي رحمه الله: «إن الرحمة عبارة عن التخليص من أنواع الآفات، وعن إيصال الخيرات إلى أصحاب الحاجات، أما التخليص عن أقسام الآفات فلا يمكن معرفته إلَّا بعد معرفة أقسام الآفات وهي كثيرة لا يعلمها إلَّا الله تعالى، ومن شاء أن يقف على قليل منها فليطالع كتب الطب حتى يقف عقله على أقسام الأسقام التي يمكن تولدها في كل واحد من الأعضاء والأجسام، ثم يتأمل في أنه تعالى كيف هدى عقول

---

(١) أي: السَّنَة المجدبة. ومعنى تأكلهم: أي تهلكهم.

(٢) رواه مسلم في «صحيحه»- باب تراحم المسلمين وتعاطفهم وتعاضدهم (٤/ ١٩٩٩) واللفظ له، والبخاري- كتاب الأدب- باب رحمة الناس والبهائم.

الخلق إلى معرفة أقسام الأغذية والأدوية من المعادن والنبات والحيوان، فإنه إذا خاض في هذا الباب وجده بحرًا لا ساحل له»[١].

□ قال نظام الدين القمي النيسابوري رحمه الله: «اعلم أن الأشياء التي أنعم الله تعالى بها على الخلق أربعة أقسام:

الأول: ما يكون نافعًا وضروريًّا معًا، وذلك في الدنيا التنفس، فإنه لو انقطع لحظة واحدة مات، وفي الآخرة معرفة الله، فإنها إذا زالت عن القلب لحظة واحدة مات القلب، واستوجب عذاب الأبد.

الثاني: أن يكون ضروريًّا، كالمال في الدنيا، وكسائر العلوم والمعارف في الآخرة.

الثالث: أن يكون ضروريًّا لا نافعًا كالآفات والعلل، ولا نظير لهذا القسم في الآخرة.

الرابع: لا يكون نافعًا ولا ضروريًّا كالفقر في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وبالجملة فكل نعمة أو نقمة دنيوية أو أخروية فإنها تصل إلى العبد أو تندفع عنه برحمة الله تعالى وفضله، من غير شائبة غرض ولا ضميمة علة؛ لأنه الجواد المطلق، والغني الذي لا يفتقر، فينبغي أن لا يرجى إلَّا رحمته ولا يخشى إلَّا عقابه»[٢].

□ قال الحكيم الترمذي: «الرحمة موضوعة في الآدمي، فأوفرهم حظًّا منها أرحمهم لنفسه ولخلقه، فإذا رحم نفسه: جنَّبها المعاصي والمساخط،

(١) «تفسير الفخر الرازي» (١/ ٧).

(٢) «غرائب القرآن» للقمي النيسابوري (١/ ٧٦).

وطلب لها حسن عواقب الأمور ليحسن منزلته عند ربه، فينزله غدًا داره الحُسنى، وذلك جزاء المحسنين، فبالرحمة يتخطى إلى الإحسان إلى نفسه، ومنها يتخطى إلى الإحسان إليهم، وكل من رحمتَه رق قلبك له ودعتك الرقة إلى الإحسان إليه والعطف عليه بدوام الإحسان.

ومن أبخس حظه من الرحمة: غلظ قلبه وصار فظًّا، فإذا غلظ قلبه لم يرق لنفسه ولا لأحد من خلقه، قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالشديدُ يشدد على نفسه في الأحوال ويعسر ويضيق، وكذلك على الخلق فهو من نفسه في تعب، والخلق منه في أذى.

واللينُ لان قلبه ورطب بماء الرحمة، وانتشف ماء الرحمة يبوسة نفسه، وأذهب حزازتها وكزازتها وأذهب قسوة قلبه، فمن لم يكن له وفارة حظٍّ من الرحمة: وجدته حديد النفس، يابس الخلق، قاسي القلب، مكدود الروح، مُظلم الصَّدر، عابس الوجه، منكر الطلعة، ذاهبًا بنفسه تيهًا وعظمة، غليظ الرقبة، سمين الكلام، عظيم النفاق، قليل الذكر لله تعالى وللدار الآخرة ولهادم اللَّذات».

وقال: «فأوفرهم حظًّا من المعرفة بالله والعلم به أوفرهم حظًّا من القربة، وأوفرهم حظًّا من القربة أوفرهم حظًّا من الرحمة، فكلما كان القلب أقرب إلى الله كان ألين وفؤاده أرق، وكلما تباعد القلب من الله بمعصية يأتيها، كان قلبه أقسى وأبعد من الرحمة، ألا يرى إلى قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [المائدة: ١٣]،

فإنما قست قلوبهم بالتباعد من الله من أجل نقض الميثاق، وذلك لما قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة إلَّا رحيمٌ**»، قالوا: يا رسول الله، كُلنَّا يرحم، قال: «ليس رحمة أحدهم خويصته- يعني: أهله وولده- ولكن يرحم العامة».

فرحمتك الخويصة هي رحمة العطف منْ الرحمة المقسومة بين خلقه ورحمتك العامة من رحمة المعرفة بالله تعالى»[١].

من بستان الغزالي:

□ قال أبو حامد الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحُسنى»: «وحظُّ العبد من أسم «الرحمن» أن يرحم عباد الله الغافلين، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنُّصح بطريق اللُّطف دون العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعيْن الإندِاء، وأن يرى كلَّ معصية تجري في العالم كمعصية له في نفسه، فلا يألو جُهْدًا في إزالتها بقدر وسعه، رحمة لذلك العاصي من أن يتعرّض لسخط الله تعالى، أو يستحق البعد عن جواره.

«وحظُّ العبد من اسم «الرحيم» ألّا يدع فاقة لمحتاج إلَّا ويسدها بقدر طاقته، ولا يترك فقيرًا في جواره أو في بلده، إلَّا ويقوم بتعهده ودفع فقره، إمّا بماله أو جاهه، أو الشفاعة إلى غيره، فإن عجز عن جميع ذلك، فيعينه بالدعاء، وإظهار الحزن، رقَّة عليه وعطفًا، حتى كأنه مساهم له في ضُرِّه وحاجته».

---

(١) «نوادر الأصول» للحكيم الترمذي (ص٣٩٣، ٣٩٤).

ما عرف التاريخُ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب:

علَّم رسول الله ﷺ أصحابه أن يكونوا أبرارًا رحماء لا فُجَّارًا قُساة فكانت الحروب الإسلامية والفتوحات والغزوات حربًا رحيمة رقيقة.

□ عن نافع أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبره: «إن امرأة وُجِدتْ في بعض مغازي النبي ﷺ فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان»[١].

• وعن الأسود بن سريع رضي الله عنه: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فظفرنا بالمشركين فأسرع الناس في القتل حتى قتلوا الذريّة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى قتلوا الذريّة؟ ألا لا تقتلوا ذرية – ثلاثًا**»[٢].

• وبلفظ: «**ما بالُ أقوام جاوز بهم القتلُ اليوم حتى قتلوا الذريّة؟ ألا إن خياركم أبناءُ المشركين، ألا لا تقتلوا ذرية، ألا لا تقتلوا ذرية، كل نسمَة تُولَدُ على الفِطرة، فما يزالُ عليها حتى يُعرب عنها لسانها، فأبواها يُهَوِّدانِها، أو ينصِّرانها**»[٣].

□ وعلى سُنَّته وهديه يسير الصديق رضي الله عنه، فيوصي وهو يودع جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما: «لا تقتلوا امرأة ولا شيخًا ولا طفلًا، ولا تعقروا نخلًا، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، وستجدون رجالًا فرّغوا أنفسهم في

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» – كتاب الجهاد باب (١٤٧) قتل الصبيان في الحرب.

(٢) «سنن الدارمي» (٢/ ٢٢٣).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم عن الأسود بن سريع، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٠١)، و«الإرواء» (١٢٢٠)، و«صحيح الجامع» (٥٥٧١).

الصوامع، فدَعُوهم وما أفرغوا أنفسهم له».

□ ويقول عمر ﵁: «اتقوا الله في الفلّاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب».

□ ويُحمل إلى أبي بكر رأس مقتول من كبراء الأعداء المحاربين، فيستنكر هذا العمل، ويُعلِن سخطه عليهم، ويقول لمن جاء بالرأس: «لا يُحمَل إليّ رأس بعد اليوم. فقيل له: إنهم يفعلون بنا ذلك. فقال: استنانٌ بفارس والروم؟! إنما يكفي الكتابُ والخبر.

وهكذا كانت الحروب الإسلامية حربًا رحيمة رقيقة، لا يراقُ فيها الدم إلَّا ما تدعو الضرورة القاهرة إليه، وقد لاحظ ذلك الفيلسوف الفرنسي جوستاف لوبون فقال: ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب»[1].

أقوال مأثورة:

□ قال عمر بن عبد العزيز ﵀: «اللهُمَّ إنْ لم أكُنْ أهلًا أن أبْلُغَ رحمتك، فإنَّ رحمتك أهْلٌ أنْ تبْلُغني، رحمتك وسِعَتْ كلَّ شيءٍ وأنا شيءٌ، فلتسَعْنِي رحْمَتُك يا أرحم الراحمين. اللَّهُمَّ إنَّكَ خلَقْتَ قوْمًا فأطَاعُوكَ فيما أمرْتَهُمْ، وعمِلُوا في الذي خلقتهم له، فرحمتك أيَّاهُمْ كانت قبل طاعتهم لك يا أرْحم الراحمينَ»[2].

□ وعن الحسن وقتادة، في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، قالا: وسِعَتْ في الدُّنيا البرَّ والفاجر، وهي يوم القيامةِ

(١) أنظر: «الإيمان والحياة» (ص٢٨٤، ٢٨٥).

(٢) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٥/ ٢٩٩).

للذينَ اتقَوْا خاصَّةً»(١).

◻ قال سفيانُ بن عُيينَةَ رحمه الله: «خُلِقَتِ النَّارُ رحمةً يخوِّفُ الله بها عبادَهُ لينْتَهُوا»(٢).

◻ وقال الفيروزابادِيُّ رحمه الله: «الرَّحْمةُ سَبَبٌ واصِلٌ بين الله وبين عباده، بها أرْسلَ إليهم رسلهُ، وأنْزل عليهم كتبه، وبها هداهمْ، وبها أسْكنَهُمْ دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم»(٣).

◻ قال المُهلَّبُ رحمه الله: «الرَّحمةُ التي خلقها اللهُ لعبادِهِ وجعلها في نفوسِهِمْ في الدُّنيا هي التي يتغافَرُونَ بها يوْم القيامةِ التَّبِعَاتِ بينهم»(٤).

◻ وقال ابن حجرٍ تعليقًا على حديثِ: «منْ لا يرْحَمُ لا يُرْحَمُ».

قال ابن بطَّالٍ: «فيه الحَضُّ على استعمالِ الرَّحمة لجميع الخلقِ فيدخل المؤمنُ والكافِرُ والبهائِمُ المملوكُ منها وغير المملوك، ويدخل في الرحمةِ التَّعَاهُدُ بالإطعامِ، والسَّعْيُ، والتَّخفيفُ في الحملِ، وترْكُ التَّعدِّي بالضرب»(٥).

◻ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصرٍ السعديُّ رحمه الله: «إن الشَّريعةَ كلَّها مبْنيَّةٌ على الرحمةِ في أصُولها فرُوعها، وفي الأمر بأداءِ الحقوق سواءٌ كانت لله أو للخلقِ، فإنَّ الله لم يُكلِّفْ نفسًا إلَّا وسعها، وإذا تدبَّرت ما شرعه الله

---

(١) «تفسير الطبري» (٦/ ٨١).
(٢) المرجع السابق (٧/ ٢٧٥).
(٣) «بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٥٥).
(٤) «فتح الباري» (١٠/ ٤٤٧).
(٥) «فتح الباري» (١٠/ ٤٥٥).

عَجَّلَ في المعاملات والحقوق الزوجيَّة وحقوقِ الوالدين والأقربين، والجيران، وسائر ما شرع وجدْتَ ذلك كلَّهُ مبْنيًّا على الرَّحْمةِ، ثم قال: لقدْ وسعَتْ هذه الشريعةُ برحمتها وعدْلِها العدُوَّ والصديقَ، ولقدْ لجأ إلى حصنها الحصين الموفَّقونَ من الخلْقِ»(١).

◘ عن سفيان بن عيينة قال: «صلى ابن المنكدر على فلان؛ سفيه فقيل له: تُصلي على فلان؟ فقال: إني أستحيي من الله أن يعلم مني أن رحمته تعجز عن أحد من خلقه»(٢).

◘ عن أبي سليمان الداراني قال: «الرضا عن الله عَجَّلَ والرحمة للخلق: درجة المرسلين»(٣).

◘ عن ابن عون قال: «كان لابن سيرين منازل، لا يكريها إلَّا من أهل الذمة؛ فقيل له في ذلك؟ قال: إذا جاء رأس الشهر رُعته، وأكره أن أروّع مسلمًا»(٤).

◘ عن شعبة قال: «لولا المساكين، ما حدّثت، فإني أحدّث ليُعطوا»(٥).

◘ وعنه قال: «لولا حوائج لي، ما حدثتكم، وكان يسأل لنسوة ضعاف»(٦).

---

(١) «الرياض الناضرة والحدائق النيِّرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة» (٦١- ٦٥) بتصرف.

(٢) «الحلية» (٧/ ٢٩٧).

(٣) «الحلية» (٩/ ٢٦٢).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٢٦٨).

(٥) المصدر السابق (٧/ ١٥٧).

(٦) «الحلية» (٧/ ١٥٧).

□ عن عبد الرحمن بن جبيات قال: «قيل لعمرو- بن قيس الملائي-: ما الذي نرى بك من تغير الحال؟ قال: رحمة للناس، من غفلتهم عن أنفسهم»[(١)].

□ وكان عمرو إذا نظر إلى أهل السوق بكى، وقال: ما أغفل هؤلاء عما أعدَّ لهم»[(٢)].

□ عن بلال بن سعد قال: «إن لكم ربًّا ليس إلى عقاب أحدكم بسريع: يقيل العثرة، ويقبل التوبة، ويقبل من المقبل، ويعطف على المدبر»[(٣)].

□ وقال البخاري: «سمعت بعض أصحابنا يقول: عادَ حمّاد بن سلمة سفيان الثوري، فقال سفيان: يا أبا سلمة! أترى الله يغفو لمثلي؟ فقال حماد: والله لو خُيِّرت بين محاسبة الله إياي، وبين محاسبة أبويَّ، لاخترتُ محاسبة الله، وذلك لأن الله أرحم بي من أبويَّ»[(٤)].

□ عن النضر بن شميل قال: «ما رأيت أرحم لمسكين من شعبة، إذا رأى المسكين؛ لا يزال ينظر إليه، حتى يغيب عن وجهه»[(٥)].

□ وعن أبي عمران الجوني قال: «لم ينظر الله تعالى إلى إنسان قط، إلَّا رحمه؛ ولو نظر إلى أهل النار، لرحمهم؛ ولكنه قضى أنه لا ينظر إليهم»[(٦)].

---

(١) «حلية الأولياء» (٥/ ١٠٢).
(٢) المصدر السابق (٥/ ١٠٢).
(٣) «الحلية» (٥/ ٢٢٣).
(٤) «نزهة الفضلاء» (١/ ٦٠٣- ٦٠٤).
(٥) «الحلية» (٧/ ١٤٦- ١٤٧).
(٦) «الحلية» (٢/ ٣١٤).

□ وعن أبي سليمان الداراني قال: «إنما الغضب على أهل المعاصي: عندما حل نظرك إليهم عليها؛ فإذا تفكرت فيما يصيرون إليه من عقوبة الآخرة، دخلت الرحمة لهم القلب»[(١)].

تشميت العاطس الحامد من الواجبات:

بأن تقول له: «يرحمك الله».

□ قال ابن دقيق العيد: «يحتمل أن يكون دعاءً بالرحمة، ويُحتمل أن يكون إخبارًا على طريق البشارة، كما قال في الحديث الآخر «طهورٌ إن شاء الله» أي: هي طُهْرٌ لك، فكأن المشمِّت بشّر العاطس بحصول الرحمة له في المستقبل بسبب حصولها له في الحال؛ لكونها دفعت ما يضره»[(٢)].

الرِّفق:

□ عن أبي قِلابة: «أن رجلًا دخل على سلمان وهو يعجن؛ فقال: ما هذا؟ فقال: بعثنا الخادم في عمل- أو قال: في صنعة- فكرهنا أن نجمع عليه عملين –أو قال: صنعتين-؛ ثم قال: فلان يقرئك السلام؛ قال: متى قدمت؟ قال: منذ كذا وكذا؛ قال: فقال: أما إنك لو لم تؤدها، كانت أمانة لم تؤدها»[(٣)].

□ عن أبي الدرداء قال: «لا تكلفوا الناس ما لم يكَلَّفوا، ولا تحاسبوا الناس دون ربهم؛ ابن آدم، عليك نفسك، فإنه من تتبع ما يرى في الناس:

(١) «الحلية» (٩/ ٢٧٣).
(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٦٢٤).
(٣) «الحلية» (١/ ٢٠١).

يطل حزنه، ولا يشف غيظه»[١].

□ وعنه قال: «من فقه الرجل: رفقه في معيشته»[٢].

□ عن أبي المتوكل: «أن أبا هريرة رضي الله عنه كانت له زنجية قد غمتهم بعملها، فرفع عليها السوط يومًا، فقال: لولا القصاص، لأغشيتك به؛ ولكنني سأبيعك ممن يوفيني ثمنك، اذهبي، فأنت لله»[٣].

□ عن عثمان قال: «بلغنا أن رجلًا رأى أبا ذر رضي الله عنه، وهو يتبوأ مكانًا؛ فقال له: ما تريد يا أبا ذر؟ فقال: أطلب موضعًا أنام فيه، نفس يهذه مطيتي، إن لم أرفق بها، لم تبلغني»[٤].

□ عن أحمد بن محمد بن غزوان الهرائي، قال: قال لي بشر بن الحارث - سنة خمس وعشرين ومئتين-: «عليكم بالرفق، والاقتصاد في النفقة؛ فلأن تبيتوا جياعًا ولكم مال، أحب إلي من أن تبيتوا شباعًا وليس لكم مال»[٥].

□ عن ميمون بن مهران قال: «لا تعذب المملوك، ولا تضرب المملوك في كل ذنب؛ ولكن، احفظ ذاك له؛ فإذا عصى الله عز وجل، فعاقبه على معصية الله تعالى، وذكّره الذنوب التي أذنب بينك وبينه»[٦].

□ عن معمر: «أن طاووسًا أقام على رفيق له مريض، حتى فاته

---

(١) «الحلية» (١/ ٢١١).
(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٢١١).
(٣) المصدر السابق (١/ ٣٨٤).
(٤) المصدر السابق (١/ ١٦٥).
(٥) «الحلية» (٨/ ٣٤٠).
(٦) المصدر السابق (٤/ ٨٨- ٨٩).

الحج»[(١)].

□ عن جويرية بن أسماء قال: «قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر: ما يمنعك أن تَنفُذَ لرأيك في هذا الأمر؟ فوالله، ما كنت أبالي أن تغلي بي وبك القدور في إنفاذ الأمر؛ فقال عمر: إني أروض الناس رياضة الصعب، فإن أبقاني الله مضيت لرأيي؛ وإن عُجِّلت علي منية فقد علم الله نيتي؛ إني أخاف إن بادهت الناس بالتي تقول أن يلجئوني إلى السيف، ولا خير في خير لا يجيء إلَّا بالسيف»[(٢)].

□ عن أبي عثمان الثقفي قال: «كان لعمر بن عبد العزيز غلام يعمل على بغل له، يأتيه بدرهم كل يوم؛ فجاءه يومًا بدرهم ونصف، فقال: ما بدا لك؟ فقال: نفقت السوق؛ قال: لا، ولكنك أتعبت البغل، أرحه ثلاثة أيام»[(٣)].

□ عن حسين الجعفي قال: «كان عند عبد الملك بن أبجر، وقد أبق غلام له، وكان له بابان، فلم يعلم، حتى جاء الغلام؛ فقال له عبد الملك: فلان، ويحك أبقت؟ لم تقبل لك صلاة، من أي باب خرجت؟ أأحد خير لك منا؟ ما أحسبك تجد أحد خيرًا لك منا، من أي باب خرجت حين ذهبت؟ قال: من هذا الباب؛ قال: ادخل منه، وأستغفر الله لك؛ يا فلانة، أطعميه، فإنه أحسبه جائعًا»[(٤)].

---

(١) «الحلية» (٤/ ١٠).

(٢) «الحلية» (٥/ ٢٨١).

(٣) «الحلية» (٥/ ٢٦٠).

(٤) «الحلية» (٥/ ٨٥).

□ عن رجل من قريش: «أن عمر بن عبد العزيز عهد إلى بعض عماله: عليك بتقوى الله في كل حال ينزل بك؛ فإن تقوى الله أفضل العدة، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة؛ ولا تكن في شيءٍ من عداوة عدوك أشد الناس من مكيدة عدوهم، وإنما نعادي عدونًا ونستنصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك، لم تكن لنا قوة بهم؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا قوتنا كقوتهم، فإن لا نُنْصر عليهم بمقتنا، لا نغلبهم بقوتنا؛ ولا تكونن لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم، ولا أشد تعاهدًا منكم لذنوبكم؛ واعلموا أن عليكم ملائكة الله حفظة عليكم، يعلمون ما تفعلون في مسيركم ومنازلكم، فاستحيوا منهم، وأحسنوا صحابتهم، ولا تؤذوهم بمعاصي الله، وأنتم –زعمتم– في سبيل الله؛ ولا تقولوا: إن عدونا شر منا، ولن ينصروا علينا، وإن أذنبنا؛ فكم من قوم قد سلّط أو سُخط عليهم بأشر منهم لذنوبهم؛ وسلوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه العون على عدوكم؛ نسأل الله ذلك لنا ولكم، وارفق بمن معك في مسيرهم؛ فلا تجشمهم مسيرًا يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يلقوا عدوهم؛ والسفر، لم ينقص قوتهم، ولا كُراعهم؛ فإنكم تسيرون إلى عدو مقيم، جام الأنفس والكراع، وإلّا ترفقوا بأنفسكم وكراعكم في مسيركم، يكن لعدوكم فضل في القوة عليكم في إقامتهم، في جمام الأنفس والكراع، والله المستعان؛ أقم بمن معك في كل جمعة يومًا وليلةً، لتكون لهم راحة، يجمون بها أنفسهم وكراعهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم، ونحّ منزلك عن قُرى الصلح، ولا يدخلها أحد من أصحابك لسوقهم وحاجتهم، إلّا من تثق به، وتأمنه على نفسهودينه؛ فلا يصيبوا فيها ظلمًا، ولا يتزودوا منها مأثمًا، ولا يرزؤون أحدًا من أهلها شيئًا إلّا بحق؛ فإن لهم حرمة وذمة،

ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها؛ فلا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح، ولتكن عيونك من العرب ممن تطمئن إلى نصحه من أهل الأرض؛ فإن الكذوب لا ينفعك خبره، وإن صدق في بعضه؛ وإن الغاش عين عليك، وليس بعين لك»[١].

✍ ونختم الرفق بهذا الحديث العظيم:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لولا أَنْ أَشُقَّ على أُمَّتِي - أَوْ على الناس- ما تَخَلَّفْتُ عن سرِيَّةٍ، ولكن لا أَجِدُ حمولَةً[٢] ولا أَجِدُ ما أَحْمِلُهم عليه، ويَشُقُّ عليَّ أَنْ يتخلَّفُوا عنِّي، ولوددْتُ أَنِّي قاتلْتُ في سبيلِ الله فقُتِلْتُ ثمَّ أُحْييتُ، ثُمَّ قتِلْتُ ثُمَّ أُحْيِيتُ»**[٣].

الرحمة للمنفلوطي رحمه الله :

□ قال رحمه الله: «سأكون في هذه المرأة شاعرًا بلا قافية ولا بحر؛ لأن أريد أن أخاطب القلب وجهًا لوجه، ولا سبيل إلى ذلك إلَّا سبيل الشعر.

إن البذور تلقى في الأرض فلا تنبت إلَّا إذا حرث الحارث تربتها، وجعل عاليها سافلها، كذلك القلب لا تبلغ منه العظة إلَّا إذا داخلته، وتخللت أجزاءه، وبلغت سويداءه، ولا محراث للقلب غير الشعر.

أيها الرجل السعيد: كن رحيمًا، أشعر قلبك الرحمة، ليكن قلبك الرحمة بعينها.

ستقول: إني غير سعيد؛ لأن بين جنبي قلبًا يلم به من الهم ما يلم بغيره

---

(١) «الحلية» (٥/ ٣٠٣- ٣٠٤).

(٢) حَمولة: ما يحتمل الناس عليه من الدواب.

(٣) رواه البخاري (٢٩٧٢)واللفظ له، ومسلم (١٨٧٦).

من القلوب، أجل. فليكن ذلك كذلكم، ولكن أطعم الجائع واكس العاري، وعز المحزون، وفرج كُربة المكروب، يكن لك من هذا المجموع البائس خير عزاء يعزيك عن همومك وأحزانك، ولا تعجب أن يأتيك النور من سواد الحُلكَ، فالبدر لا يطلع إلَّا إذا شق رداء الليل، والفجر لا يدرج إلَّا من مهد الظلام.

لقد بليت اللذات كلها.. ورثت حبالها.. وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد.. ولم يبق ما يعزي الإنسان عنها إلَّا لذة واحدة: هي لذة الإحسان.

إن منظر الشاكر منظر جميل جذاب.. ونعمة ثنائه وحمده أوقع في السمع من العود في هزجه ورمله (١) وأعذب من نغمات معبد في الثقيل الأول (٢).

أحسِن إلى الفقراء والبائسين، وأعدك وعدًا صادقًا أنك ستمر في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره عنك من حيث لا يعلم بمكانك، أنك أكرم مخلوق، وأشرف إنسان، ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك أن يجزيك الله خيرًا بما فعلت.. فيدعو صاحبه بدعائه، ويرجو برجائه.. وهنالك تجد من سرور النفس وحبورهم بها الذكر الجميل في هذه البيئة الخاملة: ما يجده الصالحون إذا ذكروا في الملأ الأعلى.

---

(١) الهزج والرمل: نوعان من الموسيقى، والموسيقى حرام شرعًا إلَّا الدُّف في الأعراس.

(٢) معبد: أحد كبار المغنين في العصر الأموي، والثقيل الأول: ضرب من ضروب الغناء.

ليتك تبكي كلما وقع نظرك على محزون أو مفؤود [(١)] فتبتسم سرورًا ببكائك.. واغتباطًا بدموعك؛ لأن الدموع التي تنحدر على خديك في مثل هذا الموقف إنما هي سطور من نور.. تسجل لك في تلك الصحيفة البيضاء: أنك إنسان.

إن السماء تبكي بدموع الغمام.. ويخفق قلبها بلمعان البرق.. وتصرخ بهدير الرعد، وإن الأرض تئن بحفيف الريح.. وتضج بأمواج البحر، وما بكاء السماء ولا أنين الأرض إلَّا رحمة بالإنسان.. ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها في بكائها وأنينها.

إن اليد التي تصون الدموع، أفضل من اليد التي تريق الدماء، والتي تشرح الصدور. أشرف من التي تبقر البطون، فالمحسن أفضل من القائد وأشرف من المجاهد، وكم بين من يحيى الميت. ومن يميت الحي.

إن الرحمة كلمة صغيرة.. ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها.

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا مغبون ولا مهضوم.. ولأقفرت الجفون من المدامع.. ولا طمأنت الجنوب في المضاجع. ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام.

لم يخلق الله الإنسان ليقتر عليه رزقه. ولم يقذف به في هذا المجتمع ليموت فيه جوعًا.. بل أرادت حكمته أن يخلقه ويخلق له فوق بساط الأرض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤونته. ويسد حاجته.. ولكن سلبه الرحمة فبغى بعضه على بعض وغدر القوي بالضعيف واحتجن دونه

---

(١) المفؤود: المصاب في فؤاده بألم أو غيره.

رزقه.. فتغير نظام القسمة العادلة.. وتشوَّه وجهها الجميل.. ولو كان للرحمة سبيل إلى القلوب لما كان للشقاء إليها سبيل.

الفرد هو المجتمع.. وإنما يتعدد بتعدُّد الصور.. أتدري متى يكون الإنسان إنسانًا؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسه.. فخفق قلبه لخفقان القلوب وسكن لسكونها. فإذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها، انفرد عنها واستوحش من نفسه، وإذا كان الأنس مأخذ [(١)] الإنسان المجتمع. فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع.

وجُمَّاع القول أنه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الأشقياء في مكان واحد؛ إلَّا إذا أمكن أن يجتمع في بقعة واحدة الملك الرحيم والشيطان الرجيم.

إن من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل.. فإذا مشى مشى مندفعًا مندلثًا [(٢)] لا يلوي على شيء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة، وإذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه إلَّا الإغراق في الضحك سخرية به وبذاءة قوبه ودمامة خلقه، وإن من الناس من إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب دَرَّتهم [(٣)] ويمتص دماءهم، ولا يعاملهم إلَّا كما يعامل شويهاته وبقراته.. لا يطعمها ولا يسقيها إلَّا لما يترقب من الربح في الاتجار بألبانها وأصوافها.. ولو استطاع أن يهدم بيتًا ليربح حجرًا لفعل.. وإن من الناس لا حديث له إلَّا الدينار

---

(١) مأخذ الكلمة: أصل اشتقاقها.

(٢) اندلث: كاندفع.

(٣) الدرة: اللبن إذا كثر وسال.

وأين مستقره وكيف الطريق إليه وما السبيل إلى حبسه والوقوف في وجهه والحيطة لفراره.. يبيت ليله حزينًا كئيبًا لأن خزانته ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته أو يحلم في منامه أنه سيأتيه فلم يقيض له، وأن من الناس من يؤذي الناس لا يجلب لنفسه بذلك منفعة أو يدفع عنها مضرة، بل لأنه شرير يدفعه طبعه إلى ما لا يعرف وجهه أو ليضرِّي (١) نفسه بالأذى مخافة أن ينساه عند الحاجة إليه.. حتى لو لم يبق ي العالم شخص غيره لكانت نفسه مدب عقاربه وغرض سهامه.. وإن من الناس من إذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الأحمر يترقرق فيها، أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا تسترها إلّا الصورة البشرية، أو عن قلبه رأيت حجرًا صلدًا من أحجار الغرانيت لا يبضُّ (٢) بقطرة من الرحمة.. ولا تخلص إليه نسمة من العظة.

فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله أن تكون واحدًا من هؤلاء فإنهم سباع مفترسة وذئاب ضارية.. بل أعظك ألا تدنو من واحد منهم أن تعترض طريقه.. فربما بدا له أن يأكلك غير حافل بك.. ولا آسف عليك.

أيها الإنسان. ارحم الأرملة التي مات عنها زوجها، ولم يترك لها غير صبية صغار، ودموع غزار، ارحمها قبل أن ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة.

ارحم المرأة الساقطة لا تُزين لها خلالها ولا تشير منها عرضها علها تعجز عن أن تجد مساومًا فيه فتعود به سالمًا إلى كسر بيتها.

---

(١) يقال: أضرى فلان كلبه بالصيد، وضراه: إذا أغراه به وعوده متابعته.

(٢) بضَّ الدم: سال.

ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة؛ ولأن الله قد وكَّل أمرها إليك، وما كان لك أن تكذب ثقته بك.

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه؛ فإنك إلَّا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين.

ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم، ولا تتخذ عقله متجرًا تربح فيه ليكون من الخاسرين.

ارحم الحيوان؛ لأنه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويبكي بغير دموع، ويتوجع ولا يكاد يُبين.. وكذب من يقول إن الإنسان طبع على ضرائب لؤم، أقلها أنه يقبل يُد ضاربه ويضرب من لا يمد إليه أبدًا.

ارحم الطير لا تحبسها في أقفاصها ودعها تهيم في فضائها حيث تشاء، وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير، إن الله وهبها فضاء لا نهاية له فلا تغتصبها حقها فضعها في محبس لا يسع مد جناحها؛ أطلق سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع تغريدها فطق الأشجار، وفي الغابات، وعلى شواطئ الأنهار، وترى منظرها وهي طائرة في جو السماء، فيخيل غليك أنها أجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيار.

أيها السعداء. أحسنوا إلى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع الأشقياء، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء..»[(١)].

• عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقول بين السجدتيْن:

(١) «النظرات» للمنفلوطي (١/ ٥٨- ٦٢).

«اللهم اغفر لي وارحمني وعافِني وارزقني واجْبُرْني واهدِنِي»(١).

العزم في المسألة بالرحمة:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولَنَّ أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شِئتَ، اللهم ارزقني إن شئت، وليعزِم المسألة؛ فإنه يفعلُ ما يشاءُ، لا مُكْره له»(٢).

رجاء الرحمة:

مَرَّ معروف، وهو صائم بسقَّاء يقول: رحم الله مَنْ شرِب، فشرب رجاء الرحمة (٣).

الرِّقَّة:

□ قال مالك بن أنس: «كنا ندخل على أيوب السختياني، فإذا ذكرنا له حديث رسول الله ﷺ بكى حتى نرحمه» (٤).

□ قال يحيى القطّان: «كان شعبة – بن الحجّاج – من أرقِّ الناس يُعطي

---

(١) رواه الترمذي في «سننه» (٢/ ٧٦) (٢٨٤، ٢٨٥) واللفظ له، وابن ماجه (١/ ٢٩٠) (٨٩٨) بلفظ «رب اغفر لي وارحمني واجبرني وارزقني وارفعني» ورواه أبو داود في «سننه» (١/ ٢٢٤) (٨٥٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٢٦٢)، و(٢٧١) بلفظ: «اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني» وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ١٦٠) رقم (٧٥٦).

(٢) رواه أحمد، والبخاري (٧/ ٥٣)، ومسلم (٨/ ٦٢)، والترمذي (٧٨) (٥/ ٥٢٦) رقم (٣٤٩٧) وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود، والنسائي وابن ماجه ومعنى: ليعزم المسألة: أي يشتد ويلح ولا يتراخى.

(٣) «نزهة الفضلاء» (٢/ ٧١٥)، انظر: ترجمة معروف في «السير» (٩/ ٣٩٩– ٣٤٥).

(٤) «نزهة الفضلاء» (١/ ٥١٤).

السائل ما أمكنه»(١).

□ وقال يحيى بن أبي بُكير: «قلت للحسن بن صالح: صِفْ لنا غُسْلَ الميِّت فما قدر عليه من البكاء»(٢).

□ وقال إبراهيم بن الأشعث: «ما رأيتُ أحدًا كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذَكَر الله، أوْ ذُكِر عنده، أو سَمِع القرآن، ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من يحضره»(٣).

علو همة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في رحمته للفقراء والمساكين والرَّعيّة:

لله در أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي أَوْحَدَت به أمُّه ما كان أرحمه وأشفقه على الناس.. يا خالق عمر سبحانك.. يا خالق هذه النفس الزاكية الزكية التي تفيض رحمة تتحدث بها الأيام والليالي سبحانك.

ثكلتْك أمُّك يا طلحة، أعثرات عُمَرَ تتَّبع؟!:

خرج عمر رضي الله عنه في سواد الليل، فرآه طلحة رضي الله عنه، فذهب عمر، فدخل بيتًا، ثم دخل بيتًا آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت، وإذا بعجوز عمياءَ مُقعَدة، فقال لها ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يُصلحني، ويُخرُج عني الأذى. فقال طلحة: ثكلتك أُمُّك يا طلحة، أعثرات عمر تتَّبع؟!(٤).

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» ترجمة شعبة (٧/ ٢٠٢- ٢٢٨)، و«نزهة الفضلاء» (١/ ٥٨١).

(٢) «نزهة الفضلاء» (١/ ٥٩١).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٦٦١).

(٤) «البداية والنهاية» ترجمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكان يقول: «لئن سلَّمني الله لأدَعَنَّ أرامِلَ العراق لا يَحْتَجْن إلى رَجُلٍ بعدي»[(١)] فما أتت عليه رابعة حتى أُصيب.

إنه عمر ﷺ منارة الرحمة في الدنيا وهَدِيّة الله إلى الحياة:

□ عن أنس بن مالك ﷺ قال: «بينا عمر رضوان الله عليه يَعُسُّ[(٢)] بالمدينة، إذْ مَرّ برحبةٍ من رحابها، فإذا هو ببيت من شعْر، لم يكن بالأمس، فدنا منه، فسمع أنين امرأة، ورأى رجُلًا قاعدًا، فدنا منه فسلَّم عليه، ثم قال: مَنِ الرَّجُل؟ فقال رجُل من أهل البادية: جئت إلى أمير المؤمنين أُصيب من فضله. فقال: ما هذا الصوت الذي أسمعه في البيت؟ فقال: انطلق - رحمك الله- لحاجتك. قال: عليّ ذلك، ما هو؟ قال: امرأة تُمَخَّض. قال: هل عندها أحدٌ؟ قال: لا. قال: فانطلق حتى أتى منزله، فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي ﷺ: هل لك في أَجْرٍ ساقه الله إليك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة غريبةٌ تُمَخَّضُ ليس عندها أحد. قالت: نَعْم، إن شئتَ. قال: فخُذِي معكِ ما يُصلح المرأة لولادتها من الخِرَق والدُّهْن، وجيئيني ببُرْمة[(٣)] وشحم وحبوب، قال: فجاءت به، فقال لها: انطلقي. وحَمَل البُرْمة، ومشت خلفه، حتى انتهى إلى البيت، فقال لها: ادخلُي إلى المرأة. وجاء حتى قعد إلى الرجل،فقال له: أو قِدْ لي نارًا. فأَوْقَدَ تحت البُرْمة حتى أنضجها، وولدت المرأة، فقالت امرأته: يا أمير المؤمنين، بشرّ صاحبك بغلامٍ. فلما سمع يا أمير المؤمنين كأنَّه هابه، فجعل يتنحَّى عنه،

(١) «مناقب أمير المؤمنين عمر» (ص١١٤).

(٢) يعس: يسير فيها أواخر الليل.

(٣) قِدْر من حِجَارة.

فقال له: مكانك كما أنت.. فحمل البُرْمة، فوضعها على الباب، ثم قال: أشبعيها، ففعلَتْ، ثم أخرجت البُرْمة فوضعتها على الباب، فقام عمر رضي الله عنه فأخذها، فوضعها بين يَدَي الرَّجُل، فقال: كُلْ ويحكَ؛ فإنك قد سهرتَ من الليل، ففعل، ثم قال لامرأته: اخرُجي. وقال للرَّجُل: إذا كان غدًا، فأْتِنَا نأمُر لك بما يُصْلِحُك.. ففعَل الرَّجل وأجازه وأعطاه»[١].

إنه العجب العُجاب! أمير الدنيا الذي تفتَّحتْ لأعلامه الخافقات أقطار الدنيا، واستقبل الناسُ جيوشه كأنها البُشرَيات، يؤرِّقه بكاءُ طِفل ويزلزله، حتى يُشرق بالدُّموع وهو يصلي بالناس، وتتولى زَوْجُه في الهزيع الأخير من الليل أمْرَ سيِّدة غريبة أدركها المخاضُ، ويجلسُ هو خارج الكوخ يُنضج لها الطعام ويُوقد تحتَ البُرْمة!!

هذا عمر منارة الله في الرحمة في دار الدنيا وهدَّيتُه إلى الحياة.

عثمان الرحيم.. تشيع الرحمة في حياته وتكون نبراسًا لكل تصرّفاته:

كانت الرحمة نبراس هاتيك التصرّفات جميعها.

عثمان الخليفة الطاعن في السِّنِّ الذي يرفض أن يُوقظِ أحدًا من خدمه لكلي يُعِدَّ له وضوءه، ويتحامل على شيخوخته المجهدة في إحضار الماء وإسباغ الوضوء ولما اشتد حصار الثُّوَار لداره، قال للصحابة الذين تَجمَّعوا حول داره ليواجهوا الثُّوَّار بالسلاح: «إن أعظمكم عني غَنَاءً، رجلٌ كَفَّ يده وسِلاحَهُ!!».

□ ويقول لأبي هريرة – وقد جاء شاهرًا سلاحه مدافِعًا عنه: «أما إنك

---

(١) «مناقب عمر بن الخطّاب» (ص٨٤-٨٥).

والله لو قتلتَ رَجُلًا واحدًا لكأنما قتلت الناس جميعًا».

□ ويقول للحسن والحسين وابن عمر وعبد الله بن الزبير وشباب الصحابة الذين أخذوا مكانهم لِحَراسته: «أنُاشِدكم الله وأسألكم به، ألَّا تُراق بسببي مِحْجَمَة دم»[1].

□ ودخل عليه زيد بن ثابت فقال: «إن هذه الأنصار بالباب، وتقول: إن شئتَ كنا أنصار الله مرتين. قال: لا حاجة لي، كُفُّوا».

□ وعن عامر بن ربيعة قال: «كنتُ مع عثمان في الدار، فقال: أعزم على كل من رأى أن لي عليه سمعًا وطاعة أن يكف يده، ويلقى سلاحه.. فألقى القوم أسلحتهم».

□ وقال بعض أنصاره: «نهانا عثمان عنهم «الثوَّار» ولو أذن لنا عثمان فيهم لضربناهم حتى نُخرجهم من أقطارنا».

وهكذا رفض الخليفة إراقة الدماء، ولو كان ذلك في نُصرته، والدفاع عنه، وحاول أن يردهم بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

أشرف عليهم يومًا وقال لهم: «أنه لا يحل سفك دم امرئٍ مسلم إلَّا في إحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنًا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس. فهل أنا في واحدة منهن؟ فما وجد القوم له جوابًا.

وقال لهم مرة: أيها الناس؛ إن وجدتم في الحق أن تضعوا رجلي في القيد فضعوها، فما وجد القوم له جوابًا. ثم قال: أستغفر الله إن كنتُ

(١) المِحْجَمة: الإناء الصغير.

ظَلَمتُ، وقد غفرتُ إن كنتُ ظُلِمت!!

واعتصم الخليفة بالصبر، وأبى أن تُسَل السيوف تأييدًا له حتى ضرَّج الثوَّار الأرض بدمه، كراهة أن يلقى الله بدم أحد في عنقه.

□ قال معبد الخزاعي لعليّ بن أبي طالب: «أخبِرني أي منزلة وسعتك إذ قُتِلَ عثمان ولم تنصره. قال: إن عثمان كان إمامًا، وإنه نهى عن القتال، وقال: من سَلَّ سيفه ليس مني، فلو قاتلنا دونه عصينا».

قال: فأي منزلة وسعت عثمان، إذ استسلم حتى قُتل؟ قال: المنزلة التي وسعت ابن آدم، إذ قال لأخيه: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ ﴾ [المائدة].

لله درك يا ذا النورين.. رحمة جامعة تُغطِّي بعطائها المقسط جلائلَ الأحداث وصغارَها، فللخادم منها حظه وحقُّه في أن ينعم براحة النوم، وإنْ أضنى الخليفة نفسه وشيخوخته في ظلمة الليل البهيم.. ولقطرات الدم حظُّها وحقُّها في أن تنعم بالسلام والعافية، وإن كان بديل ذَلك أن تَزْهَقَ روح الخليفة الشيخ بيد مُعتدٍ أثيم، وغادرٍ زنيم.. توغَّلَت الرحمة في حياته وفي سلوكه، حتى اقتضتْهُ آخر الأمرِ حياتَه نفْسَها، فجادَ بها.

ولقد كان من الطبيعيِّ لرجُل وسعتْ رحمته الناس جميعًا، أن تغطيَ رحمتُه ذوي قرباه، قال علي رضي الله عنه: «أوصَلُنا للرحم عثمان». لقد كان عثمان في ذلك نسيج وحدِهِ.

الرحمة المؤمنة عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

* أي قلب رقيق ليِّن يخشى الله والدار الآخرة، كان قلبُ أبي تراب علي ابن أبي طالب رضي الله عنه! لا يقف عند مرتبة العدل والقصاص بالمثل من

قاتله، ولكنه يتطلع إلى درجة الفضل والعفو ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل].

تربَّص بأمير المؤمنين علي رضي الله عنه اثنان من طائفة الخوارج – شبيب الأشجعي، وعبد الرحمن بن مُلْجَم– وقد خرج قُبيل الفجر يُوقظ الناس للصلاة، فترقباه بباب المسجد حتى دخل فضربه شبيب فأخطأه، وضربه ابن مُلْجَم على صلعته، فقال عليَّ كرَّم الله وجهه: «فزتُ ورب الكعبة» أي بالشهادة. وتجمَّع الناس بسرعة على الرجلين، فأما شبيب فاستطاع أن ينسل من بين الناس. واما ابن مُلْجَم فلم يكتف بجريمته الشنعاء حتى حمل بسيفه على الناس فأفرجوا له، وتلقاه المُغيرة بن نوفل – أخو الهاشميين– بقطيفة فرمى بها عليه، واحتمله فضرب به الأرض، وكان قويًّا أيدًا، فقعد على صدره، ثم أقبل الناس على عليٍّ رضي الله عنه، يسألونه ما يصنعون به. فماذا قال عليٌّ في شأن قاتله البغيض، وهو الخليفة الآمر المُطاع؟

قال: «إن أعش فالأمر إليَّ،وإن أصبتُ فالأمر لكم، فإن آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة، وأن تعفوا أقرب للتقوى».

هذا هو منطق الإيمان: ضربة بضربة، ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ألا ما أروع وما أعظم؟؟

عمر بن عبد العزيز رحمة الإسلام التي أنبتت رحمات ورحمات:

وجد فيه اليتامى أباهم، والأيامى وجدن فيه عائِلهُنّ، وجد فيه الضائعون ملاذهم.

«كتبت إليه سوداء مسكينة تُسمى «فِرثونة السوداء» من الجيزة بمصر

أن لها حائطًا متهدِّمًا لدارها، يتسوَّره اللصوص ويسرقون دجاجها، وليس معها ما تنفقه في هذا السبيل، فيكتب عمر إلى واليه على مصر «أيوب بن شرحبيل»: «من عبد الله بن عمر أمير المؤمنين، إلى أيوب بن شرحبيل، سلام الله عليكم. أما بعد؛ فإن فرتونة السوداء كتبتْ إلّي تشكو إلّي قِصر حائطها، وأن دجاجها يُسرَق منها، وتسأل تحصينه له، فإذا جاءك كتابي هذا، فاركب بنفسك وحصِّنه لها».

□ وكتب إلى فرتونة: «من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء: سلام الله عليكِ أما بعد، فقد بلغني كتابك، وما ذكرت فيه من قِصر حائطك؛ حيث يُقتحم عليك ويُسرق دجاجك.. وقد كتبت إلى أيوب بن شرحبيل، آمره أن يبني لك الحائط حتى يحصِّنه مِمَّا تخافين، إن شاء الله».

□ يقول ابن عبد الحكم راوي هذه القصة الباهرة: «فلما جاء الكتاب إلى أيوب بن شرحبيل، ركب بنفسه، حتى أتى الجيزة، وظل يسأل عن فرتونة حتى وجدها، فإذا هي سوداء مسكينة فأعلى لها حائطها».. رحمة وإحسان وعدل وأبوّة، لا يفلت منها شاردة ولا واردة!!».

✍ انظر إلى الرحمة التي غمر بها عمر بن عبد العزيز دولته يأمر لكل مريض بخادم على حساب الدولة.. ويفتدي أسرى المسلمين جميعًا.

فلله دره من إمام عدل ورحمة وختام الرحمة سيرة عمر بن عبد العزيز ورحمته السابغة رحمه الله.

علو الهمة
في
التربية والتزكية

علو الهمة في التربية والتزكية

* صدق الله تعالى إذ يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

* ولقد ورد مفهوم التربية بمعناها الحديث في القرآن الكريم في موضعين اثنين:

أحدهما: في سورة الإسراء حيث يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء].

والثاني: في سورة الشعراء حيث يقول المولى سبحانه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء].

إن كلمة تربية مأخوذة من ربا يربو، بمعنى: نما ينمو، أو: «زاد يزيد» ومن معاني التربية: بلوغ الشيء كماله على وجه التدريج. ولم يعرف استخدام لفظ «تربية» إلّا في العصر الحديث؛ إذ كان العرب في القديم يستخدمون لفظ «التأديب»، وكانوا يطلقون على المعلم اسم «المؤدب».

□ يقول الأستاذ الدكتور عبد الكريم بكار: «حين نمعن النظر نجد أن جميع الأمم تعمل في تربية صغارها وكبارها حول ثلاثة محاور أساسية هي:

١ - محور النفس البشرية، ومفردات فطرتها وميولها ونوازعها.

٢ - إرثها التاريخي والاجتماعي، والذي يشتمل على مجمل عقائدها ومبادئها، ومعايير الصواب والخطإ لديها، إلى جانب آدابها وتقاليدها وأذواقها.

٣- **ما تعتقد أنه مطلوب لعيش حاضرها**، وجوهري في تلبية حاجات مستقبلها من الصفات والخبرات والمهارات، على نحو ما نشاهده اليوم من الاهتمام بالتعليم والتدريب والتخلق بالأخلاق الحضارية الإنتاجية، من مثل الدقة والفاعلية والحفاظ على الوقت..»(١).

□ وقال: «إن «الوحي» الذي استدبره الغرب -لأسباب تاريخية- هو الذي يمنح إطار التوازن والتكامل للأعمال التربوية، وهو الذي يؤمِّن نوعًا من الانسجام والتلاحم بين متطلبات الفطرة في النفس البشرية، ومتطلبات الانتماء التاريخي والمجتمعي ومتطلبات العيش الكريم»(٢).

وقال: «على حين حرق الغرب مراكب العودة إلى رياض الوحي؛ فإن طريق التصحيح لدينا ما زال مشرعَ الأبواب، إذا ما توفَّر لدينا ما يكفي من الإخلاص والعزيمة»(٣).

□ ونقل أبو الحسن الندوي عن جون ديوتي هذا التعريف العام للتربية: «إن التربية ليست إلَّا وسيلة راقية مهذبة لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعب أو بلد، وتغذيتها بالإقناع الفكري القائم على الثقة والاعتزاز، وتسليحها بالدلائل العلمية إذا احتيج إليها، ووسيلة كريمة لتخليد هذه العقيدة، ونقلها سليمة إلى الأجيال القادمة، وإن أفضل تفسير لنظام التربية هي أنها السعي الحثيث المتواصل الذي يقوم به الآباء والمربون

---

(١) «حول التربية والتعليم» للأستاذ الدكتور عبد الكريم بكار (ص١٤)- دار القلم.

(٢) المرجع السابق (ص١٥).

(٣) المرجع السابق (ص١٧).

لإنشاء أبنائهم على الإيمان بالعقيدة التي يؤمنون بها، والنظرة التي ينظرون بها إلى الحياة والكون، وتربيتهم تربية تمكنهم من أن يكونوا ورثة الذي ورثه هؤلاء الآباء عن أجدادهم، مع الصلاحية الكافية للتقدم والتوسع في هذه الثروة»[١].

□ ويقول كذلك: «هي وظيفة اجتماعية، بمعنى أنها من ضرورات كل جماعة إنسانية تريد أن تحافظ على بقائها، وتتطور في سلم الرقي، وأنها يجب أن تتم في ضوء فلسفة اجتماعية، وفي مواقف اجتماعية كذلك، وأن الغاية من التربية هي إنشاء مواطنين يقومون بالوظائف الاجتماعية، التي منها الإبقاء على الثقافة، وترقيتها، وإصلاح عيوبها»[٢].

فهذا مفهوم عام للتربية عند جميع الأمم والشعوب.

□ يقول الدكتور أحمد فريد في كتابه القيم «التربية على منهج أهل السُّنَّة والجماعة»: «أما التربية بالمنظور الإسلامي السلفي الذي نقصده ونهدف إليه وننادي به فهي: العمل على بناء أفراد بعقائد سلفية صحيحة، ومفاهيم إسلامية نقية، وأخلاق زكية، وأعمال مرضية، وتجهيزهم كلبنات لإعادة بناء المجتمع المسلم.

وبتعبير أخصر وأقرب: تربية جيل على نمط الصحابة رضي الله عنهم، يعتقدون معتقدهم، وينتهجون نهجهم في فهم الكتاب والسنة، ويقتدون بهم في أخلاقهم وأعمالهم وسمتهم.

---

(١) «محاضرات الجامعة الإسلامية» (٣٦٦- ٣٦٧) من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة — الموسم الثقافي (٣٧٩- ٣٨٠) بتصرف.
(٢) «محاضرات الجامعة الإسلامية» (٣٧٩- ٣٨٠) بتصرف.

فالواجب على الآباء والمربين أن يتأسَّوْا برسول الله ﷺ ويتلمَّسوا خطاه ويقفوا أثره! كيف ربى النبي ﷺ الصحابة الكرام؟ وكيف سقاهم القرآن؟ وكيف رَقَّاهم في درجات الإيمان؟ حتى صاروا ببركة تربيته ﷺ قممًا شامخة في سماء المجد والرفعة، وضربوا أروع الأمثلة في الصبر والجهاد والجِلاد، والصيام، والقيام، والدعوة لدين الملك العلام، وكانوا على أعلى مستوى من الإخلاص، والمحبة لله عز وجل، والتوكل عليه، والرضا به، فبارك الله عز وجل في دعوتهم، وسارت شمس الإسلام -ببركة جهادهم وصبرهم- تنير المعروف من الأرض، من مات منهم أفضى إلى موعود الله عز وجل له بالجنة، ومن عاش صار أميرًا على قطر من الأقطار، أو مصر من الأمصار، وبقيت الأمة - ببركة جهادهم وبذلهم- منيعة الجانب، شامخة البنيان، راسخة الأركان، حتى خرج الناس عن منهاجهم، وظهرت البدع والفرق، وتسابق الناس إلى الدينار والدرهم، وضعفت الأحوال الإيمانية، والمفاهيم السلفية حتى صارت بلاد المسلمين كلأً مباحًا لكل ظالم ومعتدٍ، ومرتعًا خصبًا لترويج الأفكار الهدامة، ونشر المذاهب الباطلة، فعشش في بلاد المسلمين دعاة العلمانية والإباحية، وصار المسلم الملتزم بدين الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ أذل من الشاة، فصار الإسلام غريبًا في بلاده، مطاردًا من أهله وعشيرته، وهل بعد هذه الغربة غربة، وبعد هذا البلاء بلاء؟! فإلى الله المشتكى. فلا شك في أن التربية هي الخطوة الأولى لبناء المجتمع المسلم وإقامة الخلافة الإسلامية التي بشر بعودتها رسول الله ﷺ، والتي حين تعود لا بد أن تكون على منهاج النبوة كما أخبر النبي ﷺ.

فعلى الدعاة إلى الله عز وجل أن يبدؤوا بما بدأ به النبي ﷺ حتى ينتهوا بإذن الله إلى ما انتهى إليه من عز الإسلام والمسلمين، فما فارق النبي ﷺ الدنيا

حتى قرت عينه بنصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا وعم الإسلام جزيرة العرب، ثم فتح الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسانٍ البلادَ شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا حتى استنار أكثر المعروف من الأرض بدعوة الإسلام، وسارت دعوته سير الشمس في الأقطار، وسيبلغ بإذن الله دينُه ما بلغ الليلُ والنهار، فلا بد من معرفة المؤهلات التي أهلت الصحابة رضي الله عنهم للنصر والتمكين، والوصول إلى رضا رب العالمين، ثم تربية أجيال الصحوة على ما تربى عليه الصحابة الكرام، وقبل البدء بهذه التربية ينبغي أن يُعلم أن الصحابة كانوا في زمن لم تكن فيه بدع وأهواء، وإنما ظهرت البدع في آخر عصرهم، مصداقًا لقول النبي ﷺ: **«فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا..»**[1].

• وقوله ﷺ: **«وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلَّا واحدة..»**[2].

□ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنكم قد أصبحتم اليوم على الفطرة، وإنكم ستُحدِثون ويُحدَثُ لكم، فإذا رأيتم محدَثةً فعليكم بالعهد الأول».

□ وقال الإمام مالك رحمه الله: «لم يكن شيء من هذه الأهواء على عهد

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، وأبو داود (١٢/ ٣٥٩، ٣٦٠) «عون السنة»، والترمذي (١٠/ ١٤٤) «عارضة العلم»، وابن ماجه (٤٣) «المقدمة»، والدارمي (١/ ٤٤، ٤٥) «اتباع السنة». وقال الترمذي: حسن صحيح وصححه الألباني.

(٢) رواه أبو داود (٤٥٧٢) «السنة»، والدارمي (٢/ ٤٢١)، وأحمد (٤/ ١٠٢)، والحاكم (١/ ١٢٨) وقال الحاكم: هذه أسانيد تقوم بها الحجة في تصحيح هذا الحديث، ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ، وصححه شيخ الإسلام والشاطبي وهو في «الصحيحة» رقم (٢٠٤).

رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم».

وإنما ظهرت البدعُ في عهد الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد نادى علماء العصر وأئمة المسلمين بما يسمى «بالتصفية والتربية» فلا بد من صحوة علمية مترشدة، تقوم بتصفية التراث الإسلامي مما علق به عبر القرون والأجيال، ثم تربية أجيال الصحوة على الإسلام الخالي من البدع والخرافات والمذاهب الباطلة والأقوال العاطلة على الهدْى النبوي المبارك وعلى منهج السلف رضي الله عنهم»[1].

«التصفية والتربية» للشيخ محمد ناصر الدين الألباني محدّث الديار الشامية رحمه الله:

◻ قال العلامة الألباني بركة الزمان وحسنة الأيام:

لا بد اليوم من أجل استئناف الحياة الإسلامية من القيام بهذين الواجبين: «التصفية»، و«التربية».

وأردت بالأول منهما أمورًا:

الأول: تصفية العقيدة الإسلامية مما هو غريب عنها كالشرك، وجحد الصفات الإلهية، ورد الأحاديث الصحيحة لتعلقها بالعقيدة الصحيحة ونحوها.

الثاني: تصفية الفكر الإسلامي من الاجتهادات الخاطئة المخالفة للكتاب والسنة.

الثالث: تصفية كتب التفسير والفقه والرقائق وغيرها من الأحاديث

(١) «التربية على منهج أهل السنة والجماعة» للدكتور أحمد فريد (ص١٩ - ٢١).

الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات المنكرة.

وأما الواجب الآخر فأريد به: تربية الجيل الناشئ على هذا الإسلام المصفى من كل ما ذكر، تربية إسلامية صحيحة منذ نعومة أظفاره، دون أي تأثر بالتربية الغربية الكافرة.

ومما لا شك فيه أن تحقيق هذين الواجبين يتطلب جهودًا جبارة متعاونة من الجماعات الإسلامية المخلصة التي يهمها حقًّا إقامة المجتمع الإسلامي المنشود، كل في مجاله واختصاصه، وأما بقاؤنا راضين عن أوضاعنا، متفاخرين بكثرة عددنا، متواكلين على فضل ربنا، أو خروج المهدي ونزول عيسى صائحين بأن الإسلام دستورنا، جازمين بأننا سنقيم دولتنا، فذلك محال بل وضلال لمخالفته لسنة الله الكونية والشرعية معًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

• وقال ﷺ: **«إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»**(١).

من أجل ذلك قال أحد الدعاة الإسلاميين اليوم: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تُقَمْ لكم في أرضكم»، وهذا كلام جميل جدًّا، ولكن أجمل منه العمل به.

* ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٤٤٥) وأحمد، وابن شاهين، والطبراني في «الكبير»، وابن عدي، وأبو نعيم في «الحلية»، وصححه الألباني بطرقه في «الصحيحة» رقم (١١)، و«صحيح الجامع» (٤٢٣).

ﵟٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ﵞ [التوبة].

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم لا بد لك مع ذلك من العناية بتربية نفسك ومن يلوذ بك، تربية إسلامية صحيحة، لا شرقية ولا غربية، وتخليقها بالأخلاق المحمدية، وبذلك يصلح قلبك، وتسعد في الدنيا قبل الآخرة، وما الأمر الهام الذي ينشده دعاة الإسلام إلّا أثر من آثار هذه السعادة، إذا أخذوا بأسبابها التي تجمعها كلمتا: «التصفية، والتربية».

* قال تعالى: ﵟيَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ﵞ[الأنفال]»[1].

□ ويقول الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: «أنا أرى أن أي إصلاح يجب أن يقوم به الدعاة إلى الإسلام، والناشدون لإقامة دولة الإسلام بإخلاص هو أن يعودوا إلى أن يُفَهِّموا أولًا أنفسهم؛ ويُفَهِّموا الأمة ثانيًا الدين الذي جاء به الرسول ﷺ، وذلك لا سبيل إليه إلّا بدراسة الكتاب والسنة».

✍ ويقول: «نحن نعتقد أن كل ما جاء به الرسول ﷺ يجب أن نتبناه دينًا أولًا، مع وزنه بأدلة الشريعة؛ إن كان فرضًا ففرض، وإن كان سنّة فسنّة».

✍ ويقول: «الرجوع إلى الدين هو الرجوع إلى الكتاب والسنة؛ لأن ذلك هو الدين باتفاق الأئمة، وهو العصمة من الانحراف والوقوع في الضلال».

✍ ويقول: «إذا أردنا العزة من الله تبارك وتعالى، وأن يرفع عنا الذل

---

(١) «سلسلة الأحاديث الضعيفة» مقدمة المجلد الثاني.

وينصرنا على العدو؛ فلا يكفي لذلك ما أشرنا إليه من وجوب تصحيح المفاهيم، ورفع الآراء التي أوّلت الأدلة الشرعية عند أهل العلم. وإنما هناك شيء آخر مهم جدًّا – هو بيت القصيد- لتصحيح المفاهيم؛ ألا وهو العمل؛ لأن العلم وسيلة للعمل، فإذا تعلّم الإنسان، وكان علمه صافيًا مصفّى، ثم لم يعمل به؛ كان بدهيًّا جدًّا أن هذا العلم لا يثمر، فلا بد من أن يقترن مع هذا العلم العمل.

ويجب على أهل العلم أن يتوَلَّوْا تربية النشء المسلم الجديد على ضوء ما ثبت في الكتاب والسنة؛ فلا يجوز أن ندعَ الناس على ما توارثوه من مفاهيم وأخطاء بعضها باطل قطعًا باتفاق الأئمة، وبعضها مختلف فيه وله وجه من النظر والاجتهاد والرأي، وبعض هذا الاجتهاد والرأي مخالف للسنة.

فبعد تصفية هذه الأمور، وإيضاح ما يجب الانطلاق والسير فيه، لا بد من تربية النشء الجديد على هذا العلم الصحيح.

وهذه التربية هي التي ستثمر لنا المجتمع الإسلامي الصافي، وبالتالي تقيم لنا دولة الإسلام.

✍ وبدون هاتين المقدِّمتين: «العلم الصحيح»، و«التربية الصحيحة على هذا العلم الصحيح» يستحيل في اعتقادي أن تقوم قائمة الإسلام أو حكم الإسلام أو دولة الإسلام.

✍ وإذا كان الرسول ﷺ جعل العلاج في رفع الذل المخيّم علينا إنما هو بالرجوع إلى الدين، فيجب علينا إذن أن نفهم الدين بواسطة أهل العلم فهمًا صحيحًا موافقًا للكتاب والسنة، وأن نربي النشء الصالح

الطيب على ذلك، وهذا هو الطريق لمعالجة المشكلة التي يشكو منها كل مسلم.

✍ وقد أعجبتني كلمة – هي في الواقع كأنها خلاصة لما قلته أو بيَّنتُه آنفًا- لبعض المصلحين في العصر الحاضر -وهي في رأيي كأنها من وحي السماء- يقول: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تُقَمْ لكم على أرضكم».

ولا بد من أن نصلح نفوسنا على أساس من إسلامنا وديننا، وهذا لا يكون بالجهل، وإنما بالعلم؛ حتى تقوم دولة الإسلام على أرضنا هذه»(١).

تربية الناس على عقيدة أهل السنة والجماعة:

□ يقول الشيخ الألباني رحمه الله: «إن كثيرًا من المسلمين يشهدون أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، وهم لا يلتزمون لوازم هاتين الشهادتين، وهذا بحث طويل؛ فكثير من المسلمين اليوم – حتى الذين يُعَدُّون من المرشِدين – لا يعطون «لا إله إلَّا الله» حقها من التفسير، ولقد انتبه لهذا كثير من الشباب المسلم والكُتّاب المسلمين؛ وهو أنّ من حق هذه الشهادة: أن الحكم لله، نعم؛ أريد أن أقولها صريحة: لقد انتبه الشباب المسلم والكُتّاب المسلمون اليوم إلى هذه الحقيقة؛ وهي أن الحكم لله عز وجل وحده، وأن تسليط القوانين الأرضية، واعتمادها لحل المشاكل القائمة اليوم ينافي كون الحكم لله عز وجل»(٢).

✍ فهذا شيخ المحدثين وقد عاصر الدعوات المعاصرة في أكثر من

(١) نقولات من كتاب «التصفية والتربية وحاجة المسلمين إليهما» للشيخ الألباني –المكتبة الإسلامية– بالأردن.

(٢) «التصفية والتربية» (ص٢٥- ٢٦).

نصف قرن من الزمان يرى أن السبيل إلى عودة الإسلام لا بد أن يكون على أساس تنقية الإسلام أولًا من العقائد الباطلة، والآراء الفقهية التي لا تستند على دليل صحيح من الشرع المتين، ثم تربية شباب الصحوة على هذا الدين الخالص والإسلام المصفى، فنكون بذلك قد اهتدينا بهدى النبي ﷺ والصحابة الكرام.

قاعدة هامة:

□ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فأما بعدما بعث الرسول ﷺ، فالجاهلية المطلقة قد تكون في مِصْرٍ دون مِصرٍ كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يُسلم فإنه يكون في جاهلية وإن كان في دار الإسلام، فأما في زمان مطلق فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة.

والجاهلية المقيّدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من المسلمين»(١).

✍ هذا في زمان ابن تيمية فكيف لو رأى زماننا هذا؟!

نظرة صائبة في التربية أَرْعِها سَمْعَك جيِّدًا:

□ قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله في مذكراته التي نُشِرَت بعنوان: «لماذا أعدموني» -وهي آخر ما كتبهُ-: «خرجت من السجن وفي تصوري صورة خاصة محددة لما يجب أن تكون عليه أية حركة إسلامية في الظروف

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لابن تيمية (ص٧٨، ٧٩).

العالمية والمحلية الحاضرة، وصورة لخطوات المنهج يجب أن تسير عليه، وقد ذكرت ذلك من قبل، ولكني ألخصه هنا قبل البدء في التفصيلات:

١ - المجتمعات البشرية بجملتها قد بعدت عن فهم وإدراك معنى الإسلام ذاته، ولم تبتعد فقط عن الأخلاق الإسلامية والنظام الإسلامي والشريعة الإسلامية، وإذن فأية حركة إسلامية يجب أن تبدأ من إعادة تفهيم الناس معنى الإسلام، ومدلول العقيدة، وهي أن تكون العبودية لله وحده، سواء في الاعتقاد بألوهيته وحده، أو تقديم الشعائر التعبدية له وحده، أو الخضوع والتحكم إلى نظامه وشريعته وحدها.

٢ - الذين يستجيبون لهذا الفهم يؤخذ في تربيتهم على الأخلاق الإسلامية، وفي توعيتهم بدراسة الحركة الإسلامية، وتاريخها، وخط سير الإسلام في التعامل مع كل المعسكرات والمجتمعات البشرية، والعقبات التي كانت في طريقه، والتي لا تزال تتزايد بشدة وبخاصة من المعسكرات الصهيونية والصليبية الاستعمارية.

٣- لا يجوز البدء بأي تنظيم إلَّا بعد وصول الأفراد إلى درجة عالية من فهم العقيدة، ومن الأخذ بالخلق الإسلامي في السلوك والتعامل، ومن الوعي الذي تقدم ذكره.

٤ - ليست المطالبة بإقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية هي نقطة البدء، ولكن نقطة البدء هي نقل المجتمعات ذاتها حكامًا ومحكومين عن الطريق السالف إلى المفهومات الصحيحة، وتكوين قاعدة إن لم تشمل المجتمع كله، فعلى الأقل تشمل عناصر وقطاعات تملك التوجيه والتأثير في اتجاه المجتمع كله إلى الرغبة والعمل على إقامة النظام

الإسلامي، وتحكيم الشريعة الإسلامية.

٥- وبالتالي لا يكون الوصول إلى إقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية عن طريق انقلاب في الحكم يجيء من أعلى، ولكن عن طريق تغيير في تصورات المجتمع كله، أو مجموعات كافية لتوجيه المجتمع كله، وفي قيمه، وأخلاقه، والتزامه بالإسلام، يجعل تحكيم نظامه وشريعته فريضة لا بد منها في حسهم.

٦- في الوقت ذاته تجب حماية هذه الحركة وهي سائرة في خطواتها بحيث إذا اعتُدِي عليها وعلى أصحابها يُرد الاعتداء»[١].

✍ وهذه الخطوات نوافقه رحمه الله عليها وهي لا تختلف كثيرًا عن المنهج السلفي الذي يهدف إلى تغيير عقائد الناس، وتطهير قلوبهم وتعبيدهم لله عز وجل. فالمعركة الأولى مع النفوس كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد:١١].

* فإذا رآنا الله عز وجل أهلًا للتمكين يسر لنا أسباب التمكين، ومَنَّ علينا به، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

إلَّا أن البند السادس لا نوافقه عليه، وليس عليه دليل من كتاب أو سنة، ولعل هذا البند الأخير كان هو السبب في إخفاق دعوته، والتعجيل به رحمه الله»[٢].

(١) «لماذا أعدموني» لسيد قطب (ص٤٣، ٤٤).

(٢) «التربية» للدكتور أحمد فريد (ص٢٤).

كلام طيبٌ للدكتور القرضاوي:

□ يقول الدكتور يوسف القرضاوي – حفظه الله- في كتابه: «الحل الإسلامي فريضة وضرورة» تحت عنوان «حتى تنجح الحركة الإسلامية»:

«إنما تنجح الحركة الإسلامية في تحقيق الحل الإسلامي، وإقامة المجتمع الإسلامي، واستئناف حياة إسلامية إذا توفر لها أمور ثلاثة:

١- جيل مسلم:

الأمر الأول: جيل مسلم تقوم الحركة على تكوينه تكوينًا إسلاميًّا صحيحًا متكاملًا. يكون هذا الجيل بمثابة الدعائم أو الركائز للمجتمع الإسلامي المنتظر.

وإذا كان دعاة الاشتراكية يصرون على أن المجتمع الاشتراكي لا يبنيه إلَّا الاشتراكيون، فدعاة الإسلام أولى أن يقولوا: إن المجتمع المسلم لا يبنيه إلَّا الإسلاميون.

ولهذا لم يقم المجتمع الإسلامي والحكم في المدينة إلَّا بعد تكوين الجيل الإسلامي في مكة، وعلى مناكب هؤلاء ومن انضم إليهم من خيار الأنصار قامت الدولة المسلمة، ولقد سئل أحد الدعاة الإسلاميين يومًا: كيف يُتصور حكم إسلامي راشد؟

فأجاب: بأحد طريقتين: إما أن ينتقل الإيمان إلى قلوب الحاكمين، وإما أن ينتقل الحكم إلى أيدي المؤمنين.

ولو أن الإيمان يسهل انتقاله إلى قلوب الحاكمين بالفعل لاختصرت الطريق اختصارًا، وكفى الله المؤمنين القتال.

ولكن يبدو أن هذا ليس أكثر من حلم لذيذ لا يمت إلى الواقع بصلة، فإن من شب على شيء مات عليه، وهؤلاء الحكام قد شبوا وشاخوا على العلمانية، وتتلمذوا صغارًا وكبارًا على الفكر الغربي بشقيه، فهيهات أن يولوا وجوههم شطر غيره، ولو كان هذا الغير هو دينهم الذي ورثوه عن آبائهم، والذي ارتضى الله لهم، وارتضوه نظريًا لأنفسهم، فلم يبق إذن إلَّا الشطر الثاني، وهو أن ينتقل الحكم إلى أيدي المؤمنين، أيدي الجيل المسلم الذي آمن بالإسلام عقيدة وعبادة وخلقًا ورابطةً ونظامَ حياة.

٢- قاعدة جماهيرية إسلامية:

والأمر الثاني الذي يجب أن يتوافر للحركة الإسلامية الناجحة: وجود قاعدة جماهيرية لها من كافة طبقات الشعب، وذلك عن طريق رأي عام إسلامي يناصر الفكرة الإسلامية، ويحب دعاتها، ويكره أعداءها، ويحرص على انتصارها؛ فلا يكفي أبدًا أن تربي الحركة جيلًا مسلمًا مخلصًا لا يحس به الشعب ولا يعرفه ولا يتحمس له، لأنه في عزلة عنه، يكلمه من بعيد، وينظر إليه من فوق.

٣- التغلُّبُ على المُعَوِّقات:

الأمر الثالث الذي يجب أن يتوافر لنجاح الحركة الإسلامية: هو التغلب على المعوقات والموانع التي تقف حائلًا بينها وبين الوصول إلى أهدافها وغاياتها بكل سبيل؛ إذ لا يكفي لقيام أمر أن تتحقق موجباته، بل لا بد أن تنتفي معوقاته أيضًا، أو كما يقول أهل الأصول الفقهية: وجود المقتضي وانتفاء المانع.

ومن المعوقات من جهة الشعب: الجهل بالإسلام – اليأس من انتصار

الحركة الإسلامية- الخوف من الاضطهاد المتكرر.

وهناك معوقات من جهة القوى المناوئة، مثل: وجود نفوذ أجنبي قوي، وجود حكم عسكري علماني، وجود ظروف إقليمية أو دولية معاكسة.

وهناك معوقات من داخل الحركة، منها: اختلاف الكلمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ومنها: حب الدنيا، وهو يفتح منافذ واسعة لشياطين الجن وشياطين الإنس، ينفذون منها إلى قلوب الدعاة، فيسيل لعابهم إلى المناصب، وتتطلع نفوسهم إلى المكاسب.

ومنها: حب الذات، وهو فرع من حب الدنيا أو جزء منه، ونعني به أن يحرص عضو الحركة على البروز والظهور، وألَّا يعمل إلَّا في الصدارة أو الصفوف الأولى، وأن يجري وراء بريق الشهرة والبحث عن الأضواء»(١).

الواجب التربوي أخطر ما تقوم به الدعوة:

□ يقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله: «استعرضنا فيما مضى بعض القضايا التي تدور في ساحة العمل الإسلامي، ويجدر بنا في ختام هذا الفصل المتعلق بالصحوة الإسلامية أن نلخص المهمة الملقاة على عاتق الدعوة في هذه المرحلة من تاريخها:

إن الدعوة مكلَّفة بواجب تبليغي، وواجب تربوي، مقتدِية في ذلك

(١) «الحل الإسلامي فريضة وضرورة» للدكتور القرضاوي (١٩٧- ٢٠٣) باختصار- طبع مكتبة وهبة.

بالمنهج النبوي في فترة الدعوة الأولى بمكة.

فأما الواجب التبليغي: حين تسنح الفرص بلقاء الدعوة مع الجماهير -: فهو تعليمهم ما جهلوه من حقيقة لا إله إلَّا الله، وارتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله، والتأكيد لهم بأن ما أصاب المسلمين في حاضرهم من الذل والهوان والضعف والتخلف وغلبة الأعداء عليهم إنما كان سببه تفريغ لا إله إلَّا الله من مضمونها الحقيقي، وجعله كلمة تتعلق باللسان فحسب، وأن هذا ليس هو الإسلام الذي أنزله الله. إنما الإسلام الذي يرضى الله عنه في الدنيا والآخرة هو نطق لا إله إلَّا الله محمد رسول الله، والعمل بمقتضاها، وتأدية الفرائض، وأن المسلمين لن يعودوا إلى التمكن في الأرض بأي مذهب من المذاهب، ولا أي منهج من المناهج المستوردة من الشرق أو الغرب، إنما بالرجوع الحق إلى الله، أي: عبادته وحده بلا شريك، سواء فيما يختص بالعقيدة، أو ما يختص بالشعائر التعبدية، أو ما يختص بتحكيم الله في كل أمر من الأمور، وأن استيراد المذاهب من الشرق والغرب خلال قرن من الزمان لم يزدهم إلَّا ضعفًا وهوانًا وذلَّة وضياعًا وبعدًا عن التمكن والاستقرار.

وأما الواجب التربوي: فهو أخطر ما تقوم به الدعوة في الحقيقة؛ لأنه هو طريق الخلاص، وهو عمل دائب مستمر لا يتوقف مهما كانت الأحوال، في الشدة والرخاء سواء، في السعة وفي الضيق سواء.

والتربية المطلوبة – لإقامة القاعدة الإسلامية – تهدف إلى إخراج نماذج فذة، لا مجرد إخراج مسلمين عاديين، نماذج تكون كالأعمدة الراسية في البناء، لتحمل ثقل البناء فيما بعد.

وهذا يحتاج أولًا إلى عقيدة صافية، لا غبش فيها ولا بدع ولا انحرافات، كعقيدة السلف الأول، خالية من كل ما علق بها خلال الأجيال من إضافات وانحرافات خرجت بها عن عقيدة التوحيد الخالصة الصافية، وكادت تردها وثنية جاهلية.

ويحتاج ثانيًا إلى إدراك واع لمقتضيات هذه العقيدة. ومقتضياتُها هي: كل التكاليف وكل التوجيهات التي جاءت في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، ومن عظمة هذه التكاليف والتوجيهات، ومن شمولها لكل جوانب النفس، وكل جوانب الحياة كانت عظمة هذا الدين، وعظمة الأمة التي حملت هذا الدين، وأنشأت به ذلك الواقع الضخم الذي شهده التاريخ.

ويحتاج ثالثًا إلى تربية تُحَوِّل هذه العقيدة إلى حقيقة سلوكية قائمة في عالم الواقع.

وهذه التربية تحتاج إلى ترسيخ معاني الألوهية وتعميقها حتى تصبح يقينًا قلبيًّا ينبني عليه سلوك واقعي، يقينًا لا يزلزله الابتلاء والشدة، ولا يزلزله الرخاء والسعة.

وتحتاج إلى ترسيخ أخلاقيات لا إله إلَّا الله حتى تصبح حقيقة سلوكية تنبثق انبثاقًا ذاتيًّا من داخل النفس. وأخلاقيات لا إله إلَّا الله من السعة والشمول، بحيث تشمل كل سلوك يقوم به الإنسان، فالأخوة من أخلاقيات لا إله إلَّا الله، والتكافل من أخلاقيات لا إله إلَّا الله، والجلد والصبر من أخلاقيات لا إله إلَّا الله، والشجاعة من أخلاقيات لا إله إلَّا الله، والنظام والانضباط من أخلاقيات لا إله إلَّا الله، ومعرفة الحق واتباعه من أخلاقيات لا إله إلَّا الله.

وتحتاج إلى الوعي السياسي بأحوال العالم المعاصرة، وأحوال المسلمين في ظروفهم الراهنة، ومكايد الأعداء ومؤامراتهم الدائمة ضد الإسلام، وتدسسهم إلى حياة المسلمين بالغزو الفكري وغيره من وسائل الحرب.

وتحتاج إلى الوعي الحركي الذي لا يتعجل الخُطى قبل أوانها، وفي الوقت نفسه لا يدع الفرصة تفلت منه دون أن يستفيد منها.

وتحتاج إلى موازنة في داخل الفرد وفي داخل الجماعة بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية، بحيث لا يكون الفرد مستبدًّا، ولا ناشزًا، ولا يكون في الوقت ذاته إِمَّعة يساير المجموع إن أخطأ أو أصاب. ولا تكون الجماعة مستبدة طاغية تسحق شخصية الفرد، ولا مفككة لا رابط لها ولا اتحاد.

وتحتاج إلى وعي فقهي يعرف به الفرد ماذا يأتي وماذا يدع، ومتى يسمع ويطيع، ومتى يفضي به السمع والطاعة إلى الهلاك.

ومن أجل متطلبات هذه التربية وهي كثيرة وشاقة، وخاصة في أمة كادت تنسلخ من كل مقومات الإسلام، فلا ينبغي التعجيل في خطواتها، ولا ينبغي التعجيل في إدخال الجماهير في الدعوة على النطاق الواسع قبل أن يتيسر العدد الكافي من الدعاة والمربين الذين تَرَبَّوْا هم أنفسهم على المنهج الصحيح، والذين يستطيعون بدورهم أن يُرَبُّوا على المنهج الصحيح، فهذا التعجيل لا يخدم الدعوة في شيء، إنما يعوقها في الحقيقة عن المسير»[١].

---

(١) «واقعنا المعاصر» لمحمد قطب (٥٢٢- ٥٢٤).

التربية من الخطوط الرئيسية لبعث الأمة الإسلامية:

□ يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق - حفظه الله- في كتابه «خطوط رئيسية لبعث الأمة الإسلامية» تحت عنوان «الطريق إلى بعث الأمة الإسلامية»: «لا نستطيع أن نتصور أمة صالحة كاملة إلَّا بتصور جماعة لها عقيدة واحدة ومنهج واحد في الحياة، وبهذا تتحدد مقومات الأمة على النحو التالي:

الجماعة، العقيدة «الإيمان»، والمنهج «التشريع».

أما الأفراد المسلمون: فهم كثير والحمد لله، فهم يعدون بمئات الملايين، ولكن حالهم واضح لكل ذي بصيرة.

وأما العقيدة الواحدة: فموجودة باقية، ولكنها تحتاج إلى أمرين:

الأمر الأول: تخليصها مما علق بها عبر القرون من الانحراف والتأويل السخيف المشوه لحقيقتها والخرافة.

الأمر الثاني: نقلها من بين الآيات والأحاديث وبطون الكتب إلى الصدور.

وأما المنهج: فموجود أيضًا، باق إلى يوم القيامة، ولكنه يحتاج إلى أمرين أيضًا:

الأمر الأول: تنقية هذا المنهج من البدع والانحراف والتأويل.

الأمر الثاني: وضع هذا المنهج موضع التنفيذ.

وبهذا سيتحدد العمل في ثلاث دوائر أساسية، ولكنه سيتفرع إلى شعب كثيرة:

الدائرة الأولى: تحديد العقيدة الواحدة وتصفيتها من الشوائب.

الدائرة الثانية: تخليص الشريعة الإسلامية وتنقيتها من البدع والغلو والتفريط.

الدائرة الثالثة: تهيئة الفرد المسلم ليقبل العقيدة الواضحة والشريعة الغراء السمحة الكريمة»[١].

الصبر على التربية الصحيحة:

□ يقول شيخي الدكتور أحمد فريد في كتابه الماتع «التربية على منهج أهل السنة والجماعة»:

* قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

* وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالاقتداء والاهتداء برسول الله ﷺ واجب في كل الأحوال وفي جميع القضايا، والتماس البركة والعزة في هديه المبارك ﷺ مما ينبغي أن يتقرر في قلب كل مسلم مخلص يرجو الله واليوم الآخر.

كيف بدأ النبي ﷺ الدعوة المباركة، وكيف انتقل بها من مرحلة إلى مرحلة، حتى جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

هل بدأ بالصدام المسلح مع الجاهلية الجهلاء في فترة الاستضعاف وقلة العدد والعُدَدِ، أو أُمِرَ هو وأصحابه الكرام بكف الأيدي وإقامة

---

(١) «خطوط رئيسية لبعث الأمة الإسلامية» للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق.

الصلاة وإيتاء الزكاة، أي بالتربية بالعبادات، والصبر على الضيم، وتحمل الإيذاء والاستهزاء والتعذيب والتكذيب.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

[النساء: ٧٧].

* وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾

[الجاثية: ١٤].

□ قال ابن كثير رحمه الله: «أي يصفحوا عنهم، ويتحملوا الأذى منهم، وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد.

• وقال النبي ﷺ لما استأذنه أهل يثرب ليلة العقبة أن يميلوا على أهل منى فيقتلوهم: «**إنا لم نؤمر بذلك**»(١).

□ قال سيد قطب رحمه الله: «ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة: تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادةً من ضيم يقع على شخصه، أو على من

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ١٤٩) ط. دار المعرفة. والحديث رواه ابن هشام عن ابن إسحاق (٢/ ١٨٧- ١٩٢) مُطَوَّلًا، وعنه أحمد (٣/ ٤٦٠- ٤٦٣)، والطبراني (١٩/ ٨٧- ٩١)، وأورده الهيثمي (٦/ ٤٢- ٤٦)، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وهو مدلِّس وقد صرَّح بالسماع، وقال الألباني: هذا سند صحيح، وصححه ابن حبان كما في «الفتح» (٧/ ٤٥٧).

يلوذون به.

وربما كان ذلك أيضًا لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يَفتِنون أوائلَ المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ويؤذونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلصين، بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطاب من بين أولئك؟.

وربما كان أيضًا لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة»[1].

فقد كانت الفترة المكية فترة تربية وإعداد ونشر للدعوة، وتحمل لكل ألوان الأذى حتى صار الصحابة ببركة تربية النبي ﷺ ملوك الدنيا وقادتها وسادتها، كما أنهم كذلك ملوك في الآخرة.

فلا ينبغي على القائمين على جماعات الدعوة للدين المتين أن يهملوا التربية إهمالًا، وأن يعتبروا الوقت الذي يُبذل والجهد الذي يُنفق في التربية لا فائدة فيه ولا عائدة، استعجالًا للنتائج، ورغبة في سرعة قطف الثمر، فيسلكون من الطرائق ما يخالف ما مضى عليه سيد الخلائق، ومن نظر بعين الإنصاف متجنبًا الاعتساف يرى أن مثل هذه الطرائق لا تثمر إلَّا الفتن والويلات والانتكاسات للدعوة الإسلامية، وكذلك لهؤلاء الأفراد الذين لم يأخذوا حظهم من التربية، وقد ينحرف كثير منهم عن الصراط المستقيم؛ لأنه يعرض نفسه لما لا طاقة له به من البلاء، نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة.

□ قال الإمام مالك رحمه الله: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلَّا بما صلح

---

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٤٣٨).

عليه أمر أولها».

وصلح أمر أولها بالتربية الصحيحة، بالصيام والقيام وتلاوة القرآن، كما صلح باتباع سنة النبي ﷺ، والدخول في شرائع الإسلام كافة، كما صلح كذلك بالبذل والإنفاق والجهاد والجلاد.

□ قال الأستاذ محمد قطب رحمه الله: «ويجب أن يكون واضحًا في أذهاننا كذلك أن المعركة بين الإسلام وأعدائه ليست معركة سريعة خاطفة، ولكنها معركة طويلة شاقة قد تستغرق عدة أجيال، فينبغي للقاعدة التي تنشأ للقيام بهذا العبء الضخم أن تُرَبَّى لتكون طويلة النفس، شديدة الصبر، عميقة الإيمان بالله، عميقة التوكل عليه، مستعدة لما يتطلبه أمرها من المعاناة، قادرة على أن تبذل من نفسها: من جهدها ومالها ودمها وفكرها ما يحتاج إليه إزالة الغربة التي ألمت بالإسلام اليوم، واستنقاذ الغثاء من دوامة السيل، واستثباته مرة أخرى راسيًا في الأرض عميق الجذور، وحين تكون القاعدة بالمواصفات المطلوبة، بالحجم المناسب سيغير الله للناس؛ لأنهم يكونون قد وفوًا بالشرط.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[النور: ٥٥](١).

فعزة هذه الأمة ورفعتها ومجدها في التماس هدي النبي ﷺ، ونصر شريعته.

* قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ⑦﴾ [محمد].

---

(١) «واقعنا المعاصر» (ص٥٢٥).

* وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].

ونَصْرُ الله ﷻ في تحليل حلاله، وتحريم حرامه، وإقامة دينه، وإحياء شريعته بالدعوة إليها، والبذل في سبيل رفعتها.

* وانظر -رحمك الله- كيف خالَفَتْ طائفةٌ من الجيش أمرَ رسول الله ﷺ فكانت الهزيمة يوم أُحد، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فكيف إذا خالفت الجماعةُ كلُّها هَدْي رسول الله ﷺ، وقدموا قول علمائهم ومفتيهم على هديه المبارك، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم؟!

وكانت الهزيمة كذلك في بداية غزوة حنين لتعلق قلوب بعض مُسلِمة الفتح بالأسباب، وضعف التوكلِ وانتظارِ الخيرِ والنصرِ من الواحد الوهاب.

* قال تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة].

فهذه تربية عالية لهذه الأمة الغالية، تنقية مستمرة للقلوب والجوارح مما يسخط الله ﷻ، ويخالف شريعته، حتى تُخلِّص توحيدَها لله ﷻ وتسلم قيادتها لرسوله ﷺ.

أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتابًا إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال: لا يغرنك من الله أن قيل: خال رسول الله ﷺ، وصاحب رسول الله ﷺ، فإن الله ﷻ لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن؛ فإن الله

ليس بينه وبين أحد نسب إلَّا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ عليه منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه؛ فإنه الأمر، هذه عظتي إياك، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك، وكنت من الخاسرين.

□ ونختم بهذه الكلمة في أهمية التربية الجادة للأستاذ محمد بن عبد الله الدويش يقول – حفظه الله-: «والأمة تعيش هذا العصر واقعًا فريدًا، ومرحلة ليست على مثال سابق، فعصور التردي التي مرت بالأمة لم تصل إلى حد أن تسقط الحواجز بين الأمة وأعدائها، فتصبح تابعة لهم، مستوردة لمناهجهم، ولقد كان الحكم في تلك المراحل للشريعة رغم الانحرافات في التطبيق، ولم تجرؤ الأمة على استبدال الشريعة وتنحيتها إلَّا في هذا العصر.

ومناهج التربية والإعلام الوافدة إنما هي نتاج هذا العصر، والتي ساهمت مساهمة فعالة في تشكيل وصياغة عقلية مسلم هذا العصر ليخرج خليطًا متنافرًا من ثقافات الشرق والغرب.

فالمشكلة التي تعانيها الأمة اليوم أبعد من أن تكون مجرد انتشار لمعاصٍ ظاهرة، وإخلالًا بأحكام ظاهرة، وإن كان ما نذكر نذير خطر.

ومن ثم فالمشروع الإسلامي ما لم يأخذ على عاتقه إعادة صياغة متكاملة للفرد والمجتمعات الإسلامية في التفكير والتصورات والقيم والموازين فهو عاجز عن تحقيق الهدف الذي يسعى إليه.

وهذا التغيير وإعادة الصياغة يحتاجان جهدًا تربويًّا ضخمًا لتربية أدوات ووسائل التغيير من الدعاة والمصلحين، وجهدًا لتربية مجتمعات

المسلمين، ومن ثم كانت التربية الجادة ضرورة.

وحيث تتبوأ التربيةُ هذه المنزلة، وترقى إلى هذه الأهمية فهي تحتاج إلى المزيد من الدراسات والبحوث، ومراجعة الأوضاع القائمة وغربلتها.

أما حين تكون مرحلة العواطف الجياشة، والحماسة المتأججة نهاية المطاف ومنتهى الغايات، فتصاغ البرامج التربوية للوصول لها وتحقيقها فحسب، فلن تحقق الدعوة غايتها»[(١)].. [(٢)].

أهمية التربية بقلم الدكتور عبد الكريم بكّار:

□ يقول الدكتور عبد الكريم بكار في كتابه القيم: «حول التربية والتعليم»: «التربية هي الأسلوب، وهي الأداة التي تضع الإنسان في بداية طريق النمو والاستفادة من الوسط الاجتماعي القائم.

ويمكن أن نستجلي أهمية التربية في حياة الأفراد والمجتمعات على النحو الآتي:

١- لا يولد الإنسان إنسانًا، حيث لا يملك شيئًا من مقومات الإنسانية: اللغة والفكر والمشاعر والأخلاق.. ولا ينتقل إليه شيء من ذلك بالوراثة من أبويه، وعليه أن يكتسب كل ذلك من خلال التربية الأسرية والاجتماعية؛ ويظهر هذا جليًّا حين نقارن بين إنسان الغابة الذي لا يحسن أكثر من جني الثمار، وبين إنسان يعمل في مركز أبحاث، أو يقود طائرة حديثة!.

إن عدم إنجاز طبيعته هو سر عظمته، حيث يعني ذلك مطاوعة بلا

(١) «التربية الجادة ضرورة» لمحمد بن عبد الله الدويش (ص٧- ٨) طبع دار الصفوة.

(٢) «التربية على منهج أهل السنة والجماعة» (ص٣١- ٣٥).

حدود، إن وَلَد إنسان لا يربِّيه إنسان، لا يمتلك شيئًا من مقومات الإنسانية؛ فالإنسان مدين بما يخوله أن يعيش متمتعًا بإنسانيته إلى التربية، لا إلى الطبيعة إلى حد بعيد.

٢- إن التربية هي التي تقوم بتكوين الوعي لدى الناشئ، وهي التي تغرس في نفسه ضرورة التطلع إلى المثل العليا والأهداف الكبرى؛ حيث يستلُّ المربي من مجموع ما تفيض به ثقافة الأمة، ومما هو متوفر من معرفة - ما يعتقد أنه أساسي في تكوين من يشرف على تربيته، والمشكل هنا أن التربية لدينا لم تحقق نجاحًا واضحًا في جعل الناشئة يدركون الأهداف الكبرى على نحو صحيح؛ فالملاحظ أن الناس يستشعرون الهدف من هذه الحياة على نحو رتيب أو مبتذل، وهذا في حد ذاته يجعل درجة التفاعل معه والحماسة لتحقيقه ضعيفة أو معدومة، وهذا ما نلاحظه اليوم؛ حيث يضمر كل مسلم في نفسه أن هدفه الأسمى هو رضوان الله تعالى، لكن انعدام الفاعلية الشعورية والذهنية في إدراكه أدى إلى ضعف السعي إلى تحقيقه والارتفاع إلى مستواه لدى السواد الأعظم من المسلمين.

أما العلمانيون والماديون ومن على شاكلتهم فقد أضاعوا الأهداف الكبرى جملة، وقد عبر عن هذا «أنشتاين» حين قال: «إن حضارتنا تمتلك معدات كاملة، لكن الأهداف الكبرى غامضة».

إنها لمأساة أن تنتشر المعرفة، وتتدفق المعلومات في كل اتجاه، ومع ذلك يزداد ضعف تكوين الشخصية لدى الجيل الجديد، ويقل الحكماء وذوو البصائر النافذة، والسبب في هذا أن كثيرًا من أنشطتنا التربوية قد ابتعد عن فلك الأهداف الكبرى؛ مما أفقدها المنطقية والتجانس، وأوقعها في

التشظِّي والتصادم. ولذا فإن التربية الفاضلة ليست تلك التي تنثر أمام الناس مجموعة من الفضائل والحكم والنصائح، وإنما تلك التي تمتلك خيطًا من نور، ينتظم جميع مقولاتها، ويدفع بها إلى بؤرة شعور الفرد، وأعماق بنيته الفكرية وأعماق وعيه، وهذا لن يكون ما لم يَسُدْ نوع من التناغم بين جميع الأجهزة التربوية والإعلامية والتثقيفية.

٣- الإنسان الذي لم يتلق تربية جيدة قد لا يستفيد حتى من المعلومات اليقينية، ويفسر الأشياء تفسيرًا خاطئًا، ويسهل خداعه، ويصدر أحكامًا لا يساندها علم ولا منطق، وفي هذا يقول علي رضي الله عنه: «رأيُ الشيخ ولا رؤية الصبي». فالشيخ يصدر رأيه في أمر ما مع نقص المعلومات لديه مستخدمًا لخبرته، أما الصبي فإن عقله لما يراه، وتفسيره له يكون في أغلب الأحيان فجًّا؛ نظرًا لجهله بطبائع الأشياء»[1].

من معالمنا التربوية:

١- إن تحقيق العبودية لله تعالى يجب أن يكون مستحضَرًا في كل وقت، ولدى جميع المربين، وفي جميع المحاضن المربية: الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام.. فينشَّأ الطفل على حب الله ورسوله ﷺ، وتذكيره بنعمة الله عليه ورعايته له، كما يُلفت نظره بين الفينة والفينة إلى بديع خلق الله وتناسقه وجماله، كي يتعاظم في نفسه توقير الله وإجلاله، ويكون هذا محورًا من المحاور الأساسية للمناهج الدراسية، مهما كانت المادة التي تقدمها.

ويضاف إلى ذلك تأسيس ثقافة عامة تدور في فلك الأصول الحضارية

---

(١) «حول التربية والتعليم» (ص٢٠- ٢٢) مُلخَّصًا.

الإسلامية في ميادين الأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد والنظم كافة.

قد بات من المهم أكثر من أي وقت مضى أن نؤكد بكل وسيلة أن بلوغ قمة التحضر لن يكون إلَّا عبر الخضوع لله تعالى وحده والامتثال لأمره، وأن التقوى والاستقامة ونفع الخَلْق هي مقاييس التفاضل في المجتمع الإسلامي [(١)].

٢- نحن جزء من هذا الكون، وقد تكرَّم الله تعالى فجعل الإنسان قادرًا على استثمار جميع ما حوله والانتفاع به، ولذا فإن العلاقة به هي علاقة تعاون وتعاطف؛ والتعاليم الإسلامية الكثيرة تدلنا على أن على الإنسان أن يتخلَّق بخلق الرحمة، وأن يتمتع بالإحساس المرهف مع كل ما فيه نوع من الحياة، بل إن ذلك يجب أن يمتد إلى الجمادات أيضًا، وذلك بالمحافظة على وجودها، فلا ينبغي للمسلم أن يدمر الموارد المتاحة، وألا يستخدمها إلَّا على وجه يعود عليه بالنفع.

إن الله — جل وعلا- أرسل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، ولا بد لنا من أن نسعى إلى تحقيق هذا المعنى؛ فلا يتصل مسلم بغير مسلم إلَّا ناله شيء من رحمة الإسلام ولطفه وهديه، ولن يتم هذا إلَّا إذا كانت تربيتنا تربية إنسانية.

٣- إن التربية الإنسانية تتجاوز حدود الواجبات والحقوق، لتسمو إلى آفاق مراعاة المشاعر والظروف والهموم؛ إنها نوع من الشهامة والمروءة والتذمم، أو هي — كما سماها القرآن الكريم- درجة الفضل [(٢)].

---

(١) «حول التربية والتعليم» (ص٣٣).

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

إن فلسفتنا التربوية تقوم على تنشئة «الإنسان الصالح» الذي له سلوك واحد، وتعامل واحد، ومعايير واحدة؛ فالإنصاف، والأمانة، والعدل، وأداء الحقوق، والنصح، والإحسان، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وإكرام الضيف، ورعاية حقوق الجار.. وما شاكل ذلك من كريم الصفات - مقومات أساسية يجب أن تتجلى في سلوك المسلم وتعامله مع المسلم وغير المسلم، والنصوص في هذا كثيرة ومشهورة.

٤- ومن معالمنا التربوية: التماسك والانسجام:

بمعنى عدم اشتمالها على تنافر بين أجزائها، يؤدي إلى أن يُجهض بعضها بعضًا، وهذا الانسجام نابع في الأصل من أن الله - جلَّ وعلا - هو خالق الكون والإنسان، وهو الذي أرسل الرسل، وأنزل الكتب؛ ولذا فعلى مقدار التزام فلسفتنا التربوية بالمنهج الرباني يكون انسجامها أقرب إلى الكمال.

ويشكل ذلك الانسجام عنصر الشمول والتوازن؛ فنجد على سبيل المثال أن القرآن الكريم دعا المسلمين إلى امتلاك القوة، وامتلاك أسباب الغلبة، وهذا لا يتم إلَّا من خلال نظم وأنشطة تؤدي إلى التفوق المادي؛ ولذا نجد أن في جوهر ثقافتنا وأدبياتنا الكثير مما يجعل المسلم لو التزم به متفوقًا، مثل العلم والنظام والنظافة والإتقان وحسن التدبير والدقة»[1].

٥- التسامي على السفاسف، ومحاولة الارتقاء إلى المثل الأعلى[2] ركن ركين في فلسفتنا التربوية؛ فالله - جل وعلا - زود الإنسان بطاقات

---

(١) «حول التربية والتعليم» (ص٣٣- ٣٧) مُلخَّصًا.

(٢) يُراد بالمثل الأعلى نموذج الحياة المعنوية والمادية المراد للإنسان المسلم أن يحياها.

وإمكانات، وجعل في تركيبه النفسي والجسمي حاجات تتطلب الإشباع، وسنَّ له إلى جانب ذلك مبادئ وآدابًا، ووضعه في ظروف قد تكون مواتية، وقد تكون معاكسة لتحقيق ذلك ابتلاءً منه واختبارًا، وعلى المرء أن يتعلَّم حسن التصرف حيال كل ذلك.

إن الحضارة الحديثة أضعفت إرادة الإنسان، ونقلت مجال السيطرة والتحكم من الإنسان إلى الأشياء، وصار الإنسان المسلم يشعر -أكثر من أي وقت مضى- أنه مغلوب على أمره، لاهث حول تحقيق رغبات وحاجات تقصر إمكاناته دونها، وصار يضغط على مبادئه، ويتجاهل أخلاقياته وأدبياته في سبيل اكتمال الوسط الذي يعيش فيه؛ وهذا حدَّ من تساميه وتشوفه إلى المثل العليا.

إن الرؤية الإسلامية في هذه المسألة تتلخص في أن رغبات الناس في امتلاك الأشياء لن تتوقف عند حد: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلَّا التراب**»[(١)] ومن ثَم فإنه لا بد للمسلم من المجاهدة الدائمة حتى لا يخضع للظروف الصعبة، وينشد دائمًا الأسمى والأرقى، وفي سيرة النبي ﷺ وسير أصحابه الكرام دروس عملية كثيرة للتسامي؛ فقد خُيِّرَ ﷺ بين أن يكون مِلِكًا رسولًا، وأن يكون عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا، وكان تمر عليه الليالي العديدة دون أن يوقد في بيت من بيوت نسائه نار، وكان يقوم من الليل حتى

(١) رواه البخاري وأحمد ومسلم والترمذي عن أنس، وأحمد، والبخاري ومسلم عن ابن عباس، والبخاري عن ابن الزبير، وابن ماجه عن أبي هريرة، وأحمد عن أبي واقد، والبخاري في «التاريخ»، والبزار عن بريدة.

تتورم قدماه، مع مغفرة الله تعالى له، وكان وكان..

وكان فتيان الصحابة رضي الله عنهم يتسابقون إلى ساحات الجهاد طلبًا للشهادة، كما كان بعض الصحابة يؤثر إخوانه على نفسه بأشياء هو في أمس الحاجة إليها، وكان منهم من يعمل ويكد من أجل أن يتصدق بشيء من أجره في سبيل الله!

إن التشريع الإسلامي يراعي الظروف الصعبة، والإمكانات المحدودة لبني البشر، ويعترف بها، ومن أجل ذلك كان التكليف ضمن الوسع، وكانت الرخص، لكن الله تعالى يريد دائمًا من عباده أن يكون فيهم من يأخذ بالعزائم، ويضغط على حاجاته ومصالحه، من أجل الارتقاء إلى مقام القدوة، وذلك هو السبق، وأصحابه هم السابقون الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة].

إن التسامي والارتفاع إلى مقام الإمامة في الخلق والسلوك يحتاج دائمًا إلى تضحية، ولكن العاقبة رضوان من الله ورحمة وفوز مبين. وإذا كان من العسير على الواحد منا أن يرتقي إلى المثل الأعلى في كل جوانب الحياة؛ فلا أقل من أن يكون قدوة في مجال من المجالات على الأقل؛ لينير شمعة في زاوية من زوايا ليل العالم الحالك.

التسامي في التحليل النهائي مظهر من مظاهر الإرادة الصلبة، وهو في الوقت نفسه أداة من أدوات التحرر من ربقة الأهواء والشهوات، وأَسْر الظروف الصعبة.

الأجيال الجديدة تواجه المزيد من ندوة الموارد، والمزيد من المغريات

مع ظروف قاسية، ولذا فإن حاجتها إلى التسامي ستزداد يومًا بعد يوم، ومهمة التربية أن تبرز الحاجة إليه، وأن تستهدف تحقيقه في مناشطها المختلفة»[١].

التربية الأسرية هي الأساس:

إن الجهات الأساسية التي تتولى عملية التربية، هي الأسرة والمدرسة والمجتمع، فأيها أبقى وأعظم أثرًا في شخصية الطفل؟

لا يكاد علماء النفس وعلماء التربية يختلفون في أن الأسرة هي التي تقود عملية التربية الأساسية؛ حيث تثبت دراسات كثيرة أن الخطوط الأساسية في شخصية الطفل يتم رسمها في السنوات السبع الأولى من عمره، وأن ما يأتي بعد ذلك من مؤثرات تربوية مختلفة، إنما هو تعميق وتفصيل وتكميل، وهذا يعني أن الأسرة هي صاحبة التأثير الأكبر في شخصيات الناشئة.

روح الكفاح والمثابرة:

إن طبيعة الالتزام الصارم بالتعاليم الربانية، شكل عظيم من أشكال الاستمرار في بذل الجهد، ومكافحة الأهواء والشهوات؛ حيث يضبط المسلم الملتزم إيقاع حركته ومشاعره ضبطًا تامًّا وفق مراد الله – تبارك وتعالى – والمشكلة في هذا الصدد مع نوعين من المسلمين:

١ – نوع لا يعرف مذاق الاستمرارية والمثابرة، لا في شؤون دينه، ولا شؤون دنياه؛ فهو أقرب إلى أن يكون بدائيًّا فوضويًّا.

---

(١) «حول التربية والتعليم» (ص٣٧ – ٣٨).

٢- ونوع يلتزم بأمور دينه التزامًا منقوصًا، حيث لم يستطع توسيع قاعدة الالتزام، وروح الدأب والكفاح؛ لتشمل جميع جوانب حياته؛ فترى لديه قصورًا في تدينه، ونوعًا من الجمود والاضطراب في معالجة أمور دنياه، مع أن الذي يعمق النظر يرى أنه لا يمكن الفصل بين أمور الدين وأمور الدنيا، لا على مستوى الفكر، ولا على مستوى السلوك؛ فالبنية العميقة للشخص لا بد أن تتجلى فيهما معًا.

ولعلنا نلمس في هذه المسألة النقاط التالية:

أ- حتى يمتلك الناشئة روح الكفاح والمثابرة على بذل الجهد، وضبط النزعات والميول، فإنهم بحاجة إلى امتلاك عقل مفتوح، وشحنة عظيمة من الأمل والتفاؤل؛ فالمستحيل درجات ومنه ما هو مطلق، ومنه ما هو نسبي، وما من معضلة إلَّا وهي قابلة للتغلب عليها كليًّا أو جزئيًّا، وفي النهاية فإن المرء يستطيع أن يعايشها، ويتكيف معها، وبذلك يكون أقوى منها، وكما يقول أحد الفلاسفة: «فلنغرس في نفوس شبابنا أن أعظم الكتب لم يؤلف بعد، وأن أعظم اللوحات الفنية لم تنقش بعد، وأن أحسن الحكومات ما زالت في مخاض، وأن ذلك كله سيتم على أيديهم هم».

إن «أديسون» الذي سجل أكبر عدد من المخترعات في العصر الحديث قال حين سئل عن العبقرية: «إنها ١٪ إلهام و٩٩٪ عرق جبين»!. وعلى هذا فإن التفوق والإنجاز العالي، والإتيان بالطرائف والغرائب هو في المقام الأول وليد الاجتهاد والمتابعة المبصرة والمنظمة.

إن لدى كل طفل من أطفالنا قدرًا من العبقرية، وإن علينا أن نكتشف ذلك ونرعاه ونتميه ونتابعه، وهذا من مسئولياتنا ذات الأهمية والأولوية.

جـ- إن كل المؤشرات المتوفرة تقول: إن مشاق الحياة في ازدياد على الرغم من تكاثر المرفِّهات، وما هو مطلوب للعيش الطيب يزداد ندرة، وليس المقام هنا مقام تفصيل، ولن يكون بمقدور الأمة أن تفعل شيئًا عظيمًا ما لم تدرب الناشئة لديها على أن يُعدِّوا أنفسهم للحياة الجديدة، إن الصحابة ﷺ ومن تلاهم من بناة الحضارة الإسلامية العتيدة – قد تحملوا من المشاق وشظف العيش في مجاهدتهم لنشر هذا الدين ما لا يوصف، مع قلة عتادهم، ومحدودية إمكاناتهم، وتفوق أعدائهم، وإن علينا أن نعلم الناشئة كيف يستخلصون الروح والمثل من ذلك.

والذي يقرأ في سيرهم يتبين له بوضوح أنهم كانوا لا يسألون أنفسهم أبدًا عما تبقى من الطريق، ولا عن تكاليف في ذلك، وكانوا يدعمون روحهم المتوثبة تلك بثقة غير محدودة بنصر الله تعالى وعونه، وقد كان لهم ذلكم على نحو فذ فريد!.

وفي العصر الحديث تعد اليابان النموذج العالمي للنجاح الباهر في ظروف هي الأقسى، ومع موارد شديدة الشح، وكانت وسيلتها إلى ذلك هي المثابرة والإصرار، ويذكر أحد الكتاب الذين حاولوا النفاذ إلى أعماق التربية اليابانية أن من المرغوب فيه أن يتعلم الطفل في بدايات التعليم الابتدائي أن يتحمل المشاق، وفي السنوات المتوسطة يتعلم الإصرار والاستمرار؛ ليحقق المطلوب منه في صبر وعزم وفي السنوات الأخيرة من التعليم الثانوي يتعلم ألا يقف سلبًا أمام المصاعب والعقبات، وأن يجد الحلول متغلبًا على ما يجد من مشكلات، وألا يخاف الإخفاق بعد أن يبذل الجهد اللازم.

«إن الكمال الذي ننشده ليس بنية مكتملة محددة المعالم، نستحوذ عليها ونرتاح، وإنما هو شيء يلمع ويبرق في الأفق، والاستحواذ عليه ليس أكثر من مناهزته بصورة دائبة دائمة، وبأشكال من التصفية والمراجعة والإنضاج.

تعلمنا التجربة التاريخية الأممية أن الظروف المادية لا تشكل أبدًا حواجز لا تقهر، أو عوائق لا يمكن التغلب عليها؛ فكثير ممن سطروا قصصًا عجيبة من النجاح والتفوق، بدءوا من الصفر، وفي ظروف قاسية، ثم استطاعوا من خلال الجهد المتواصل أن يكونوا أفضل بكثير ممن ولدوا وفي أفواههم «ملاعق من ذهب»! وهذا يدل على أن «القصور» على مستوى الفرد، وعلى مستوى المؤسسات، هو العقبة الكئود؛ والتغلب عليها ليس مستحيلًا، إذا ما توفرت الشجاعة وإرادة العطاء والمثابرة.

ب-تعود العبقرية في كل مجالات الحياة إلى نوع من التفوق في الإمكانات الذهنية! ولكن لا يمكن للتفوق في الفهم والخيال والتحليل والتركيب والربط، أن يصنع شيئًا ما لم يُشفع بالقدرة على المثابرة والتركيز.

يذكرون أن «زفر» كان أنبغ تلامذة أبي حنيفة النعمان رحمه الله وأبرعهم في القياس، وأن قدرات زميله «أبي يوسف» كانت أقل، وعند النظر في المكانة الفقهية لكل منهما نجد أن الفارق بينهما شاسع، ويذكرون أيضًا أن أبا حنيفة قال لأبي يوسف: «أنبتْكَ ثَباتكُ».

وقد حار كثير من العلماء في تفسير ظاهرة «العبقرية» لدى بعض الناس، وذهبوا في تفسيرها كل مذهب، وكان من رأي بعضهم مثل «أريكسون» أن مفتاح فهم ظاهرة العبقرية يكمن بتميز العباقرة، ليس عن

طريق اختبار الذكاء العالي، ولكن بميزة المثابرة الدءوبة على تنمية المعرفة، خاصة التركيز على حقل واحد، وبأخلاقية عمل خاصة من الطموح والمتابعة والاهتمام والانضباط الذاتي، والبدء المبكر منذ الطفولة، ولفترة عمل مكثف تراكمي، لا تقل عن عشر سنوات في حقل بعينه»[1].

أنواع التربية المطلوبة لتربية جيل على نمط جيل الصحابة «الجيل القرآني الفريد»:

١- التربية العقائدية:

لا بد من إنشاء القاعدة الصلبة وتربيتها على أعلى ما يتاح لنا من مستويات التربية، وتنقيتها من الشوائب بأقصى ما يُتاح لنا من وسائل التنقية.

✍ «ووسيلتنا في التربية هي ذات الوسيلة التي استخدمها المربي الأعظم ﷺ: تعميق الإيمان بالله واليوم الآخر، وتعميق الصلة بالله، وتعويد النفوس على الحياة في معية الله، والتدريب على ممارسة السلوك الإيماني في عالم الواقع.. ثم تعميق الوعي بالوسائل التي تؤدي إلى تعميقه، على أن نأخذ في اعتبارنا أن القدوة هي الوسيلة الأولى – والكبرى- في عملية التربية، ثم تأتي بعدها الموعظة والنصائح والدروس مع الرعاية والمتابعة والدأب والصبر، حتى تستجيب النفوس ثم تستقيم.

جهد ضخم في الحقيقة، وهو على ضخامته لا يؤتي ثماره في يوم وليلة ولا يمكن استعجاله، ولا يمكن تخطيه، إذا كنا جادين في القيام بعمل

---

(١) «نحو التربية والتعليم» (ص٧٩) نقلًا عن «صناعة العبقرية» مقال للدكتور خالص جلبي- جريدة الرياض في ٦/ ٣/ ١٤١٨.

ينقذ الأمة مما هي فيه، ويسعى إلى تحويل الجاهلية عما هي فيه»[١].

✍ «والدرس الأول في بناء القاعدة الصلبة من كوادر الإسلام هو درس لا إله إلَّا الله، علمًا بها، وتربية على مقتضياتها.

لا بد من التربية البطيئة الشاملة ولو استغرق ذلك عدة أجيال.. فإن دولة الخلافة التي احتاجت إلى قرون طويلة لإسقاطها تحتاج إلى قرون لإقامتها.

✍ إن مصدر الهداية الوحيد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بفهم سلفنا، والهدى هدى الله.

✍ وعقيدة السلف قواعد وضوابط تعصم من الخطأ في مجال الاعتقاد، وهناك لون آخر من العقيدة يبعث العباد إلى العمل بما جاءهم من عند الله مخلصين دينهم لله، وهذا اللون هو الذي يجعل المسلم قوة حية متحركة عاملة، وهذا اللون من العقيدة حتى يعطي ثماره لا بد من دراسته من خلال النصوص».

✍ «إن بعض الدعوات والانحرافات التي نشأت في بلاد المسلمين تنادي بتوجه المسلمين إلى عباده غير الله، واتباع منهج غير منهج الله، فعادت في ديار المسلمين كثير من مظاهر الشرك..

وقد تبنت كثير من الفرق مناهج مضادة للمنهج الإسلامي، ومن ذلك تبني المنهج الفلسفي الكلامي في إرساء العقيدة والإيمان، وهذا المنهج مزاحم للمنهج الإيماني القرآني القائم على الوحي، وعمدة المنهج الفلسفي الكلامي نظريات عقلية، وأصول فلسفية، ومصطلحات

---

(١) «كيف ندعو الناس» لمحمد قطب (ص١٣٨ - ١٣٩)- دار الشروق.

منطقية، وهذا المنهج يختلف عن المنهج الإيماني القرآني في طريقة الاستدلال، وفي المقصد والهدف»[(١)].

✍ ومن المناهج المخالفة للمنهج الإسلامي الصحيح المنهج الصوفي الذي يغرق في الفلسفة من الحلول ووحدة الوجود والتواكل.

✍ وهناك لوثة الفكر الإرجائي التي تخرج العمل عن مسمى الإيمان، فضلًا عن الفكر العلماني، والدعوات التي تناقض الإسلام من الشيوعية والبعثية، والدعوات التي تنادي بالاعتزاز بالحضارات الكافرة البائدة كالفرعونية والآشورية والبابلية، والدعوات التي تقوم على المبادئ الضالة على أساس القومية والوطنية، وهي دعوات تضاد الإسلام وتحاده.

✍ فلا بد من تربية سليمة على أساس من العقيدة السليمة عقيدة السلف، وتجلية قضايا التوحيد كلها: قضية لا إله إلَّا الله، والحاكمية، والقضاء والقدر، ومسائل الكفر والإيمان.

✍ لا بد من تربية إيمانية عقائدية تُعمِّق معرفة الفرد بالله ﷻ وأسمائه وصفاته وأفعاله وربوبيتّه وإلهيّته، والتفكر في مخلوقاته ﷻ.

✍ لا بد من تربية الفرد على تدبر القرآن وأحاديث النبي ﷺ ومعرفته، والحياة في أجواء إيمانية بعيدة عن أجواء المعاصي والشهوات.

✍ لا بد من تربية المسلم على الأدب مع الله ﷻ ومع رسوله ﷺ،

---

(١) «كيف تستعيد الأمة الإسلامية مكانتها من جديد» للشيخ عمر سليمان الأسقر (ص٣٩- ٤٤)- دار النفائس.

والأخذ بظاهر الكتاب والسُّنَّة ورفض التأويل، ومحبة أصحاب النبي ﷺ.

✍ لا بد من التربية على تعميق الصلة بالله ﷻ بعبودية القلب وعلو الهمة في العبادات ومراعاتها دائمًا.

٢- التربية الخُلُقِيّة:

والمقصود بها التربية على الأخلاق الفاضلة: كالصدق، والأمانة، والإيثار، والاستقامة.

جملة من الأخلاق التي ينبغي أن يتربى عليها الشباب المسلم:

□ قال العلامة جمال الدين القاسمي رحمه الله ما ملخصه: «كل من أعار الوجود نظره البصير علم أن حاجة المرء إلى تأديب نفسه لا تفوقها حاجة؛ لأن الإنسان إلى الشر أميل منه إلى الخير، وإلى الشهوات النفسية أميل منه إلى الكمالات الروحية، فكان من المحتم العناية بتهذيب خلقه، وتحليه بالمحاسن والفضائل، وتطهير نفسه من المساوئ والرذائل، فيصبح محمود الأقوال والأفعال، مثالًا للفضيلة والكمال، وهذه شذرة مما يلزمك أن تتخلق به من آداب نفسك: عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، لا تستخفنَّ بفضائل شريف، لا تميلن إلى سخيف، لا تقولن هُجْرًا لئلا يسقط قدرك، لا تفعلن نُكْرًا لئلا يقبح ذكرك، إياك وفضول الكلام؛ فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن، فكلام الإنسان بيان فضله، وترجمان علقه، فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل، وإياك وما يستقبح من الكلام؛ فإنه ينفر عنك الكرام، ويوثب عليك اللئام، إياك واللجاج؛ فإنه يوغر القلوب، وينتج الحروب، فاقتصر من الكلام على ما يثبت حجتك ويبلغك حاجتك، ومن قال بلا احترام

أجيب بلا احتشام، لا تعود نفسك إلَّا ما تحظى بأجره وتحمد على ذكره، وإياك ومحاجة من يملكك قهره وينفذ فيك أمره، يستدل على رزانة الرجل بقلة نطقه ومقاله، وعلى فضله بفضل عمله واحتماله، فأكرم إخوانك، وأكثر خلانك، واكفهم لسانك، فطعن اللسان أنفذ من طعن السنان، تعام عما تسوءك رؤيته، وتغاب عما تضرك معرفته، ولا تشر على من لا يقبل منك، ولا تُجب عما لا تسأل عنه، وإذا عاتبت فاستبق، وإذا صنعت معروفًا فاستره، وإذا صُنع إليك فانشره، وإذا أذنبت فاعتذر، وإذا أذنب إليك فاغتفر، فالمعذرة بيان العقل، والمغفرة بيان الفضل، لا تزهد في رجل عرف فضله، وجرب عقله، ولا تعن قويًّا على ضعيف، ولا تؤثر دنيا على شرف، ولا تشر بما يعقب الوزر والإثم، ولا تفعل ما يقبح الذكر والاسم.

□ الق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير مذلة ولا هيبة منهما، وتوقر من غير كبر، وتواضع من غير مذلة، ليكن ضالة عقلك التي ينشدها ونجعته التي يرتادها الحق، فاحكم به ولو على نفسك، ولا تكن ممن تأخذه العزة بالإثم، عليك بالنشاط والعمل، وترك البطالة والكسل، ولا تكن كلًّا على غيرك، فإن الرجل كل الرجل الذي يأكل من كسبه، ويشرب من ورده.

□ أقدم على جلائل الأعمال مع الصبر والثبات، واحمل نفسك على معالي الأمور والتثبت بأحسن الأعمال والأمور العظام، والتهاون لنيلها بالآلام؛ فإن الكسل من النقائص التي توجب الخسائس والشرور.

وقد قيل: إذا رقدت النفس في فراش الكسل استغرقت في بحر الحرمان.

ليكن مجلسك هادئًا، وحديثك موزونًا مرتبًا، وإذا جلست فلا تستوفز، وتحفظ من تشبيك أصابعك وفرقعتها، والعبث بشاربك ولحيتك وخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك وتنحنحك، والتمطي والتثاؤب في وجه الناس وفي الصلاة وغيرها.

□ أصغ إلى الكلام الحق ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط، ولا تسأله إعادته، واسكت عن المضاحك والحكايات، لا تحدث عن إعجابك بولدك وشعرك وكلامك وتضيفك وسائر ما يخصك، إذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك، وتفكر في جهتك.

□ لتكن سهل اللقاء والبشاشة ولو في حال المرض، وبادر بالتحية والبشر من تلقاه واكتم بؤسك، واجعل شكواك لمن يقدر على غناك، ولا تحضر منازعة؛ فإنك لا تخلو من قسط من أذاها، ولو بالمطالبة بأداء الشهادة.

□ إياك والانبساط؛ فإنه عورة من عوراتك، فلا تبذله إلَّا لمأمون عليه حقيق به، لا تتصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تتبذل تبذل العبد، ولا تلح في الحاجات، ولا تشجع أحدًا على ظلم، لا تُعْلِم أحدًا من أهلك وولدك فضلًا عن غيرهم مقدار مالك؛ فإنهم إن رأوه قليلًا هنت عليهم، وإنْ رأوه كثيرًا لم تبلغ رضاهم قط، واجفهم من غير عنف، ولِنْ لهم من غير ضعف، ليكن لك فضل عزلة؛ فإن كثرة الخلطة مجلبة الابتذال.

□ ومما يروى عن علي رضي الله عنه: «إياك وفعل القبيح؛ فإنه يقبح ذكرك ويكثر وزرك»، إياك أن تَسْتَسْهِل ركوب المعاصي؛ فإنها تكسوك في الدنيا ذلة وتكسبك في الآخرة سخط الله، عليك بالحكمة فإنها الحلية، عليك

بالحياء فإنه عنوان النبل، عليك بالسخاء فإنه ثمرة العقل، عليك بالأناة فإن المتأني حري بالإصابة، عليك بحسن الخلق فإنه يكسبك الكرامة ويكفيك الملامة، عليك بلزوم الحلال، وحسن البر بالعيال، عليك بالصدقة تنج من دناءة الشح، عود نفسك الجميل فإنه يُجمِّل عنك الأحدوثة، ويجزل لك المثوبة، عود نفسك حسن الكلام تأمن الملام.

كن بالوحدة آنس منك بقرناء السوء، كن للمظلوم عونًا، وللظالم خصمًا، كن للود حافظًا وإن لم تجد محافظًا، كن مؤاخذًا نفسك مغالبًا سوء طبعك، وإياك أن تحمل ذنوبك على ربك.

كن بأسرارك بخيلًا، ولا تذع سرًّا أودعته فإن الإذاعة خيانة، كن حسن المقال جميل الأفعال، فإن مقال الرجل برهان فضله، وفعاله عنوان عقله، كن صموتًا من غير عي، فإن الصمت زينة العالم وستر الجاهل.

كن بعدوك العاقل أوثق منك بصديقك الجاهل.

كن متصفًا بالفضائل مبرأ من الرذائل.

لا تأس على ما فات، لا تقولن ما يسوءُك جوابه، لا تركنن في مودة من لم تكشفه، لا تزهدن من شيء حتى تعرفه، لا تضمن ما لم تقدر على الوفاء به، لا تخبر بما لم تحط علمًا به، لا تأمن البلاء في أمنك ورخائك، لا تعدن شرًّا ما أدركت به خيرًا، لا تعدن خيرًا ما أدركت به شرًّا، لا تتكلم بما لا تعلم فكفى بذلك جهلًا، لا تمسك عن إظهار الحق إذا وجدت له أهلًا، لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال.

□ لا تُعوِّد نفسك اليمين فإن الحلاف لا يسلم من الإثم، لا تعود نفسك الغيبة فإن معتادها عظيم الجرم، لا تيأس من الزمان إذا منع، ولا

تثق به إذا أعطى، كن على أعظم الحذر، لا يؤنسك إلَّا الحق، ولا يوحشنك إلَّا الباطل، لا تخل نفسك من فكرة تزيدك حكمة، وعبرة تفيدك عصمة، لا تسئ الخطاب فيسوءك الجواب، ولا تحارب من لا يعتصم بالدين، فإن مغالب الدين محروب [(١)]، لا تغالب من لم يستظهر بالحق فإن مغالب الحق مغلوب.

□ لا تجهل نفسك فإن الجاهل بنفسه جاهل بكل شيءٍ» [(٢)].

التربية على الآداب النبوية:

ولما كان أعلى مقامات الكمال الإنساني في التحلي بمكارم الأخلاق هي لرسول الله ﷺ الذي مدحه ربه قائلًا له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم].. كانت التربية على هذه الآداب النبوية والسنن المصطفوية هي معارج لعُلاة الهمم ممن يطلبون التحلِّي بحُسن الخلق والتربية عليها، فهناك آداب بر الوالدين، وآداب صلة الرحم، وهناك آداب للضيافة، وآداب للجوار، وآداب لطلب العلم، وهناك آداب للنظر، وأخرى للسان، وآداب للذكر، وأخرى للخُلْطة، وآداب للطعام، وآداب للنوم، وآداب للسلام، وآداب السواك، وأخرى للعطاس، وآداب الاستئذان، وآداب للسفر، وآداب للكَسْب والمعاش، وآداب للمجالس.

وهذه الآداب أفردها العلماء بالذكر والتأليف، وشُحنت بها كُتب السُّنَّة، فلزام على المُربِّي أن يعيها جيِّدًا فهي أسمى مقامات السمو، وليس

---

(١) أي مهزوم في الحرب.

(٢) «جوامع الآداب في أخلاق الأحباب» لجمال الدين القاسمي الدمشقي (٦- ١٥) باختصار - طبع مؤسسة قرطبة.

فوقها أو بعدها غاية، وليحرص المُرَبِّي والمؤدب أن يتحلَّى وبها ويُحَلِّي بها تلاميذه ممن يُرَبيهم.

□ وجدير بعالي الهمة أن يقلع الأشواك من أرض نفسه وأرض غيره التي يريد أن يزرع فيها هذه الآداب، وأن يُجنِّب نفسه مساوئ الأخلاق وسفسافها، أو كما قالوا: «التَّخْلِية قبل التحلية».. تخلية النفس من مساوئ الأخلاق وأراذلها، وتحليتُها بمكارمها.

مفاهيم يُرنو إليها عُلاة الهمم في التربية:

□ وهناك مفاهيم يرنو إليها عُلاة الهمم في التربية منها:

تعظيم حُرمات المسلمين، ومحبة العلماء العاملين والأئمة الربانيين، وتَحَمُّل المسؤولية، وحب الجهاد، والرغبة في الاستشهاد، والتورع عن الفتوى، ومعرفة قيمة الأوقات وتعميرها بالطاعات، وفقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بواجبه حسب القدرة والطاقة، ومعرفة مراحل الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والعبودية المطلوبة في كل مرحلة، والثقة بنصر الله عَزَّ وَجَلَّ واليقين بوعده، والرجولة وترك التنعُّم، ومعرفة الحضارة الإسلامية، والمخططات اليهودية والماسونية والصليبية[١].

٣- التربية الروحية:

التربية الروحية: ضرورة لا غنى عنها في البناء.. بل لا يُتصور أن يقوم بدونها عمل دعوي على الإطلاق، إذا عنينا بالتربية الروحية تعميق الصلة بالله، وترقيق القلب لعبادته سبحانه، وتذكير الإنسان باليوم الآخر، وربط

(١) وهذه رؤوس عناوين أوردها الدكتور أحمد فريد في كتابه القيم «التربية على منهج أهل السنة والجماعة» وأفردنا لها الفصول في هذه الموسوعة .

مشاعره بالموقف الذي يلقى الله فيه.. وقد كان هذا جزءًا بارزًا وأساسيًّا من عمل الرسول ﷺ في تربية أصحابه رضي الله عنهم في مكة خاصة، حين فُرِض عليهم قيام الليل لتعميق هذه الصلة وتثبيتها وترسيخها.

✍ إن الإنسان في حلبة الصراع يُجهَد ويتعب، ويحتاج إلى سند يقويه، يمنعه من السقوط، ويمنع عنه الوهن الذي قد يعتريه، وهنا تبرز تلك الطاقة الروحية تقيه من الوهن، وتقوّيه على الصمود، بما تمده من طاقة، وتشع في كيانه من نور.

✍ والإنسان في حلبة الصراع قد يستوحش، حين يتكاثر عليه الأعداء، ويجد نفسه وحده، أو يجد مَن حوله مستضعفين مثله لا يملكون نصره، وهنا تبرز تلك الطاقة الروحية تُؤنسه بذكر الله فلا يستوحش، وتذكّره بالثمرة الجنيّة في اليوم الآخر فيجدّ في السعي.

✍ والإنسان في حلبة الصراع قد يفتقد المتاع الحسي، والأهل والأصحاب، والفراش الوثير، والطعام الوفير، فتحنّ نفسه لذلك كله، أو لشيء منه، فيثّاقل إلى الأرض، وهنا تبرز الطاقة الروحية توازن في حسّه ثقلة الأرض، وتعوّضه عن حرمانه بمتاع أعلى: معية الله، ورضوان الله، والجنة.

إنها الزاد التي يحتاج إليه المسافر ليقطع الرحلة في أمان، إن هذه التربية الروحية هي زاد الطريق ومدد الروح وجلاء القلب، إنها تفتح القلب، وتوثق الصلة بالله، تشرق بالنور، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة.

✍ لا بد من الربانية لبعث الأمة الإسلامية.

✍ «إن سر الأسرار في نواقض العمل الإسلامي في القرن الرابع

عشر يكمن في الانطلاق إلى الدعوة وطيّ فكرة الإنضاج في الربانية»(١).

✍ ولا ربانية بلا عبادة، بل الربانية علَم على العبادة، ومبنى العبادة على الذكر، والذكر الكثير هو الطريق للوراثة النبوية ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، ولا ربانية بلا علم ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران]. ولا ربانية إلَّا ببيئة تربي على العلم وعلى الذكر، ويتحرك فيها الرباني نحو الخارج، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعلم والتعليم، والنصيحة والخدمة»(٢).

إن معاني الإيمان تحتاج إلى تجديد.. والأمة محتاجة إلى إحياء مراتب الصديقية والشهادة والصلاح.. وهي من الأهمية في المكان الكبير، والتفتيش على الدقائق الإيمانية والقلبية من الإخلاص والزهد والمحبة والتسليم والرضا من الخير والأهمية في ذروة سامية.

وبقدر ما يوجد في الأمة الإسلامية صدّيقون وشهداء وصالحون تكون القدوة موجودة في حاضر الأمة.

✍ ولطالما علت أصوات المخلصين الذين يريدون الخير لأمتهم: عندنا نقص وجفاف روحي.. عندنا نقص تربوي.. وسيبقى هذا الكلام مستمرًّا حتى توجد كوادر عريضة قد تحققت بمعاني الربانية.

✍ التزكية هي ربع الرسالة المحمدية، ومطلب عظيم أقسم الله عليه أحد عشر قسمًا متتالية ما أتت إلَّا في موضع واحد من كتابه الكريم في

---

(١) «إحياء الربانية» لسعيد حوّى (ص١٩) – دار السلام.

(٢) المصدر السابق (ص٢١).

سورة الشمس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾.

إن الذي نال قسطًا من التزكية من مدرسة التهجد والصيام والذكر والإخلاص هو الذي يؤثر في الأجيال التي من بعده إلى ما شاء الله.. والمتخلف عنها يابس قاس، تقسو قلوب الناظرين إليه.

□ قال بشر بن الحارث الحافي: «بحسبك أن قومًا موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن قومًا أحياء تموت القلوب برؤيتهم».

✍ إن إحياء الإخلاص والإحسان وفقه الباطن من أكبر واجبات ومهمات هذا العصر وفريضة الداعي.

✍ ولكن ليست هي نهاية الشوط، فالأمر ليس مجرد سبحات روحية وإشراقات، مهما يكن عمق هذه السبحات، ووضاءة تلك الإشراقات.. إنه جهد وجهاد، وصراع حاد مع الباطل، يهدم الباطل ويشيد الحق.

ولا تغيّر التربية الروحية وحدها من واقع الأمة الهابط إلى الحضيض.

حقًّا إنها تنقذ أفرادًا من الضياع القاتل، وتبني لهم سياجًا يحميهم من المهلكات، ولكنها لا تنقذ الأمة من الضياع؛ لأنها لا تدفع بجنود إلى حلبة الصراع، ولا تشارك في التدافع الذي قال الله إنه هو الأداة الربانية لحفظ الأرض من الفساد ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٥١﴾ [البقرة].

٤- الشحن العاطفي: أو التربية العاطفية:

مطلوب أن يتحمّس الناس لما يؤمنون به ولا يكونوا كالخُشب المسنّدة، لا تتحرك ولا تحدث حركة، فالدعوة لا تنتشر بأمثال هؤلاء، ولو

كانوا هم أنفسهم مستجيبين وملتزمين، ولكنها بمفردها لا تؤدي إلى شيء.

ولكن الحماسة كثيرًا ما تكون على حساب الوعي، وعلى حساب العلم الصحيح، وعلى حساب الخبرة فتفقد كثيرًا من مزاياها وتنشأ عنها أضرار كثيرة.

أما حين تكون الحماسة مع العلم والخبرة، والوعي فلله ما أحلاها حين يغرّد الإنسان ويحدو بهذا القول الجميل:

لإسلامي أعيش أنا ... لتوحيدي وذا ديني
لقرآني أعيش أنا ... لإيماني وذا ديني
نقشتُ حروفَه تعلو ... على كل العناوينِ
بِخطٍّ بارزٍ يسمو ... على كل الميادينِ
لإسلامي ولوْ حتَّى ... إلى الجدرانِ شَدُّوني
لإسلامي ولو حتى ... إلى النيرانَ زَفُّونِي
لإسلامي لإسلامي ... ولو في السوقِ باعوني
وإسلامي له عرقي ... له نبضي وتكويني
ثاراتٌ لإسلامي ... تُعايِشُني تغذيني
تَبُثُّ النُّورَ في روحي ... وتنبضُ في شراييني
أنا ما رملةٌ إلَّا ... وتعرفُني وتدعوني
أنا بالدَّمِّ قد رَوَّيتُ ... زيتوني وليموني

أنا من أعين الشهداء | أستوحي براكيني
من القرآن ينشدني | فيطربني ويشجيني
أمامًا يا دروب الخُلْدِ | شُدِّيه وشدِّيني
أمامًا يا مخاضَ النار | يا درب القرابين
صلاحُ الدين في أعماقِ | أعماقي ينادينى
وراياتي التي طُوِيت | على ربوات حِطِّين
وأطفالي هناك هناك | في عمر الرياحين
وآلافٌ مِن الأسْرَى | وآلافُ المساجينِ
تُنادي الأمةَ الكُبرَى | وتهتِفُ بالملايينِ
وصوتُ مؤذِّنِ الأقصى | يهيب بنا أغيثوني
أنا ماذا أكونُ أنا | بلا ربي بلا ديني
أنا ماذا أكون أنا | أجيبوني أجيبوني

٥- التربية على التوعية والبصيرة:

البصيرة من ألزم اللوازم للقاعدة الصلبة وهي ضرورة لا غنى عنها، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف].

فالغبش الذي أحاط بالإسلام وحقائقه في نفوس الناس غبش كثيف شامل، يحتاج إلى توعية شاملة بحقائق الإسلام ومفاهيمه بدءًا بلا إله إلَّا الله ونواقضها، ومفهوم العبادة، والقضاء والقدر، والدنيا والآخرة،

ومفهوم عمارة الأرض، ومفهوم الجهاد.

والبصيرة مطلوبة لمعرفة واقع الأمة والأسباب التي أدَّت إليه، فبغيرها لا تستطيع وضع المنهج المناسب للدعوة، وخطورة الانحراف لا يقدرها حق قدرها كثيرون.

✍ والتوعية مطلوبة لمعرفة مكائد العدو ومخططاتهم للقضاء على الإسلام، ووسائلهم في ذلك، والجهل بمخططات الأعداء ربما تستدرج بسببه جماعات في مواقف لا تخدم الدعوة مطلقًا، هؤلاء يكيدون ويمكرون بالإسلام مكر الليل والنهار يتابعون كل ما يدور في العالم الإسلامي من أفكار وحركات، ويخططون على علم.

✍ وهذه البصيرة تكتسب بالتعلم والتعرف على السنن الربانية تارة، وتدبر التاريخ تارة، وبالخبرة تارة، وبالتربية تارة، وبالمشاورة التي يتم فيها تمحيص الآراء وبيان جهات النظر تارة.

✍ ولكن التوعية الفكرية وحدها لا تؤدي إلى شيء حقيقي ما لم تكن زادًا لعقيدة صحيحة وحركة واعية، تزيدها المعرفة وعيًا وتبصرّها بمزالق الطريق، أما حين تتحول إلى ثقافة – مجرد ثقافة – فهي ترف عقلي لا يغيِّر واقع النفوس.

٦- التربية الجهادية:

النفوس الرخوة التي لا تقدر على تكاليف الجهاد لا تصلح لحمل الدعوة، ولا للتحرك في وسط الأشواك، وفي مواجهة الوحوش الضارية التي تفتح أفواهها وتمدّ مخالبها لتنهش من تطوله من جنود الدعوة، وتفتك به بعد أن تذيقه العذاب الأليم.

فالتربية على معاني البذل والعطاء وحب الجهاد وحب الاستشهاد والمعاني الغالية غابت عن واقعنا المرير، ومثل هذه الأمة مثل المطر، والرحيم رحيم على الدوام، والكريم كريم على الدوام، ومن جاد على هذه الأمة بفرسانها وأبطالها المغاوير كعلي بن أبي طالب، والبراء بن مالك وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعباد بن بشر، وسلمة بن الأكوع، والمثنى بن حارثة، والقعقاع بن عمرو التميمي، وطليحة الأسدي، ونور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وقطز، وبيبرس.. من جاد بهؤلاء يجود بمن يسير على دربهم ويحذو حذوهم.. ولا بد من بث هذه المفاهيم الجميلة وأن يرضع أطفالنا هذه المعاني الطيبة مع اللبن.. وأن نقصَّ عليهم في كل حين أخبار هؤلاء الأبطال حتى ينشأ الصغار من صبياننا من المهد على حب الجهاد والشهادة في سبيل الله تعالى حتى يأذن الله بعودة فجر الإسلام الجميل ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود]!!.

ولكن التربية الجهادية – وحدها- لا تكفي لإقامة دعوة، بل لا تكفي حتى لحماية الدعوة من الأعداء، بل كثيرًا ما تكون سببًا في ضراوة الضرب من قبل الأعداء حين تنقصها الخبرة السياسية والخبرة الحركية، أو العلم، أو حين تبتعد عن العلماء العاملين وتسفّه آراءهم، وتتهمهم بأنهم لا يحيطون علمًا بالواقع أو ينقصهم الإحاطة «بفقه الواقع»، هذه العبارات الرنانة المطاطة التي أقصت الشباب عن العلماء ودورهم الريادي حتى وقعت المصائب والطّوامّ الجسام التي منيت بها الدعوات في واقعنا.

كيف ينصر الله عَزَّ وَجَلَّ شبابًا أكلوا لحوم علماء السُّنّة، وخاضوا في أعراضهم.. وسخروا منهم بأن فقههم فقه دورات المياه حتى أصيبت الدعوات في مقتل.

واشتطت فصائل فدخلت في معارك دموية مع الناس والسلطات، وكان لهذا أسوأ الأثر على العمل الإسلامي كله، ففضلًا عن النفور العام عند الناس من هذه الأعمال التي لا سند لها من شرع الله، وما أقرّها عالم جهبذ رباني، فقد وجدت وسائل الأعلام المتربصة بالإسلام فرصة مواتية لتلوين الساحة كلها بلون الدم المراق، ووصمت كل عمل إسلامي أيًّا كان نوعه بأنه عمل إرهابي ينبغي أن يحارب وتجفف منابعه! وما كانت وسائل الإعلام العالمية في حاجة إلى مَن ينبهها أو يحفزها إلى انتهاز الفرصة، فاستغلت هذا بأقصى حدود الاستغلال.

وهذا كله نتيجة حتمية لنقص العلم الشرعي الذي يُشكل الضوابط الضرورية للفكر وللسلوك، وأيضًا نتيجة حتمية للبعد عن العلماء.

وما أصيبت الدعوات في مقتل إلَّا بسبب مثل هذه العجلة، وسبب آخر يوازيه هو تغليب العمل السياسي والاشتغال بالقضايا الوطنية والاجتماعية قبل التربية على العقيدة الصحيحة.. فاستهلكت طاقات الشباب في قضايا لا طائل منها.. قبل أن يتربوا التربية الإيمانية الكافية ليكونوا أصلب عودًا، وأكثر دراية، وأطول نفسًا وأقل تعجلًا حتى لا ينساقوا وراء عواطفهم فقط، ويظنوا أن أهدافهم سهلة المنال قريبة التحصيل.

٧- تربية القادة وصناعة الطموحات الكبيرة:

□ يقول الدكتور عبد الكريم بكّار: «المُثل التي يمكن أن يتطلع إليها المرء كثيرة، والمستويات التي يطمح في الوصول إليها، لا حدود لها، ولكن قلة قليلة من الناس أولئك الذين يعرفون الإمكانات المتوفرة لديهم، أو

تلك التي يمكن تطويرها لبلوغ أهداف كبرى ومنازل متقدمة.

إن مما لا شك فيه أن لدى السواد الأعظم من الناس ما يمكِّنهم من الوصول إلى الآفاق العليا في كل ما تسمو إليه النفوس النبيلة في ميادين الحياة كافة، لكن النماذج الرديئة، والأسر المتهدمة، والتعليم السيِّء، كل أولئك يقتل التطلعات، ويخفّض درجة الأحلام والآمال؛ مما يجعل هموم الناشئ صغيرة، وآفاق ما يصبو إليه محدودة، وهذا من جهته يقلل من اهتمامه بتأهيل نفسه، ويجعل ركوب المشاق من أجل التكوين الشخصي شيئًا لا معنى له!.

كثير من الأهل، وكثير من المربين ينشغلون بمراقبة الناشئ ومتابعته وضبطه، وتلقينه بعض الآداب والمعلومات عن طريق دلالته على الآفاق التي تنتظره، وعن الوضعية التي يمكن أن يكون عليها، وبعضهم يظن أن فائدة الحديث عن الآمال والطموحات محدودة؛ لذلك فإنهم يهملون ذلك، مع أن الذي يقرأ في سير العظماء يقف على حقيقة سافرة هي تأثرهم الشديد بكلمة قالها أستاذ أو والد أو صديق، ويجد أن الذين غيرت كلمة صادقة مخلصة مجرى حياتهم ليسوا أعدادًا قليلة!

إن كثيرًا من الناشئة لهم طموحات، تتصل بالجاه والنفوذ، وجمع الثروة من أي طريق، وبعضهم لهم طموحات مشروعة، ولكن لا تتناسب مع إمكاناتهم ومواهبهم، ومهمة المربين في الحالتين أن يُرشِّدوا تلك الطموحات، ويجعلوها أكثر عقلانية وواقعية.

إن ما يدل على نبل الإنسان ليس ما يفعله، ولكن ما يتمنى بصدق أن يفعله، حيث إن كل أعمالنا، تظل مقيدة بقيود البيئة، وحدود الممكن، أما

الأحلام والطموحات فهي حرة أبدًا طليقة، وقد ورد في نصوص عديدة ما يزكي المقاصد الحسنة، ويحث عليها، كما في قوله ﷺ: **«فمن همَّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة»**(١).

إن تذكير الناشئة بما يمكن أن يبلغوه، يولد لديهم حاسَّة جديدة، يتلمسون من خلالها إمكاناتهم، ويوسعون آفاق نظرهم إلى المستقبل، وهذه مهمة الكبار، وينبغي أن نحذر مع ذلك من الأشواك الضارة التي قد نزرعها مع الأحلام الجميلة: أشواك الأنانية والفردية الزائدة والرعونة،ونفسية الوصول عن أي طريق وبأي وسيلة»(٢).

إن عُلاة الهمم من المُرَبِّين عليهم دور كبير لعودة مجدنا وهو التربية القيادية فعليهم أن ينظروا بعين الصقر على النشء النجيب الذي مَنّ الله عليه بالتميُّز والنبوغ فيربون هذا النشء كي يكونوا قادة، ولعَلَّ لنا في أسلافنا القدوة، فقد تربَّى علي رضي الله عنه في بيت النبوة، وأخذ الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ ولده عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ليشهد معركة اليرموك وهو غلام؛ حتى يعيش في هذا الميدان منذ نعومة أظافره، فصار بعد ذلك بطلًا مغوارًا وفارسًا عظيمًا لا يُشَقُّ له غبار.

□ ومحمد الفاتح.. البطل العظيم الذي فُتِحت القسطنطينية على يده الكريمة كان شيخه ومُربِّيه يذهب به إلى الشاطئ وهو صغير ويريه أسوار القسطنطينية، ويقص عليه من كرامة فاتحها وما ادخَّر الله له من الإكرام والإنعام، فرغَّبه وشوّقه، وحبَّب إليه منذ صغره أن يجري الله فتحها على

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) «حول التربية والتعليم» (ص٩٨- ٩٩).

يديه، وصار هذا همّه صباحًا ومساء، وكان له ما أراد، فتربية القادة في كل فروع الإسلام وميادينه واكتشاف هذه الطاقات أصل أصيل في عودة مجد الأمة.

٨- وتربية على الإتقان والعناية وبث روح الجَمَال في النشء منذ الصِّغَر:

□ يقول الدكتور عبد الكريم بكّار: «العصر الذي نعيش فيه هو عصر الأشياء الدقيقة والأشياء المتقنة والفائقة، وهذه السمات كلُّها سمات زائدة على الوجود، إنها نوع من التجاوز للضرورات باتجاه الأناقة والكمال، ويمكن القول: إن ما نلاحظه من جودة وإتقان وتنظيم في البيئة المحيطة والأشياء المنتَجة، هو - بمعنى ما - صدًى لكينونة إنسانية منظمَّة. وتعبِّر المنتجات الرديئة- في أكثر الأمر- عن أمم، طابعها العام الكسل والفوضى والجهل والاضطراب، وهذا من الأشياء المشاهدة اليوم.

إن تجويد الأعمال - أيًّا كانت- وإتمامها على نحو متميز، يتطلب على ما يبدو نوعًا من الاستقامة الفكرية والنفسية، كما يتطلب تقاليد اجتماعية راسخة، ومستوى حضاريًّا عاليًا، حيث يتم طرد الجيد للرديء، ويتمدد كيف الأشياء على حساب كمها.

إن المواد الخام آخذة في النضوب، وليس أمام العالم من مخرج لمواجهة هذه المسألة سوى تمكن الناس من الاستفادة القصوى مما تبقى من موارد، وذلك لن يكون إلَّا من خلال الحرص المطلق على «النوعية» في كل شيء؛ لأنها وحدها هي التي توقف هدر الموارد، وتمكن من إنتاج أجهزة صغيرة الحجم عالية الكفاءة، وآلات اقتصادية ومعمرة، وما نراه اليوم من تنام

سريع للمعلوماتية والهندسة الوراثية في مجال النبات والحيوان، ما هو في الحقيقة سوى صدى للإحساس بضرورة تحسين نوعية الأشياء والارتقاء بها.

إن لدينا نصوصًا عديدة، تدلنا على ضرورة التحلي بخلق الإتقان والإكمال، والسعي إلى معالي الأمور في كل ما يتصل بنا، وكل ما ننتجه من أفكار ونظم وأشياء.. حين سئل النبي ﷺ عن «الإحسان» بعد أن سئل عن الإسلام والإيمان قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١) كأنه يشير إلى أن العبد يعبد الله تعالى على هذه الصفة، من استحضار القرب، وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب الخشية والتعظيم، كما يوجب النصح في العبادة، وبذل النصح في تحسينها وإتمامها وإكمالها (٢).

- وفي حديث آخر: «**إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها**»(٣).
- وفي نص ثالث: «**إن الله تعالى يحب من العامل إذا عمل أن يُحسن**»(٤).

إذا تأملنا كل جوانب الحياة، وجدنا أنه ما من شيء إلَّا ويمكن أن يؤدي الحد الأدنى من وظائفه، ويعطي نوعًا من الانطباع بأنه تام وكامل، لكن الخبرة الجيدة هي التي تمحص دائمًا أشكال القصور والزيف، وترشد

(١) سبق تخريجه.
(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٣٣).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) حسن: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن كليب، وحسّنه الألباني في «الصحيحة» (١١١٣)، و«صحيح الجامع» (١٨٩١).

إلى الوضعية التي تبلغ فيها الأشياء اكتمالها. ويبدو أنه لا سبيل إلى تكوين الخبرات الناضجة سوى التجربة، ولكن لا بد لمن يكسب وعيه عن طريق التجارب أن يدفع الثمن، وهذا ما تفعله الأمم الضعيفة اليوم!.

إن كل ما يتصل بالثقافة والتربية لا ينضج ولا يرتقي – على نحو جوهري- عن طريق النظم والأفكار والعظات، وإنما عن طريق زجِّه في أجواء تحمله حملًا على الارتقاء، أو تطرده وتحجمه عند حروفه وتأبّيه.

□ هذه الأجواء تتشكل عن طريقين اثنين:

أ- ما يقوم به كل أولئك الذين يرتقون بعقلية الناس ومشاعرهم ومهاراتهم، وما يبذلونه من جهد: الأسرة من خلال دلالتها لأطفالها على الأفضل والأجود والأحسن في كل ما يأتونه، والمعلم الذي يراجع أعمال طلابه، ويرشدهم إلى ما ينبغي أن تكون عليه، والدولة التي تشجع الأعمال العظيمة المتقنة التي ترفع سوية المجال الذي تنتمي إليه.

ب- النقد النشط البنّاء لكل أولئك الذين يأخذون من كل أمر شكلياته، ومن كل شيء أدناه، وأولئك الذين أصابتهم حمى الإنجازات السريعة والفجة، ومهمة الحكومات في هذا الجانب حيوية، حيث إن بإمكانها أن تضع مواصفات عالية للجودة في كل شيء، وأن تتابع تطبيق تلك المواصفات دون استرخاء أو محاباة لأحد، ويظل الأصل هو الثقافة التي تتغلغل في أوصال الحياة الاجتماعية، وتكوين ثقافة الجودة يحتاج إلى وقت وجهد، لكن ذلك حين يتم ينتج عنه صلاح شامل وارتقاء عام، يسعد به الجميع، ويمكن للقوانين والنظم أن تؤدي وظيفة مهمة في ذلك»[١] .

(١) «حول التربية والتعليم» (ص٩٩- ١٠١).

إحياء الجمال ولمساته والذوق الرفيع.. كُن جميلاً تر الوجود جميلاً:

□ يقول الدكتور بكّار: «كثيرًا ما يلتقي الإتقان بالجمال؛ حيث إن الإتقان يتجلى دائمًا في السمات والأعمال فائقة الجودة.

والأشياء الجميلة هي أيضًا أشياء متفوقة، تجاوزت المستويات المألوفة، وآفاقها المنتظرة، وتميزت عن نظرائها.

إن الإتقان يكاد يكون شيئًا «وظيفيًّا»؛ فالأشياء المتقنة دائمًا تؤدي وظائفها على نحو متفوق، لكن لا يشترط في كل شيء متقن أن يكون جميلًا، كما أنه ليس كل جميل متقنًا، وهذا معروف لا يحتاج إلى شرح.

بعيدًا عن التفلسف في تحديد طبيعة الجمال ونوعيته ومقاييسه نقول: إن كل ظاهرة جمالية، تشتمل على عناصر ذاتية، تجعل كثيرًا من الناس ينجذب إليها، كما أن لكل إنسان بعض الخصوصيات عند قراءته لتلك الظاهرة وتفاعله معها. ويمكن القول: إنه مهما اختلفنا في المقاييس الجمالية، ومهما تنوعت الذائقة الجمالية لدى الناس، فإن هناك خطوطًا عريضة مشتركة في الإحساس بالجمال بين كل أولئك الذي تتشكل خبراتهم الثقافية على خَلْفيّة واحدة، إن درجة الانبهار بأي شيء جميل تتحدد من خلال ما يتفاجأ به الناظر من انزياح «الشيء الجميل» عن المعايير والمدركات المكتسبة لديه عبر خبرته بالأشياء المماثلة، أي مدى اتساع «المسافة الجمالية» بين المختزن في الخبرة، وبين المستوى الذي يشعه الشيء الجميل.

إن الجمال هو الحيوية التي بإمكانها أن تتغلغل في كل الأشياء، وإن أشد الأشياء قسوة ومرارة يظل قابلًا لإضفاء المسحة الجمالية عليه. في

نصوص عديدة أمر القرآن الكريم بإضفاء الجمال على أشياء هي موضع معاناة لبني الإنسان، حيث قال سبحانه: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج]، والصبر شاق على النفوس، ومع هذا فينبغي أن يكون جميلًا، ومصدر جماله ألا تصحبه شكوى لغير الله، وقال سبحانه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠﴾ [المزمل]. قالوا: الهجر الجميل هو الذي لا جزع معه، ورأى عمر رضي الله عنه رجلًا يسحب شاة من رجلها ليذبحها، فقال له: ويلك قدها إلى الموت قودًا جميلًا»(١).

إن حاجتنا الشخصية والاجتماعية إلى وجود الظواهر الجمالية ليست حاجة هامشية يمكن التغاضي عنها، فحين يلبي الإنسان متطلبات وجوده المادي والمعنوي فإنه يحسّ بأنه ما زال في حياته فراغ لا يملأ إلَّا بالجماليات إن مرتبة الأشياء الجميلة تأتي بعد مرتبة الأشياء الضرورية والحاجية، لكن عندما يحين وقتها فإنه لا يغني عنها أي شيء آخر.

إن الحسَّ الجمالي للطفل يتكوَّن في المنزل منذ الشهور الأولى للطفل حيث يربى من خلال الابتسامة والنظرة والهمسة والقصة، وحيث تشيع في المنزل كلمات تحمل معنى اللطف والجمال، مثل الأحسن والأجمل والألطف والأروع، ومن المهم في هذا السياق أن يقوم الأبوان بتنظيم البيئة من حول الطفل؛ فالبيئة المضطربة وغير النظيفة، لا تساعد على تكوين الإحساس بالجمال، ولا تساعد على تكوين مهارة إضفائه على الأشياء والأفعال.

في المدرسة يرى الطفل النظام والنظافة، ويتلقى ثقافة منهجية

(١) «جامع العلوم والحاكم» (ص١٠٣).

وتوجيهية تكمل وتنمي ما قام به المنزل.. وهكذا يكون للمسجد وظيفته، كما يكون للإعلام مهمته في ترسيخ القيم الجمالية لدى الطفل.

لا ينبغي أن نكتفي بكتابة الطفل لواجبه، واصطحابه لكتابه، بل لا بد أن تكون ثيابه ودفاتره وكتبه تدل على النظافة والتنظيم والأناقة.

إن مما لا يخفى أنه من الصعب إضفاء الجمال على الأشياء والمواقف في مجتمع مضطرب متوتر، كما لا يمكن أن نفعل ذلك في مجتمع يفشو فيه التحلل والفساد؛ حيث إن كل أشكال القبح هي - على مستوًى ما- موصولة بمعنى من معاني «المعصية»، فالجهل والظلم والكسل والفوضى والاستبداد وقطع الأرحام والقذارة، وما شاكلها - عبارة عن بقع سوداء تشوه مرآة حياتنا، وتحول دون انعكاس المظاهر الجمالية عليها، وواجبنا إقصاؤها عن مجتمعاتنا إلى أبعد حد ممكن.

والله الهادي إلى الصواب»(١).

• قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى جميل يحب الجمال»**(٢).

• وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله جميل يُحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتباؤس»**(٣).

• وعن جابر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى جميل يُحِبُّ الجمال،**

---

(١) «حول التربية والتعليم» (ص١٠٢- ١٠٤).

(٢) رواه مسلم، والترمذي عن ابن مسعود، ورواه الطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة، ورواه الحاكم في «المستدرك» عن ابن عمر، ورواه ابن عساكر عن جابر، وابن عمر وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٢٦)، و«صحيح الجامع» (١٧٤١).

(٣) صحيح: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٣٢٠)، و(١٦٢٦)، و«صحيح الجامع» (١٧٤٢).

ويحبُّ معالي الأخلاق، ويكره سفسافها»[1].

□ إن الجميل ﷻ أبدع في وصف الجنة ونعيمها وصفة أهلها وجمالهم، وربِّي بهذا أهل الإيمان على إيقاظ الذوق بالجمال في أرواحهم ومشاعرهم وأحاسيسهم نحو الجمال: جمال الزهر أو تفتح برعم، أو نداء كروان، أو هديل حمام، أو خرير مياه، أو نور نجم، وضياء كوكب، وابتسامة وليد يأخذها يراع شاعر يسبح مولاه، ويتكلم عن آثار الجميل فتذوب الأنفس من كلماته، وتدمع الأعين وتبكي الأفئدة من شعره أو وعظه.. وهذا جانب مهم من جوانب التربية لا يُغفَل.

التربية القرآنية أعلى تربية وأرقاها:

«لا شك في أن التربية القرآنية هي أعلى تربية وأرقاها، وقد ظهرت بركة هذه التربية في الجيل الأول الذي نزل عليه القرآن منجمًا، يغرس فيهم أصول العقائد، ويعمق فيهم المعاني الإيمانية الشريفة، ويثبتهم على الإيمان، وكان الصحابة ﭫ يتلقون الآيات القرآنية بالإيمان والتصديق، ويصدرون عنها بالعمل والاستجابة والطاعة، فترقى بهم القرآن إلى أعلى درجات اليقين والصدق والإخلاص والبذل والتضحية والثبات، وظهرت فيهم المواقف الإيمانية والأحوال الشريفة التي تصدق ما في قلوبهم من إيمان وتصديق بالقرآن، وكان أمام الصحابة ﭫ التطبيق العملي للقرآن وهو النبي ﷺ، فقد كان ﷺ قرآنًا يمشي على الأرض، سئلت عائشة ﭬ عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط»، وابن عساكر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٢٦)، و«صحيح الجامع» (١٧٤٣).

القرآن» [١] ..» [٢].

وهذه أمثلة للتربية القرآنية:

١- القرآن يُرَبِّي في قلوب الناس عقيدة التوحيد.

٢- القرآن يُرَبِّي في قلوب المؤمنين المراقبة لله وتقواه.

٣- القرآن يُربِّي المسلم على أن تكون علاقته مباشرة مع الله ﷻ فلا يحتاج إلى وسائط ولا شفعاء.

٤- القرآن يُربِّي المسلم على التفكير في خلق الله وآياته لبيان عظمة الله وقدرته.

٥- القرآن يُربي المؤمن على الثقة بنصر الله ﷻ واليقين بوعده.

٦- القرآن يُربِّي المؤمن على الغاية التي خُلِق من أجلها وهي عبادة الله ﷻ، والهدف الذي ينبغي أن يسعى إليه وهو رضا الله ﷻ وابتغاء وجهه.

٧- القرآن يربي المؤمن على الاستعداد للقاء الله ﷻ.

٨- القرآن يُربي المؤمن على أن التفاضل بين الناس ليس بالحَسَب ولا بالنَّسَب ولا بمال ولا بالشهرة وإنما هو بتقوى الله ﷻ.

٩- القرآن يربي المؤمن على التأدب بآداب القرآن، وما أجلّها وأجملها وأعظمها وأرفعها من آداب.

١٠- القرآن يربي المؤمن على الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة،

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) «التربية» (ص٢١٣).

والبذل لإعزاز دين الله ﷻ.

١١- والقرآن يربي في المؤمن العواطف الوجدانية.

١٢- وبالترغيب والترهيب يربي القرآن المؤمنين على ضبط الانفعالات والعواطف والموازنة بينها.

١٣- القرآن يربي المؤمن على المحبة الشديدة لله ﷻ وألا يؤثر عليه أحدًا [١].

علوُّ همَّة النبي ﷺ في التربية:

□ يقول الدكتور أحمد فريد: «أعظم مربٍّ طرق البشرية هو النبي الخاتم ﷺ، وأعلى هدي وخير الهدي هو هدي محمد ﷺ، وأشرف جيل تربى على ظهر الأرض هو الجيل الذي رباه رسول الله ﷺ، وأجمل أوصاف وأسنى أخلاق وأطيب عقيدة ما تحلى به الصحابة الكرام ببركة تربية النبي ﷺ ، إنهم أوسمة شرف، ودرر مضيئة على جبين البشرية، ما سبقهم جيل على سمتهم، ولا يمكن أن يأتي بعدهم في مثل روعتهم وجلالتهم، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فعل عز وجل، وصلى الله وسلم وبارك على من أحسن تربيتهم، ورفع منارهم، وارتفع بهم إلى درجات الرفعة والشرف في الدنيا والآخرة.

وهذه ومضات مضيئة، وأزهار متناسقة، وألوان فريدة، وأضواء عجيبة من هديه المبارك ﷺ في التربية» [٢].

□ وقد تكلم الشيخ الدكتور أحمد فريد عن هدي النبي ﷺ المبارك في

(١) انظر: «التربية» للدكتور أحمد فريد (ص٢١٣- ٢٢٦).

(٢) المصدر السابق (ص٢٢٩).

التربية، وها نحن نسرد أهم العناوين [١] لأنا قد تكلمنا عليها بإسهاب في فصول سابقة:

١- فمن هديه المبارك ﷺ في التربية الحوار واغتنام الفرص.

٢- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان إذا أمر بأمرٍ بدأ فيه بنفسه ﷺ.

٣- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يتعهَّد أصحابه ويسألهم عن أحوالهم.

٤- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يُرَغِّب الصحابة في الدرجات العالية والرُّتب السامية.

٥- ومن هديه ﷺ في التربية أنه كان يُلْفِتُ نظر الصحابة إلى ما يهمُّهم.

٦- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان إذا بلغه عن أصحابه ما يكرهه قال: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا**».

٧- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يربي أصحابه على السمع والطاعة ومعرفة بركة الانقياد.

٨- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يُرَبِّي الصحابة على أن الطاعة لوليّ الأمر مقيّدة بطاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ.

٩- ومن هَدْيه المبارك في التربية أنه كان يربِّي الصحابة على احترام من له سبقٌ وبذل في الإسلام.

(١) المصدر السابق (ص٣٢٤- ٣٢٦).

١٠- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يثني على من ظهر منه ما يستحقُّ الثناء ويبشِّره بالخير والرِّفعة.

١١- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يُربِّي الصحابة على محبَّة البذل والتضحية بأموالهم وأنفسهم.

١٢- ومن هدْيه المبارك في التربية أنه كان يربي الصحابة على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

١٣- ومن هديه المبارك أنه كان يربِّي الصحابة على علوِّ الهمّة.

١٤- ومن هديه المبارك أنه كان يربي الصحابة على الصبر على البلاء، ويُعلِّمهم أن الابتلاء سُنَّة ماضية.

١٥- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يربِّي الصحابة بتنشيط أذهانهم واختبار ذكائهم وعلمهم.

١٦- ومن هديه المبارك أنه كان يربي الصحابة على حسن الخُلُق مع القريب والبعيد والعدو والصَّديق.

١٧- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يُشوِّق أصحابه لسماع العلم ويُسَهِّل عليهم حفظه.

١٨- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يُرغِّب الصحابة في الاجتهاد والطاعة والعبادة.

١٩- ومن هَدْيِهِ المبارك في التربية أنه كان يُداعِبُ الصحابة رضي الله عنهم ولا يقول إلَّا حَقًّا.

٢٠- ومن هديه المبارك أنه كان يُحذِّر الصحابة من أسباب الغواية، ويَسُدُّ دونهم أبواب الفِتن.

٢١- ومن هَدْيه المبارك في التربية أنه كان يدعو لأصحابه ﷺ.

٢٢- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يحُضُّ أصحابه على الاستعفاف والاستغناء عن الناس.

٢٣- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يحِرِصُ على مؤاخاة الصحابة بعضهم لبعض وعلى زيادة محبتهم في الله.

٢٤- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يُرَبِّي أصحابه على النصح لكل مسلم.

٢٥- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يُرَغِّب الصحابة في الجنة، ويخوِّفهم من عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

٢٦- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يحث الصحابة على أعمال القلوب ومراعاة قلوبهم، ويدلهم على ما خفي من أمرها.

٢٧- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يأمر أصحابه بالصمت وتعهد ألسنتهم، ويحذرهم من الغيبة والنميمة والجدال والمراء.

٢٨- ومن هديه المبارك أنه كان يحث أصحابه على التوكل على الله، ويفرِّق ويوضِّح جَلِيًّا الفرق بينه وبين التواكل.

٢٩- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يحث أتباعه على الأخذ بأسباب الحياة، والسعي على من يَعُول.

٣٠- ومن هديه المبارك في التربية أنه كان يأمر أصحابه بالإحسان إلى الأهل والزوجة وحسن معاملتهم والإحسان إليهم.

وسائل التربية:

١- التربية بالقدوة:

كن بالخير موصوفًا، ولا تكُن للخير وصَّافًا؛ فإن الواو والراء والدال لا تَشُمُّ منها رائحة الورد. وقالوا: «من لم ينتفع بصمت العَالِمِ لا ينتفع بعلمه، وإنَّ شيخك مَن حدَّثك بلحْظِهِ قبل أن يُحدِّثك بلفظه».

وقالوا: «اجلس إلى مَنْ تُكلِّمك صِفَتُه، ولا تجلِس إلى مَن يُكَلِّمك لسانه».

□ وقال أبو سليمان الداراني: «الأخ مَن يعظك بحاله قبل أن يعظك بمقاله».

□ قال الأستاذ محمد قطب: «القدوة في التربية هي أفعل الوسائل جميعًا، وأقربها للنجاح.

من السهل تأليف «كتاب في التربية» من السهل تخيل منهج، وإن كان في حاجة إلى إحاطة وبراعة وشمول، ولكن هذا المنهج يظل حبرًا على ورق.. يظل معلقًا في الفضاء، ما لم يتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض.. ما لم يتحول إلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه، عندئذ فقط يتحول المنهج إلى حقيقة، يتحول إلى حركة، يتحول إلى تاريخ.

ولقد علم الله سبحانه وهو يضع ذلك المنهج العلوي المعجز أنه لا بد من ذلك للبشر، لا بد من قلب إنسان يحمل المنهج ويحوله إلى حقيقة، لكي يعرف الناس أنه حق ثم يتبعوه.

لا بد من قدوة.

* لذلك بعث الله محمد ﷺ ليكون قدوة للناس: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ووضع في شخصه ﷺ الصورة الكاملة للمنهج الإسلامي، الصورة الحية الخالدة على مدار التاريخ.

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»(١).

إجابة دقيقة عجيبة مختصرة شاملة.. كان خلقه القرآن! كان الترجمة الحية لروح القرآن وحقائقه وتوجيهاته(٢).

□ قال الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي:

ينتقل تأثير القدوة إلى المقتدي على أشكال أهمها:

١ - التأثير العفوي غير المقصود:

وهنا يقوم تأثير القدوة على مدى اتصافه بصفات تدفع الآخرين إلى تقليده، كتفوقه بالعلم أو بالرئاسة، أو الإخلاص أو.. وفي هذه الحال يكون تأثير القدوة عفويًّا غير مقصود، وهذا يعني أن على كل من يرجو أن يكون قدوة أن يراقب سلوكه، ويعلم أنه مسؤول أمام الله في كل ما يتبعه الناس، أو يقلده المعجبون، وكلما ازداد حذرًا وإخلاصًا ازداد الإعجاب به، فتزداد فائدته وأثره الطيِّب في النُّفُوس.

٢- التأثير المقصود:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «التربية الإسلامية» لمحمد قطب (١/ ١٨٠، ١٨١).

على أن تأثير القدوة قد يكون مقصودًا.

فيقرأ العلم قراءة نموذجية ليقلده الطلاب، ويُجَوِّد الإمام صلاته ليعلم الناس الصلاة الكاملة، ويتقدم القائد أمام الصفوف في الجهاد ليبث الشجاعة والتضحية والإقدام في نفوس الجند، وهكذا.

• وقد تعلم الصحابة رضي الله عنهم كثيرًا من أمور دينهم بطلب من رسول الله ﷺ أن يقتدوا به، فكان يقول لهم: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»(١). وكان يأمرهم في الحج أن يقتدوا به قائلًا: «**خذوا عني مناسككم**»(٢)، ثم كان الصحابي يقول للتابعين: «ألا أصلي لكم صلاة رسول الله ﷺ».

• وصلى ﷺ على المنبر - وفي رواية: أنه ذو ثلاث درجات- فقام عليه، فكبر وكبر الناس وراءه وهو على المنبر، ثم ركع وهو عليه ثم رفع فرجع القهقري حتى سجد في أصل المنبر، ثم عاد فصنع فيها كما صنع في الركعة الأولى حتى فرغ من آخر صلاته، ثم أقبل على الناس فقال: «**يا أيها الناس إني صنعت هذا لتأسوا بي، ولتعلموا صلاتي**»(٣).

وهكذا علمنا رسول الله ﷺ رائد التربية الإسلامية أن يقصد المربي إلى تعليم طلابه بأفعاله وأن يلفت نظرهم إلى الاقتداء به؛ لأنه إنما يقتدي برسول الله ﷺ، وأن يحسن صلاته وعبادته وسلوكه بهذا القصد، فيكسب ثواب من سن سنة حسنة إلى يوم القيامة.

---

(١) رواه البخاري (٢/ ١٣١، ١٣٢).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٠١)، ومسلم في «الحج» (١٢٩٧) بلفظ: «**لتأخذوا عني مناسككم لعلي لا أحجُّ بعد حجتي هذه**».

(٣) رواه البخاري (٢/ ٤٦١)، ومسلم (٥٤٤).

وهكذا يظهر بجلاء أن التربية بالقدوة من أنجح وأنفع وسائل التربية، فليس أقوى في دفع الولد أو التلميذ إلى الحرص على صلاة الجماعة من رؤيته والده أو شيخه وهو يعظم صلاة الجماعة، فيتهيأ لها قبل الأذان، ويدخل المسجد، ويحرص على تكبيرة الإحرام، والوقوف في الصف الأول، وكذا يدفعه إلى الصدق ما يرى من صدق والده وشيخه ونفورهما عن الكذب، أما من يفتح عينيه على كذب والده، ومن يقتدي به، فمهما لقنه من آيات وأحاديث في فضل الصدق فإن هذا التلقين لا يفيده كثيرًا؛ لأن من يلقنه من أبعد الناس عنه، وأنفر الناس منه، لذا كان على الوالد والمربي أن يتكلف الاستقامة والصدق والأمانة والورع والديانة، لا بقصد الرياء والسمعة، وإنما بقصد تعليم من يقتدي به وينظر إليه، فإذا نصحه بنصيحة كان أحرص الناس على العمل بها، وإذا نفرَّ من خصلة سيئة كان أبعد الناس عنها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف].

* وقال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ﴾ [هود: ٨٨].

* وقال تعالى: ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة].

• وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه. فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا**

آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[(١)].

□ يقول الأستاذ عبد الله ناصح علوان ما ملخصه: «وما أعظم موقف عمر رضي الله عنه حين كان يجمع أهل بيته ليقول لهم: «أما بعد: فإني سأدعو الناس إلى كذا وكذا، وأنهاهم عن كذا وكذا، وإني أقسم بالله العظيم لا أجد واحدًا منكم أنه فعل ما نهيت الناس عنه أو ترك ما أمرت الناس به إلَّا نكلت به نكالًا شديدًا»، ثم يخرج رضي الله عنه ويدعو الناس إلى الخير، فلم يتأخر أحد عن السمع والطاعة لإعطائهم القدوة بفعله قبل إعطائهم إياها بقوله.

فليعلم الآباء والأمهات والمربون جميعًا أن التربية بالقدوة الصالحة هي العماد في تقويم اعوجاج الولد، بل هي الأساس في ترقيته نحو المكرمات والفضائل والآداب الاجتماعية النبيلة.

وبدون هذه القدوة لا ينفع مع أولادكم تأديب، ولا تؤثر بهم موعظة، فاتقوا الله –أيها المربون– بأولادكم، وكونوا معهم على مستوى المسؤولية لتروا أفلاذ الأكباد شموس إصلاح، وأقمار هداية، يستضيء أبناء المجتمع بنورهم، ويتأسون بمحاسن أخلاقهم، ويرتشفون من معين آدابهم، ويصدق عليهم قوله تبارك وتعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

* وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾

[التوبة: ١٠٥][(١)].

---

(١) رواه البخاري – كتاب بدء الخلق (٦/ ٣٢٩)، (١٣/ ٤٨)، ورواه مسلم في «الزهد» (١٨/ ١١٨) وقوله فتندلق أقتابه: أي أمعاؤه، واندلاقها: خروجها بسرعة.

□ كان سفيان الثوري رحمه الله يأتي إلى الإمام العابد عمرو بن قيس الملائي يُسَلِّم عليه يتبرَّك به، يحتسِب ذلك، ويجيء فيجلس بين يديه ينظر إليه لا يكاد يصرف بصره عنه.

وكان عبد الله بن المبارك يقول عن الفضيل بن عياض: «كنتُ كلما قسا قلبي نظرت إلى وجه الفضيل فيجدِّد لي الحزن، وأمقت نفسي».

□ قال عمرو بن عنبة ينبِّه معلِّم ولده فيقول: «ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك؛ فإن عيونهم معقودة بعينيْك، فالحسن عندهم ما صنعتَ، والقبيح عندهم ما تركت»، فالأطفال لا يدركون المعاني المجرَّدة بسهولة، ولا يقتنعون بها بمجرَّد سماعها من المرَبِّي بل لا بد من المثال الواقعي المُشاهدَ».

□ ويقول الأستاذ عبد الله ناصح علوان: «ومن هذه القدوة الصالحة التي تجسدت في صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان انتشر الإسلام في كثير من الممالك النائية والبلاد الواسعة البعيدة في شرق الدنيا وغربها، والتاريخ سطر بملء الافتخار والإعجاب أن الإسلام وصل إلى جنوب الهند وسيلان وجزر أكديف ومالاديف في المحيط الهندي، وإلى التيبت، وإلى سواحل الصين، وإلى الفلبين وجزر أندونيسيا وشبه جزيرة الملايو، ووصل إلى أواسط إفريقيا في السنغال ونيجيريا والصومال وتنزانيا ومدغشقر وزنجبار وغيرها من البلاد، وصل الإسلام إلى كل هذه الأمم بواسطة تجار مسلمين، ودعاة صادقين، أعطوا الصورة الصادقة عن الإسلام في سلوكهم، وأمانتهم، وصدقهم، ووفائهم.. ثم

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» لعبد الله ناصح علوان (٢/ ٦٦٤).

أعقب ذلك الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، فدخل الناس في دين الإسلام أفواجًا، وآمنوا بالدين الجديد عن اقتناع وإيمان ورغبة، ولولا أن يتميز هؤلاء التجار الدعاة بأخلاقهم، ويعطوا القدوة بين أولئك الأقوام بصدقهم وأمانتهم، ويعرفوا لدى الغرباء بلطفهم وحسن معاملتهم لما اعتنق الملايين من البشر هذا الإسلام، ولما دخلوا في هديه ورحمته، ونخلص مما تقدم إلى أن التميز الخلقي المتمثل بالقدوة الصالحة هو من أكبر العوامل في التأثير على القلوب والنفوس، ومن أعظم الأسباب في نشر الإسلام في البلاد البعيدة، والأصقاع المعمورة، وفي هداية البشرية إلى سبيل الإيمان وطريق الإسلام، فما أجدر الجيل الإسلامي اليوم برجاله ونسائه وشيبه وشبانه وكباره وصغاره أن يفهموا هذه الحقيقة، وأن يعطوا لغيرهم القدوة الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والسمعة الحسنة، والمعاملة الطيبة، والصفات الإسلامية النبيلة ليكونوا دائمًا في العالمين أقمار هداية، وشموس إصلاح، ودعاة خير وحق، وأسباب نشر وامتداد لرسالة الإسلام الخالدة»[(١)].

□ وقال في تربية الأولاد: «إذن لا بد من قدوة صالحة لنجاح التربية ونشر الفكرة.

ولا بد من مثل أعلى ترنو إليه الأعين، وتنجذب لجماله النفوس.

ولا بد من أخلاق فاضلة، يستمد المجتمع منها الخير، وتترك في الجيل أفضل الأثر، ومن هنا كان حرص النبي ﷺ على أن يظهر المربي أمام من يقوم على تربيته، بمظهر القدوة الصالحة في كل شيء حتى يشب الولد منذ

---

(١) «حتى يعلم الشباب» لعبد الله ناصح علوان (ص١١٩) بتصرّف.

نشأته على الخير، ويتخلق منذ نعومة أظفاره على الصفات الفاضلة النبيلة[(١)].

الحسن البصري أشبه الناس سريرة بعلانية:

◻ قال خالد بن صفوان: «لما لقيت مسلمة بن عبد الملك بالحيرة قال: يا خالد، أخبرني عن حسن أهل البصرة. قلت: أصلح الله الأمير، أُخبرك عنه بعلم؛ أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلمُ مَن قِبَلي به: «أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبههم قولًا بفعل، إنْ قعد على أمرٍ قام به، وإن قام على أمرٍ قعد عليه، وإن أَمَرَ بأمرٍ كان أعملَ الناس به، وإنْ نهَى عن شيء كان أتركَ الناس له، رأيته مستغنيًا عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه». قال: حسبك يا خالد، كيف يضِلُّ قوم هذا فيهم؟!»[(٢)].

◻ وقال أبو بكر الهذلي: «قال لي السفّاح: بأي شيء بلغ حَسَنُكُم ما بلغ؟ قلت: جمع القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ثم لم يخرج من سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها، وفيم أُنزلت، ولم يُقلِّب درهمًا في تجارة، ولا وَلِيَ سلطانًا، ولا أمر بشيءٍ حتى يفعله، ولا نهى عن شيء حتى ودعه»[(٣)].

◻ وكان أبو سليمان الداراني يقول للعلماء والقُرّاء: «كيف يترك الدنيا من تأمرونه بترك الدينار والدرهم؟ وهم إذا ألقوْها أخذتموها أنتم؟!»[(٤)].

---

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» (٢/ ٦٥٣).
(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ١٤٧).
(٣) «شذرات الذهب» لابن عماد الحنبلي (١/ ١٣٧).
(٤) «حلية الأولياء» (٩/ ٢٦٤).

٢- التربية بالوعظ:

* الموعظة وسيلة ذات تأثير شديد عند كثير من الناس، واستخدام الموعظة في الدعوة أمرٌ ربَّاني ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

□ والوعظ في رأي ابن الجوزي ليس نافلة من النوافل يمكن الاستغناء عنها، بل هو ضرورة من الضرورات؛ لأن المهمة الملقاة عليه لا يستطيع غيره أن يقوم بها؛ فللفقيه دوره في الإصلاح، وللمحدِّث دوره في الإصلاح، وللواعظ أيضًا دوره في إصلاح القلوب.

وفي هذا يقول ابن الجوزي: «رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب إلَّا أن يُمزَج بالرقائق، والنظر في سير السلف الصالحين؛ لأنهم تناولوا مقصود النَّقْل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها.

وما أخبرتُك بهذا إلَّا بعد معالجة وذوق؛ لأني وجدتُ:

- جمهور المحدِّثين وطُلَّاب الحديث همّة أحدهم في الحديث العالي، وتكثير الأجزاء.

وجمهور الفقهاء في علوم الجدل، وما يغلب به الخصم. وكيف يرقُّ القلبُ مع هذه الأشياء؟

وقد كان جماعة من السلف، يقصدون العبد الصالح، للنَّظَر إلى سَمْتِه وهَدْيه، لا لاقتباس علمه.

وذلك أن ثمرة علمه: هديُه وسمته.

فافهم هذا، وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سِيَر السلف

والزهّاد في الدنيا، ليكون سببًا لرقّة قلبك»[(١)].

□ قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «المواعظ سياط تضرب بها القلوب، فتؤثر في القلب كتأثير السياط في البدن، والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره في حال وجوده، لكن يبقى أثر التألم بحسب قوته وضعفه، فكلما قوي الضرب كانت مدة الألم أكثر، كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر خرجوا عليهم السكينة والوقار، فمنهم من كان لا يستطيع أن يأكل طعامًا عقب ذلك، ومنهم من كان يعمل بمقتضى ما سمعه مدة.

أفضل الصدقة تعليم جاهل، أو إيقاظ غافل، ما وصل المستثقل في نوم الغفلة بأفضل من ضربه بسياط الوعظ ليستيقظ.

إنما التأديب بالسوط من صحيح البدن، ثابت القلب، قوي الذراعين، فيؤلم ضربه فيردع، وأما من هو سقيم البدن لا قوة له، فماذا ينفع تأديبه بالضرب؟! كان الحسن إذا خرج إلى الناس كأنه رجل عاين الآخرة ثم جاء يخبر عنها، وكانوا إذا خرجوا من عنده كانوا لا يعدون الدنيا شيئًا.

□ قال بعض السلف: «إن العالم إذا لم يرد بموعظته وجه الله، زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر على الصفا.

المواعظ ترياق القلوب، فلا ينبغي أن يسقي الترياق إلَّا طبيب حاذق معافًى، فأما لديغ الهوى فهو إلى شرب الترياق أحوج من أن يسقيه..

وغير تقي يأمر الناس بالتقى   طبيب يداوي الناس وهو سقيم

---

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٢٠٠)- طبعة دار كاتب وكتاب.

يـا أيهـا الرجـل المعلـم غـيره هـلا لنفـسك كـان ذا التعلـيم

فابـدأ بنفـسك فانهـا عـن غيهـا فـإذا انتهـت عنـه فأنـت حكـيم

فهنـاك يُقبـل مـا تقـول ويُقتـدى بـالقول منـك وينفـع التعلـيم

لا تنـه عـن خلـق وتـأتي مثلـه عـار عليـك إذا فعلـت عظـيم (١)

□ يقول الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي: «يعتمد الوعظ من الناحية النفسية والتربوية على أمور، أهمها:

١- إيقاظ عواطف ربانية كانت قد ربيت في نفس الناشئين بطريق الحوار، أو العمل والعبادة والممارسة أو غير ذلك، كعاطفة الخضوع لله، والخوف من عذابه، أو الرغبة في جنته، وكذلك يربي الوعظ هذه العواطف وينميها، وقد ينشئها من جديد.

٢- الاعتماد على التفكير الرباني السليم الذي كان الموعوظ قد رُبِّي عليه، وهو التصور السليم للحياة الدنيا والآخرة، ودور الإنسان أو وظيفته في هذا الكون، ونعم الله، وأنه خلق الكون والموت والحياة.

٣- الاعتماد على الجماعة المؤمنة، فالمجتمع الصالح يُوجدُ جوًّا يكون الوعظ فيه أشد تأثيرًا، وأبلغ في النفوس؛ لذلك جاءت معظم المواعظ القرآنية والنبوية بصيغة الجماعة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ ﴾ [النساء].

وكالحديث: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجلت منها

(١) انظر: «لطائف المعارف» لابن رجب الحنبلي (١٣- ١٥).

القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا».

٤- ومن أهم آثار أسلوب الموعظة تزكية النفس وتطهيرها، وهو من الأهداف الكبرى للتربية الإسلامية، وبتحقيقه يسمو المجتمع، ويبتعد عن المنكرات وعن الفحشاء، فلا يبغي أحد على أحد، ويأتمر الجميع بأمر الله بالمعروف والعدل والصلاح والبر والإحسان، وقد جمعت هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل][1].

مواعظ القرآن أبلغ المواعظ وأعلاها:

وقد اشتمل القرآن الكريم على جمل مستكثرة من المواعظ العالية الغالية.

* فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النساء].

* وقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ

---

(١) «أصول التربية الإسلامية» لعبد الرحمن النحلاوي (ص٢٥٥، ٢٥٦).

ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة].

* ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء].

* ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان].

* والقرآن كله مواعظ للمتقين كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [آل عمران].

رسول الله ﷺ أعظم واعظٍ ومُرَبٍّ:

«لقد كان وعظ النبي ﷺ على أرقى مستوى وأعلى درجة، فكان يأسر بوعظه قلوب السامعين، فإمَّا مَنًّا بعد وإمَّا فداء.

وغاية الواعظ أن يصل بمن وعظه إلى الخشية الحقيقية، التي تجتمع في وجل القلب، ودمع العين، وأن يتذكروا أمور الآخرة فكأنهم يرونها رأي العين، وهكذا كان وعظ النبي ﷺ كما في حديث العرباض بن سارية قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا» الحديث (١).

وكذا في قصة حنظلة عندما قارن بين حال قلبه في مجلس وعظ رسول الله ﷺ، وعندما يفارق هذا المجلس إلى مجالسة الزوجات والأولاد فقال: نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»** ثلاث مرات (٢)، (٣).

□ ولم يكن النبي ﷺ يكثر عليهم الوعظ فيملُّوا – وهو مَن هو بأبي هو وأمي – بل يجعلهم دائمًا متشوِّقين إلى وعظه ﷺ.

• عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة

---

(١) تقدّم تخريجه.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٥٣٠٥) ورواه مسلم (٢٧٥٠)، والترمذي (٢٥١٤).

(٣) «التربية» للدكتور أحمد فريد (ص ٢٦٠).

بين الأيام مخافة السأم علينا أو قال: السآمة علينا»[١].

□ وكان رسول الله ﷺ يُؤثِّر في الصحابة ﭫ بقوَّة يقينه وتأثره، وكان يرفع صوته ويحرك يديه، كأنه منذر جيش.

• عن ابن عمر ﭭ قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآيات يومًا على المنبر: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر: «**يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم**»، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: لَيخِرَّنَّ به. أساقط هو برسول الله ﷺ؟»[٢].

□ يقول الدكتور عبد الله ناصح علوان: «ولا يتصف الواعظ الداعية بهذا التأثير إلَّا أن يكون مخلص النية، رقيق القلب، خاشع النفس، طاهر السريرة، مشرق الروح.

وفرق كبير بين داعية يتكلم بلسانه وهو متصنع بالكلام، ليسبي به قلوب الرجال، وبين داعية مؤمن مخلص مكلوم القلب على الإسلام، يتكلم بنبضات قلبه، ولواعج حزنه وأساه لما آل إليه حال المسلمين، فلا شك أن تأثير الثاني أبلغ والاستجابة إليه أقوى، والاتعاظ بكلامه أعظم».

□ قال عمر بن ذر لأبيه: «يا أبت ما لك إذا تكلمت أبكيت الناس.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٣٧)، والبخاري (١/ ٦٢).

(٢) إسناده صحيح: رواه أحمد رقم (٥٤١٤ شاكر) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

وإذا تكلم غيرك لم يبكهم؟ فقال: يا بني، ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة»[١].

الحسن البصري وعظُه يُدمي القلوب:

□ قيل مرة ليونس بن عُبيد: «هل رأيتَ أحدًا يعملُ بعمل الحسن البصري؟ فقال: والله ما رأيتُ مَن يقولُ بقوله، فكيف أرى من يعملُ بعمله؟! «كان وعظه يُبكي القلوب ووعظ غيره لا يُبكي العيون!!»[٢].

□ وقد تحدّث مالك بن دينار عن الذين كان لهم الأثر في القلوب فقال: «بلى والله، لقد رأيناهم: الحسن، وسعيد بن جبير، وأشباههم، الرجل منهم يحيي الله بكلامه الفئام[٣] من الناس»[٤].

□ وقال الأعمش: «ما زال الحسن البصري، يعي الحكمة حتَّى نطق بها، وكان إذا ذُكِر عند أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين – الباقر – قال: «ذاك الذي يُشبه كلامه كلام الأنبياء»[٥].

□ وقال الغزالي: «كان الحسن البصري أشبه الناس كلامًا بكلام الأنبياء، وأقربهم هدْيًا من الصحابة»[٦].

□ ومن الكلمات الدقيقة الصادقة في تصويرها للحسن في وعظه، ما

---

(١) انظر: «تربية الأولاد» (٢/ ٧١٥).
(٢) «تنبيه المغترين» للشعراني (ص٩).
(٣) الفئام: الجماعات من الناس.
(٤) «الحلية» (٢/ ٣٦٠).
(٥) «حلية الأولياء» (٢/ ١٤٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٨٥).
(٦) «إحياء علوم الدين» (١/ ٧٧).

قال مطر الورّاق في ذلك: «لما ظهر الحسن جاء كأنما كان في الآخرة، فهو يُخبر عمّا عاين»(١).

□ كان رحمه الله يقول: «لا يزال العبد بخير، ما كان له واعظٌ من نفسه، وكانت المحاسبة من هِمَّته»(٢).

□ وقال رحمه الله: «ليس الإيمان بالتحلِّي، ولا بالتَّمَنِّي، ولكِنْ ما وَقَر في الصدر، وصدَّقَتْه الأعمال»(٣).

□ وحدَّث الحسن بحديث، فقال له رجلٌ: «يا أبا سعيد، عَمَّنْ؟ قال: وما تصنع بعَمَّن؟ أمَّا أنت فقد نالتك موعظته، وقامت عليك حُجَّته»(٤).

□ وقال رحمه الله: «أيُّها الناس، إني أعظكم ولستُ بخيركم ولا أصلحكم، وإني لكثير الإسراف على نفسي، غير مُحكِم لها، ولا حاملها على الواجب في طاعة ربها، ولو كان المؤمن لا يَعظِ أخاه إلَّا بعد إحكام أمر نفسِه، لعُدِم الواعظون، وقَلَّ المُذكِّرون، ولما وُجِد مَن يدعو إلى الله جلّ ثناؤه، ويرغب في طاعته، وينهى عن معصيته، ولكن في اجتماع أهل البصائر، ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضًا حياة لقلوب المتقين، وإذكارٌ مِن الغفْلة، وأَمْنٌ من النِّسيان، فالزموا -عافاكُمُ الله - مجالس الذكر، فرُبَّ

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٧٣).

(٢) «البداية والنهاية» (٩/ ٢٧٢).

(٣) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (ص٣٣٩).

(٤) «عيون الأخبار» (٢/ ١٣٧). أي ربما تساهل في ذلك في مجالس الوعظ؛ لأن اية الوعظ التأثير في القلوب، وهي غير مجالس الفقه والحديث، فكان يرى أن غاية الوعظ الاتعاظ، ولذا يرى فيها حُجة على السامع طالما أنها تدعو إلى خير، أو تُنبِّه على خطر.. والأوْلى أن لا يأتي إلَّا بحديث حسن أو صحيح.

كلمةٍ مسموعة، ومحتقر نافع، اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلَّا وأنتم مسلمون»(١) .

كلمات ومواعظ للحياة لأئمة الوعظ من رجالات سلفنا الصالح:

حدِّث عن القوم فالألفاظ ساجدة ... خلف المحاريب والأوزان تبتهلُ

□ كلام السلف ووعظهم قليلٌ كثير البركة وكلام الخَلَف كثير قليل البركة..

قليلٌ منكَ يكفيني ولكِنْ ... قليلك لا يُقالُ له قليلُ

□ إن للكلمات التي تنفرج عنها شفاه الحسن البصري، وسفيان الثوري، وعمر بن عبد العزيز، ومالك بن دينار، وأبي حازم سلمة بن دينار، وإبراهيم بن أدهم، وعبد الله بن المبارك، والفضيل بن عياض، والإمام الشافعي، وأبي سليمان الداراني، والسري السقطي، والجُنيد، وعبد القادر الجيلاني، وابن الجوزي، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وابن رجب الحنبلي، وذي النون المصري.. إن لكلماتهم مذاقًا فريدًا وسلاسة وألقًا وإشراقًا وتجربة مفعمة.

إن كانوا في صمتهم أبيَن ممَّن نطقوا فكيف بنُطقِهم؟!!

قطرات نَدَى وعبير لا يفنيه مدَى ... كلماتٌ تَهبُ النَّبع لصادٍ وَرَدَا

ورحابٌ حملتها الكلمات الحسنى ... بجناحٍ من نور أسْنَى تصلِ الخُلْدَ

تضيء الرُّوح.. تمُدُّ يدًا

(١) «الحسن البصري» لابن الجوزي (ص٦٠)- طبع مكتبة الخانجي.

□يصدقُ فيها قول الشاعر:

أتــاكَ حــديثٌ لا يمــلُّ سـماعُهُ　　شَــهِيٌّ إلينـــا نثــرُهُ ونظامُــهُ

إذا ذكرتُــه الــنفس زال عناؤهــا　　وزالَ عــن القلْــبِ المُعَنَّــى ظلامــه

□وقول القائل:

فاسمعْ -هُدِيت- علومًا عزَّ سالِكُها　　عــلى البيــانِ ولا يغــررك ذو لَسَن

قصدٌ إلى الحق لا تخفى شـواهِدُها　　قامت حقائقهـا بالأصْـلِ والفَـنَنِ

□قال يحيى بن معاذ الرازي: «أحسنُ شيء: كلامٌ رقيق، يُستَخْرَجُ من بحرٍ عميق على لسان رجلٍ رفيق»[(١)].

«ولن تخلد الكلمة على الأجيال إلَّا إن اتصلت بالحق والخير، وكان لها من قوانين الله في خَلْقِه سند، ومن إلهامه لعباده مدد»[(٢)].

سيماهم في كلامهم.. مثلما هي في وجوههم، وكانت مواعظهم أعظمَ مُحرِّكٍ للقلوب إلى أَجَلِّ مطلوب، وحادٍ للنفوس إلى مجاورة المَلِك القُدُّوس، وحقيقٌ على فوائدها أن يُعَضَّ عليها بالنواجذ، وتُثنى عليها الخناصر، ممتعة لقاريها، مشوقة للنَّظر فيها».

ابن الجوزي إمام الواعظين وعلو كَعْبِه في الوعظ والتربية:

□ قال الإمام الذهبي عن ابن الجوزي: «كان مُبَرَّزًا في التفسير والوعظ والتاريخ».

□وقال: «كان رأسًا في التذكير بلا مُدَافعة، يقول النَّظم الرائق، والنثر

(١)«تاريخ بغداد» (١٤/ ٢٠٩).

(٢)«الشوارد» لعبد الله عزّام (ص٣٤٠).

الفائق بديهةً، ويُسهب ويُعجِبُ، ويطرب ويطْنبُ، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظِ والقيِّم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة».

□ وقال موفَّق الدين بن قدامة: «إمام أهل عصره في الوعظ».

□ وقال ابن خلِّكان: «كان علَّامة عصره، وإمامَ وقته في الحديث وصناعة الوعظ».

□ وقال ابن كثير: «تفرّد ابن الجوزي بفنّ الوعظ، الذي لم يُسبَق إليه ولا يلحق شأوه فيه، وفي طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته وحلاوة ترصيعه، ونفوذ وعظِه، وغوصه على المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة بما يشاهده من الأمور الحِسِّيَّة، بعبارة وجيزة، سريعة الفهم والإدراك، بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة».

□ وقال ابن الدُّبيثي: «كان من أحسن الناس كلامًا، وأتمّهم نظامًا، وأعذبهم لسانًا، وأجودهم بيانًا».

□ وقال الموفق عبد اللطيف: «له في كلِّ علمٍ مشاركة..، وأما السَّجْع الوعظي فله فيه ملكة قوية».

□ قال ابن الجوزي رحمه الله: «كلامي نهرٌ يأخذ من بحر الكتاب والسُّنَّة. يسقي قلوبكم سيحًا[1] بلا كلف. وقد قنع من الخراج بالدُّعاء. هل في كلامي نقص؟ فيُقال: لو أنه! أو عيب، فيُقال: إلَّا أنه!، أو رأيتم مثله؟ فيُقال: كأنه! أبلغُ بلفظي منزل المعنى وما طال سفر العبارة. المعاني واسعة

---

(١) سيحًا: يُقال: ساح الماء يسيح سيْحًا، إذا جرى على وجه الأرض.

الفيافي، والألفاظ ضيِّقة العِرَاص (١). وما يقدر على حشو العرصة فوق ما تسع إلَّا مهندس لآلي (٢). هذه المعاني لطاف، فأي سلك فهم دقَّ انتظمت فيه، وإنما يُنظَم اللؤلؤ في خيط لا في حَبْل.

كلامي ثوب، فُصِّل على قدر أسماعكم، فهو لا يصلح إلَّا لكم. لا تنكروا مدحي لأهل بغداد فهمُ همُ. ألهذا البلد بدل؟

إذا مَرضت الأفهام السليمة من وباء طعم العبارات الركيكة، عمل لفظي في شفائها، ولا رُقَى الهند. كَلِمٌ تُداوِي كل كُلْم (٣).

جـــــواهر كلهــــــا يتـــــيم توجــــد مفقـــــودة المِثـــــال (٤)

٣- التربية بالقِصَّة:

القصص القرآني أعظم مُرَبٍّ:

جاء القرآن بقصص الأنبياء وهي – ولا جرم- أعلى منارًا وأشرف مزية، كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب، واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه، والقدوة الحسنة للكمل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم، وتحققها في أنفسها لوقوع مواردها. وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة في الإنسان لا سيما لمن يقتدى بهم، فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص، ونقصت في سواها، أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن فلا نكاد نفهم إلَّا حكايات ذهبت مع الزمان ومرت كأمس الدابر،

(١) العِرَاص: جمع عَرْصة، كل بُقعَة بين الدُّور واسعة، ليس فيها بناء.

(٢) لآلي: اللآلئ: اللؤلؤ.

(٣) الكلْم: الجرح.

(٤) «المدهش» لابن الجوزي (ص٥١٨).

وما لنا ولها إذن؟! تالله إن هذا لهو البوار، ولم يكن هذا إلَّا للجهل بالمقصود من قصصها، وأنها عبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن تفكر، وتبصرة لمن ازدجر.

وبالإجمال: فليس القصد من هذه القصص إلَّا منافعها، والعبر المبصرة للمسلمين ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١]. ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان فلا نعتمد إلَّا على البرهان، تأمل هذه القصص تجده لا يذكر إلَّا ما يناسب الإرشاد والنصح، ويعرض عن كثير من الوقائع إذ لا لزوم لها، ولا معول عليها، فلا ترى قصة إلَّا وفيها توحيد، وعلم، ومكارم أخلاق، وحجج عقلية، وتبصرة وتذكرة تلك العقلاء»(١).

القصص النبوي خير مُرَبٍّ:

استخدم الرسول ﷺ الأسلوب القصصي؛ لأنه رآه من أبلغ الطرق المؤدية إلى توثيق الفكرة وإصابة الهدف، والهدف من القصص النبوي ترسيخ المعاني الإيمانية، وغَرْس الفضائل في نفوس المسلمين، وكذا تسليتهم وتثبيتهم في طريق الإيمان، فمن القصص النبوي الذي يرسخ المعاني الإيمانية قصة «**الرجل الذي سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء. فقال: كفى بالله شهيدًا. فقال: فأتني بالكفيل، فقال: كفى بالله وكيلًا. فقال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبًا يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركبًا، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار..**

---

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (٩/ ٣٠٥، ٣٠٦) طبع دار الفكر.

وصحيفة إلى صاحبه، ثم زج موضعها – أي سده– ثم أتى بها البحر.

فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلانًا ألف دينار فسألني كفيلًا، فقلت: كفى بالله كفيلًا فرضي بك، وسألني شهيدًا فقلت: كفى بالله شهيدًا فرضي بك. وإني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطبًا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بألف الدينار فقال: والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه.

قال: هل كنت بعثت إليَّ بشيء.

قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه. فقال: فإنَّ الله أدَّى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بألف الدينار راشدًا»(١).

ففي القصة حث على التوكل على الله عز وجل والوفاء بالوعد، وتصديق المسلم، وحسن الظن به، وكذا حسن الظن بالله عز وجل، والرضا به ربًّا وكفيلًا وشهيدًا.

□ ومن القصص النبوي الهادف قصة الأبرص والأقرع والأعمى:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا

(١) رواه البخاري (٣/ ٤٢٤) مختصرًا في الزكاة، وأحمد (٢/ ٣٤٨).

أتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ فقال: لونًا حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه قذره وأعطي لونًا حسنًا.

فقال: فأي المال أحب إليك؟. فقال: الإبل.

قال: فأعطي ناقة عشراء، فقال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: شَعر حسن ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس. فمسحه فذهب عنه وأعطى شعرًا حسنًا.

فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر. فأعطى بقرة حاملًا، فقال: بارك الله لك فيها، فأتى الأعمى. فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: أن يرد الله بصري، فأبصر الناس، فمسحه فرد إليه بصره.

قال: فأي المال أحب إليك؟

قال: الغنم، فأعطي شاة والدًا.

فأُنْتِجَ هذان وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلَّا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال الحسن بعيرًا أتبلغ به في سفري.

فقال: الحقوق كثيرة.

فقال: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يتقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله؟

فقال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر.

قال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلَّا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك الشعر الحسن والمنظر الحسن والمال الحسن بقرة أتبلغ بها في سفري.

فقال: الحقوق كثيرة.

فقال: كأني أعرفك ألم تكن أقرع يقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله؟

فقال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر.

فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ بي اليوم إلَّا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري.

فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت فوالله لا أجهدك بشيء أخذته لله عَزَّ وَجَلَّ.

فقال: أمسك عليك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك»[(١)].

فكم تغرس هذه القصة النبوية التي حكاها رسول الله ﷺ في النفوس من بيان عاقبة الصدق، وعاقبة الكذب، وكم تبين حال الحريص على الدنيا الذي يبخل بنعم الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، ويتكبر على عباد الله؛ من الحرمان في الدنيا، والتعرض لسخط الله عَزَّ وَجَلَّ وعقوبته، وكذا يتبين حال المؤمن الشاكر

(١) رواه البخاري (٦/ ٥٧٨، ٥٧٩)، ومسلم (٢٩٦٤).

لنعم الله ﷻ، وكيف أنه ينال رِضَى الله الذي هو أكبر من جنة الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وكيف أن الصدقة لا تنقص المال، كما قال النبي ﷺ: «**ما نقص مال من صدقة**»[(١)].

وأن الدنيا دار بلاء وامتحان، وأن الفقر فتنة، والغنى فتنة، فالسعيد من تبصر في حاله، وعلم العبودية المطلوبة منه، فقام بواجبها، فوفق للخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

وبعد هذه نماذج من القصص النبوي المبارك، ولا تقتصر التربية بالقصة على القصص القرآني والنبوي، ولكن هناك كذلك من قصص الأمم السابقة، ومن سير السلف، وكذا من أخبار المعاصرين ما فيه عبرة وعظة، فنسأل الله التوفيق إلى ما يحب ويرضى»[(٢)] اهـ.

٤- التربية بضرْب الأمثال:

بلغت الأمثال القرآنية ذروة الإعجاز والبلاغة من حيث استكمال الوضوح، وأداء المعنى، وتقريبه للأفهام، فقد ألف الناس تشبيه الأمور المجرَّدة بالأشياء الحِسِّيَة، ليستطيعوا فهم الأمور الغيبية، أو المعنوية.

□ والأمثال القرآنية والنبوية دوافع تحرك العواطف والوجدان، فيحرك الوجدان الإرادة ويدفعها إلى عمل الخيرات، واجتناب المنكرات، وبهذا تساهم الأمثال في تربية الإنسان على السلوك الخير وتهذيب نزعاته الشريرة فتستقيم حياة الأفراد والمجتمعات، وتسير الأمة الإسلامية سيرتها نحو حضارة مثلى.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٢٥) في «الزهد»، وصححه الألباني.

(٢) «التربية» للشيخ أحمد فريد (٢٧٠- ٢٧٣).

* فضرب الأمثال من وسائل التربية التي اعتبرها الشرع الحنيف، وأكثر القرآن من ذكرها، كما قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور].

* وقال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم].

□ قال الحكيم الترمذي: «ثم اعلم أن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء وخفيت عليهم الأشياء، فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء فضرب لهم مثلًا من عند أنفسهم لا من عند نفسه، ليدركوا ما غاب عنهم، فأما من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إلى الأمثال، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] فالأمثال نموذجات الحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار لتهتدي النفوس بما أدركت عيانًا.

فمن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها، ليعقلوا بها فيدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة، فمن عقل الأمثال سماه الله تعالى في كتابه عالمًا لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت]»[1].

* قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد].

---

(١) «الأمثال من الكتاب والسنة» للحكيم الترمذي – تحقيق محمد علي البجاوي – طبع مكتبة دار التراث.

فالباطل يضمحل وينمحق كالزبد الذي يحتمله السيل، وإن علا على الحق في بعض الأوقات، كما يعلو الزبد، والحق ثابت باق يمكث في القلب فينتفع به المؤمن، فيثمر عملًا صالحًا كما يمكث الماء، وأسباب الإنبات في الأرض فيثمر عشبًا وزرعًا ونخيلًا وأعنابًا»[(١)].

• ومن الأمثلة النبوية ما قاله رسول الله ﷺ: **«مثل المنفق ومثل البخيل كمثل رجلين عليهما جُبتَّان من حديد، من لدن ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق شيئًا إلَّا سبغت على جلده حتى تواري بنانه وتعفو أثره»**[(٢)].

٥- التربية بدراسة تراجم علماء سلفنا الصالح وعبَّادهم والأئمة الكرام:

دراسة تراجم علماء الأمة وعُبَّادهم هي أخلاق القوم وعاداتهم، وهي تثري الفكر وتمدُّ القلب بمدد طيب، وتُعرِّف المؤمن بخُلاصة تجارب السابقين من الصالحين، وعصارة الأفكار والمواقف، فيأخذ بالحسن ويجد في الطلب، فكأنه يضم عُمْرَ غيرِهِ إلى عُمرِه:

إذا علـم العبـد أخبـار مـن مـضى ... توهمته قد عـاش مـن أول الـدهر
وتحـسبه قـد عـاش آخـر عمـره ... إذا كان قد أبقى الجميل من الذكر
فقد عاش كل الدهر من كان عالمًا ... حلـيمًا كـريمًا فـاغتنم أول العمـر

□ وعند ذكر الصالحين تتنزَّل الرحمات، وعند ذكرهم نُنْزل أنفسنا المنازل اللائقة بنا، كما قال بعضهم: «إذا ذُكِر السلف افتضحنا»، وتَتـجدَّد

---

(١) «التربية» (ص٢٧٥).
(٢) رواه البخاري في «الزكاة» (٣/ ٣٥٨)، ومسلم في «الزكاة» (٧/ ١٥٠).

وتَتجدَّد للمؤمن هِمَّة فيلحق ولو بساقة القوم أو يجد أثرًا من غبارهم..

إذا أعجبتـك خـصال امـرئ فكنهـا تكـن مثـل مـا أعجبـك

فلـيس عـلى الجـود والمكرمـات إذا جئتهـا حاجـب يحجبـك

* وقد ذكرنا من وسائل التربية التربية بالقدوة، وقد قيل: حياة رجل في ألف رجل، خير من نصح ألف رجل لرجل. ولكن إذا عز في زماننا من يصلح لأن يكون قدوة في العلم والعمل والصفات الجميلة والأخلاق النبيلة فالتماس القدوة من سير السالفين، وأخبار العلماء العاملين لا شك إن لم يقم مقام القدوة الحاضرة المشاهدة، فإنه يؤدي شيئًا من معناه، فدراسة أخبار السلف وسيرهم من الطرق التربوية الناجحة، إذ النفس تتشوق للكمال وتتطلع إليه عند سماع أخبار العلماء الربانيين من عباد الله، كما أنها تثور فيها نوازع الشر، وتتحرك فيها الشهوات عند سماع أخبار أهل الدنيا وأصحاب الشهوات، والنفس بطبيعتها عندها استعداد للخير والشر، كما قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس].

ومن فضل الله عَزَّوَجَلَّ علينا وعلى الناس أن دُوِّن تاريخ أمتنا، وترجم لرجاله، وكما أن تاريخ الإسلام حافل زاخر بالأحداث العظيمة والمواقف الشريفة التي تفتخر بها الأمم والشعوب، فهو كذلك حافل زاخر بالشخصيات الفذة والقمم العالية وأكابر الرجال الذين يمثلون عظمة الإسلام، ويصدقون دعوة النبي ﷺ، قمم في العلم والعبادة والخشية والثبات والتضحية وغير ذلك من الفضائل الحميدة، والخصال المجيدة، التي تكون كالمصابيح المضيئة، والرايات المنشورة أمام شباب الصحوة

المباركة فهم أسوة وقدوة، وطاقة للخير، والحض عليه، والله الموفق»[١].

الرَّبَّانيون قدوة:

▫ يقول الأستاذ الدكتور محمد أديبْ صالح في كتابه «الربَّانيون قدوة وعمل»:

أما بعد: فما أحسب أن امرءًا أوتي حظًّا من نور البصيرة، والإحساس بواقع الأمة يماري في أن حياة العالم الرباني - وهو المنسوب إلى الرب تبارك وتعالى، الكامل في العلم والعمل، الشديد التمسك بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ وتقواه، المشرقُ قلبه بخشيته، الحريصُ على تعليم الناس وتزكية نفوسهم، وتربيتهم على ما فيه خيرُهم وصلاحُ أمرهم في الدين والدنيا والآخرة، والقدوةُ بسلوكه المتميز - ما أحسبه يماري في أن هذه الحياة الحافلة بالخير، مَعْلَمٌ من معالم البناء الحضاري القوي المشرق في حياة الأمة. لما أنه مصدر عطاء صادق النسب إلى الهدي المحمدي في كتاب الله والسنة المطهرة، ثم ما يكون من فهوم أئمة الهدى ونهجهم القويم عليهم الرحمة والرضوان، كما أنه ترجمان عملي لحقائق الإسلام، وأخذ النفس بالهدي المحمدي، وبهذا يكون هذا العلَم القدوة أمانة في أعناق من أكرمهم الله بالانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، وبخاصة أولئك المؤتمنين على نشر العلم النافع، والتنهيج لتزكية النفوس، وتربيتها على الفكر الموالي لله ولرسوله وللمؤمنين، وإعداد المسلم - ذكرًا كان أو أنثى - إعدادًا متكاملًا، يضمن استقامته في خاصة نفسه، وقدرته - بعون الله - على مواجهة التحديات - وما أكثرها - والإسهام في كل ما يعود على الأمة بالاعتصام بحبل الله

---

(١) «التربية» (ص ٢٨٢- ٢٨٣).

المتين، والتمكين لكلمة الله في العالمين، على اختلاف الألسنة، والألوان، والأقاليم، وتجاوز لحدود الزمان والمكان، وفق منهج إيماني لا تنقصه معرفة الواقع، ولا ينأى عن السنن الكونية لله رب العالمين.

والمتبصِّر في عظيم ما تتركه تزكية النفوس، والعناية بأعمال القلوب، من أولئك البررة الذين يعلِّمون ويربُّون بالقدوة، كما يربون بالكلمة والوصية والدرس: يشعر بثقل الأمانة المومى إليها كلما تفاقم الغزو المنحرف، وانحسرت هنا وهناك مفاهيم الإسلام الصحيحة – أو بعضها – عن المجتمع، وصار للمتشككين والمشككين والمتمردين على نصوص الهدى في الكتاب والسنة، كلمة مسموعة على صعيدي التعليم والإعلام.

وفي تقدير لمكانة الرجل الرباني ودوره العظيم في حياة الفرد المسلم – ذكرًا كان أو أنثى – وجماعة المسلمين: قال محمد بن الحنفيَّة يرحمه الله يوم موت حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما – وهو من أدرى الناس بغزير علمه ووافر عقله وصالح عمله، وصدعه بالحق، ونصاعة سلوكه الفذِّ –: «اليوم مات ربَّانيُّ هذه الأمة».

ولعل من ربانيته رضي الله عنه ما تحقق له من دعوات الرسول ﷺ، بجانب أهليته وما أوتي من استعداد طيب، الأمر الذي يذكر بها كان من عظيم تقدير عمر رضي الله عنه له، وهو من هو خبرةً بالرجال الأقوياء الأمناء، وعرفانًا بفضل أهل الفضل في خير أمة شاء الله لها أن تكون أمة الشهادة على الناس.

وعلى هذا السنن من سلامة التصوُّر، وقدر الرجل الرباني قدره في حياة الأمة وهي تبني الحضارة المثلى، وتضرب في أرض التاريخ، تحقيقًا

لعبودية الله في الأرض، وتمكينًا لإنسانية الإنسان: يقول الإمام ابن قيم الجوزية في ضوء قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران]: «العالم الرباني: هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد، وقد دخل في الوصف له بأنه ربانيٌّ، وصفُه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله، ويمنع وصفه بما خالفها».

إن هؤلاء العلماء العاملين المجاهدين أجْدَرْ بهم أن يكونوا معالم في طريق الأمة، بما أوتوا من نافع العلم رواية ودراية وفقهًا في دين الله، وما رزقوا من خشية المولى جل شأنه وتقواه، والإقبال مخلصين على العمل بما علموا. ثم ما حازوا من قصب السبق في ميدان القدوة على أصعدة الدرس والتعلم، والتربية والتزكية والجهاد في سبيل الله.

أضف إلى ذلك ما يصحب هذه الفضائل مجتمعة: من مخالطة الناس في المجتمع، ريادةً وقيادةً، وقيامًا بواجب النصح للأمة بالأسلوب الحكيم المنتج، وإسهامًا بالعمل على تحقيق ما يضمن لها الخير والتمكين في دينها ودنياها. حتى إنك لترى في الواحد منهم الترجمان العملي لقيم الإسلام وأخلاقه وآدابه، الأمر الذي يذكّر بقول عائشة رضي الله عنها في شأن الخليفة الثاني رضي الله عنه: «كان عمر قرآنًا ناطقًا».

والحق أن هذا الذي نقول في هؤلاء النبغة الأبرار: كما يُشرق في أرجائه نور قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ يبدو لونًا كريمًا من ألوان التأسي بالنبي ﷺ فيما كان يقوم به -جزاه الله خير ما جزى نبيًّا عن أمته- من العمل بما يمليه العديد

من الآيات الكريمات ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة].

وغير خافٍ أن جوانب النفع في شخصية الرجل الرباني كثيرة وفيرة، خصوصًا إذا لاحظنا التكامل في تلك الشخصية – وهذا ما حرصتُ على إبرازه- بحيث تشهد من خلال إسهام الرباني في حركة الحياة الإسلامية من نقاء العقل، وصفاء القلب والمنهجية الرائعة في أخذ العلم من مظانه في الرجال، وأدائه إلى الآخرين. ناهيك عن السير في مدارج أهل القرب من الله، الذين يجمعون الخير من أطرافه فيتحقق في سلوكهم ما لا يكون المرء عالمًا في العرف الإسلامي إلَّا به؛ ألا وهو عدم الاقتصار على جمع المعارف، بل أن ينضم إلى العلم العملُ وخشية الله وتقواه. مع الأدب والتواضع وانشراح الصدر لما قد يكون من اختلاف الاجتهاد بين العالم وأخيه العالم الآخر.

ويأخذك الاستعظام حين ترى هؤلاء المخلصين المخبتين، وهمُّهم – فيما يأخذون وما يذرون- مرضاة الله تعالى، وحسن العاقبة يوم الدين، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]»[1] اهـ.

﴿وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ !!

إذا ذُكِر العلماء العاملون، والمربون الناصحون، ودعاة الهداية المخلصون، أولئك الذين يجمعون إلى العلم النافع العملَ به؛ حرصًا على

(١) «الربانيون قدوة وعمل» للدكتور محمد أديب صالح (ص٦- ١١) ملخصًا- طبع دار الوطن.

إصلاح أمور الناس في دينهم ودنياهم، وتعليمهم ما فيه خيرهم وصلاح عاجلهم وآجلهم، وأن يكونوا على المحجة البيضاء، توحيدًا خالصًا لله تعالى، وأخذًا بشريعته الغراء، النابعة من كتابه الحكيم، وسنة نبيه المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ثم ما كان من فهوم أئمة الهدى الأمناء المستبصرين..

إذا ذُكِر هؤلاءِ فحيَّهلًا بربانيي هذه الأمة، الذين همُّهم هداية الخلق إلى سواء الصراط؛ فتراهم – وقد استنارت قلوبهم وعقولهم بحقائق الهدى والخير – يعلِّمون بحكمة وروية، وهم على حال من صدق العزيمة في نصح الآخرين، والشفقة عليهم مهما كلَّفهم ذلك من متاعب، ولاقوا في سبيله من مصاعب، ويربُّون – جاهدين صابرين- بالكلمة النافعة، والقدوة المشرقة المعبِّرة، والعمل الذي يقدم برهانًا جليًا واضحًا على ما يقولون؛ الأمر الذي يُحدث ما يُحدث من الفاعلية والتأثير في الفرد والجماعة على مختلف الأصعدة، وفي شتى الميادين!.

وأنت واجد بلا ريب أن هذا الذي هو مناط التأسي بهم والانتفاع بصنيعهم، قوامه حركة دائبة يُبتغى بها وجه الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن تعتق رقابهم من النار، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

ولو تبصَّرت في أخلاقهم وسلوكهم.. وهم ربانيون يجدُّون ويجتهدون في مرضاة ربهم ظاهرًا وباطنًا، واستنطقت الوقائع بأمانة وصدق، لتبين لك توكيدُ أن هذا واقعهم دونما دعوى أو رياء، وهم لا يفتأون يحمدون مولاهم ويشكرونه على ما وفقهم إليه.

* قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران].

أين هذه القولة المشرقة الهادية: ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ من تلك القولة المظلمة العاتية المحال وقوعها من الرسول، وهي: ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، نعم أين هذه من تلك؟! وسبحان من أنزل على عبده محمد ﷺ الفرقان ولم يجعل له عوجًا.

ولا يخفى أن هذه المقابلةَ بين المقولتين كما جاءت في الأسلوب القرآني المعجز: بالغة الدلالة على عظم موقع الربانيين في ذوات أنفسهم، وفي إصلاح شؤون الأمة، ورفعة قدرهم عند رب العالمين، وعند من آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة، وسيدُهم وخاتمُهم نبيُّنا محمد ﷺ وعليهم أجمعين.

ذلك بأن العالم الرباني - كما يقول الإمام ابن القيم -: «هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد، وقد دخل في الوصف له بأنه ربانيٌّ وصفُه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله، ويمنعُ وصفَه بما خالفها»[(١)].

وإذا نظرنا في أقوال أهل التفسير، وجدنا فيها القول بأن الربانيّ منسوب إلى الربِّ، وهو الله سبحانه وتعالى، كما في قولنا: إلهيٌّ، والألف والنون فيه زائدتان في النسب للمبالغة، كما يقال لكثير الشَّعر طويله: شعْراني، فإذا أُريدت النسبة من غير مبالغة قيل: شعْري، هذا معنى

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٤٠٥) تحقيق الشيخ علي الحلبي الأثري.

قَوْلِ سيبويه.

والمقصود أنه الكامل في العلم والعمل، الشديد التمسك بطاعة الله ﷻ وتقواه، الحريص على تعليم الناس وتربيتهم على ما فيه خيرهم وصلاح أمرهم في الدين والدنيا والآخرة (١).

وقد جاء التعبير عن ذلك بقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾، أي: بسبب مثابرتكم على تعليم الكتاب ودراسته، أي قراءته على الوجه الذي ينبغي، وقد فهمت المثابرة من جعل خبر كان في ﴿كُنتُمْ﴾ مضارعًا وهو ﴿تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ حيث أفاد ذلك الاستمرار المتجدِّد.

ومن سمو الأسلوب القرآني المعجز ما نرى من تكرار ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾؛ إذ قال تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ وجاء العطف بقوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾، وفي ذلك إيذان باستقلال كل من استمرار التعليم -كما يقول العلامة أبو السعود- واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية (٢).

وقرئ «تَعلمون» بمعنى عالمين، و«تُدَرِّسون» من التدريس، كما قرئ «تُدرِسُون» من الإدراس، بمعنى التدريس، كأكرم بمعنى كرُم.

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤/ ١٢٢)، «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٠٥، ٤١٠)، «إرشاد العقل السليم» لأبي السعود (١/ ٥٠٥)، «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» لأحمد بن يوسف المعروف بـ «السمين الحلبي» (٣/ ٢٧٥) تحقيق الدكتور أحمد الخراط.

(٢) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٥٠٥، ٥٠٦).

هذا، وقد قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «تَعْلَمون» وباقي السبعة ﴿تُعَلِّمُونَ﴾، ورجح جماعة قراءة ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد على قراءة «تعلمون» بالتخفيف بأنها أبلغ، وذلك أن كل معلِّم -كما يقولون- عالم، وليس كل عالم معلِّمًا، فالوصف بالتعليم أبلغ، وبأن قبله ذكرَ الربانيين، والرباني يقتضي أن يعْلَمَ ويُعَلِّم غيره، لا أن يقتصر بالعلم على نفسه. ورجح بعضهم قراءة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بأنه لم يذكر إلَّا مفعول واحد، والأصل عدم الحذف، ولأنها أوفق لـ ﴿تَدْرُسُونَ﴾[(١)].

ومهما يكن من أمر: فإن ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى مع كونهما في غاية الصحة ومتقاربتي المعنى: مراد به هنا المزيد من تبيين الدلالة على مقومات الربانية، والصفات التي ترقى بالمرء لأن يكون في زمرة الربانيين»[(٢)] اهـ.

﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾:

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كونوا ربانيين حكماء فقهاء». ويقال: «الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»[(٣)].

□ وتفسير الحبر ابن عباس رضي الله عنهما «الرباني» بأنه الحكيم الفقيه، وافقه

---

(١) انظر: «الدر المصون» (٣/ ٢٧٧)، وانظر: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» لابن عطية (٣/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) «الربانيون قدوة وعمل» (ص١٣- ١٩) مُلَخَّصًا.

(٣) «فتح الباري» (١/ ١٥٩- ١٦٠). رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، ووصله ابن أبي عاصم بإسناد حسن، والخطيب بإسناد آخر حسن كما يقول الحافظ في «الفتح» (١/ ١٦٠).

عليه ابن مسعود ﷺ فيما رواه إبراهيم الحربي في «غريبه» عنه بإسناد صحيح[١]، وضمُّ الحكيم إلى الفقيه منه ﷺ: «له دلالته العظيمة التي لا تخفى».

□ وقد أورد الحافظ قول الأصمعي والإسماعيلي: «الرباني: نسبة إلى الرب، أي الذي يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل، كما أورد قول أحمد بن يحيى الشيباني المعروف بـ «ثعلب»: «قيل للعلماء «ربانيين» لأنهم يربون العلم أي يقومون به، وزيدت الألف والنون للمبالغة» ثم قال: «والحاصل أنه اختلف في هذه النسبة هل هي نسبة إلى الرب أو إلى التربية، والتربية على هذا للعلم، وعلى ما حكاه البخاري لتعلمه».

□ وقد سبق الكرماني رحمه الله إلى شيء من التوسع في التفسير لرواية البخاري؛ وما ذكره الحافظ عن أن النسبة في كلمة «الرباني» هل هي نسبة إلى الرب أو إلى التربية، هو تلخيص لهذا التفسير المومى إليه. قال في كتاب «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري» وهو يشرح كلام ابن عباس: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾: «حكماء فقهاء»: «قوله: «ربانيين» منسوب إلى الرب، وأصله رِبيون، فزيدت الألف والنون للتوكيد والمبالغة في النسبة، وسموا «ربانيين» لأنهم منسوبون إلى الرب تبارك وتعالى، كأنهم لإخلاصهم أنفسهم لله تعالى، وشدة تعلقهم بربهم، لا يُنسبون إلَّا إلى الرب، أو لأنهم يربون العلم، أي يقومون به، يقال لكل من قام بإصلاح شيء: قد ربَّه يرُبُّه»[٢].

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٦٠).

(٢) «الكوكب الدراري في شرح صحيح البخاري» للكرماني (٢/ ٣١).

□ وهنا ما بدٌّ من التنبيه على ما سبقت الإشارة إليه من تقرير أن العمل بالعلم هو الأصل في تلكم الفضائل التي توحيها كلمة «الربانيين» في النص القرآني، وقد أورد الإمام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» قول أبي عمر الزاهد: «سألت ثعلبًا عن هذا الحرف - وهو الرباني-؟ فقال: إذا كان الرجل عالمًا عاملًا معلِّمًا قيل له: هذا رباني، فإن حُرم من خصلة منها، لم نقل له: ربَّاني»[1]. وهذه الكلمات الزاكيات من ثعلب تكمل ما نقله عنه صاحب «الفتح» من قريب[2].

□ وكثيرة نُقُول المصادر عن أهل البصيرة: «أن الرباني هو العالم الراسخ في العلم والدين، أو أنه العالم العالي الدرجة العامل المعلم الذي يبتغي بعلمه وتعليمه ودلالة الأمة على الخير وجه الله تعالى»[3].

□ وقال ابن الأعرابي: «لا يقال للعالم: رباني حتى يكون عالمًا معلمًا عاملًا».

□ ولابد أن يستوقفنا قول الإمام البخاري: «ويقال: الربَّاني الذي يُربِّي الناس بصغار العلم قبل كباره»، فهذا دليل الاهتمام بالتدرج التعليمي والتربوي عند هذا العالم. والحكمة العالية في اتباع المنهج السليم تربية وتعليمًا، الأمر الذي يكشف عن العلاقة الحميمة بين تعليم العلم وتربية الناس على العمل بما يتعلمون.

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن قيم الجوزية (١/ ٤٠٥).

(٢) انظر: «عمدة القاري» للبدر لاعيني (٢/ ٤٣).

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (٤/ ١٢٢)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٠٥، ٤٠٩)، و«لسان العرب» مادة «ريب» (١/ ٤٠٤).

والمراد بصغار العلم – كما يقول العلماء-: ما وضح من مسائله، وبكباره، ما دقَّ منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده، وكل هذا من الأسلوب الحكيم في مراعاة المرحلة الزمنية التي يمرُّ بها المتلقي، والعمل على إيصال المعلومة، والتربية عليها من أيسر طريق.

وبعد، فالنسب متصل بين هذا المتحدَّث عنه وبين تفسير ابن عباس للرباني بـ «الحكيم الفقيه»؛ إذ الحكمة صحة القول والعقد والفعل، وقيل: «الحكمة» الفقه في الدين بالمعنى اللغوي وهو أعم من المعنى الاصطلاحي، وقيل: «الحكمة» معرفة الأشياء على ما هي عليه. «والفقه»: الفهم لغة، والعلم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية اصطلاحًا؛ فإذا انضم إلى ذلك شدة التمسُّكِ بالدين والإخلاص لرب العالمين فقد تمّت النعمة على طريق سعادة الدارين[١].

□ والذي عند الإمام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»: «قال سيبويه: زادوا ألفًا ونونًا في الرباني، إذ أرادوا تخصيصًا بعلم الرب تبارك وتعالى، كما قالوا: شَعْراني ولحياني»[٢].

□ ثم قال ابن القيم: «معنى قول سيبويه رحمه الله أن هذا العالم لما نُسب إلى علم الرب تعالى الذي بعث به رسوله وتخصَّص به نُسب إليه دون سائر من علَّم علمًا»[٣].

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٦٢).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤١٠).

(٣) المصدر السابق (١/ ٤١٠).

□ ثم نقل قول الواحدي في كتابه: «التفسير الوسيط»: «فالربانيُّ على قوله – يعني سيبويه- منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب، أي يُعلِّم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى»(١).

□ وقال البقاعي في «نظم الدرر»: «ولما ذكر –أي: النبيُّ- ما لا يكون له أتبعه ما له فقال: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي يقول: كونوا ربانيين، أي تابعين طريق الرب منسوبين إليه بكمال العلم المزيَّن بالعمل.

والألف والنون زيدتا للإيذان بمبالغتهم في العلم ورسوخهم في العلم اللدُنِّي، فإن الربانيَّ هو الشديد التمسك بدين الله سبحانه وتعالى وطاعته».

□ وبعد أن استشهد لشدة التمسك هذه والطاعة بكلمة محمد بن الحنفية يوم مات الصحابي البحر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «اليوم مات رباني هذه الأمة»، قال رحمه الله: «﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي بسبب كونكم عالمين بالكتاب معلمين له، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾ فإن فائدة الدرس العلم، وفائدة العلم العمل، ومنه الحث على الخير والمراقبة للخالق»(٢).

□ وقال الزجاج: «ومعنى الكلام: ليكن هديُكم ونيّتكم في التعليم هديَ العلماء والحكماء؛ لأن العالم إنما يستحق هذا الاسم إذا عمل بعلمه»(٣).

□ وقال صاحب «تفسير المنار» في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا

(١) «التفسير الوسيط» للواحدي (١/ ٤٥٦).
(٢) «نظم الدرر» للبقاعي (٤/ ٤٦٨).
(٣) «زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٤١٤).

كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ بقوله هناك: «أي ولكن يأمرهم النبي الذي أوتي الكتاب والحكم والنبوة بأن يكونوا منسوبين إلى الرب مباشرة من غير توسطه هو، ولا التوسُّل بشخصه، وإنما يهديهم إلى الوسيلة الحقيقية الموصلة إلى ذلك، وهي تعليم الكتاب ودراسته؛ فبعلم الكتاب وتعليمه والعمل به يكون الإنسان ربانيًّا مرضيًّا عند الله تعالى؛ فالكتاب هو واسطة القرب من الله تعالى، والرسول هو الواسطة المبلغة للكتاب، كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]»[(١)].

□ وهناك قول آخر، قِوامه أن الربانيَّ منسوب إلى الربِّ الذي هو المصدر بمعنى التربية، وهو الذي يَرُبُّ العلم - أي يجمعه ويتعلمه ويعلِّمه- كالحكيم، قال الراغب الأصفهاني: «وقيل: منسوب إليه وهو معناه يَرُبُّ نفسه بالعلم، وكلاهما في التحقيق متلازمان؛ لأن من ربَّ نفسه بالعلم فقد ربَّ العلم، ومن ربَّ العلم فقد ربَّ نفسه به»[(٢)].

□ وجنح إلى ذلك أبو العباس أحمد بن يوسف الحلبي الشافعي، المعروف بـ «السمين»، والمتوفَّى سنة ست وخمسين وسبعمئة، وهو ما نجده في كتابه «عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ»؛ حيث قال هناك: «والربانيون جمع رباني، منسوب إلى لفظ الرب بمعنى التربية، وذلك أن العلماء يَربون العلم، أي يصلحونه ويتعلمونه، ثم يَرُبُّون الناس به فيعلمونهم كما تعلموا، ويصلحونهم كما صلحوا هم به، وهم الذين يُربون

---

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٣٤٨).

(٢) «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني (ص٣٣٦).

بصغار العلم قبل كباره، فهو من لفظ التربية ومعناها»[(١)].

والملاحظ في كلامه أن يَرُبُّون من الإصلاح والإتمام، والجمع بمعنى يُرَبُّون.

□ قال الجوهري في «الصحاح»: «ربَّ فلان ولده يربُّه ربًّا، وربَّبه، وتربَّبه بمعنًى، أي: ربَّاه»[(٢)].

□ بقى أن نقول: «هنالك اتجاه ثالث عُمْدَته أن «الربانيّ» منسوب إلى الربَّان، وهو ما ذهب إليه المبرد؛ إذ نقل عنه قوله: «الربانيون: أرباب العلم، واحدهم ربَّان من قولهم: ربَّه يربُّه فهو ربَّان إذا دبَّره وأصلحه؛ فمعناه على هذا: يدبرون أمور الناس ويصلحونها، والألف والنون للمبالغة، كما قالوا: ريَّان وعطشان، ثم ضمت إليها ياء النسبة، كما قالوا: لحياني، ورقباني، وجُمَّاني»[(٣)].

□ والملاحظ أن كلام المبرد رحمه الله يتسع فيه معنى الربان للتربية والإصلاح مع التعليم، وذلكم هو العمل بالعلم على حقيقته، ومن هنا قال الإمام القرطبي: «فمعنى الرباني: العالم بدين الرب الذي يعمل بعلمه؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بالعالم، فالرباني يعمل بالعلم في نفسه، ويعمل به في تعليم الناس وتربيتهم على الخير، ودعوتهم إلى ما فيه المصلحة المرعية في عاجلهم وآجلهم ودنياهم ودينهم»[(٤)].

---

(١) (ص١٢٩) منه.

(٢) «الصحاح» للجوهري مادة «ربب» (١/ ١٣٠)، وانظر: «الدر المصون» (٣/ ٢٧٥، ٢٧٦) للسمين الحلبي.

(٣) وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤/ ١٢٢).

(٤) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٢٢).

والقول بنسبة الرباني إلى الربَّان مع هذا التوسع والشمول في أبعاد الكلمة ومراميها: هو ما ذهب إليه شيخ المفسرين الطبري وأوسعه بيانًا، وجرى على هذا السنن آخرون من العلماء!

□ قال أبو جعفر: «وأولى الأقوال عندي بالصواب في «الربانيين» أنهم جمع «رباني»، وأن الربانيَّ: المنسوبُ إلى الربَّان الذي يربُّ الناس، وهو الذي يصلح أمورهم ويربُّها ويقوم بها، ومنه قول علقمة بن العبد:

وكنتُ امرءً أفضت إليك ربابتي ... وقبلك ربتني فضِعت رُبوب

يعني بقوله: «ربَّتْني»: وليَ أمري والقيام به قبلك من يَرُبُّه ويصلحه، فلم يصلحوه، ولكنهم أضاعوني فضعت»[1].

يقال منه: «ربَّ أمري فلان يربُّه وهو رابُّه»، فإذا أريد به المبالغة في مدحه قيل: هو ربَّان».

إلى أن يقول: «فإذا كان الأمر كذلك على ما وصفنا: وكان «الربّان» ما ذكرنا، و«الرباني» هو المنسوب إلى من كان بالصفة التي وصفت، وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين يربُّ أمور الناس بتعليمه إياهم الخير، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيم التقي لله، والوالي الذي يلي أمور الناس على المنهاج الذي وليه المقسطون من المصلحين أمور الخلق، بالقيام فيهم بما فيه صلاحُ عاجلهم وآجلهم، وعائدةُ النفع عليهم في دينهم ودنياهم، كانوا جميعًا يستحقون أن يكونوا ممن دخل في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾.

---

(١) «جامع البيان في تأويل آي القرآن» (٦/ ٥٤٣).

فـ «الربانيون» إذًا هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا؛ ولذلك قال مجاهد: «وهم فوق الأحبار»؛ لأن الأحبار هم العلماء، و«الربانيُّ» الجامع إلى العلم والفقه، البصرَ بالسياسة والتدبير، والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دنياهم ودينهم»[١].

هذا، ويسلمنا القول في شأن هذه النسبة في كلمة «رباني» إلى ما ورد في الآثار من صفات من يستحق أن يقال له: «رباني»، وهي صفات تلتقي مع تعليل النسبة المذكورة من حيث السعه والشمول، فقد روى الطبري بسنده عن أبي رزين مسعود بن مالك الأزدي من عدة طرق: «﴿كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ حكماء علماء».

وفي رواية له عن الحسن البصري: «كونوا فقهاء علماء».

وعن مجاهد والسدي: «حكماء فقهاء».

وعن قتادة: «كونوا فقهاء علماء».

وما ذكر من الحكماء الفقهاء، والفقهاء العلماء: هو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه، وسعيد بن جبير، وفي رواية عنه: «حكماء أتقياء»، كما روي شيخ المفسرين عن ابن زيد: «الولاة والأحبار والعلماء».

ويرى مجاهد أن «الربانيين» فوق الأحبار، وهو ما رأيناه في كلام الطبري من قريب، وقد استحسنه النحاس.

□ قال أبو عبيدة: «سمعت عالمًا يقول: الرباني العالم بالحلال والحرام، والأمر والنهي، والعارف بأنباء الأمة وما كان وما يكون – يعني ما جاء

(١) «جامع البيان» للطبري (٦/ ٥٤١– ٥٤٣).

في الأخبار الصادقة- والله أعلم» (١).

□ وجميل قول ابن عطية بعد ذكر عدد من الآثار المتقدمة: «فجملة ما يقال في الرباني أنه العالم بالرب والشرع، المصيب في التقدير من الأقوال والأفعال التي يحاولها في الناس» (٢) والله الموفق.

العالم الرَّبَّانِيُّ:

□ عن كُميل بن زياد النخعي قال: «أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيدي، فأخرجني إلى ناحية الجبَّانة، فلما أصحر - أي برز للصحراء- تنفَّس ثم قال: يا كُمَيل بن زياد! القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للخير. احفظ عني ما أقول: الناس ثلاثة؛ فعالم رباني، ومتعلِّم على سبيل النجاة، وهمجٌ رعاع أتباع كلِّ ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق. العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل - وفي رواية: على النفقة - والمال تنقصه النفقة. العلم حاكم والمال محكوم عليه، ومحبة العالم دين يُدانُ بها. العلم يكسب العالم الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، وصنيعة المال تزول بزواله.. إلى أن قال في إشارة إلى أولئك الربانيين: لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته، لكيلا تبطل حجج الله وبيناته، أولئك الأقلون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على

---

(١) انظر: «المحرَّر الوجيز» لابن عطية (٣/ ١٩٠، ١٩١)، و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤/ ١٢٢).

(٢) «المحرر الوجيز» (٣/ ١٩١)، و«البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (٢/ ٥٣٠).

حقيقة الأمر، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأنِسوا بما استوحش منه الجاهلون. صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقةٌ بالملأ الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه.. ودعاته إلى دينه، هاه.. هاه.. شوقًا إلى رؤيتهم، وأستغفر الله لي ولك، إذا شئت فقم»[١]. ورواه الخطيب في كتابه «الفقيه والمتفقه»، والمزي في «تهذيب الكمال» وغيرهم.

هذا، ولا بد من الإشارة إلى أن الإمام ابن القيم قد نبَّه على ما يجب من تأويل عبارة «أولئك خلفاء الله في أرضه أو في بلاده»؛ لأن الله تعالى هو خليفة العبد؛ إذ أن العبد يموت فيحتاج إلى من يخلفه في أهله، والله ولي التوفيق.

ربّاني هذه الأمة: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

ما أعظم ما يُرَى من فقه التابعي الجليل محمد بن علي بن أبي طالب رحمه الله المشهور بـ «محمد بن الحنفيّة» لأبعاد قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ومعرفته بأقدار الرجال حين قال يوم وافت المنيةُ حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «مات اليوم رباني هذه الأمة»[٢].

وغير خافٍ ما كان عليه هذا الصحابي البحر من سعة العلم ووفرة العقل وصدق التأله والتعبد والحرص على نشر العلم النافع والإسهام المتميز في بقاء التمكين للأمة وتدبير شؤونها على نهج يضمن لها الخير في دينها ودنياها، ولعل من ربانيته ما تحقق له بفضل الله من دعوات الرسول ﷺ.

---

(١) «الكشاف» للزمخشري (١/ ١٩٨).

(٢) «الكشاف» للزمخشري (١/ ١٩٨).

وعلى يَدَي ابن عباس المباركتيْن تخرّج الأفذاذ من الأئمة العلماء الربانيين الذين لا يُشَقُّ لهم غبار: سعيد بن جبير، وطاووس بن كَيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة بن دِعامة، وابن جريج. أئمة مدرسة التفسير بمكة «مدرسة ابن عباس». وهم أئمة في العلم والعمل والتعليم.

مدرسة ابن مسعود بالعراق مدرسة ربّانية:

ابن مسعود، والربيع بن خثيم، وعلقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي وأبو وائل، وإبراهيم النخعي:

مدرسة الحبر أبي عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الرباني رضي الله عنه الذي يأخذ بمجامع قلبك حين تقرأ عن علمه وعبادته وتعليمه.

□ سُئِل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن ابن مسعود رضي الله عنه فقال: «قرأ القرآن ثم وقف عنده وكفى به، وعلم السُّنَّة»(١).

□ عن أبي الأحوص قال: «أتينا أبا موسى، فوجدت عنده عبد الله وأبا مسعود، وهم ينظرون في مصحف، فتحدثنا ساعة، ثم راح عبد الله -يعني ابن مسعود- فقال أبو مسعود: «لا والله لا أعلم رسول الله ﷺ ترك أحدًا أعلم بكتاب الله من هذا القائم»(٢).

ونظرات عمر رضوان الله عليه في الرجال - وما أدراك ما هي تلكم النظرات!- تهدينا إلى حظ أوفر في أن نقدر أبا عبد الرحمن قدره فيما كان

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (٣/ ٣١٨) وصححه ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٩).

(٢) رواه مسلم (٢٤٦١)، (١١٣)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٤١٤).

عليه من العلم والخَشية لله عَزَّوَجَلَّ.

□ عن زيد بن وهب قال: «إني لجالس مع عمر بن الخطاب، إذ جاء ابن مسعود، فكاد الجلوس يوازونه من قِصره، فضحك عمر حين رآه، فجعل عمر يكلِّمه، ويتهلّل وجهه، ويضاحكه وهو قائم عليه، ثم ولَّى فأتبعه عمر بصره حتى توارى. فقال: «كُنَيْف مُلئَ علمًا»[(١)].

وهذا الذي شهد به عمر رضي الله عنه، كان رواقه الظليل يمتد إلى تلامذة أبي عبد الرحمن وأصحابه، حيث يفيض عليهم - وهو الربَّانيُّ المعلِّم- من علمه بالكتاب والسنة علم فقه وتدبر، وحكمة وتذكر، وما تميز به من تلاوة الكتاب العزيز غضًّا طريًّا كما أخبر عن ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم، يفيض عليهم ما به يستقيم سلوكهم وهم يبنون الحضارة المثلى فيعرفون الحلال من الحرام، ويضبطون تعاملهم مع الله جل شأنه وعُبَّاد الله بضوابط الشريعة المطهَّرة، كما يربيهم بالكلمة والقدوة والموقف، على أن يكونوا على المحجة البيضاء في دنياهم العاجلة متطلعين بإخلاص إلى ما فيه نجاتهم يوم الدين حيث العاقبة للمتقين.

□ حدَّث حبَّة بن جوين قال: «لما قدم عليٌّ رضي الله عنه الكوفة أتاه نفر من أصحاب عبد الله، فسألهم عنه حتى رأوا أنه يمتحنهم، فقال: «وأنا أقول فيه مثل الذي قالوا وأفضل؛ قرأ القرآن وأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه، فقيه

---

(١) إسناده صحيح: رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ١/ ١١٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٩)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٤٣). والكُنَيْف: تصغير كِنف، وهو الوعاء يكون فيه أداة الراعي، والتصغير للتعظيم.

في الدين، عالم بالسنة»[(١)].

وحين ينضَمُّ إلى بهاء التلاوة وحسنها تدبُّر المعاني، والفقه بمرامي النصوص بصفاء قلب واستنارة بصيرة، فحدث ولا حرج عما يكون وراء ذلك من الخير للعالم الرباني في مدارج القرب من الله، ولمن يوليه الله أمرهم في الدلالة على ما فيه سعادة الدارين.

□ قال الإمام الشعبي: «ما دخل أحد من الصحابة أنفع علمًا ولا أفقه صاحبًا من عبد الله»[(٢)].

ولكم يعمل العلم الذي يراد به وجه الله عمله في نفوس الربانيين وقلوبهم، ولكم تزداد خشيتهم من الله كلما ازدادوا من ذلك العلم الذي كان تزودهم منه رغبةً في مرضاته سبحانه وتعالى!!

وما يعمله هذا العلم النافع المقترن بالخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] يشرق به ما يكون من سلطانه على النفوس فيهذبها ويزكيها شأن طريق المفلحين، وعلى القلوب فينيرها ويصفيها من شوائب التلفُّت إلى غير الحق رب العالمين. وعندها يكون الإقبال على الطاعة في ازدياد، والهمة في علو متجدد في فعل القربات؛ ذلك بأن هؤلاء البررة على تذوق دائم لحلاوة الإيمان التي لا تنقطع، وانشراح صدر للعمل بالعلم، واستشعار لا يعتريه فتور لما يكون في لذة المناجاة والبكاء بين يدي علام الغيوب.

□ ومصداق ذلك في حياة أبي عبد الرحمن واضح لا يعتريه لَبس أو

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١/ ١١٠)، و«السير» (١/ ٤٩٢).

(٢) «السير» (١/ ٤٩٤).

غموض؛ فعن عون بن عبد الله عن أخيه عبيد الله قال: «كان عبد الله إذا هدأت العيون قام، فسمعتُ له دويًّا كدويِّ النحل»(١).

□ وروى الإمام أحمد بسند حسن عن علي رضي الله عنه قال: «جالست أصحاب رسول الله ﷺ، فما رأيت أحدًا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أحب إليَّ أن أكون في مِسْلاخه من ابن مسعود»(٢).

□ حدَّث منصور والأعمش عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: «سمعت حذيفة يقول: «إنه أشبه الناس هديًا ودلًّا وسمتًا وخطبة برسول الله ﷺ من حينِ يخرج من بيته إلى أن يرجع، لا أدري ما يصنع في أهله: لَعَبْدُ الله بنُ مسعود، ولقد علم المتهجدون - أو المجتهدون، وفي رواية: المحفوظون - من أصحاب محمد ﷺ أن عبد الله من أقربهم عند الله وسيلة يوم القيامة»(٣).

□ وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: «أتيْنا على حذيفة فقلنا: حدِّثنا مَنْ أقربُ الناس من رسول الله ﷺ هديًا ودلًّا، فنأخذَ عنه ونسمع منه؟ قال: كان أقربَ هديًا ودلًّا وسمتًا برسول الله ﷺ ابن مسعود حتى يتوارى منا في بيته، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد هو أقربهم إلى الله زلفى»(٤).

---

(١) «الإصابة» (٢/ ٣٧٠)، و«صفة الصفوة» (١/ ١٥٨).

(٢) في مسلاخه: أي في مثل هَدْيه وطريقته.

(٣) انظر: «صحيح البخاري» (٧/ ١٠٢، ١٠٣)، والترمذي (٥/ ٦٣١)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣١٥)، و«السير» (١/ ٤٧٠)، و«الحلية» (١/ ١٢٦، ١٢٧)، و«الطبقات» (٣/ ١/ ١٩١).

(٤) «جامع الترمذي» (٣٨٠٩).

وعندما نُدير الحديث عن هذا الرجل الرباني علمًا وعملًا ورواية غزيرة للعلم وتنسكًا وزهادة وإسهامًا في تربية الجيل المسلم على الهدى والخير، ومعاونة جادَّةً على إحكام بُنى المجتمع المسلم.. لا نكون طمعنا في غير مطمع، ولكنها عودة إلى الظل الظليل في رحلة ميمونة مع القدوة الثقة الذي لم يغادر إرث النبوة في حياته الزاخرة بالمكارم، بل كان أبدًا على الهدي المحمدي، عن علم وبصيرة وإخلاص في الدين.

• عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقتدوا باللذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر، واهتدوا بهَدْي عمّار، وتمسَّكوا بعهد ابن أم عبد**»[١].

• وعن زرّ بن حبيش عن عبد الله أن رسول الله ﷺ دخل المسجد وهو بين أبي بكر وعمر، وعبد الله قائم يصلي، فافتتح سورة النساء فسجَلها[٢] - أو يسجِلها - فقال ﷺ: «**من أحبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد**»، فأخذ عبد الله في الدعاء، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**سل تُعط، سل تُعط - أو سل تعطه، سل تعطه -**»، فكان فيما سأل: اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى جنان الخلد. قال: فأتى عمر رضي الله عنه عبد الله ليبشره، فوجد أبا بكر رضوان الله عليه خارجًا قد سبقه، فقال: لقد كنت سباقًا بالخير، وفي رواية أخرى له: يرحم الله أبا بكر، ما سبقته إلى خير قط إلَّا سبقني إليه»[٣].

---

(١) «المسند» (١/ ٣٧٩).

(٢) سَجَلَها: أيْ قرأها قراءة متصلة، من السَّجل: أي الصَّبّ.

(٣) «المسند» (١/ ٣٧٩).

□ انظر أخي إلى رائعة روائع ما جادت به ربانيّة ابن أم عبد رضي الله عنه قال: «إن الله نظر في قلوب العباد: فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته. ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون عن دينه؛ فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئٌ»[(١)].

فأي استنارة في الفهم وأي عمق في الإدراك كان عند الرباني ابن أم عبد رضي الله عنه!!

□ أكرم بمدرسة الهدي المحمدي، مدرسةً يكون من عيون أبنائها المجلِّين الربانيُّ عبد الله الذي كان لا يفتأ يدندن حول حسن التأسي، مرابطًا على إرث النبوة في مخالطة إيمانية عملية لكتاب الله الحكيم، والسنة النبوية المطهرة، حتى كان – كما دلت النصوص- أقرب هديًا ودلًّا وسمتًا وخطبة بالرسول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع.

• قال رسول الله ﷺ: **«من أحب أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»**[(٢)].

• وقال ابن مسعود رضي الله عنه وهو الذي عاش على الأرض بطهر السماء: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٤٤٥، ٤٥٤)، والحاكم بنحوه في «المستدرك» عن علي (٣/ ٣١٧)، وصحّحه ووافقه الذهبي، وكذا رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٧٨، ٢٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٤).

يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون – يعني فرح بطر وأشر – وبصمته إذا الناس يخلطون، وببكائه إذا الناس يضحكون – أي لهوًا وغفلة – وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا من خشية الله محزونًا، حكيمًا عليمًا سكيتًا، وينبغي لحامل القرآن أن لا يكون جافيًا ولا غافلًا، ولا صخابًا، ولا صياحًا، ولا حديدًا»[١].

• هذا قول من قال له الرسول ﷺ وهو غلام: «**يرحمك الله فإنك غُلَيِّمٌ مُعَلَّم**». أي ملهم للصواب والخير.. وفي هذا ما فيه من قوة التشجيع والتحريض على علو الهمّة عند عبد الله – بما ذهب إليه بعض أهل العلم من أن معنى قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يسف: ٦٨]، لذو عمل بما علمناه وهو يعقوب عليه السلام. قال الإمام القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن»: «وقيل: «لذو علم» أي عمل؛ فإن العلم أول أسباب العمل، فسمي بما هو بسببه»[٢].

□ وروى الأزهري في كتابه «تهذيب اللغة» عن سعد بن زيد عن أبي عبد الرحمن المُقرئ أيضًا أن المعنى «لذو عمل بما علَّمناه، يقول سعد: فقلت: يا أبا عبد الرحمن ممن سمعت هذا؟ قال: من ابن عيينة! قلت: حسبي»[٣].

وقد أخذ بهذا القول من المُحْدَثين العلامة الطاهر بن عاشور، فقال في «التحرير والتنوير»: «وقد دل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾

---

(١) «الحلية» (١/ ١٣٢).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٢٩).
(٣) «لسان العرب»: مادة (ع ل م).

بصريحه على أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عمل بما علَّمه الله. ودلَّ قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ بتعريضه على أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ من القليل من الناس الذين علموا مراعاة الأمرين ليتقرر الثناء على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ باستفادته من الكلام مرتين: مرة بالصراحة ومرة بالاستدراك»[(١)] والله ولي التوفيق.

□ لقد بلغ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منزلة عظيمة في القرب من رسول الله ﷺ، فتأثر بحبيبه ﷺ وهديه أيَّما تأثُّرٍ، فعن عبد الرحمن بن يزيد. عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا عبد الله، إذنُك عليَّ أن يُرفعَ الحجابُ، وتسمعَ سِوادي**[(٢)] **حتى أنهاك**»[(٣)].

فأي منزلة أعلى من منزلةِ سَمْعِ السِّرَار.. فابن أم عبد يُصنع على عينِ رسول الله ﷺ.. فيكون أقرب الناس دَلًّا وهَدْيًا وسَمْتًا برسول الله ﷺ: كان حبيبه ﷺ أعلم الناس بالله وأشدهم له خشية.. وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المُتَقَلِّبُ في نور العبودِيَّة طمعًا في التوبة والغفران، الداعي رغبًا ورَهَبًا في محراب الخوف والرجاء يقول: «خائف مستجير تائب، مستغفر راغب راهب»[(٤)].

---

(١) «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور (١٣/ ٢٥).

(٢) السِّوَاد: السِّرار، يُقال: ساودتُ الرَّجُل مساودَةً إذا ساررته. قيل: هو من إدناء سَوادك من سَواده: أي شخصك من شخصه.

(٣) رواه مسلم (٢١٦٩) باب جعل الإذن رفع حجاب أو نحوه من العلامات، وابن ماجه في المقدمة (١٣٩)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١/ ١٠٨، ١٠٩)، وابو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٦).

(٤) «السير» (١/ ٤٩٦).

ولما قال رجل في مجلسه: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، وأن أكونَ من المقربين أحبُّ إلي؟ قال رضي الله عنه: «لكن ها هنا رجل ودَّ إذا مات أنه لا يُبعث -يعني نفسه-»[(١)].

وهو الرباني مُجاب الدعاء: الذي يقول في قيامه بالليل «اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقَطع -أو قال: لا تبيد-، ومرافقة النبي ﷺ في أعلى جنة الخلد»، وقول النبي ﷺ: «**سَلْ تُعَط سَلْ تُعْطَ -أوْ سَلْ تُعطه سَلْ تُعطه-**».

وابن مسعود رضي الله عنه مع هذا كله بطل من أبطال المسلمين، ومجاهد فذَّ شهد مع الرسول ﷺ بدرًا وأُحُدًا، والخندق، وبيعة الرضوان، وسائر المشاهد، وشهد اليرموك، وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر، إذ جاءه وما يزال به رمق بعد أن أثبته ابنا عفراء.

وعلى يد هذا النجيب الربّاني تربَّى الربّانيون:

الربيع بن خُثَيْم:

التابعيُّ الجليل، والإمام العَلم المُربِّي، خير أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وتلامذته، أبو يزيد الربيع بن خُثَيم بن عائذ.

كان الإمام الرباني القدوة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يضع الربيع -وهو من عيون أصحابه والآخذين عنه- موضع التكريم ورفعة الشأن:

□ عن أبي عُبيدة بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كان الربيع بن

(١) «الحلية» (١/ ١٣٣، ١٣٤)، و«السير» (١/ ٤٩٦، ٤٩٧)، و«صفة الصفوة» (١/ ١٥٩).

خُثيم إذا دخل على عبد الله لم يكن عليه إذنٌ لأحد – وفي رواية: لم يكن له إذن لأحد – حتى يفرغ كل واحد من صاحبه. قال: وقال له عبد الله: «يا أبا يزيد، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبَّك».

وفي رواية: «لأحبَّك ولأوسَعَ لك إلى جنبه، وما رأيتُك إلَّا ذكرت المخبتين»(١).

ويا نعم ما كان عليه أبو يزيد من مخافة الله سبحانه وتعالى، والفَرَق من أن يكون من أصحاب الجحيم، وهذا دليل استنارة القلب بمعرفة الله ﷻ؛ فعلى قدر المعرفة تكون الخشية!!.

□ عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: «خرجنا مع عبد الله بن مسعود ومعنا الربيع بن خُثيم، فمررنا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، فنظر الربيع إليها. فتمايل ليسقط، فمضى عبد الله حتى أتينا على أتون على شاطئ الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه، قرأ هذه الآية: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان].

قال: فصَعِق الربيع فاحتملناه فجئنا به إلى أهله، قال: ثم رابطه عبد الله إلى المغرب فلم يفق، ثم إنه أفاق، فرجع عبد الله إلى أهله»(٢).

ورواه ابن أبي حاتم بلفظ: «فحملوه إلى بيته، ورابطه عبد الله إلى

(١) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٢، ١٨٣)، و«الحلية» (٢/ ١٠٦)، و«صفة الصفوة» (٢/ ٣١)، و«السير» (٤/ ٢٥٨).
(٢) «الحلية» (٢/ ١١٠).

الظُّهر، فلم يُفق رضي الله عنه»[(١)].

سبحان من أودع في كل قلب ما شغله، كيف لا يقع من الربيع ما وقع، وهو على حال قد شفَّه فيها الحزن، واستأثرت بقلبه مخافة أن يكون ممن تسعَّر بهم الجحيم!! لما أنه يرى بأدبه مع الله، وما أُكرم به من عبودية المخبتين، أنه شديد التقصير في جنب الله، وهذه الخليقة المباركة من أكرم ما يتصف به العالم العامل الرباني.

□ وعن عبد الرحمن بن عجلان قال: «بِتُّ عند الربيع بن خثيم ذات ليلة، فقام يصلي، فمرّ بهذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية][(٢)].

□ وكان رحمه الله إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحنا ضعفاء مذنبين نأكل أرزاقنا وننتظِرُ آجالنا»[(٣)].

وحدَّث نُسير بن ذُعلوق قال: كان الربيع بن خثيم يبكي حتى تبتل لحيته من دموعه، ويقول: أدركنا قومًا كنا في جنوبهم لصوصًا. رواه ابن سعد.

وانظر إلى عظيم أخذه بالسنة علمًا وعملًا، وما أثمر له ذلك من الخير في نفسه، وفيمن يأخذون عنه بالتَّعلُّم والتزكية والقدوة.

□ قال أبو حيان يحيى بن سعيد بن حيان التميميُّ: «حدثني أبي قال:

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٢٥٤١).
(٢) «الحلية» (٢/ ١١٢).
(٣) «الحلية» (٢/ ١٠٩)، و«السير» (٤/ ٢٥٩).

كان الربيع بعدما سقط شقه بالفالج يُهادى بين رجلين إلى مسجد قومه، وكان أصحاب عبد الله يقولون: يا أبا يزيد، لقد رخَّص الله لك لو صليت في بيتك! فيقول:إنه كما تقولون، ولكني سمعته ينادي حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح – وفي رواية: إني أسمع حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح–، فمن سمع منكم ينادي حيَّ على الفلاح، فليُجب ولو زحفًا، ولو حَبْوًا، وعند ابن سعد: فإن استطعتم أن تأتوها ولو حبوًا [فافعلوا]»(١).

وهذا من الورع وشدة الاستمساك بالهدي النبوي بمكان!.

وهذه الصورة من صور الورع – وغيرها كثير في سلوك أبي يزيد– تؤكد صواب وصدقَ ما روي عن الشعبي رحمه الله أنه كان يقول: «كان الربيع أورع أصحاب عبد الله»(٢)؛ فأصحاب ابن مسعود رضي الله عنه كلهم وَرِع، ولكن الربيع أشدهم وَرَعًا.

من دُرَر كلام الرباني الربيع بن خُثَيْم:

□ قال الربيع بن خُثيم: «كُلُّ ما لا يُرادُ به وجه الله يضمحِلّ»(٣).

وقال: «اتق الله فيما علمت، وما استؤثر به عليك، فكِلْه إلى عالمه؛ لأَنا في العمد أخوفُ مني عليكم في الخطأ، وما خيّرُكم اليوم بخيّر، ولكنه خير من آخر شرٍّ منه، وما تتبعون الخير حق اتباعه، وما تفرُّون من الشر حق

(١) «الحلية» (٢/ ١١٣)، و«الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٩، ١٩٠)، و«تهذيب التهذيب» (١١/ ٢١٤)، و«المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٧١).
(٢)«السير» (٤/ ٢٦١)، و«الحلية» (٢/ ١٠٧).
(٣)«الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٦)، و«السير» (٤/ ٢٥٩).

فراره. ولا كلَّ ما أنزل الله على محمد ﷺ أدركتم، ولا كلَّ ما تقرؤون تدرون ما هو.

ثم يقول: السرائرَ السرائرَ اللاتي يَخْفَيْن عن الناس وهن لله بَوَاد - أي ظاهرات - التمسوا دواءهنَّ، وما دواؤهن إلَّا أن تتوب ثم لا تعود»[(١)].

□ وكان يقول في وصاياه: «أقلُّوا الكلام إلَّا من تسع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلاوة القرآن، ومسألة الخير، والاستعاذة من الشر»[(٢)].

□ وبلفظ آخر عنه: «أقلوا الكلام إلَّا بتسع: تسبيح، وتكبيرٍ، وتهليل، وسؤالِك الخير، وتعوذِك من الشر، وأمرِك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءة القرآن»[(٣)].

□ وعن منذر الثوري عن ربيع بن خثيم أنه كان يقول: «يا عبد الله، قل خيرًا أو اعمل خيرًا، ودم على صالحة، لا يطولنَّ عليك الأمد، ولا يقسونَّ قلبك، ولا تكوننَّ من الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون.

* يا عبد الله، إن كنت عملت خيًا، فأتْبعْ خيرًا خيرًا؛ فإنه سيأتي عليك يوم تودُّ لو ازددت، وإن كان مضى منك الهمُّ بسيئة لا محال، فاعمل خيرًا؛ فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: ١١٤].

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٥)، و«الحلية» (٢/ ١٠٨، ١٠٩)، و«السير» (٤/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٥)، و«الحلية» (٢/ ١٠٩).

(٣) «الحلية» (٢/ ١٠٩).

* يا عبد الله، ما علَّمك الله في كتابه من علم فاحمد الله عليه، وما استؤثر عليك فيه من علم فكِلْهُ إلى عالِمه، ولا تكلَّف، فإنه يقول: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص].

يا عبد الله، اعلم أن العبد إذا طالت غيبته، وحانت جيئته.. انتظره أهله كأن قد جاء، فأكثِروا ذكر هذا الموت الذي لم تذوقوا قبله مثلَه، والسرائرَ السرائرَ اللائي يَخْفين من الناس وهنَّ لله بَوَاد»(١).

رحم الله أبا يزيد: فقد كان من أهل الخير علمًا وعملًا، وعطاءً سخيًا على صعيد التفقيه في الدين، والإرشاد إلى ما فيه مرضاة رب العالمين، والنجاة يوم الوعد الحق، والنبإ اليقين.

□ وعن أبي قيس السهمي قال: جلستُ إلى الربيع بن خثيم فقال: «قولوا خيرًا، وافعلوا خيرًا تجزوا خيرًا»(٢).

□ وقال: «قولوا خيرًا، وافعلوا خيرًا، وودموا على صالح ذلك، واستكثروا من الخير، واجتنبوا الشر لا تقسوَ قلوبكم، ولا يطول عليكم الأمد».

وانظر إلى صدق دعائه وإشراق مناجاته:

□ قال الشعبي: «دخلنا على الربيع بن خثيم نعوده، قال: فقلنا له: ادع الله لنا فقال: اللهم لك الحمد كلُّه، وبيدك الخير كلُّه، وإليك يرجع الأمر كلُّه، وأنت إله الخلق كلِّه، نسألك من الخير كله، ونعوذ بك من

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٣، ١٨٤).
(٢) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٥).

الشر كله»(١)

□ وعن عبد خير قال: «كنت رفيقًا للربيع بن خثيم في غزاة - فذكرها - قال: فرجع ومعه رقيق ودواب، قال: فمكثت أيامًا، ثم أتيته فلم أحسَّ من ذاك الرقيق ولا من تلك الدوابِّ شيئًا، فاستأذنت فلم يجبني أحد، ثم دخلت. قال: فقلت: أين رقيقك ودوابُّك؟ فلم يجبني، فأعدت عليه فقال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]»(٢).

□ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما غائب ينتظره المرءُ خير من الموت».

□ وقال سفيان الثوري: كان الربيع بن خثيم يقول: «أريدوا بهذا الخير الله تَنالوه، لا بغيره. وأكثروا ذكر هذا الموت الذي لم تذوقوا قبله مثله؛ فإن الغائب إذا طالت غيبته وجبت محبته، وانتظره أهله، وأوشك أن يقدم عليهم»(٣).

لله درُّ الربيع:

□ عن سعيد الحارثي قال: «ضرب الربيعَ بنَ خثيم الفالجُ، فطال وجعه، فاشتهى لحم دجاج، فكفَّ نفسه أربعين يومًا، ثم قال لامرأته: اشتهيت لحم دجاج منذ أربعين يومًا، فكففت نفسي رجاء أن تكفَّ فأبت، فقالت له امرأته: سبحان الله، وأيُّ شيء هذا حتى تكفَّ نفسك عنه؟ قد أحلَّه الله لك؛ فأرسلت إلى السوق فاشترت له دجاجة بدرهم ودانقين، فذبحتها وشوتها، واختبزت له خبز أصباغ، ثم جاءت بالخِوان حتى

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٩١).

(٢) المصدر السابق (٦/ ١٩١).

(٣) «الحلية» (٢/ ١١٢).

وضعته بين يديه، فلما ذهب ليأكل قام سائل على الباب، فقال: تصدَّقوا عليَّ بارك الله فيكم! فكف عن الأكل، وقال لامرأته: خذي هذا فلُفِّيه وادفعيه إلى السائل!! فقالت امرأته: سبحانه الله! فقال: افعلي ما آمُرُكِ، قالت: فأنا أصنع ما هو خير وأحبُّ إليه من هذا! قال: وما هو؟ قالت: نعطيه ثمن هذا، وتأكل أنت شهوتك، قال: قد أحسنت! ائتيني بثمنه، قال: فجاءت بثمن الدجاجة والخبز والأصباغ، فقال: ضعيه على هذا، وادفعيه جميعًا إلى السائل [1].

ومن هذا القبيل ما روى منذر الثوري من أن أهل الربيع صنعوا له طعامًا معيَّنًا بناءً على طلبه – وكان لا يكاد يشتهي عليهم شيئًا –، فأرسل إلى جار له مصاب كان به خَبْلٌ – وهو نوع من البلَه – فجعل يلقِّمه هذا الطعام ولعابه يسيل، فلما خرج من عنده قال أهلُه: تكلفنا وصنعنا ثم أطعمتَ هذا؟! ما يدري هذا ما أكل. فقال الربيع: ولكن الله يعلم.

□ وكان يقول: «ما أحب أن تكون كل مناشدة العبد ربه أن يقول: يا رب، قد قضيتَ على نفسك الرحمة، يا رب قد قضيت على نفسك كذا، يستبطئ، وما رأيت أحدًا بعدُ يقول: يا رب، قد قضيت ما عليَّ، فاقضِ – بلطفك – ما عليك [2]، يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

□ وكثيرًا ما كان يخاطب نفسه فيقول: «أي عُبيد تواضع لربك ثم يقول: أي لَحْمِيَهْ! أي دَمِيَهْ! كيف تصنعان إذا سُيِّرت الجبال، ودكَّت

---

(١) «صفة الصفوة» (٣/ ٣٣- ٣٤).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٦/ ٩١)، و«الحلية» (٢/ ١١٤).

الأرض دكًّا دكًّا ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣﴾ [الفجر].

◻ وحين قال له قائل – حاجة في نفسه –: «يا أبا يزيد، قُتل ابن فاطمة عليه السلام قال: فاسترجع ثم تلا هذه الآية: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٤٦﴾ [الزمر]، قال: قلت: ما تقول؟ قال: ما أقول؟ إلى الله إيابهم، وعلى الله حسابهم»(١).

◻ ويقول حفص بن عمر: قال الربيع بن خثيم: «إذا تكلمت فاذكر سَمْعَ الله إليك، وإذا هممت فاذكر علمه بك، وإذا نظرت فاذكر نظره إليك، وإذا تفكرت فاذكر اطلاعه عليك؛ فإنه يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء]»(٢).

أبو شبل علقمة بن قيس النخعي:

مثلما تبوَّأ الربيع مقام الرِّيادة في العلم والعمل والاجتهاد في العبادة، والجهاد في سبيل الله، والنصح للمسلمين، رأس علقمة في العلم والعمل والتزكية والجهاد، وتفقّه به العلماء، وتلا عليه القرآن جِلَّةٌ من الأفذاذ، وبعُد صيته في دنيا المسلمين (٣).

◻ عن مُرّة الطيِّب قال: «كان علقمة من الربانيين»(٤)، وفي رواية لأبي

---

(١) «الحلية» (٢/ ١١١)، و«صفة الصفوة» (٣/ ٣٢).
(٢) «صفة الصفوة» (٣/ ٣٥).
(٣) «السير» (٤/ ٥٣، ٥٤).
(٤) «الطبقات الكبرى» (٦/ ٩١)، و«السير» (٤/ ٥٧)، و«الحلية» (٢/ ٩٨).

نُعَيم: «كان علقمة بن قيس رباني هذه الأمة»[١].

□ وقال مرّة الطيِّب: «كان علقمة من الدَّيِّنين الذين يقرؤون القرآن»[٢].

□ قال ابن مسعود: «ما أقرأ شيئًا ولا أعلم شيئًا إلَّا وعلقمة يقرؤه أو يعلمه»، قيل: يا أبا عبد الرحمن، والله ما علقمة بأقرئنا، قال: «بلى، إنه والله لأقرؤكم»[٣].

□ وعن علقمة قال: «كنت رجلًا قد أعطاني الله حسن الصوت بالقرآن، وكان عبد الله بن مسعود يرسل إليَّ فأقرأ عليه القرآن، قال: فكنت إذا فرغت من قراءتي قال: زدنا من هذا»[٤].

□ وقد عُدَّ علقمة عند البعض أعلم الناس بعبد الله، وعدّه آخرون من المقدمين بذلك العلم. قال عثمان بن سعيد: علقمة أعلم بعبد الله، وقال ابن المديني: لم يكن أحد من الصحابة له أصحاب حفظوا عنه، وقاموا بقوله في الفقه إلَّا ثلاثة: زيدُ بن ثابت، وابنُ مسعود، وابنُ عباس، وأعلم الناس بابن مسعود: علقمةُ، والأسودُ النخعي، وعَبيدةُ السَّلماني، والحارث بن قيس الجُعفيُّ الكوفي[٥].

□ وقال إبراهيم النخعي: «انتهى علم الكوفة إلى ستة من أصحاب

---

(١) المصدر السابق.
(٢) «الحلية» (٩٨/٢).
(٣) «الحلية» (٩٩/٢).
(٤) «الحلية» (٩٩/٢).
(٥) «السير» (٥٥/٤)، و«المعرفة والتاريخ» (٥٥٣/٢).

عبد الله بن مسعود؛ فهم الذين كانوا يفتون الناس، ويعلمونهم، ويفقهونهم: علقمةُ بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي، ومسروق بن الأجدع الهمْداني، وعَبيدة السَّلماني، والحارث بن قيس الجُعفي الكوفي، وعمرو بن شُرحبيل الهمْداني»[١].

□ وعن الأسود قال: «رأيت عبد الله يُعلِّم علقمة التشهُّد كما يُعلِّمه السورة من القرآن»[٢].

□ وحدَّث الأعمش عن عمارة بن عمير قال: «قال لنا أبو معمر: قوموا بنا إلى أشبه الناس بعبد الله هديًا ودلًّا، وسمتًا، فقمنا معه حتى جلسنا إلى علقمة»[٣].

الهدي: السيرة، **والسمت والدل**: معناهما متقارب؛ إذ يلتقيان عند السكينة والوقار ونورانية التقوى والورع في دين الله. ودلالة ذلك من الناحية التربَويّة على شدَّة التوجُّه القلبي والنفسي عند علقمة إلى حُسْن التأسِّي بعبد الله لا تخفى.

□ وروى سفيان بن عيينة عن داود بن أبي هند قال: «قلت للشعبي: أخبرني عن أصحاب عبد الله حتى كأني أنظر إليهم، قال: كان علقمة أبْطَنَ القوم به[٤]، وكان مسروق قد خلط منه ومن غيره، وكان الربيع بن خثيم أشدَّ الناس اجتهادًا، وكان عبيدة يوازي شريحًا في العلم

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٥٣).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٦/ ٨٩).

(٣) «السير» (٤/ ٥٥).

(٤) أبطن القوم به: يعني من خواصِّه.

والقضاء»[١].

□ وروى زائدة عن أبي حمزة قال: «قلت لرباح أبي المثنى: أليس قد رأيت عبد الله؟ قال: بلى، وحججت مع عُمَرَ ثلاث حجَّات وأنا رجل. قال: وكان عبد الله وعلقمة يَصُفَّان الناس صفّين عند أبواب كِنْدة، فيقرئ عبد الله رجلًا، ويقرئ علقمة رجلًا، فإذا فرغا تذاكرا أبواب المناسك، وأبواب الحلال والحرام؛ فإذا رأيت علقمة فلا يضرُّك أن لا ترى عبد الله؛ أشبه الناس به سمتًا وهديًا، وإذا رأيت إبراهيم النخعيَّ فلا يضرُّك أن لا ترى علقمة؛ أشبه الناس به هديًا وسمتًا»[٢].

وهذه المرابطة من علقمة على باب التلقي لقراءة القرآن، والفقه في الدين، والعمل بأحكامه وآدابه عن البحر الذي كان شديد القرب من رسول الله ﷺ، وأشبه الناس به هديًا ودلًّا وسمتًا. هذه المرابطة كما حملته - بعون من الله- إلى حيث يشارك أستاذه الإقراء ومذاكرة أبواب المناسك، وأبواب الحلال والحرام؛ تعدَّت ذلك إلى أن يتفقَّه به أئمة كبار كإبراهيم بن يزيد النخعي، والشعبي، وإبراهيم بن سويد النخعي، وأبي الضحى مسلم بن صبيح، ويحيى بن وثاب، والقاسم بن مخيمرة، وطائفة، وأن يُسأل ويُستفتى مع وجود الصحابة عليهم الرضوان.

□ جاء في «السير» للذهبي: «وتفقه به أئمة كإبراهيم والشعبي، وتصدَّى للإمامة والفتيا بعد علي وابن مسعود، وكان يشبَّه بابن مسعود في هديه ودلِّه وسمته، وكان طلبته يسألونه، ويتفقهون به والصحابة

(١) «السير» (٤/ ٥٤، ٥٥).

(٢) «السير» (٤/ ٥٥).

متوافرون»[١].

□ ويقول قابوسُ بن أبي ظَبيان: «قلت لأبي: لأي شيء كنت تَدَعُ الصحابة ﷺ وتأتي علقمة؟ قال: «أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يسألون علقمة ويستفتونه»[٢].

□ وروى أبو نُعيم في «الحلية» بسنده أن عبد الله مرَّ بحلْقة فيها علقمة والأسود ومسروق وأصحابهم، فوقف عليهم فقال: «بأبي وأمي العلماء، بروح الله ائتلفتم، وكتابَ الله تلوتم، ومسجد الله عمرتم، ورحمة الله انتظرتم، أحبَّكم الله وأحبَّ من أحبَّكم»[٣].

□ قال إبراهيم النخعي: «كان علقمة يقرأ القرآن في خمس»[٤].

□ وقال: «كان علقمة يقرأ القرآن في خمس، والأسود في سِت، وعبدالرحمن بن يزيد في سبع»[٥].

□ وحدَّث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال: «أُتي عبد الله بشراب فقال: أعط علقمة، أعط مسروقًا، فكلُّهم قال: إني صائم، فقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ٣٧﴾ [النور]»[٦].

□ وحدَّث ابن عيينة عن عمر بن سعد قال: «كان الربيع بن خثيم

---

(١) «السير» (٤/ ٥٤)، و«تذكرة الحفّاظ» للذهبي (١/ ٤٨).
(٢) «الحلية» (٢/ ٩٨)، و«تذكرة الحفّاظ» (١/ ٤٨).
(٣) «الحلية» (٢/ ٩٨، ٩٩).
(٤) «السير» (٤/ ٥٦).
(٥) «السير» (٤/ ٥٩).
(٦) «السير» (٤/ ٥٧).

يأتي علقمة، فيقول: ما أزور أحدًا ما أزورك» [١]، ويقول الإمام الشعبي: «إن كان أهل بيت خلقوا للجنة، فهم أهل بيت علقمةُ والأسود [٢]، أما أبو قيس الأودي فيقول: رأيت إبراهيم آخذًا بالركاب لعلقمة» [٣].

مدرسة الربانيين: أبو قلابة عبد الله بن زيد الجَرمي وأيوب السَّختياني وحماد بن زيد:

من أئمة الهدي الذين أخذ عنهم أيوب السختياني، وتأثَّر بم عِلْمًا وسلوكًا، وروى الكثير من أخبارهم الإمام شيخ الإسلام أبو قِلابة عبدالله بن زيد الجَرْمي البصري، وكان من خيار التابعين».

□ قال علي بن حَمَلة: «قدم علينا مسلم بن يسار دمشق، فقلنا له: يا أبا عبد الله، لو علم الله أن بالعراق من هو أفضل منك، لجاءنا به، فقال: كيف لو رأيتم عبد الله بن زيد أبا قِلابة الجَرْميَّ! قال: فما ذهبت الأيام والليالي حتى قدم علينا أبو قلابة» [٤].

ولا يعوزك وأنت تستطلع مقدار انتفاع أيوب بأبي قلابة وتأثره به تأثر بناء وتكوين: أن تقع على الكثير مما يدل على ذلك.

حدَّث صالح بن رستم قال: قال أبو قلابة لأيوب: «إذا أحدث الله لك علمًا فأحْدِث لله عبادة، ولا تكونن إنما همُّك أن تحدث به الناس» [٥].

---

(١) «السير» (٤/ ٥٩).

(٢) «السير» (٤/ ٦٠).

(٣) «السير» (٤/ ٦٠).

(٤) «السير» (٤/ ٤٦٨، ٤٦٩، ٥١١)، و«المعرفة والتاريخ» (٢/ ٨٦).

(٥) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٦٦)، و«اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي (ص٣٥).

□ وأبو بكر أيوب السختياني نعم التلميذ لأبي قلابة قال فيه الحسن البصري: «أيوب سيد شباب أهل البصرة»[(١)].

□ وكان يقول عنه: «هذا سيِّد الفتيان»[(٢)].

□ وقال الحُميدي: «لقي سفيان بن عيينة -وهو ممن روى عن أيوب- ستة وثمانين من التابعين، وكان يقول: «ما رأيت مثل أيوب»[(٣)].

□ وقال هشام بن عروة: «ما رأيت بالبصرة مثل أيوب، ولا بالكوفة مثل مسعر»[(٤)].

□ وقال سفيان الثوري: «ما رأيت بالبصرة مثل أربعة، فبدأ بأيوب»[(٥)].

□ وقال عبد الله بن وهب صاحب مالك: «سمعت مالك بن أنس ذكر أيوب السختياني وذكر منه فضلًا وقال: كان أشدَّ الناس تثبتًا[(٦)]، وقال أبو حاتم -وسئل عن أيوب-: ثقة لا يسأل عن مثله. قال الذهبي بعد إيراد هذه المقولة: قلت: إليه المنتهى في الإتقان»[(٧)].

□قال شعبة بن الحجاج: «حدثني أيوب سيد الفقهاء»[(٨)].

---

(١)«المعرفة والتاريخ» (٣/ ٤٥٨، ٤٥٩)، و«السير» (٦/ ١٦، ١٧)، و«الحلية» (٣/ ٣).

(٢)«السير» (٦/ ١٧)، و«المعرفة والتاريخ» (٢/ ١٣٢).

(٣)«الحلية» (٣/ ٣).

(٤)«الحلية» (٣/ ٤)، و«السير» (٦/ ١٨).

(٥)«السير» (٦/ ١٩).

(٦)«المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٣٣).

(٧)«السير» (٦/ ٢٠).

(٨)«السير» (٦/ ١٩).

□ وقال أشعث بن سوَّاد الكندي: «كان أيوب جهبذ العلماء»[١].

□ قال حماد بن زيد: «أيوب عندي أفضل من جالسته، وأشدُّه اتباعًا للسُّنَّة»[٢].

□ وقال مالك بن أنس: «كنا ندخل على أيوب السَّختياني، فإذا ذكرنا له حديث رسول الله ﷺ بكى حتى نرحمه»[٣].

□ وقيل لمالك بن أنس –أجزل الله مثوبته-: «إنك تتكلم في حديث أهل العراق، وتروي مع هذا عن أيوب؟ فقال: «ما حدثتكم عن أحد، إلَّا وأيوب أوثق منه»[٤].

□ وقال رحمه الله: «ما بالعراق أحد أقدمه على أيوب، ومحمد بن سيرين في زمانهما»[٥].

□ وشيخ الإسلام حماد بن زيد هو أخصُّ الناس بأيوب السختياني، قال شعبة بن الحجّاج: «من أراد أيوب فعليه بحمّاد بن زيد».

قال الذهبي: «قلتُ: صدق، أثبت الناس في أيوب هو»[٦].

□ قال عبد الله بن بشر: «إن الرجل ربما جلس إلى أيوب السختياني فيكونُ لما يرى منه أشدَّ اتباعًا منه لو سمع حديثه»[٧].

---

(١) «السير» (٦/ ٢١) والجَهْبذ: الناقد البصير.

(٢) «السير» (٦/ ٢١).

(٣) «الحلية» (٣/ ٤).

(٤) «السير» (٦/ ٢٤).

(٥) «الحلية» (٣/ ١١).

(٦) «السير» (٦/ ٢٠).

(٧) «الحلية» (٣/ ٧).

□ وهذا سفيان بن عُيينة يروي عن أيوب أنه كان يقول: «إنه ليبلغني موت الرجل من أهل السُّنَّة، فكأنما يسقط عضوٌ من أعضائي».

وفي رواية لحمّاد بن زيد عنه: «فكأنما أفقدُ بعض أعضائي»[(١)].

□ وكان أيوب رحمه الله من أشد الناس بُغضًا لأهل البدع الضالّة والأهواء، فعن سلَّام ابن أبي مطيع قال: «رأى أيوب رجلًا من أصحاب الأهواء فقال: إني لأعرف الذلة في وجهه ثم تلا: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، ثم قال: هذه لكل مفتر، وكان يسمي أصحاب الأهواء خوارج، ويقول:إن الخوارج اختلفوا في الاسم، واجتمعوا على السيف، وقال له رجل من أهل الأهواء – يبدو أنه كان آيسًا من رجوعه إلى الحق-: أكلمك كلمة، أو أسأل عن كلمة؟ فولَّى، وهو يقول: ولا نصفَ كلمة. مرتين»[(٢)].

□ ومن كلماته المحذِّرة المنذرة في هذا الباب قوله: «ما ازداد صاحب بدعة اجتهادًا إلَّا ازداد من الله بعدًا»[(٣)].

ولشدَّ ما تذكرنا مواقفُ أيوب الصَّلبةُ الحازمة من أهل الأهواء والبدع: بانتفاعه وتأثره بما كان عليه أبو قِلابة في ذلك. حدث حماد بن زيد عن أيوب قال: قال أبو قِلابة: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تحادثوهم، فإني لا آمن أن يغمُروكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»[(٤)].

---

(١) «الحلية» (٣/ ٩).
(٢) «السير» (٦/ ٢١)، و«الحلية» (٣/ ٩).
(٣) «الحلية» (٣/ ٩).
(٤) «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٨٤)، و«الحلية» (٢/ ٢٨٧)، و«السير» (٤/ ٤٧٢).

□ وعن أيوب عن أبي قِلابة قال: «إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا وهات كتاب الله، فاعلم أنه ضال» (١).

□ قال الإمام الذهبي: «قلت أنا: وإذا رأيت المتكلم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث الآحاد وهات «العقل» فاعلم أنه أبو جهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل، وهات الذوق والوجد، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر أو حلَّ فيه..» إلى آخر ما قال يرحمه الله. وصلاة الله وسلامه على مَنْ ترك الأمة على بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلَّا هالك وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

□ هذا: ويبدو أن أبا قِلابة – وهو يتفرَّس في أيوب الخير والقدرة على العطاء- كان لا يني يفتح له مغاليق الأمور في كل صغيرة وكبيرة دليل نورانيته يرحمه الله. يقول أيوب: رآني أبو قلابة وقد اشتريت تمرًا رديئًا، فقال: «أما علمت أن الله قد نزع من كل رديء بركته» (٢)!.

□ وفي رواية أخرى: «رآني أبو قِلابة وأنا أشتري تمرًا رديئًا فقال: «قد كنت أظن أن الله تعالى قد نفعك بمجالسنا، أما علمت أن الله تعالى قد نزع من كل رديء بركته» (٣).

أيوب.. وأبو قلابة:

أي علاقة حميمة كانت بين أبي قلابة عبد الله بن زيد بن عمرو الجَرمي

---

(١) «الحلية» (٢/ ٢٨٧)، و«السير» (٤/ ٤٧٢)، و«الطبقات الكبرى» (٧/ ١٨٤).

(٢) «السير» (٤/ ٤٧٢).

(٣) «الحلية» (٢/ ٢٨٦).

البصري وأيوب السختياني!!!، ولله ما أحلى ثمرها الطيِّب على صعيد التأثُّر والتأثير من الهداية والخير!!! ناهيك عن كونه نورًا على نور، ومائدة ربَّانية يظفر فيها المتحابُّون فيه سبحانه وتعالى بمرضاته، وأن يكونوا على منابر من نور يوم القيامة.

□ قال مطرِّف بن عبد الله: «ما كان اثنان يتحابَّانِ في الله إلَّا كان أشدُّهما حُبًّا لصاحبه أفضلهما، قال الحسن: صدق مُطرِّف»(١).

□ ولم يكن عجبًا من العجب انتفاع أيوب بأبي قلابة وهو على خُبر بعلمه وعلقه وورعه وصدقه مع الله. قال حماد بن سلمة: سمعت أيوب ذكر أبا قِلابة فقال: «كان والله من الفقهاء ذوي الألباب، إني وجدت أعلم الناس بالقضاء أشدَّهم منه فرارًا، وأشدَّهم منه فرقًا، وما أدركتُ بهذا المِصْر أعلم بالقضاء من أبي قِلابة. لا أدري ما محمد - يعني ابن سيرين-»(٢).

□ ويروي أيوب عن عمر بن عبد العزيز - وهو مَن هو يرحمه الله في معرفته بالرجال وقَدْرِهِ العلماءَ العاملين قدرهم، وإدراكِ أثرهم في الإصلاح على صعيد المجتمع والأمة-: يروي عنه ما يدل على عظيم ثقته بأبي قلابة وإدراك موقعه من حركة التغيير إلى ما هو الأفضل».

□ يقول أيوب: «مرض أبو قِلابة بالشام، فأتاه عمر بن عبد العزيز يعوده فقال: «يا أبا قِلابة، تشدَّد لا تُشمت بنا المنافقين»، وفي رواية: «لا يَشمتَ بنا المنافقون»(٣).

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٩٠).
(٢) «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٣٨)، و«السير» (٤/ ٤٧٠).
(٣) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٦٧)، و«السير» (٤/ ٤٧٢ - ٤٧٣).

□ هذا: وقد بلغ من محبة أبي قلابة لأيوب وثقته بدينه وعلمه وأمانته أنه أوصى له بكتبه التي فيها مروياته وآراؤه وعظاته التربوية ووصاياه.

قال حماد بن زيد: أوصى أبو قلابة قال: «ادفعوا كتبي إلى أيوب إن كان حيًّا، وإلَّا فأحرقوها»[(١)].

□ وقال أيوب: «أوصى أبو قلابة إليَّ بكتبه، فأُتيت بها من الشام، فأعطيت كِراءها بضعة عشر درهمًا»[(٢)].

□ ومما روى أيوب من كتاب أبي قلابة قال: «مَثل العلماء كمثل النجوم التي يُهتَدى بها، والأعْلام التي يُقتدَى بها، فإذا تغيَّبت تحيَّرُوا، وإذا تركوها ضَلُّوا»[(٣)].

□ وحدَّث أيوب عن كتاب أبي قلابة قال: «العلماء ثلاثة: فعالِمٌ عاش وعاش الناس بِعلمه، وعالم عاش بعلمه ولم يَعِش الناس بعلمه، وعالِمٌ لم يَعِش بعلمه ولم يَعِش الناس بعلمه»[(٤)].

ولأيوب السختياني الربَّاني العامل الخبرُ العجيب:

□ قال رحمه الله: «إذا ذُكِر الصالحون كنت عنهم بمعزل»[(٥)].

□ وفي إخفائه لعمله روى أبو نعيم عن حماد بن زيد تلميذ السختياني

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٨٩).

(٢) انظر: «كتاب العلل ومعرفة الرجال» للإمام أحمد (١/ ٣٩٤)، و«المعرفة والتاريخ» للفسوي (٢/ ٨٨- ٨٩).

(٣) «الحلية» (٢/ ٢٨٣).

(٤) «الحلية» (٢/ ٢٨٣).

(٥) «السير» (٦/ ٢٢).

قال: غلب أيوب البكاء يومًا فقال: «الشيخ إذا كبِر مجّ [١]، وغلبه فوه ووضع يده على فمه، وقال: الزُّكمة ربما عرضت» [٢].

هكذا حاول هذا الإمام التقي النقي أن يحول دون من رأوا عينيه تذرفان من خشية الله، ودون تأويل ذلك بالتقوى والصلاح، وسلك لهذه المحاولة الأسلوب الحكيم الذي لم يخالف عن الصدق قِيدَ أُنملة، وذلك بأن ذكَّر الحضور بما يكون عليه الشيخ الهرم من ضعف يبلغ به أن لا يستطيع حبس ريقه من كثرته بل يمجُّ به، كما أوحى إليهم ما قد يعرض له من الزُّكمة، وهو الزُّكم، كي يذهب بهم الظن بأن ما شهدوا منه قد يكون من هذا القبيل! [٣].

□ و«كان رحمه الله يقوم الليل كُلَّه، فيُخفي ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته؛ كأنه قام تلك الساعة» [٤].

□ وقال شعبة: «ربما ذهبت مع أيوب لحاجة، فلا يدعني أمشي معه، ويخرج من ها هنا وها هنا؛ لكيلا يُفطَن له» [٥].

□ قال مخلد بن حسين: قال أيوب: «ما صدق عبدٌ قط فأحبَّ الشُّهرة».

□ وحدَّث عنه أبو بكر بن المفضل أنه كان يقول: «والله ما صدق عبد

---

(١) يُقال: مَجَّ ريقه: إذا لفظه انظر: «لسان العرب» مادة: مج.
(٢) «الحلية» (٣/ ٦، ٧)، و«السير» (٦/ ٢٢).
(٣) «الربانيون قدوة وعمل» (ص٢٨٥).
(٤) «الحلية» (٣/ ٨).
(٥) «الحلية» (٣/ ٦)، و«السير» (٦/ ٢٢).

قط إلَّا سَرَّه أن لا يُشعَرَ بمكانه»[١].

ومما يحكيه صاحبه الأدنى حماد بن زيد حائز قصب السبق في الأخذ عنه والتأسي بسلوكه: أنه كان يأخذ به في طريق أبعد، فيقول -أي حماد-: إن هذا أقرب، فيقول أبو بكر: إني أتقي هذه المجالس، وكان إذا سلَّم يردون عليه سلامًا فوق ما يُرَدُّ على غيره، فيقول: اللهم إنك تعلم أني لا أريده»[٢].

□ قال حماد بن زيد تلميذه: «كنتُ أمشي معه، فيأخذ في طرق إني لأعجب له كيف يهتدي لها، فرارًا من الناس أن يُقال: هذا أيوب»[٣].

□ وقال حمَّاد بن زيد: «ما رأيتُ أحدًا أعظم رجاءً لأهله القبلة من أيوب وابن عون»[٤].

□ وقال يونس بن عبيد: «ما رأيت أحدًا أنصح للعامة من أيوب والحسن»[٥].

كرامةٌ للسختياني:

□ قال أبو يعمر: «كان أيوب في طريق مكة، فأصاب الناسَ عطش حتى خافوا، فقال أيوب: أتكتمون عَلَيَّ؟ قالوا: نعم، فدوّر رداءه، ودعا، فنبع الماء، وسَقَوا الجمالَ، ورَوُوا، ثم أمرَّ يده على الموضع، فصار كما كان.

(١) «السير» (٦/ ٢٢)، و«الحلية» (٣/ ٦).
(٢) «الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٤٩).
(٣) «السير» (٦/ ٢٢).
(٤) «الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٤٩).
(٥) «السير» (٦/ ٢٠).

قال أبو الربيع: فلما رجعت إلى البصرة حدثت حماد بن زيد بالقصة، فقال: حدثني عبد الواحد بن زيد أنه كان مع أيوبَ في هذه السفرة التي كان هذا فيها»(١).

□ وقال أبو بكر الحميدي: حدثنا سفيان الثوريُّ قال: «سمعت عمرو ابن دينار والزهري يتمثلان بالشعر في مجالسهما في المسجد الحرام، ورأيت عمرو بن دينار يسمر إلى قريب من ربع الليل – يعني بالعلم –، فإذا ذهبوا دخل أيوب الطواف، فربما دخلت معه، فيقول: لولا أنا أكنتَ تطوف؟ فأقول: لا تجدني. ثم يقول لي: اذهب» (٢).

الرِّضا عن الله شعار أبي قلابة وصاحبه السختياني:

ومن دروس القُدوة المؤثرة حقًّا في سلوك هؤلاء الربانيِّين أنهم دائمًا على الرضا بقضاء الله في السرَّاء والضرَّاء، وقد مَرّ بنا في «علو الهمَّة في الصبر»: قصة موت أبي قلابة بعريش غزة.. وهي الكلمات التي تدمي العيون والقلوب لأبي قلابة الجرمي الفارُّ بدينه.. الهارب من تولي القضاء المبتلى في جسده كأشد ما يكون البلاء، ثم ولده – الذي كان يخدمه وهو منقطع في الصحراء – فأكله السَّبع – وثناؤه على رضاه ورضاه عنه..

عذابُـه فيـك عـذبُ ... وبُعْـدُه فيـك قـربُ
وأنـت عنـدي كروحـي ... بـل أنـتَ منهـا أحـبُّ
حـسبي مـن الحُـبِّ أني ... لمـا تُحِـبُّ أُحِـبُّ

---

(١) «السير» (٦/ ٢٢، ٢٣).

(٢) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ١٨).

أما تلميذه السَّختياني:

□ فقد قال سعد بن سليمان: «دخلت أنا وأخي على أيوب نعوده وقد طُعِنَ - أي أصيب بالطاعون- وكان أخي أسنَّ مني، وقد اعتقل لسانه، فقال له أخي: بأبي أنت وأمي، أبشر بأبي أنت وأمي بأحدى الحسنيين؛ إما حياةُ الطاعة، وإما وفاةٌ فما عند الله خير للأبرار. قال: فكأنه سرَّه ذلك. قال: ثم أعاده عليه، فكأنه سرَّه ذلك»(١).

□ انظر كم رفع الله أيوب السختياني بصدقه وورعه وإخلاصه، وفيه يصدق قول أيوب نفسه: «إن قومًا يريدون أن يرتفعوا فيأبى الله إلَّا أن يضعهم، وآخرين يريدون أن يتواضعوا فيأبى الله إلَّا أن يرفعهم»(٢).

عمر بن عبد العزيز وميمون بن مهران:

الحديث عن أولئك العلماء الربانيين من التابعين بإحسان لمن أخذوا عنهم من أصحاب النبي ﷺ، فأحسنوا الأخذ والتلقي، واقتدوا بهديهم - وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه فأحسنوا لاقتداء - حديث عن التفاعل المثمر البناء في ظل الهدي الرباني، والمسيرة الخيِّرة المباركة التي قادها البشير النذير صلوات الله وسلامه عليه.

وهو التفاعل الذي حمل التأثر والتأثير بين جيل الصحابة عليهم الرضوان جيل الإيمان والصفاء، والجهاد بكل أنواعه والنقاء، وبين من ساقتهم المقادير إلى هذا المحضن المبارك - أعني التابعين بإحسان- فكانوا

(١) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٦٦- ٢٦٧).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٤٨).

عند الذي تقتضيه أمانةُ التلقي أخذًا وتحملًا، وأمانة العطاء لمن وراءهم درسًا وتعليمًا وتزكية، وإرساءً لتلك القواعد النورانية في المنهج الذي يشرق بذلك كله، مزدانًا بالدعوة إلى العمل بالعلم، وأن تأخذ القدوة مكانها السامق في التربية والتزكية»(١).

□ قال الصحابي التقي النَّقِي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من كان مستَنًّا فليستَنَّ بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ: كانوا خير هذه الأمة، أبرَّها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلَّها تكلفًا؛ قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ونقل دينه؛ فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد ﷺ، كانوا على الهدي المستقيم والله رب الكعبة»(٢).

وكم يكون حظ الأمة موفورًا حين يتوافر لها أن يكون أدِلَّاؤها على طريق الهداية علماء ربانيين عاملين، يشهد لهم أهل الفضل بالوثوق بعلمهم ونهجهم في الأخذ والعطاء، فقهًا في الدين، وحرصًا على إيصال النفع للمسلمين في اتقاء وإخلاص لله رب العالمين.

ومن جِلَّة التابعين وخيارهم، ومن كان له أثر في نشر العلم النافع، وحِرْصٌ على التربية المشْرِقة بالتزكية والعمل، وإغناء لتكوين الجيل المسلم بما كان له من تجربة في حياته الحافلة بالحركة النيِّرة طاعةً لله عز وجل، الإمام القدوة الحجّة عالم الجزيرة ومُفتيها أبو أيوب ميمون بن مِهران الجَزَري الرَّقِّي.

حدَّث أبو أيوبَ عن أبي هريرة، وعائشة أم المؤمنين، وابن عباس،

---

(١) «الربانيون قدوة وعمل» (ص٣٤).

(٢) «الحلية» (١/ ٣٠٥-٣٠٦)، و«المعرفة والتاريخ» (١/ ٤٩٠).

وابن عمر، وعبد الله بن الزبير، والضحاك بن قيس الفهري، وأم الدرداء، وصفية بنت شيبة العبدرية، وعمرو بن عثمان، وعمر بن عبد العزيز، وعديٍّ بن عديٍّ الكندي، ونافع، ويزيدَ بنِ الأصم، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيَّب، وآخرين، وأرسل عن عمر بن الخطاب، والزبير بن العوَّام.

□ روى سعيد بن عبد العزيز عن سليمان بن موسى قال: «هؤلاء الأربعة علماء الناس في زمن هشام بن عبد الملك: مكحول، والحسن، والزهري، وميمون بن مهران»[(١)].

□ قال عنه أبو نعيم: «ومنهم الحكيم اليقظان أبو أيوب ميمون بن مِهران، إمام أهل الجزيرة، حميد السيرة، سديد السريرة».

□ وعن سعيد بن عبد العزيز قال: «كان علماء الأمة في زمن هشام هؤلاء الأربعة، فقال سليمان بن موسى: إن جاءنا العلم من أهل الحجاز عن الزهري قبلناه، وإن جاءنا من الشام عن محكول قبلناه، وإن جاءنا العلم من الجزيرة عن ميمون بن مهران قبلناه، وإن جاءنا العلم من العراق عن الحسن قبلناه»[(٢)].

□ وعن ميمون بن مهران قال: «أتيت المدينة، فسألت عن أفقه أهلها، فدُفعت إلى سعيد بن المسيِّب، فجعلت أسأله. فقال: إنك تسأل مسألة رجل كان قد تبحَّر ما هاهنا قبل اليوم. وفي رواية أخرى: أتيت سعيد بن المسيب أسأله، فقال: ممن أنت؟ فقلت: من أهل الجزيرة، قال: ما أتاني

---

(١) «السيرة» (٥/ ٧٢).

(٢) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٤٠٤)، و«تهذيب الكمال» للمزي (٢٩/ ٢١٥).

أحد من أهل بلدك يسألني مسألتك، قلت: إني أُسألُ هناك»[١].

□ وقال ميمون بن مهران: «كنت عند عمر بن عبد العزيز، فلما قمت من عنده قال: «إذا ذهب هذا وضرباؤه صار الناس بعدهم رجراجة»[٢] أي: لا خير فيهم.

حيَّهلاً بميمون بن مهران:

إذا ذكر الرجال الذين ترقى بهم نفوسهم الكبار إلى موقع الريادة في الأمة: فحيَّهلًا بعلمائها الربانيين العارفين بالله، الذين تراهم -وهم يعلِّمون الكتاب ويدرسون ويربون- قائمين بأمر الله في نصرة الحق الذي نزل به الكتاب، لا يفتؤون يعتصمون بالله، يقولون عنه -جل شأنه- وعن رسوله ﷺ ما أراد، مستنيرة بهديه عقولهم، مشرقة بنفحات عطائه قلوبهم.

وكلما ازدادوا علمًا ومعرفة به سبحانه، ازدادوا مسارعة إلى فعل ما يقربهم إليه زلفى، ويسلكهم في مدارج أهل البر والتقى، عملًا بهذا العلم، واجتهادًا في إيصاله إلى المسلمين، وضربًا في أرض الحياة على طريق الربانية التي تبدأ بهذا السلوك المتميز المرضيِّ لله رب العالمين، وتنتهي بجنة عرضها السموات والأرض أعدت لمن أخلصوا دينهم لله، وعملوا على تحقيق الخير للمسلمين، وجاهدوا في الله حق جهاده حتى أتاهم اليقين[٣].

---

(١) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢١٤- ٢١٥).

(٢) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢١٥)، انظر: «النهاية» لابن الأثير مادة رجج وفي «اللسان» لابن منظور: وفي حديث عمر بن عبد العزيز: الناس رجاج بعد هذا الشيخ -يعني ميمون بن مهران- هم رعاع الناس وجُهّالهم.

(٣) «الربانيون» (ص٣٤٦).

وعلى رأس هؤلاء أبو أيوب ميمون بن مهران الذي لقي الله وهو دائب على نشر العلم، حريصٌ على الإسهام في أن يكون المسلمون على المورد العذب المتمثِّل بالهَدْي النبوي، ثم ما كان عليه الصحابة ﭬ من الاستمساك بهذا الهدي المبارك علمًا وعَمَلًا في جميع الأحوال.

□ حدَّث الإمام العلم أبو المليح الرَّقِّي وهو من عيون من أخذوا عن ميمونٍ ورووا عنه، قال: قال ميمون بن مهران: «لقد أدركت من لم يتكلم إلَّا بحق أو يسكت، وأدركت من لم يكن يملأ عينيه من السماء فرقًا من ربه ﻷ، وأدركت من كنت أستحيي أن أتكلم عنده»(١) يعني بذلك الصحابة الذين تأثر بهم وانتفع بسلوك من صحب منهم عليهم الرضوان وها هو يحدِّث بهذه الوصية الغالية عن حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس ﭭ قال له: «يا ميمون لا تشتم السلف، وادخل الجنة بسلام»(٢).

من دُرر الرَّباني ميمون بن مهران:

□ قال ~: «إن هذا القرآن قد خَلِق في صدر كثير من الناس، والتمسوا ما سواه من الأحاديث - يعني أحاديث الدنيا-، وإن فيمن يبتغي هذا العلم: من يتخذه بضاعة يلتمس بها الدنيا، ومنهم من يريد أن يشار إليه، ومنهم من يريد أن يماري به. وخيرُهم من يتعلَّمه ويطيع الله ﻷ به»(٣).

---

(١) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢١٥)، و«الحلية» (٤/ ٨٨) مختصرًا.

(٢) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ١٢٦).

(٣) «الحلية» (٤/ ٨٤).

□ وقال: «من تبع القرآن حتى لم يتركه يَحُلَّ به الجنة، ومن ترك القرآن لم يدعه القرآن، يتبعه حتى يقذفه في النار»[١].

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ: «لو أن أهل القرآن صحلوا لصلح الناس»[٢].

□ وقال: «يا أصحاب القرآن، لا تتخذوا القرآن بضاعة تلتمسون به الشفَّ – يعني الربح– في الدنيا، والتمسوا الدنيا بالدنيا والآخرة بالآخرة»[٣].

□ وحدَّثَ هارون أبو محمد البربري: «أن عمر بن عبد العزيز استعمل ميمون بنَ مِهرانَ على الجزيرة على قضائها وعلى خَراجها، فكتب إليه ميمون يستعفيه وقال: كلفتني ما لا أطيق، أقضي بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق..، فكتب إليه عمر: إني لم أكلفْك ما يُعنِّيك، أجْبِ الطيبَ من الخراج، واقض بما استبان لك، فإذا لَبِّس عليك أمرٌ فارفعه إليَّ؛ فإن الناس لو كانوا إذا كبُر عليهم أمر تركوه، لم يقم دين ولا دنيا»[٤].

□ ويغلب عليه الخوف من أن تكون قد زلَّت به القدم أيًّا كانت هذه الزلَّة. فيقول في أواخر حياته –كما يروي حبيب بن أبي مرزوق–: «وددت أن عيني ذهبت، وبقيت الأخرى أتمتَّع بها، وأني لم أل عملًا قط، قلت له: ولا لعمر بن عبد العزيز؟ قال: لا لعمر ولا لغيره»[٥].

---

(١) المصدر نفسه (٤/ ٨٤).
(٢) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢١٩).
(٣) المصدر السابق، و«الحلية» (٤/ ٩٠).
(٤) «الحلية» (٤/ ٨٨)، و«السير» (٥/ ٧٤).
(٥) «الحلية» (٤/ ٨٦)، و«السير» (٥/ ٧٧).

عمر بن عبد العزيز.. وميمون بن مهران.. التأثير والتأثُّر:

□ يقول الدكتور محمد أديب الصالح: «ما أحسبني أُبعد النُّجعة إذا ذهبت - بغلبة ظن على الأقل - إلى أن ميمونًا - وهو الأثير عند عمر بن عبد العزيز برجاحة علقه وتقواه، وما أوتي - بفضل الله - من صفاء القلب ورقة الحس القائمين على قاعدة من العلم النافع والعمل -: كانت أهليته للانتفاع والتأثر بسلوك الهداة المهتدين، ومن عيونهم عمر بن عبدالعزيز، والتفاعلِ مع ما يكون عليه أولئك الذين ذاقوا حلاوة الإيمان، ومخالطةِ النهج المتميز الذي كان يطبع بنوره الأخاذ سلوك خامس الراشدين: تعمل عملها الخيِّر المؤثر في تطلعاته السامية وسلوكه، خصوصًا إذا لاحظنا صلته الحميمة به وشدة حبِّه له - يرحمه الله - وأنه كان يعلم من خبايا الزوايا في شخصيته ذات التميز الشيء الكثير.

وإذا كان الأمر كذلك: فلا عجب أن يكون ذلك كله قد عاد عليه بالكثير من الترقي في مدارج البر، وزاد في قدرته على العطاء الخيِّر في التربية والتعليم والتزكية والإسهام المجدي في تحقيق ما هو خير للفرد والجماعة في دنيا المسلمين.

وفي بعض مرويات أبي أيوب عن خامس الراشدين غَناءٌ بالقليل عن الكثير، ومقنع لمن أراد مقدمًا»[١].

□ قال ميمون بن مهران: «كان عمر بن عبد العزيز يُعلِّمُ العُلَمَاء»[٢].

□ وقال رحمه الله: «أتينا عمر بن عبد العزيز ونحن نرى أنه يحتاجُ إلينا،

---

(١) «الربانيون» (ص٣٣٨).

(٢) «الحلية» (٥/ ٣٤٠).

فما كُنَّا معه إلَّا تلامذة»(١).

وفي الواقع: ثبت أن ميمون بن مهران كان من خير من تلمذ لعمر بن عبد العزيز.

ويحدث أبو أيوب أنه خرج مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة، قال: فلما نظر عمر إلى القبور بكى، ثم أقبل عليَّ فقال: يا أبا أيوب، هذه قبور آبائي من بني أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم؛ أما تراهم صرعى قد حلَّت بهم المثُلات (٢)، واستحكم فيهم البلاء، وأصابت الهوامُّ في أبدانهم مقيلًا. ثم بكى حتى غُشي عليه، ثم أفاق، فقال: انطلق بنا، فوالله ما أعلم أحدًا أنعمَ ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن عذاب الله (٣).

إنه لون من ألوان التعليم والتربية بالقدوة يرتفع بمن يتلقاه إلى حيث الإحساس بحقائقَ هي من البداهة بمكان، ولكن كثيرًا من الناس عنها غافلون.

□ وها هو يروى عنه في كثير مما رُوي، أنه أُتي بسلق وأقراص، فأكل، ثم اضطجع على فراشه، وغطى وجهه بطرف ردائه، وجعل يبكي ويقول: عبد بطيء بطين! يتباطأ ويتمنى على الله منازل الصالحين (٤).

فماذا أنت قائل في هذا الصنيع الصادق من عمر، والأهلية المشرقة عند

---

(١) «السير» (٥/ ١٢٠).

(٢) المثلات: جمع مَثُلة وهي العقوبة.

(٣) «الحلية» (٥/ ٢٦٩)، و«المعرفة والتاريخ» (١/ ٥٨٥).

(٤) «المعرفة والتاريخ» (١/ ٥٨٥).

ميمون؟! وقل مثل ذلك في قول أبي أيوب: إني لعند عمر بن عبد العزيز، إذ فُتح له منطق حسن حتى رقَّ له أصحابه، قال: ففطن لرجل منهم وهو يجرف دمعته، فقطع منطقه!!.

□ قال ميمون: فقلت: امض في منطقك يا أمير المؤمنين، فإني أرجو أن يمنَّ الله بك على من سمعه منك، أو انتهى إليه، فقال بيده: إليك عني، فإن في القول فتنة، والفعل أولى بالمرء من القول»[(١)].

عمر بن عبد العزيز إمام هُدًى وعالم ربّاني عامل، وشهيد سعيد:

□ سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله سيرةٌ مُشرِقةٌ بفضائل وكمالاتِ أولي الهمم المقرَّبين، وما كان له -وهو العظيم الفَذُّ- من حُسْنِ الأُحدوثة في التاريخ!».

□ قال الذهبي: «قد كان هذا الرَّجُل حَسَنُ الخَلْق والخُلُق، كامل العقل، حسنَ السمتِ، جيِّدَ السياسية، حريصًا على العدل بكل ممكن، وافرَ العلم، فقيهَ النفس، ظاهرَ الذكاء والفهم، وأوَّاهًا مُنيبًا، قانتًا لله، حنيفًا زاهدًا مع الخلافة، ناطقًا بالحق مع قلة المُعين، وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملُّوه وكرهوا محاققته لهم، ونقصَه أُعطياتهم، وأخذَه كثيرًا مما في أيديهم، مما أخذوه بغير حقٍّ، فما زالوا به حتى سقَوه السُّمَّ، فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُدَّ عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين، والعلماء العاملين»[(٢)].

□ والحقُّ أن استعداد أبي أيوب — وهو من هو في التابعين علمًا وفضلًا

---

(١) المصدر السابق (١/ ٥٩٥).

(٢) «السير» (٥/ ١٢٠).

واتقاءً لله وحرصًا على وضع الأمور مواضعها - للتأثر بما كان عليه خامس الخلفاء الراشدين، من غزارة العلم، ورجاحة العقل، وعلو الهمة في الصلاح والإصلاح، ونورانية السلوك، وشدة الورع في دقيق الأمور وجليلها.. هذا الاستعداد يشهد له ما كان عليه - مع شدة حبه لعمر - من عظيم تقديره له، وبالغ وثوقه بنهجه المتميز الفريد يومذاك، واتزانه الواضح في تقويم شخصيته التي كانت تواجه ما تواجه من الأعباء الجسام. انظر إليه يختصر الحديث عن هذا الموروث العظيم في تاريخنا من حياة هذا الإمام الرباني التي جادت بالوافر من العطاء الكبير فيقول: «إن الله كان يتعاهدُ الناسَ بنبيٍّ بعد نبي، وإن الله تعاهد الناس بعمر بن عبد العزيز»(١).

حيَّهلاً بعمر بن عبد العزيز، وميمون بن مهران الذي تتلمذ له وأخذ عنه الكثير:

□ قال ميمون: «دعاني عمر، فقال: يا مهرانُ بنَ ميمون، فقلت: أو ميمون بن مهران يا أمير المؤمنين؟ قال: أو ميمون بن مهران؟ إني أوصيك بوصية فاحفظها، إياك أن تخلو بامرأة غير ذات محرم وإن حدثتك نفسك أن تعلمها القرآن»(٢).

□ وفي ظل التأثير والتأثر بين أمير المؤمنين وميمون: نجد أن هذه الوصية من عمر لميمون باتت واحدة من عدة وصايا يوصي بها ميمون إخوانَه والآخذين عنه؛ فعن معمر بن سليمان، عن فرات بن السائب، عن

(١) «السير» (٥/ ١٢٧)، و«الحلية» (٥/ ٣٣٩).

(٢) «الحلية» (٥/ ٢٧١ - ٢٧٢).

ميمون قال: «ثلاث لا تبلونَّ نفسك بهنَّ: لا تدخل على السلطان وإن قلت آمره بطاعة الله، ولا تُصغِيَنَّ بسَمعك إلى هوى، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة – يعني غير ذات محرم- ولو قلت أعلمها كتاب الله»[(١)].

□ وحدَّث أبو المليح سمع ميمونًا يقول: «لأن أوتمن على بيت مال أحبُّ إليَّ من أن أوتمنَ على امرأة»[(٢)].

تَأَثُّر وتأثير:

□ جاء في «أحكام القرآن» للإمام القرطبي: «عن الزهري: أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [الشعراء] ثم يبكي ويقول:

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ غفلةٌ ... وليلُك نومٌ والرَّدَى لك لازمُ
فَلا أنتَ في الأيقاظ يقظانُ حازمٌ ... ولا أنتَ في النُّوَّامِ ناجٍ فسالمُ
تُسَرُّ بما يَفْنى وتفرحُ بالمنى ... كما سُرَّ باللذاتِ في النومِ حالمُ
وتسعى إلى ما سوف تكره غِبَّه ... كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ[(٣)]

وجاء عن التلميذ العظيم ميمون التأثُّر بنفس الآيات:

□ روى أبو نعيم بسنده عن علي بن الحسن الحلبي قال: «حدثني

(١) «السير» (٥/ ٧٧).
(٢) «السير» (٥/ ٧٧).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن الكريم» للقرطبي (١٣/ ١٤١). والغِبُّ والمغَبَّة: العاقبة.

عمرو بن ميمون بن مِهران قال: خرجت بأبي أقوده في بعض سكك البصرة، فمررت بجدول، فلم يستطع الشيخ يتخطاه، فاضطجعت له فمرَّ على ظهري، ثم قمت فأخذت بيده، ثم دَفَعْنا إلى منزل الحسن - يعني البصريَّ - فطرقت الباب، فخرجت إلينا جارية سداسية، فقالت: من هذا؟ قلت: هذا ميمون بن مِهران، أراد لقاء الحسن، فقالت: كاتبُ عمر ابن عبد العزيز؟ قلت لها: نعم! قالت: يا شقي ما بقاؤك إلى هذا الزمان السوء! قال: فبكى الشيخ، فسمع الحسن بكاءه، فخرج إليه، فاعتنقا، ثم دخلا. فقال ميمون: يا أبا سعيد، قد أنست من قلبي غلظة فاستلن لي منه؛ فقرأ الحسن: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [الشعراء].

قال: فسقط الشيخ، فرأيته يفحص برجله كما تفحص الشاة المذبوحة، فأقام طويلًا ثم أفاق، فجاءت الجارية فقالت: قد أتعبتم الشيخ قوموا تفرقوا؛ فأخذت بيد أبي، فخرجت به، ثم قلت: يا أبتاه! هذا الحسن، قد كنت أحسَب أنه أكبر من هذا! قال: فوكزني في صدري وكزة ثم قال: يا بنيَّ، لقد قرأ علينا آيةً لو فهمتها بقلبك، لأبقى لها فيك كلومًا، وفي رواية: لألفي، أو لصار فيه - أي في القلب - كلوم[1].

□ وروى أن ميمونًا لقي الحسن في الطواف، وكان يتمنى لقاءه. فقال له: «عظني، فلم يزده على تلاوة هذه الآيات، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت».

---

(١) «الحلية» (٤/ ٨٢- ٨٣)، و«تهذيب الكمال» للمزي (٢٩/ ٢٢٤- ٢٢٥).

إخفاء العمل:

□ عن ميمون بن مهران قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: «حدثني، فحدثته حديثًا بكى منه بكاءً شديدًا، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو علمت أنك تبكي هذا البكاء لحدثتك حديثًا ألين من هذا. قال: يا ميمون، إنا نأكل هذه الشجرة العدس، وهي ما علمتَ مُرِقَّة للقلب، مغزرة للدمع، مذلة للجسد»(١).

□ وقد ذكرنا وقائع من هذه البابة صدرت عن كبار أهل العلم والعُبَّاد في «علو الهمة في تحرِّي الإخلاص».

□ عن ميمون قال: قلتُ لعمر ليلةً: «يا أمير المؤمنين، ما بقاؤك على ما أرى؟ أما في أول الليل فأنت في حاجات الناس، وأما وسطَ الليل فأنت مع جلسائك، وأما آخرَ الليل فالله أعلم ما تصير إليه! قال: «فضرب على كتفي وقال: ويحك يا ميمون إني وجدت لقيا الرجال تلقيحًا لألبابهم»(٢).

إنه الدرس البليغ الذي يلقيه المسؤول الأول في الأمة، وأبو أيوب وضرباؤه أولى من يفيد من هذا الدرس الذي من ثمراته الانتفاع بآراء أولي النهى الذين أتيحت لهم حرية الكلمة في ضوء ما هم عليه من العلم المقترن بالخشية، والحرص على مصلحة الجماعة».

مع ميمون بن مهران:

□ قال رحمه الله: «لا يكون الرجل من المتقين حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسُه ومطعمُه ومشربُه

(١) «المعرفة والتاريخ» (١/ ٦٠٠)، و«السير» (٥/ ١٣٧).
(٢) «المعرفة والتاريخ» (١/ ٦١٩).

أمن حلٍّ ذلك أم من حرام؟». وفي رواية: «حتى يحاسبَ نفسَه أشدَّ من محاسبته شريكه»(١).

◻ وقال ميمون رحمه الله: «لا يزالنَّ أحدكم حديثَ عهد بعمل صالح، فإنه أهون عليه حين ينزل به الموت أن يتذكَّر عملًا صالحًا قد قدَّمه»(٢).

◻ وقال: «لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعلَ بينه وبين الحرامِ حاجزًا من الحلال»(٣).

◻ وحدَّث أبو المليح أن رجلًا قال لميمون: «يا أبا أيوبَ، ما يزال الناس بخيرٍ ما أبقاك الله لهم، فقال له ميمون: أقبل على شأنك أيها الرَّجُل، فما يزال الناس بخيرٍ ما اتقوا ربهم». وفي رواية: «لا يزال الناس بخير ما اتقوا الله»(٤).

◻ وقال: «لا خير في الدنيا إلَّا لأحدٍ رجلَيْن: رجل تائب، ورجل يعمل في الدرجات»(٥).

◻ وقال: «يا معشر الشباب، قوَّتكم! اجعلوها في شبابكم ونشاطكم في طاعة الله. يا معشر الشيوخ حتى متى؟!»(٦).

◻ وقال رحمه الله: «من كان يريد أن يعلم منزلته عند الله عز وجل، فلينظر في

---

(١) «الحلية» (٤/ ٨٩)، و«تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢١٨- ٢١٩)، و«صفة الصفوة» (٤/ ١٦٥).
(٢) «الحلية» (٤/ ٨٤).
(٣) «الحلية» (٤/ ٨٤).
(٤) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢٢١)، «والحلية» (٤/ ٩٠)، و«السير» (٥/ ٧٥).
(٥) «صفة الصفوة» (٤/ ١٦٥).
(٦) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢١٩)، و«الحلية» (٤/ ٨٧).

عمله، فإنه قادمٌ على عمله كائنًا ما كان»[١].

□ وقال: «من أحبَّ أن يعلم ما له عند الله، فليعلم ما لله عنده، فإنه قادمٌ على ما قدّم لا محالة»[٢].

□ وقال أبان بن أبي راشد: «كنتُ إذا أردت الصائفة أتيت ميمون بن مِهران أودعه، فما يزيدني على كلمتين: اتق الله، ولا يغرّنّك طمعٌ ولا غضب»[٣].

□ وقال ميمون رحمه الله: «ما من صَدَقةٍ أفضل من كلمة حق عند إمامٍ جائر»[٤].

□ وقال: «الصبر صبران، والذِّكر ذكران: فذكر الله عز وجل عندما تشرف عليه من معاصيه، والصبر عند المصيبة حسن، وأفضل منه أن تصبر نفسك على ما تكره من طاعة الله عز وجل، وإن ثقل عليك»[٥].

□ وقال ميمون: «إن أعمالكم قليلة، فأخلِصوا هذا القليل»[٦].

□ وعن ميمون قال: «ما أقلَّ أكْياسَ الناس، لا يبصر الرجل أمره حتى ينظر إلى الناس وإلى ما أُمروا به، وإلى ما أكبُّوا عليه من أمور الدنيا، فيقولَ: ما هؤلاء إلَّا أمثال الأباعر التي لا همَّ لها إلَّا ما تجعل في أجوافها، حتى إذا أبصر غفلتهم نظر إلى نفسه فقال: والله إني لأراني من شرهم بعيرًا

(١) «الحلية» (٤/ ٨٤).
(٢) «الحلية» (٤/ ٩١).
(٣) «الحلية» (٤/ ٨٥).
(٤) «الحلية» (٤/ ٨٩).
(٥) «صفة الصفوة» (٤/ ١٦٦).
(٦) «الحلية» (٤/ ٩٢).

واحدًا»(١).

□ يقول يونس بن عبيد: «كتبت إلى ميمون بن مِهران بعد طاعون كان ببلادهم أسأله عن أهله، فكتب إليَّ: «بلغني كتابك، وإنه مات من أهلي وخاصتي سبعة عشر إنسانًا، وإني أكره البلاء إذا أقبل، فإذا أدبر لم يسرَّني أنه لم يكن»(٢).

وغير خافٍ ما تشرق به هذه الكلمات من تمام الرضا بقضاء الله ﷻ المقترنِ بالوضوح وعدم التكلُّف!!.

□ وفي رواية: أنه أتبع ذلك بقوله خطابًا ليونس: «أما أنتَ فعليك بكتاب الله، فإن الناس قد بَهؤوا به- قال يونس: يعني نسوه واختاروا عليه الأحاديث، أحاديث الرجل - وإياكَ والجدال والمراء في الدين، لا تمارينَّ عالمًا ولا جاهلًا، فإنك إن ماريت الجاهل خشَّن صدرَك ولم يطعك، وإن ماريت العالم خزن عنك علمه، ولم يبال ما صنعت»(٣).

ومدارس الربانيين ريَّانة ما دام الخير في الأمة:

نعم مدارس الربانيين ريَّانة ما دام الخير وبقي في الأمة.. وكلها ترفع شعار «اقتضاء العلم العمل».. وأن الرَّبانية قدوة وعمل.

□ قال عبد الله بن وهب: «ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلَّمنا من علمه»(٤).

---

(١) «الحلية» (٤/ ٨٩).

(٢) «السير» (٥/ ٧٥).

(٣) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢٢٢).

(٤) انظر: ترجمة مالك في «السير» (٨/ ٤٨- ١٣٥).

□ وقال الحسن بن إسماعيل: «سمعت أبي يقول: كان يجتمع في مجلس أحمد زهاءَ خمسةِ آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمئة يكتبون، والباقون يتعلَّمون منه حُسْن الأدب وحسن السَّمْت»[(١)].

□ وقال أبو بكر بن المُطَّوِّعي: «اختلفت إلى أبي عبد الله ثنتى عشرة سنة، وهو يقرأ «المسند» على أولاده، فما كتبتُ عنه حديثًا واحدًا، إنما كنتُ أنظر إلى هدْيه وأخلاقه»[(٢)].

الربَّانية.. القُدْوة.. القُدْوة:

القُدوات المباركة أهلُ الهمم العَلِيَّة والقلوب النقيّة والعقول القويمة والنفوس الشفافة الرَّقراقة.

* قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة].

□ قال ابن عُيَيْنة: «لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسًا».

□ وقال ابن تيمية: «إنما تُنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين».

* وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان].

□ وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثم قال: «من أراد أن يكون من أهل هذه الآية فليُؤَدِّ شرطها».

□ قال أخي الحبيب الشيخ مشهور حسن آل سلمان: «والقُدوات

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص٢٧١).

(٢) «السير» (١١/٣١٦).

ينبغي أن تُراعي التروكَ قبل الأفعال».

▢ وقال سُئل الإمام أحمد رحمه الله: «من نسألُ بعدك؟ فقال: عبدالوهَّاب الوَرَّاق. فقيل له: إنه ضيِّق العلم. فقال: إنه رجل صالح، مِثْلُهُ يُوَفَّقُ لإصابة الحق»(١).

▢ وقال إسماعيل شدَّاد: «قال لنا سفيان بن عُيَيْنة: ما فَعَل ذلك الحَبْرُ الذي فيكم ببغداد؟ قُلنا: من هو؟! قال: أبو محفوظ – معروف الكَرْخِيُّ. قُلْنا: بخيرٍ. قال: لا يزالُ أهلُ تلك المدينة بخير ما بقي فيهم»(٢).

▢ وقال أبو موسى الأشعري: «لَمَقعَدٌ كنتُ أقعُدُه مع عبد الله بن مسعود أحبُّ إليَّ مِن عَمِل سَنَةٍ في نفسي».

▢ قال العلامة ابن مُفلِح مُعَلِّقًا: «وهذا إنما قاله لِما يحصُل له من علمِه وهَدْيه وسَمْته»(٣).

▢ وقال حمدان البَلْخي: «ما رأيتُ أحدًا إذا رُؤِي ذُكر الله تعالى إلَّا القَعْنَبِيُّ رحمه الله، فإنه كان إذا مَرَّ بمجلس يقولون: «لا إله إلَّا الله»، وقيل: كان يُسمَّى «الراهِبَ» لعبادته وفضله»(٤).

▢ وقال جعفر بن سليمان: «كنتُ أذا رأيتُ من قلبي قسوةً، نظرتُ إلى وجه محمد بن واسع، كان وجهه كأنه وجه ثَكْلى»(٥).

▢ قال أبو حازم رحمه الله لولده: «يا بني، لا تقتد بمن لا يخاف الله بظهر

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٣٦).
(٢) «السير» (٩/ ٣٤٠).
(٣) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٣٣).
(٤) «السير» (١٠/ ٢٦٢، ٢٦٣).
(٥) «الحلية» – ترجمة محمد بن واسع.

الغيب، ولا يَعِفُّ عن العيب، ولا يصلحُ عند الشَّيْب»[١].

□ وقال الإمام مالك: «إذا لم يكن للإنسان في نفسه خيرٌ، لم يكن للناس فيه خير»[٢].

□ وقال سيد الخائفين والمُرَبِّين الفضيل بن عياض: «أنت لا ترى خائفًا، فكيف تخاف؟!»[٣].

□ وقال سهل بن عبد الله التُّسترِي رحمه الله: «مَن لم تُهَذِّبْك رؤيته، فاعلم أنه غيرُ مُهَذَّب»[٤].

□ ولله در عثمان بن عفان رضي الله عنه حيث يقول: «أنتم إلى إمامٍ فعّالٍ أحوجُ منكم إلى إمامٍ قوّال».

□ وقال عون بن عبد الله: «من اقتدى بمَنْ قبله اقتدى به مَن بعدَه»[٥].

□ وقال الجُنيد بن محمد: «عِلْمُنا هذا مضبوط بالكتاب والسُّنَّة، مَنْ لم يحفظ الكتاب، ويكتُب الحديث ولم يتفقَّه، لا يُقتدَى به»[٦].

□ وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «ترى الرَّجُل وما يَلْحَنُ حَرْفًا، وعمله كله لَحْنٌ»[٧].

---

(١) «تهذيب الحلية» (١/ ٥١٩).

(٢) «الحلية» (٦/ ٣٥٠).

(٣) المصدر السابق (٨/ ١١٣).

(٤) «شعب الإيمان» (١٢/ ٦٧).

(٥) «الحلية» (٤/ ٢٦٠).

(٦) «السير» (١٤/ ٦٧).

(٧) «تهذيب الحلية» (١/ ٤٢٩).

□ وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله: «كنا نضحكُ ونمزحُ، فلمَّا صِرْنا أئمة يُقتدى بنا، خشيتُ ألَّا يَسعَنا التبسُّمُ»[(١)].

□ وقال أبو عبد الرحمن الأعرج: «كان إبراهيم بن أدهم يحدِّثنا ويُضاحِكنا، فإن رأى غريبًا قال: هذا جاسوس»[(٢)].

□ قال الإمام ابن حبَّان: «إني لأكرهُ استعمال المُزاح عند العوام»[(٣)].

□ وقال محمد بن الطُّفَيْل رحمه الله: «رأى الفضيلُ بن عياضُ قومًا من أصحاب الحديث يمزَحُون ويضحكون فناداهم: مَهْلًا يا ورثة الأنبياء مهلًا! إنكم أئمة يُقتدى بكم»[(٤)].

□ ورأى مالك بن دينار رَجُلًا يُسئ الصلاة، فقال: «ما أرحمني بعياله!»، فقيل له: يا أبا يحيى، يسيء الصلاة وترحم عياله؟! فقال: إنه كبيرهم، ومنه يتعلَّمون»[(٥)].

□ لا بُدَّ من علم وعمل.. و«من لم تكن له بدايةٌ مُحرِقة لم تكن له نهاية مُشرِقة».

عَرَفت فالزم.. عَلِمْتَ فاعمل:

• عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه. وعن علمه ماذا عمل**

(١) «السير» (٧/ ١٣٢).
(٢) «روضة العقلاء» (ص١٣١).
(٣) «روضة العقلاء» (ص١٣١).
(٤) «الحلية» (٨/ ١٠٣).
(٥) «تهذيب الحلية» (١/ ٤٢٩).

فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»(١).

• قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»(٢).

□ قال ابن مسعود رضي الله عنه: «تعلموا تعلموا، فإذا علمتم فاعملوا»(٣).

□ وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «مثل علم لا يعمل به كمثل كنز لا ينفق منه في سبيل الله عز وجل»(٤).

• وعن عيسى بن مريم عليه السلام: «إلى متى تصفون الطريق للدالجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين، إنما يبتغى من العلم القليل ومن العمل الكثير»(٥).

□ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: «إنما أخاف أن يكون أول ما يسألني عنه ربي أن يقول: قد علمت، فما عملت فيما علمت»(٦).

□ قال ابن المنكدر: «العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلَّا ارتحل».

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الدارمي، والترمذي وقال: حسن صحيح، وقال الألباني: إسناده صحيح، انظر: «اقتضاء العلم العمل» (ص١٦، ١٧).

(٢) إسناده جيد: رواه الطبراني، والضياء المقدسي في «المختارة» عن جندب، انظر: «تخريج الشيخ الألباني في «اقتضاء العلم» (ص٤٩)، و«قيام رمضان» (ص٥).

(٣) إسناد موقوف حسن: انظر: «اقتضاء العلم» (ص٢٢، ٢٣)، وتخريج تحقيق الشيخ الألباني.

(٤) قال الألباني: إسناده موقوف لا بأس به، انظر: «الاقتضاء» وتخريجه وتحقيقه (ص٢٤).

(٥) «اقتضاء العلم العمل».

(٦) قال الألباني: «موقوف حسن الإسناد، انظر: «الإقتضاء» (ص٤١).

□ قال الحسن: «إياك والتسويف، فإنك بيومك ولست بغدك، فإن يكن غد لك فكن في غدٍ كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرطت في اليوم».

□ قال داود الطائي: «يا أخي: إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم في كل يوم مرحلة زادًا لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب، والأمر أعجل من ذلك فتزوّد لنفسك، واقض ما أنت قاض فكأنك بالأمر قد بغتك».

✍ **أخي**: «إن الخطأ الأكبر أن تنظم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك»[(١)].

□ قال عبد الله بن إدريس: «مهما فاتك من العلم فلا يفوتك العمل».

✍ **أخي**: ما أحسن ما قاله أبو عبد الله الروذباري: «العلم موقوف على العمل، والعمل موقوف على الإخلاص، والإخلاص لله يورث الفهم عن الله عَزَّ وَجَلَّ».

✍ **أخي**: انظر إلى الكلام الطيب يهديكه مالك بن دينار: إن العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمه، وإذا طلبه لغير ذلك ازداد به فجورًا أو فخرًا».

□ قال سهل بن عبد الله: «العلم كله دنيا، والآخرة منه العمل به».

□ قال الجنيد: «متى أردت أن تُشَرَّفَ بالعلم، وتنسب إليه، وتكون

(١) «الرقائق» لمحمد أحمد الراشد (ص٤٥)، وهذا القول لمصطفى صادق الرافعي رحمه الله.

من أهله قبل أن تُعطِيَ العلم ما له عليك احتجب عنك نوره وبقي عليك رسمه وظهوره، ذلك العلم عليك لا لك، وذلك أن العلم يشير إلى استعماله، فإذا لم تستعمل العلم في مراتبه رحلت بركاته».

أتـــرى يرجـــع لي دهـــر مـــضى ... أتـــرى ينفعنـــي قـــولي تـــرى

ويـــك يـــا عـــينُ أعينـــي قلقـــي ... إنْ توانيـــت فـــلا ذقـــت الكـــرى

✍ **أخي:**

ولا تُرجِ فعل الخير يومًا إلى غـد ... لعـلَّ غـدًا يـأتي وأنـت فقيـد

فيومــك أن اعتبتــه عــاد نفعــه ... عليك، وماضي الأمس ليس يعود

✍ **إخواني:** أنذرتكم «سوف»، فإنها جند من جنود إبليس..

إلى كـــم أقـــول ولا أفعـــل ... وكـــم ذا أحـــوم ولا أنـــزل

وأزجـــر عينـــي فـــلا ترعـــوي ... وأنـــصح نفـــسي فـــلا تقبـــل

وكـــم ذا تعلَّـــل لي ويحهـــا ... بعـــلّ وســـوف وكـــم تمطـــل

وكـــم ذا أؤمـــل طـــول البقـــا ... وأغفـــل والمـــوت لا يغفـــل

✍ **أخي:** أعربنا في القول ولحنّا في العلم.

✍ **أخي:** إن الواو والراء والدال ولا تشم منها رائحة الورد.

✍ **أخي:** كن بالخير موصوفًا ولا تكن للخير وصّافًا.

✍ **ويعد يا داعية الإسلام:** بادر يا أخي فإنك مبادر بك، وأسرع فإن مسروع بك، وَجِدَّ فإن الأمر جد، تيقظ من رقدتك وانتبه من غفلتك.

وا حسرتا، أأكون كالقوس، رفعت السهم فمرّ، ولم تبرح، أأصبر

كالإبرة تكسو غيرها وهي عريانة، أأشبه حال الشمعة أضاءت غيرها باحتراق نفسها؟!

أعوذ بك يا إلهي أن تجعل حظي لفظي.

وا آسفى أأصف وأصفِّي؟ ويشرب غيري.

فعندي زفير مـا ترقَّـى إلى الحـشى وعنـدي دمـوع مـا بلغـن المآقيـا

✍ **أخي:** اجلس إلى من تكلمك صفته، ولا تجلس إلى من يكلمك لسانه..

ما لي – وقَدْ فَرطت في أمري – سوى رب إلى نفحاتـــــه أتعـــــرضُ
ما كان من عذر لتقصيري سـوى نفـس تقـاد إلى الجنـان فتعـرض
نامـت وأهـل الجـدِّ قُـوَّامٌ، ولمْ تـنفض غبـار النـوم فـيها يُـنْفَضُ
لم تَحْذُ حَذْوَ الـصادقين وظهرهـا من زحمـة الأوزار أوشـك يُـنقَضُ
قعـدت ولم تبـذل كـما بـذلوا، ولم تسمع دعاء الله: «مَنْ ذا يُقرِضُ؟»
عبـد بـضاعته الكـلام جهـاده صحف تسطر، أو قريض يُقـرضُ
يدعو الورى للـصالحات وسِـفْرُهُ في صـالح الأعـمال خِلْـوٌ أبـيض
ويحب درب الـصالحين وإن أكُـنْ قَصَّرتُ فيها طولـوه وعرضـوا [١]

□ أو كما قال أبو سليمان الداراني: «الأخ من يعظك بحاله قبل أن يعظك بمقاله».

---

(١) «مناجاة» للقرضاوي من ديوان «نفحات ولفحات» للقرضاوي (ص٨٨، ٨٩).

أخي:

إنما يصلح التأديب بالسوط من صحيح البدن ثابت القلب قوي الذراعين، فيؤلم ضربه فيردع، فأما من هو سقيم البدن لا قوة له، فماذا ينفع تأديبه بالضرب؟!

كان الحسن إذا خرج إلى الناس كأنه رجل عاين الآخرة، ثم جاء يخبر عنها. وكانوا إذا خرجوا من عنده خرجوا وهم لا يعدون الدنيا شيئًا.

□ قال بعض السلف: «إن العالم إذا لم يرد بموعظته وجه الله زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا».

وصفت التقى حتى كأني ذو تقى ... وريح الخطايا من ثيابي تعبق

العالم الذي لا يعمل بعلمه كمثل المصباح يضيء للناس ويحرق نفسه.

□ قال أبو العتاهية:

وَبَّخْت غيرك بالعمى فأفدته ... بصرًا وأنت محسن لعماك

وفتيلة المصباح تحرق نفسها ... وتضيء للأعشى وأنت كذاك

أخي: قال الحسن: «اليوم ضيفك، والضيف مرتحل يحمدك، أو يذمك وكذلكم ليلتك».

أخي: إذا ذكرت حالنا وحال سلفنا يظهر لك قول الشاعر:

وكنا نستطب إذا مرضنا ... فصار هلاكنا بيد الطبيب (١)

يا إخوتي ليس لي منكم سوى طلب ... هل يخذل الأخ من في الله آخاه؟

(١) انظر: «لطائف المعارف» من (ص١٣).

إذا قــرأتم وصــليتم صــلاتكم وقــام قــائمكم لله ناجــاه
وهزت الأرض بالتسبيح سجدتُه وبللــت وجهــه بالــدمع عينــاه
وراح يــدعو بــما يحلــو لــه طلبًــا للحــسنيينِ: بــدنياه وأخــراه
فــلا تخلــو أخــاكم مــن دعــائكم بظهر غيـب وسـتر الليـل أرخـاه
ولتـــشفعوا لي إلى ربي وربكـــم وادعــوا «لــسيد»: لا تتركــه ربَّــاه
ادعــوه يمنحنــي عفــوًا وعافيــة فلــيس أكــرم منــه في عطايــاه
ادعــوه يقبلنــي في المخلــصين لــه مــن اســتقاموا وقــالوا: ربنــا الله
وأنـتم القـوم لا يـشقى جليـسكمو ومن شفعتم لـه يكرمـه مـولاه[١]

□ قال ابن الجوزي في «صيد الخاطر»: «لقد تاب على يديَّ في مجالس الذكر أكثر من مِئتي ألف، وأسلم على يديّ أكثر من مِئتي نفس، وكم سالت عين متجبر بوعظي ولم تكن تسيل، ويحق لِمَنْ تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام، وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي، ولقد جلست يومًا فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف، ما منهم إلَّا قد رقّ قلبه أو دمعت عينه، فقلت لنفسي: كيف بك إنْ نَجَوْا وهلكت فصحت بلسان وجدي:

«إلهي: وسيدي إنْ قضيت عليّ بالعذاب غدًا فلا تعلمهم بعذابي صيانه لكرمك لا لأجلي، لئلا يقولوا: عذَّب مَنْ دلَّ عليه.

إلهي: قد قيل لنبيك ﷺ: اقتل أبيّ المنافق فقال: «**لا يتحدثُ الناسُ أن**

---

(١) قصيدة «شوق وحنين» من ديوان «نفحات ولفحات» للقرضاوي (ص١٠٣).

محمدًا يقتل أصحابه».

إلهي: فاحفظ حسن عقائدهم فيّ بكرمك أنْ تعلمهم بعذاب الدليل عليك.. حاشاكَ والله يا رب من تكدير الصافي.

زوّر رجل شفاعة إلى بعض الملوك على لسان بعض أكابر الدولة فاطلع المزور عليه على الحال فسعى عند الملك في قضاء تلك الحاجة واجتهد حتى قُضيت، ثم قال للمزور عليه: ما كنَّا نخيب مَنْ علق أمله بنا ورجا النفع من جهتنا.

إلهي: فأنت أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، فلا تخيب من عَلّق أمله ورجاءه بك وانتسب إليك ودعا عبادك إلى بابك، وإن كان متطفلًا على كرمك، ولم يكن أهلًا للسمسرة بينك وبين عبادك، ولكنه طمع في سعة جودك وكرمك فأنت أهل الجود والكرم، وربما استحيا الكريم من رَدّ من تطفّل على سماط كرمه»اهـ.

لئن لم يعظ العاصين من هو مذنب فمن يعظ العاصين بعد محمد

يا ضيعة العمر إن نجا السامع وهلك المسموع، يا خيبة المسعى إن وصل التابع وانقطع المتبوع [(١)].

اللَّهم لا تجعلنا مِمَّن يدعو إليك بالأبدان ويهرب منك بالقلوب.. يا أكرم الأشياء، علينا لا تجعلنا أهون الأشياء عندك.

---

(١) «تحفة الواعظ في الخطب والمواعظ» للشيخ أحمد فريد.

مدارس الربانيين:

مدرسة الخوف والورع والزهد: مدرسة الفضيل بن عياض الفضيل.. علي بن الفُضَيل.. بشر بن الحارث الحافي.. مُخة بنت الحارث:

□ هذه مدرسة إمامها شيخ الإسلام الفضيل بن عياض أخوف أهل الأرض في زمانه، الذي قال فيه عبد الله بن المبارك شيخ الإسلام: «إذا مات الفضيل ارتفع الخوف من الأرض».

□ وقال أيضًا فيه: «كنتُ كلما قسى قلبي نظرت إلى وجه الفضيل، فيجدِّد لي الحزن فأمقت نفسي».

□ والفضيل بن عياض إمام في الزهد والورع، يبحث عن الحلال ويُدقِّق فيه، لا يُدخل جوفه إلَّا الحلال ولو استفَّ التراب.

□ وظهر أثر تربية الفضيل وخوفه في ابنه علي بن الفضيل وهو سيد من سادات أولياء هذه الأمة.. يُضرب به المثل في الخوف، بل قدّمه بعض الأئمة – في الخوف – على والده، والذي مات من جرّاء آيات سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ إلى آخر الآيات، ظل يرددها حتى خرجت روحه.. وبلغ علي رحمه الله مبلغًا كبيرًا في الورع.

□ وعلى الدرب سار بشر بن الحارث وأهل بيته وأخواته.. دققوا في مسائل الورع حتى قال فيهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل: «من بيتهم خرج الورع».

□ وقال: «أتسألوني عن الزهد وفيكم بشر؟!».

وإبراهيم بن أدهم رباني كبير القدر:

□ إمام عظيم لا يُدرَكُ شأوه.. وربَّاني كبير صاحب سرائر يحترز الأئمة كسفيان الثوري من الكلام عنده وفي حضرته.. عظيم القدر في تربية الأئمة على الإخلاص ودقائقه وأسراره.. ويُضرب به المثل في الخوف من الشهرة، وتحرّي الحلال بدرجة كبيرة لا تخطر ببالنا.

فاتني أن أرى الدِّيار بطرفي ... فلَعِلِّي أَرَى الديار بسمعي

□ قال حمدون القصّار: «من نظر في سِيَر السَّلَف، عَرَف تقصيره وتخلُّفه عن درجات الرِّجال»[(١)].

□ وقال بشر بن الحارث: «كم من أُناس موتَى تحيا القلوب بذكرهم، وأُناسٍ أحياء تموت القلوب بذكرهم».

□ وقال ابن الجوزي: «وينبغي أن يُعلَم أن الطَّبْعَ لِصٌّ، فإذا تُرِك مع أهل هذا الزمان، سَرَق طبائِعهم، فصار مثلهم، فإذا نظر لسيَر القدماء زاحمهم، وتأدَّب بأخلاقهم»[(٢)].

□ وقال أيضًا عن السلف: «من نظر في سِيَرهم تأدَّب».

□ وقال العلَّامة الكبير الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله: «فليجعل المسلم كلمات السلف وسيرتهم مِرْآةً له، ينظر من خلالها في القُدوة والاقتداء بالشرع المطهر».

□ وقال الشيخ عائض القرني: «أُوصيك بمطالعة سِيَرِ الصالحين –

(١) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ١٥٩) تحقيق الشيخ مشهور حسن.
(٢) «المنتقى النفيس من تلبيس إبليس» (ص١٣٠).

من الصحابة والتابعين والعُبَّاد والزُّهَّاد من أهل السُّنَّة- والوقوف على أخبارهم وقراءة أحوالهم، فإنها تشحَذُ هِمَّتَك، وتقدَحُ في القلب زِنادَ الاقتداء بهم، أو على الأقَلِّ تخجَلُ من نفسك، وتستحي من ربك إذا نظرت إلى حالتهم وحالتك، فعليك بتدبُّر أخبارهم، وعش معهم في زُهدهم وورعهم وعبادتهم وخوفهم من ربهم وتواضعهم وحُسنِ خُلُقهم وصبرهم».

أما أبناء عصرك، فهم مِثْلُك، قلَّ أن تَجِدَ منهم الزاهدَ العابدَ الورعَ المتعفِّفَ، ولله في خَلْقِه شؤون».

والحب الإلهي له مدارس ربَّانية ملأت الدنيا حُبًّا للجميل الودود:

السَّرِيّ السقطي والجنيد، وأبو سليمان الداراني وأحمد بن أبي الحواري وسمنون المحب، ويحيى بن معاذ الرازي.. وذو النون المصري ورابعة:

سادات علّموا الناس كيف يُحِبُّون ذي الجلال، وأنبتوا الأرض حدائق حُبٍّ لا ينتهي زرعها، بل هو ريَّان موصول ما بقيت الدنيا، وأمطروا سماء الدنيا كلمات طاهرات أنبتت من كل زوجٍ بهيج، وسقت أنهار الدنيا – أمواج شوق للجميل الجليل.. لا ينسى الناس ذكرهم ما بقيت الدنيا، كيف لا وهم الذين تُدمي القلوب كلماتهم في محبة ربهم.. ملؤوا القلوب من عذب كلماتهم ومناجاتهم حُبًّا طاهرًا، وهدهدوا الأرواح شوقًا إلى بلاد الأفراح..

ملأ الضلوعَ وفاض عن جَنَباتِها قلبٌ إذا ذُكِرَ الحبيب يذوبُ
ما زال يخفق ضارِبًا بجناحه يا ليت شعري هل تطيرُ قلوبُ

وعبد القادر الجيلاني إمامٌ كبير ومُرَبٍّ شهير.. وما أدراك ما الجيلاني؟!!

✍ هو الشيخ عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلاني نسبة إلى جيل، وهي بلاد متفرِّقة من وراء طبرستان، ويُقال لها: «جيلان وكيلان».

حياته العلمية[١]:

بدأ الشيخ حياته العلمية بعد وصوله إلى بغداد سنة (٤٨٨هـ).

وبغداد يومئذٍ من أعظم مراكز العلم في ديار الإسلام، وكان فيها الصفوة من العلماء في كل فن.

وأخذ يسأل عن مدارس الفقهاء وحلقات المحدثين، وكان يقضي وقته متعلمًا في حلقات العلم.

واستمرت حياة التلقي عنده ما يزيد عن ثلاثين عامًا، أتقن فيها كثيرًا من العلوم والفنون، بما في ذلك علم السلوك والتصوف.

◻ قال ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة»: «كان يتكلم في ثلاثة عشر علمًا، كانوا يقرؤون عليه درسًا في التفسير، ودرسًا في الحديث، ودرسًا في المذهب، وكان يفتي على مذهبي الشافعي وأحمد بن حنبل، ودرسًا في الخلاف، ودرسًا في الأصول وفي النحو، وكان يقرأ بالقراءات بعد الظهر»[٢].

وكان يحضر دروسه كبار العلماء، وتوجد في درسه مئات المحابر،

---

(١) انظر: «مواعظ الشيخ عبد القادر الجيلاني» لصالح أحمد الشامي (ص٨) وما بعدها- طبع المكتب الإسلامي.

(٢) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للندوي (ص٢٥٨).

الأمر الذي يذكرنا بدروس الإمام الغزالي.

وإن سعة علمه كانت من البواعث الرئيسة لكبار العلماء على حضور دروسه.

□ قال الحافظ أبو العباس البندنيجي: «حضرت أنا والشيخ جمال الدين ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - مجلس سيدنا الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه.. فقرأ القارئ آية، فذكر الشيخ في تفسيرها وجهًا.

فقلت للشيخ جمال الدين: تعلم هذا الوجه؟ قال: نعم.

ثم ذكر وجهًا آخر، فقلت له: أتعلم هذا الوجه؟ قال: نعم.

فذكر فيها الشيخ أحد عشر وجهًا، وأنا أقول له: أتعلم هذا الوجه؟ وهو يقول: نعم.

ثم ذكر الشيخ فيها وجهًا آخر. فقلت له: أتعلم هذا الوجه؟ قال: لا.

حتى ذكر فيها كمال الأربعين وجهًا، يعزو كل وجه إلى قائله، والشيخ جمال الدين يقول: لا أعرف هذا الوجه، واشتد عجبه من سعة علم الشيخ رضي الله عنه»[(١)].

□ يقول الإمام النووي -رحمه الله تعالى-: «كان الشيخ عبد القادر شيخ السادة الشافعية والسادة الحنابلة ببغداد، وانتهت إليه رياسة العلم في وقته، وتتلمذ له خلق لا يحصون عددًا، وانعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء رضي الله عنه بالتبجيل والإعظام والرجوع إلى قوله، والمصير إلى

---

(١) «الشيخ عبد القادر الجيلاني» للدكتور عبد الرزاق الكيلاني (ص١٧٠)، نقلًا عن «قلائد الجواهر».

حكمه»[١].

مجالس وعظه وتدريسه:

□ كان شيخه القاضي أبو سعيد المخرِّمي الحنبلي قد بنى لنفسه مدرسة بباب الأزج في بغداد، وكان يدرس فيها الفقه على المذهب الحنبلي. وقد انقطع إلى الشيخ عبد القادر في سنوات دراسته الأخيرة من سنة (٥٢١هـ) وكان يساعد شيخه في التدريس إلى أن توفي الشيخ رحمه الله.

ولما توفي الشيخ أبو سعيد لم يجد تلاميذه أفضل من الشيخ عبد القادر يفوضون مدرسته إليه، فجلس فيها للتدريس والفتوى والوعظ والإرشاد، ولكنها ضاقت بالناس فخرج إلى المصلى، خارج سور بغداد ليلقي دروسه هناك.

وقد اشتهر الشيخ بمجالس وعظه التي كان يقصدها الآلاف، وقد كان له التأثير الكبير في إصلاح المجتمع، فقد أسلم على يده أكثر من خمسة آلاف، وتاب على يده أكثر من عشرين ألفًا[٢].

وكان للشيخ نوعان من الدروس:

دروس منتظمة تتناول شتى فنون المعرفة، إضافة إلى التربية الروحية المنتظمة، وهو ما كان يقوم به في المدرسة المذكورة.

ودروس الوعظ والدعوة للجماهير، وكان يلقيها في ثلاثة أوقات بانتظام: صباح يوم الجمعة، ومساء يوم الثلاثاء، ومكان ذلك في المدرسة المذكورة، وصباح يوم الأحد في الرباط.

---

(١) المصدر السابق (ص٢٩٩).

(٢) «الفتح الرباني» للجيلاني (ص١٤٥).

بدأت دروسه بالرجلين والثلاثة، ثم تكاثر الناس وتزاحموا في درسه، حتى اضطره ذلك إلى الخروج من المدرسة، وإلقاء درسه بالرباط بجانب سور بغداد.

وتقول بعض الروايات: «إن مجلسه كان يضم سبعين ألفًا، وهذه الرواية وإن كانت لا تخلو من مبالغة؛ فإنها تدل على كثرة القاصدين لدرس الشيخ.

وقد يسأل سائل: لماذا اتجه الشيخ إلى الوعظ، حتى اشتهر به وعُرِف؟

إن دراسة عصر الشيخ يمكن أن تعطي الجواب على هذا السؤال، فقد كثر في زمنه الفقهاء والعلماء الذين يلقون دروسهم المتخصصة على طلابها، ولم تكن بغداد يومئذٍ ينقصها هذا الصنف.

وقد كثر الفساد في المجتمع واتسعت دائرته، فكان عامة الناس بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم ويردهم إلى دائرة الشريعة، ويعلمهم ما هم بحاجة إليه، وهي القضية التي تنبّه إليها الشيخ، ورآها وقد احتلت الدرجة الأولى في سلم الأولويات فكانت دروس وعظه تلبية لحاجة ملحة.

□ يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في وصف الشيخ ووصف مجلسه: «كان صاحب نفس زكية، وهمة قوية مؤثرة، وعلى جانب عظيم من الزهد والقناعة والعزوف عن الشهوات.

يجد ضعاف الإيمان في مجالسه قوة اليقين وحرارة الإيمان.

ويجد أهل الشك والارتياب السكينة والإذعان.

ويجد أصحاب النفوس القلقة والقلوب الجريحة المنكسرة: الهدوء والعزاء والسلوان.

ويجد هواة الحقائق والمعارف وأصحاب الدراسات: العلوم الدقيقة، والنكت اللطيفة.

ويجد أصحاب البطالة والعطلة، وأصحاب القلوب الخامدة ما يملؤهم حماسة وإيمانًا، وما يحفزهم إلى العمل والجهاد.

ويجد عباد الملذات والشهوات، والمترفون في الحياة، الذين تجرؤوا على المعاصي والمحارم: ما يبعث فيهم الإقلاع والندامة والتوبة والإنابة.

وبالجملة: يجد كل أحد في مجالسه: غناءه ودواءه وغذاءه وشفاءه، ويقف كمنارة عالية من الإيمان والعلم في بحر الظلمات والجاهلية يأوي إليها الغرقى ويهتدي بها الحائرون..»[(١)].

هذا النوع من الدروس، الذي يلبي حاجة كل طالب، هو ما يفسر لنا كثرة القاصدين له حتى بلغ عشرات الآلاف.

على أن الشيخ – مع ذلك- لم يترك دروس العلم في مدرسته كما رأينا، ولكنها كانت ممزوجة بالتربية الروحية والتطبيق العملي للمعلومات.

وقد آتت هذه التربية ثمارها، فكان لتلاميذ الشيخ أثرهم الكبير في الحياة الاجتماعية في شتى أنحاء العالم الإسلامي»[(٢)].

شهادات:

ولإعطاء تصور أفضل عن حياة هذا العَلَم، يحسن بنا أن ننقل بعض ما قيل في حقه من قبل العلماء الذين عايشوه، أو الذين جاؤوا من بعده:

---

(١) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» لأبي الحسن الندوي (ص٢٥١).

(٢) انظر كتاب «هكذا ظهر جيل صلاح الدين» للدكتور ماجد كيلاني.

□ قال الشيخ موفق الدين ابن قدامة المقدسي، صاحب «المغني»: «دخلنا بغداد سنة إحدى وستين وخمسمئة، فإذا الشيخ عبد القادر مما انتهت إليه الرياسة بها علمًا وعملًا وحالًا واستفتاءً، كان يكفي طالب العلم عن قصد غيره، من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم، والصبر على المشتغلين وسعة الصدر، وما رأيت أحدًا يعظّمه الناس من أجل الدين أكثر منه».

□ وقال شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني: «كان الشيخ عبد القادر متمسكًا بقوانين الشريعة، يدعو إليها وينفر عن مخالفتها، ويشغل الناس فيها، مع تمسكه بالعبادة والمجاهدة..».

□ وقال الإمام ابن رجب: «شيخ العصر، وقدوة العارفين، وسلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة في وقته محيي الدين، أبو محمد ظهر للناس، وحصل له القبول التام، وانتصر أهل السنة الشريفة بظهوره، وانخذل أهل البدع والأهواء، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته، وجاءته الفتاوى من سائر الأقطار، وهابه الخلفاء والوزراء فمن دونهم».

□ ويقول عنه أيضًا: «صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف والأحوال المشهورة»[(١)].

□ وقال ابن الجوزي عنه: «تكلَّم على الناس بلسان الوعظ، وظهر له صيته بالزهد، وكان له سمت وصمت، وكان يجلس عند سور بغداد مستندًا إلى الرباط، ويتوب عنده في المجلس خلق كثير»[(٢)].

(١) «الذيل على طبقات الحنابلة» لابن رجب (١/ ٢٩٤).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٩١).

□ وقال الحافظ ابن كثير: «.. كان له اليد الطولى في الحديث والفقه والوعظ وعلوم الحقائق، وكان له سمت حسن، وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار قدس الله سره»[1].

□ وقال الحافظ الذهبي: «الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة، شيخ الإسلام علم الأولياء..»[2].

□ وأما الإمام ابن تيمية: «فإنه يذكره بكثير من الاحترام والتقدير، فتارة يصفه بأنه من الشيوخ الكبار فيقول: «وكلام الشيوخ الكبار كالشيخ عبد القادر وغيره..»، وتارة يقول: «الشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم..»[3].

□ وقال: «وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون: مثل الجنيد وأتباعه، ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله، فهؤلاء من أعظم الناس لزومًا للأمر والنهي..»[4].

□ ويلاحظ على الإمام ابن تيمية أنه إذا مر ذكر الشيخ، أتبع ذلك بقوله: «قدس الله روحه»[5].

□ ويقول: «والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظ مشايخ زمانهم أمرًا

---

(١) «الشيخ عبد القادر الجيلاني» للدكتور عبد الرزاق الكيلاني (ص٢٩٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٤٣٩).

(٣) «الفتاوى» (١٠/ ٤٦٣، ٤٨٨).

(٤) «الفتاوى» (٨/ ٣٩٨).

(٥) «الفتاوى» (٨/ ٣٠٦)، (١٠/ ٤٥٨)، (١٠/ ٤٧٠).

بالتزام الشرع والأمر والنهي، وتقديمه على الذوق والقَدَر، من أعظم المشايخ أمرًا بترك الهوى والإرادة النفسِيَّة»[١].

□ وأثنى شيخ الإسلام ابن تيمية على الشيخ الجيلاني وشيخه حماد بن مسلم الدبَّاس، فقال: «فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حمَّاد الدبَّاس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة رضي الله عنهم: بأنه لا يريد السالك مرادًا قط وأنه لا يريد مع إرادة الله عَزَّ وَجَلَّ سواها، بل يجري فعله فيه فيكون هو مراد الحق»[٢].

□ وقال الأستاذ أبو الحسن الندوي: «لقد ظهر الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد، وتسلَّم الزعامة الدينية، وعاش نحو قرن فردًا فريدًا في الدعوة إلى الله تعالى، والتفَّ حوله العالم الإسلامي، وأثر فيه تأثيرًا لم يؤثر مثلَه عالمٌ أو مصلح في مدة طويلة»[٣].

إنه الرجل الخبير بأمراض المجتمع، الخبير بأمراض النفس، العليم بطرق إنقاذ الغرقى.

فلنتعرف على المحاور التي سلكها في علاج تلك الأمراض.

ومن أهم تلك المحاور:

١- تصحيح العقيدة:

□ كان الشيخ عبد القادر كثيرًا ما يُرَدِّد في مجالس وعظه وحلقات درسه عبارة: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة[٤].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٨٨).

(٢) المصدر السابق (١٠/ ٤٥٥).

(٣) «رجال الفكر والدعوة» للأستاذ الندوي (ص٢٥٢).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٤٤٢).

إنَّ قضية «التوحيد» هي القضية الأساسية، التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية، وحتى يتم التوحيد لا بد من التخلص من الشرك.

□ والشرك كما يقول الشيخ شركان:

شرك في الظاهر: وهو عبادة الأصنام.

وشرك في الباطن: وهو الاتكال على الخلق، ورؤيتهم في الضر والنفع(١).

والمسلم لا يكون موحدًا حتى يتخلص من الشرك الظاهر، ولكنه قد لا يحسن التخلص من الشرك الباطن، ولذا انصبّ اهتمام الشيخ على بيان ذلك، وكثرتْ معالجته لهذا الموضوع وبيان أخطاره، ومن ذلك قوله: «يا غلام، ما أنت على شيء، الإسلام ما صح لك، تقول: «لا إله إلَّا الله» وتكذب، في قلبك جماعة من الآلهة: خوفك من سلطانك، ووالي محلتك آلهة، اعتمادك على كسبك وقوتك وبطشك آلهة، رؤيتك للضر والنفع والعطاء والمنع من الخلق آلهة»(٢).

□ وقال: «كيف تقول: «لا إله إلَّا الله» وفي قلبك كم إله! كل شيء تعتمد عليه وتثق به دون الله فهو صنمك، لا ينفعك توحيد اللسان مع شرك القلب»(٣).

□ وقال: «دع عنك الشرك بالخلق، ووحد الحق عَزَّ وَجَلَّ، هو خالق الأشياء جميعها، يا طالب الأشياء من غيره ما أنت عاقل..»(٤).

---

(١) «الفتح الرباني» (ص١٤٤).

(٢) المصدر نفسه (ص٧٤).

(٣) المصدر نفسه (ص١٥٥).

(٤) «الفتح الربَّاني» (ص١٢).

وهكذا يوضح فكرة الشرك الباطن، حتى يبتعد عنها المسلم، ويكون موحدًا ظاهرًا وباطنًا.

٢- التزام الكتاب والسُّنَّة:

قامت الشريعة الإسلامية على الكتاب والسُّنَّة، ولا بد أن يكون عمل المسلم منضبطًا معهما حتى يكون مقبولًا.

ولهذا كان تأكيد الشيخ على تحكيم هذا الضابط والالتزام به كبيرًا، وقلَّ مجلس من مجالسه لم يذكر فيه هذا الأمر ويذكر به.

ومن أقواله في ذلك:

□ «كل من لم يتبع النبي ﷺ ويأخذ شريعته في يد والكتاب المُنَزَّل عليه في اليد الأخرى، ولا يصل في طريقه إلى الله ﷻ يَهلك ويُهلك، ويَضل ويُضل، هما دليلان إلى الحق ﷻ: القرآن دليلك إلى الحق ﷻ، والسُّنَّة دليلك إلى الرسول ﷺ»[١].

□ ولما كان بعض المتصوفة المنحرفين يدَّعون العمل بالحقيقة والقول بها بعيدًا عن الالتزام بالشرع، قرعهم بقوله: «كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طر إلى الحق ﷻ بجناحي الكتاب والسُّنَّة»[٢].

وكثيرًا ما كرر الجملة الأولى من هذه الفقرة بيانًا لانحراف الذين يبتعدون عن الشريعة أيًّا كان شأنهم.

□ ومن أقواله: «من لم يكن الشرع رفيقه في جميع أحواله، فهو هالك

---

(١) «الفتح الرباني» للجيلاني (ص١١٧).

(٢) المصدر السابق (ص١٧٩).

مع الهالكين»[١].

□ ومن لزم السُّنَّة فطريقه الاتباع، ولذلك يقول: «عليكم بالاتباع من غير ابتداع، عليكم بمذهب السلف الصالح، امشوا في الجادة المستقيمة، لا تشبيه ولا تعطيل، بل اتباعًا لسنة رسول الله ﷺ من غير تكلف ولا تطبع ولا تشدد.. يسعكم ما وسع من كان قبلكم»[٢].

٣- نقد العلماء:

يوجد في كل زمن من العلماء من لا يتفق سلوكه مع العلم الذي يحمله، ويرى الشيخ في هذا النمط من العلماء خطرًا داهمًا على عامة الناس، الذين ينظرون إلى سلوك هؤلاء العلماء قبل النظر والاستماع إلى أقوالهم.

ولهذا اشتدت وطأة هجوم الشيخ عليهم، وكانت لغته قاسية معهم؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون. ومن أقواله في ذلك: «يا أعداء الله ورسوله، يا قاطعي عباد الله عَزَّ وَجَلَّ، أنتم في ظلم ظاهر ونفاق ظاهر، إلى متى هذا النفاق يا علماء يا زهاد؟ كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها..»[٣].

□ ويخاطب الناس ويطلب منهم ألا يستمعوا من هؤلاء العلماء فيقول: «لا تسمعوا من هؤلاء الذين يفرِّحون نفوسكم، يذلون للملوك، ويصيرون بين أيديهم كالذر، لا يأمرونهم بأمره، ولا ينهونهم عن نهيه،

(١) «الفتح الرباني» (ص١٦١).

(٢) «الفتح الرباني» (ص٤٧).

(٣) «الفتح الرباني» (ص٢١٦).

وإن فعلوا ذلك فعلوه نفاقًا وتكلفًا، طهَّر الله منهم الأرض ومن كل منافق، أو يتوب عليهم ويهديهم إلى بابه»(١).

◻ ويطلب من طلبة العلم عدم الاغترار بهؤلاء العلماء فيقول: «يا غلام، لا تغتر بهؤلاء العلماء الجهال بالله ﷻ، كل علمهم عليهم لا لهم، هم علماء بحكم الله ﷻ، جهال بالله ﷻ، يأمرون الناس بأمر ولا يمتثلونه، وينهونهم عن شيء ولا ينتهون عنه، يدعون إلى الحق ﷻ وهم يفرون منه..»(٢).

◻ إنه لا بد للعلم من العمل، ولذلك يوجه النصيحة في هذا الشأن فيقول: «يا غلام، علمك يناديك: أنا حجة عليك إن لم تعمل بي، وحجة لك إن علمت بي؛ اسمعه بأذن قلبك وسرك، واقبل قوله فإنك تنتفع به؛ العمل بالعلم يقربك إلى العالم المنزل للعلم، لا تصح متابعتك للرسول ﷺ حتى تعمل بما قال»(٣).

٤- إصلاح التصوف والزهد:

◻ يرى الشيخ أن مفهوم التصوف قد انحرف عن معناه، وأصبحت المظاهر تشغل أصحابه بعد أن كان هدفه صفاء الباطن. ولذا فهو يتوجه إليهم بالنصيحة لتصحيح المسار فيقول: «يا من قد لبس الصوف، أَلبسِ الصوف لسرِّك ثم لقلبك، ثم لنفسك ثم لبدنك. بداية الزهد من هناك، لا من الظاهر إلى الباطن، إذا صفا السر تعدى الصفاء إلى القلب والنفس

---

(١) المصدر السابق (ص٣٠٦).

(٢) «الفتح الربَّاني» (ص٥٧).

(٣) «الفتح الرباني» (ص٢٣).

والجوارح، والمأكول والملبوس، وتعدى إلى جميع أحوالك، أول ما يعمر داخل الدار، فإذا كملت عمارتها، اخرج إلى عمارة الباب، لا كان ظاهر بلا باطن..»[١].

□ وقال: «يا غلام، صفِّ قلبك بأكل الحلال وقد عرفت ربك ﷻ، صفِّ لقمتك وخرقتك وقلبك وقد صرت صافيًا، التصوف مشتق من الصفاء، يا من لبس الصوف، الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سوى مولاه ﷻ، وهذا شيءٍ لا يجيء بتغيُّر الخرق، وتصفير الوجوه، وجمع الأكتاف، ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين، وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق ﷻ، والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق من القلب..»[٢].

□ ويتجه إلى الذين ادعوا الزهد وتركوا العمل فيقول لهم: «يا طالب الدنيا بنفاقه، افتح يدك، فما ترى فيها شيئًا، ويلك، زهدت في الكسب وقعدت تأكل أموال الناس بدِينِك، الكسب صنعة الأنبياء جميعهم، ما منهم إلَّا من كان له صنعة..»[٣].

□ ويلوم الزهاد على جهلهم ويطلب منهم أن يتعلموا فيقول: «يا من اعتزل بزهده مع جهله، تقدم واسمع ما أقول: يا زهاد الأرض، تقدموا، خرِّبوا صوامعكم واقتربوا مني، قد قعدتم في خلواتكم من غير أصل.. تقدموا والقطوا ثمار الحكم رحمكم الله..»[٤].

---

(١) «الفتح الرباني» (ص١١١).
(٢) «الفتح الرباني» (ص١١٥).
(٣) «الفتح الرباني» (ص١٨٧).
(٤) «الفتح الرباني» (ص٩٥).

إنها صرخات في سبيل إصلاح مدَّعي التصوف والزهد.

٥- تصحيح مفهوم التوكل:

□ ظن بعضهم أن التوكل ينافي العمل، وقد عمل الشيخ في مجالسه على تصحيح هذا المفهوم وبيان أن التوكل لا ينافي العمل، ومن وقوله في ذلك: «اشتر (المر) والزنبيل واقعد على باب العمل، فإن قُدِّر عملك فسوف تعمل، أعطِ السبب حقه، وتوكل واقعد على باب العمل..»(١).

□ وقال: «خذ المر والزنبيل واقعد على باب العمل، حتى إذا طلبت تكون قريبًا من المستعمل، ولا تقعد على فراشك وتحت لحافك، من وراء أغلاق ثم تطلب العمل..»(٢).

□ ويبين أن ترك الكسب والاعتماد على ما في أيدي الناس عقوبة من الله تعالى فيقول: «الأنبياء جمعوا بين الكسب والتوكل.. تَرْكُ الكسب والكدية من الناس، عقوبة من الله عَزَّوَجَلَّ للعبد»(٣).

٦- الإخلاص:

إن الإخلاص هو المدار الذي يتركز عليه قبول العمل. وقَلَّ مجلس للشيخ إلَّا وفيه نصيب للحديث عن هذا الموضوع.

ومن أقواله في ذلك:

«عليك بالإخلاص في الأعمال، ارفع بصرك عن عملك واطلب

---

(١) «الفتح الرباني» (ص٢١١).

(٢) المصدر السابق (ص٢٢٨).

(٣) المصدر السابق (ص١٢٦).

العوض عليه، اعمل لوجه الله ﷻ، كن من الذين يريدون وجهه»[١].

والنية هي المؤشر على الإخلاص، ولهذا ينصح الشيخ فيقول: «يا غلام، إذا تكلمت فتكلم بنية صالحة، وإذا سكت، فاسكت بنية صالحة، كل من لم يقدم النية قبل العمل فلا عمل له»[٢].

□ ويرشد إلى علامة الإخلاص فيقول: «علامة إخلاصك: أنك لا تلتفت إلى حمد الخلق ولا إلى ذمهم»[٣].

□ والإخلاص لا يكون مع العجب؛ ومن قوله في ذلك: «لا تعجبن بشيء من أعمالك، فإن العجب يفسد العمل ويهلكه»[٤].

□ وقال: «يا معجبين بأعمالكم ما أجهلكم! لولا توفيقه ما صليتم ولا صمتم ولا صبرتم»[٥].

٧- ذم الدنيا:

يلاحظ عند النظر في مواعظ الشيخ، كثرة «ذم الدنيا». ولا بد من وقفة عند هذا الأمر، لتحديد المقصود بالدنيا التي يذمها.

والشيخ رحمه الله لم يترك لنا ذلك، بل بيَّن مراده بكلام واضح لا لبس فيه، حتى لا يكون ظاهر كلامه حجة للكسالى والبطالين والخاملين فقال: «ليس من الدنيا ما لا بد منه. ليس من الدنيا: بيت يكنك، ولباس يسترك،

---

(١) «الفتح الرباني» (ص٨٢).

(٢) المصدر السابق (ص١١٩).

(٣) «الفتح الرباني» (ص١٩٠).

(٤) «الفتح الرباني» (ص٢٠١).

(٥) «الفتح الرباني» (ص١٧٩).

وخبز يشبعك، وزوجة تسكن إليها.

حياة الدنيا: نفسك وهواك وطبعك. هذه الدنيا.

الحياة الدنيا: الإقبال على الخلق والإدبار عن الحق»[(١)].

من مواعظ الجيلاني:

□ قال الجيلاني: «داوِمْ على سماع المواعظ، فإن القلب إذا غاب عنها عَمِي».

□ وقال: «لا تستهينوا بكلمات الحكماء العلماء، فإنها ثمرة وحي الله عَزَّ وَجَلَّ».

التسليم لله تعالى:

□ قال أبو محمد: «الاعتراض على الحق عَزَّ وَجَلَّ عند نزول الأقدار، موت الدين، موت التوحيد، موت التوكل والإخلاص.

والقلب المؤمن لا يعرف «لِمَ؟» و«كيف؟» لا يعرف»[(٢)].

هم النفس وهم القلب:

□ قال أبو محمد: «لا يكن همَّك ما تأكل وما تشرب، وما تلبس، وما تسكن وما تجمع..

كل هذا همُّ النفس والطبع.

فأين همُّ القلب والسرِّ؟ وهو طلب الحق عَزَّ وَجَلَّ.

همُّك ما أهمَّك!

---

(١) المصدر السابق (ص٣٤٤).

(٢) «الفتح الرباني» (ص٩-١٠).

فليكن همُّك ربك عَزَّ وَجَلَّ وما عنده.

الدنيا لها بدل، وهو الآخرة.

والخلق لهم بدل، وهو الخالق عَزَّ وَجَلَّ.

كلما تركت شيئًا من هذا العاجل، أحدث عوضه وخيرًا منه في الآجل.

قدِّر: أن قد بقي من عمرك هذا اليوم فحسب.

تهيأ للآخرة، تهيأ لمجيء ملك الموت»(١).

الطريق الموصل:

□ قال أبو محمد: «ذِلَّ لله عَزَّ وَجَلَّ، وأنزل به حوائجك، ولا تعدَّ لنفسك عملًا، والْقَهُ على قدم **الإفلاس**، أغلق أبواب الخلق، وافتح الباب بينك وبينه، واعترف بذنوبك، واعتذر إليه من تقصيرك، وتيقن أن لا ضار ولا نافع ولا معطي ولا مانع إلَّا هو، فحينئذٍ يزول عمى عينِ قلبك، ويحركُ البصر البصيرة»(٢).

علاج العجب:

□ قال أبو محمد: «**لا** تعجبن بشيء من أعمالك، فإن العجب يفسد العمل ويهلكه، من رأى توفيق الله عَزَّ وَجَلَّ له، انتفى عنه العجب بشيء من الأعمال»(٣).

---

(١) «الفتح الرباني» (ص١٥- ١٦).

(٢) المصدر السابق (ص١٨- ١٩).

(٣) المصدر السابق (ص٢٠١).

شمس التوحيد:

□ قال أبو محمد: «لا تكن في أخذك للدنيا كحاطب ليل، ما يدري ما يقع بيده.

إني أراك في تصرفاتك كحاطب ليل، في ليلة ظلماء، لا قمر فيها، ولا ضوء معه، وهو في رملة كثيرة الدغل[1] والحشرات القاتلة، فيوشك أن يقتلك شيء منها.

كن في تصرفاتك مع شمس التوحيد والشرع والتقوى.

فإن هذه الشمس تمنعك عن الوقوع في شبكة الهوى والنفس والشيطان والشرك بالخلق»[2].

فقه اللسان وعمل القلب:

□ قال أبو محمد: «فقه اللسان بلا عمل القلب لا يخطيك إلى الحق خطوة.

السير سير القلب، والعمل عمل المعاني مع حفظ حدود الشرع بالجوارح، والتواضع لله ﷻ ولعباده.

من جعل لنفسه وزنًا فلا وزن له.

من أظهر أعماله للخلق فلا عمل له.

الأعمال تكون في الخلوات، لا تظهرْ في الجلوات سوى الفرائض التي لا بد من إظهارها»[3].

---

(١) الدغل: الفساد، وأصله الشجر المُلْتَفُّ الذي يكمن أهل الفساد فيه.
(٢) «الفتح الرباني» (ص٢٧).
(٣) المصدر السابق (ص٤١).

بناء الباطن أولاً:

□ قال أبو محمد: «المرائي ثوبه نظيف وقلبه نجس، يزهد في المباحات ويأكل الحرام الصريح، يأكل بدينه ولا يتورع جملة.

كل زهده وطاعته على ظاهره.

ظاهره عامر، وباطنه خراب.

ويلك! طاعة الله ﷻ بالقلب لا بالقالب.

أنت لسانك ورع، وقلبك فاجر.

لسانك يحمد الله ﷻ، وقلبك يعترض عليه.

ظاهرك مسلم، وباطنك كافر.

ظاهرك موحد، وباطنك مشرك.

زهدك على ظاهرك، دينك على ظاهرك، وباطنك خراب، كبياض على بيت الماء [١]، وكقفل على مزبلة. إذا كنت هكذا خيم الشيطان على قلبك وجعله مسكنًا له.

المؤمن يبتدئ بعمارة باطنه، ثم بعمارة ظاهره، كالذي يعمل دارًا ينفق على الداخل منها مبالغ من المال، وبابها خراب، فإذا أكمل عمارتها بعد ذلك يعمل بابها.

هكذا البداية بالله ﷻ ورضاه، ثم الالتفات إلى الخلق بإذنه.

البداية بتحصيل الآخرة، ثم تتناول الأقسام [٢] من الدنيا [٣].

---

(١) بيت الماء: أي بيت الخلاء.

(٢) الأقسام: جمع قسم، وهو نصيبك وما قُدِّر لك.

(٣) «الفتح الرباني» (ص ٤٤- ٤٥).

□ وقال: «من ادَّعى حبَّ الله ﷻ من غير ورعٍ في خلوته فهو كذاب».

ما لا تفعلون:

□ قال أبو محمد: «يا من يُعلِّم العلم، وقد قنع منه بالاسم دون العمل، ماذا ينفعك إذا قلت: أنا عالِم.. قد كذبت.

* كيف ترضى لنفسك أنك تأمر غيرك بما لا تعمله أنت. وقد قال ﷻ: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف]؟

ويحك! تأمر الناس بالصدق وأنت تكذب.

تأمرهم بالتوحيد، وأنت مشرك.

تأمرهم بالإخلاص، وأنت مراءٍ منافق.

تأمرهم بترك المعاصي، وأنت ترتكبها.

قد ارتفع الحياء من عينيك، لو كان لك إيمان لاستحييت»(١).

ويحك! تحفظ القرآن ولا تعمل به.

تحفظ سنة رسول الله ﷺ ولا تعمل بها.

تأمر الناس وأنت لا تفعل، وتنهاهم وأنت لا تنتهي.

صفات الله تعالى:

□ قال رحمه الله: «أما تستحون! يصف الحق ﷻ نفسه بصفاتٍ يرضاها له. تتأوّلونها وتردُّونها عليه.

ما يسعكم ما وسِع مَن تقدَّمكم من الصحابة والتابعين؟

ربنا ﷻ على العرش، كما قال، من غير تشبيه ولا تعطيل ولا

(١) المصدر السابق (ص١٠١).

تجسيم»[(١)].

حفظ الباطن:

□ قال أبو محمد: «لا تقنع من أحوالهم بالاسم، والتزيي بزيهم، والتشدق بكلامهم.

لا ينفعك ذلك مع مخالفتك لأفعالهم.

أنت كدر بلا صفاء.

دنيا لا آخرة.

باطل بلا حقيقة.

ظاهر بلا باطن.

قول بلا عمل.

عمل بلا إخلاص.

إخلاص بلا إصابة السنة.

إن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يقبل قولًا بلا عمل، ولا عملًا بلا إخلاص، ولا يقبل شيئًا من الجملة غير موافق لكتابه وسنة نبيه ﷺ.

إن حصل لك قبول الخلق مع كذبك، فما حصل لك قبول الحق عَزَّ وَجَلَّ.

هو العالم بما في القلوب.

لا تبهرج، فإن الناقد بصير.

وأنت يا مسافرًا في طريق الآخرة، كن أبدًا مع الدليل إلى أن يوصلك إلى المنزل.

---

(١) «الفتح الرباني» (ص٩٩).

المريد لا بدَّ له من قائد ودليل.

إن أردت الفلاح، فاصحب شيخًا عالمًا بحكم الله عَزَّ وَجَلَّ وعلمه، يعلمك ويؤدبك، ويعرفك الطريق إلى الله عَزَّ وَجَلَّ[١].

كن واعظ نفسك:

❐ قال أبو محمد: «كن أنت واعظ نفسك، ولا تحتجْ إليَّ ولا إلى غيري.

وعظي على ظاهرك.

ووعظك على باطنك.

عِظْ نفسك بدوام ذكر الموت، وقطع العلائق والأسباب.

تعلق برب الأرباب الخلاق العظيم العليم.

تعلق برحمته ورأفته»[٢].

علاج قساوة القلب:

❐ قال أبو محمد: «أدنِ قلبك من الذكر.

وذكِّره يوم النشور.

تفكَّر في القبور الدوارس.

تفكَّر كيف يَحشر الحقُّ عَزَّ وَجَلَّ جميع الخلق، ويقيمهم بين يديه.

إذا دمت على هذا التفكر، زالت قساوة قلبك، وصفا من كدره»[٣].

---

(١) «الفتح الرباني» (ص٢١٠).
(٢) المصدر نفسه (ص٢٤٣).
(٣) المصدر السابق (ص٢٢٨).

مخالطة العلماء:

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا جُهَّال! خالِطوا العلماء، واخدموهم وتعلَّموا منهم.

العلم يُؤخذ من أفواه الرجال.

جالسوا العلماء بحسن الأدب، وترك الاعتراض عليهم، وطلب الفائدة منهم، لينالكم من علومهم، وتعود عليكم بركاتهم، وتشملكم فوائدهم.

جالسوا العارفين بالصمت، وجالسوا الزاهدين بالرغبة فيهم.

يا جاهل، اترك الدفتر من يدك. وتعال اقعد ها هنا بين يدي، العلمُ يُؤخَذ من أفواه الرِّجال، لا من الدفاتر.

يُؤخذُ من الحال، لا من المقال»[1].

تعجب!!:

□ قال أبو محمد: «لِمَ تقولون شيئًا وفعلكم يكذب قولكم؟

أما سمعتم قول ربكم عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف].

ملائكتكم تتعجب من وقاحتكم.

تتعجب من كثرة كذبكم في أحوالكم.

تتعجب من كذبكم في توحيدكم.

كل حديثكم في الغلاء والرخص، وأحوال السلاطين والأغنياء، أكل فلان، لبسَ فلان، تزوجَ فلان، استغنى فلان، افتقر فلان.

كل هذا هوَس ومقت وعقوبة.

---

(١) «الفتح الرباني» (ص٢٢٨، ٢١٤).

توبوا، واتركوا دنياكم.

ارجعوا إلى ربكم دون غيره، اذكروه وانسوا غيره»[١].

الناس أربعة:

□ قال أبو محمد: «الناس أربعة رجال:

رجل لا لسان له ولا قلب، وهو العاصي الغِرُّ، الغبي، لا يعبأُ الله به ولا خير فيه. وهو وأمثاله حثالة لا وزن لهم، إلَّا أن يَعمهم الله عَزَّ وَجَلَّ برحمته، فيهدي قلوبهم للإيمان به، ويحرك جوارحهم بالطاعة له عَزَّ وَجَلَّ.

فاحذر أن تكون منهم، ولا تكترث بهم، فإنهم أهل العذاب والغضب والسخط، سكان النار وأهلها، نعوذ بالله عَزَّ وَجَلَّ منهم.

إلَّا أن تكون من العلماء بالله عَزَّ وَجَلَّ ومن معلمي الخير.. فدونك فأتهم وادعهم إلى طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ..

الرجل الثاني: رجل له لسان بلا قلب.

فينطق بالحكمة ولا يعمل بها، يدعو الناس إلى الله، وهو يفر منه عَزَّ وَجَلَّ.

يستقبح عيبَ غيره، يدوم هو على مثله في نفسه.

يظهر للناس تنسكًا، ويبارز الله عَزَّ وَجَلَّ بالعظائم من المعاصي، إذا خلا كأنه ذئب عليه ثياب.

وهو الذي حذر منه النبي ﷺ بقوله: «**أخوف ما أخاف على أمتي من كل منافق عليم اللسان**»[٢].

---

(١) المصدر السابق (ص٣٠١).

(٢) ضعيف: انظر «كنز العمال» (٢٨٨٥٠).

نعوذ بالله من هذا، فابتعد منه، وهرول لئلا يختطفك بلذيذ لسانه.

والرجل الثالث: قلب بلا لسان وهو مؤمن.

ستره الله عَزَّ وَجَلَّ من خلقه، وأسبل عليه كنفه، وبصَّره بعيوب نفسه، ونور قلبه وعرَّفه غوائل مخالطة الناس..

فهذا رجل ولي الله عَزَّ وَجَلَّ. فالخير كل الخير عنده، فدونكه ومصاحبته ومخالطته.

والرجل الرابع: المدعو في الملكوت بالعظيم.

كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**من تعلَّم وعلَّم كتب في ملكوت السماوات عظيمًا**»(١). وهو العالم بالله عَزَّ وَجَلَّ وآياته.. اصطفاه واجتباه.

فهذه هي الغاية القصوى في بني آدم، لا منزلة فوق منزلته إلَّا النبوة، فعليك به، واحذر أن تعاديه.

فقد قسمت لك الناس، فانظر لنفسك، إن كنت ناظرًا، واحترز لها إن كنت محترزًا.. هدانا الله وإياك لما يحبه ويرضاه(٢).

كن بواب قلبك:

◻ قال أبو محمد: «اخرج من نفسك وتنحَّ عنها، وانعزل عن ملكك، وسلم الكل إلى الله.

فكن بوابه على قلبك، وامتثل أمره في إدخال من يأمرك بإدخاله، وانتهِ بنهيه في صد من يأمرك بصده.

فلا تدخل الهوى قلبك بعد أن أُخرج منه.

---

(١) لا يصح عن نبينا ﷺ، وهو مرويٌّ عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) «الفتح الرباني» (ص٥٧ - ٥٩).

فأخرج الهوى من القلب بمخالفته، وترك متابعته في الأحوال كلها.

فلا تُرِدْ إرادةً غيرَ إرادته تعالى، وغير ذلك منك تمنٍّ وهو وادي الحمقى»[(١)].

اتق الشرك:

□ قال أبو محمد:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ١١٦].

اتق الشرك جدًّا ولا تقربْه.

واجتنبه في حركاتك وسكناتك، وليلك ونهارك، في خلوتك وجلوتك.

واحذر المعصية في الجملة، في الجوارح والقلب، واترك الإثم ما ظهر منه وما بطن.

لا تهرب منه عَزَّ وَجَلَّ فيدركك.

ولا تنازعه في قضائه فيقصمك.

ولا تتهمه في حكمه فيخذلك.

ولا تغفل عنه فينبهك ويبتليك.

ولا تحدث في داره حادثة فيهلكك.

ولا تقل في دينه بهواك فيرديك ويُظلم قلبك ويسلب إيمانك

---

(١) «الفتح الرباني» (ص١٦).

ومعرفتك، ويسلط عليك شيطانك ونفسك وهواك وشهواتك»[(١)].

أنت بين حالين:

□ قال أبو محمد: «لا يخلو أمرك من قسمين: إما أن تكون غائبًا عن القرب من الله، أو قريبًا منه واصلًا إليه.

فإن كنت غائبًا عنه، فما قعودك وتوانيك عن الحظ الأوفر، والنعيم والعز الدائم.. والسلامة والغنى..؟

فقم وأسرع في الطيران إليه عَزَّ وَجَلَّ بجناحين:

أحدهما: ترك اللذات والشهوات، الحرام منها والمباح، والراحات أجمع.

والآخر: احتمال الأذى والمكاره، وركوب العزيمة، والخروج من الخلق والهوى.

وإن كنت من المقربين الواصلين إليه عَزَّ وَجَلَّ، ممن أدركتهم العناية.. ونالتهم الرحمة والرأفة، فأحسن الأدب، ولا تغتر بما أنت فيه، فتقصر في الخدمة، وتخلد إلى الرعونة، واحفظ قلبك من الالتفات إلى ما تركته من الخلق والهوى»[(٢)].

قطع طمع النفس:

□ قال أبو محمد: «ينبغي أن تقطع طمعك من الآدميين، ولا تطمع فيما في أيديهم.

---

(١) المصدر السابق (ص٤٢).

(٢) «الفتح الرباني» (ص٨١- ٨٢).

فإنه العز الأكبر، والغنى الخاص، والملك العظيم.. واليقين الصافي، والتوكل الشافي الصريح.

وهو باب من أبواب الثقة بالله ﷻ.

وهو باب من أبواب الزهد.

وبه ينال الورع ويكمل نسكه»[١].

شراء مملوك:

□ قال أبو محمد: «اشترى رجل مملوكًا. وكان ذلك المملوك من أهل الدين والصلاح.

فقال له: يا مملوك، إيش تريد أن تأكل؟

فقال: ما تطعمني.

فقال له: ما الذي تريد أن تلبس؟

فقال: ما تلبسني.

فقال له: أين تريد أن تقعد في داري؟

فقال: موضع ما تقعدني.

فقال له: ما الذي تحب أن تعمل من الأشغال؟

فقال: ما تأمرني.

فبكى الرجل، وقال: طوبى لي لو كنت مع ربي ﷻ كما أنت معي.

فقال المملوك: يا سيدي وهل للعبد مع سيده إرادة أو اختيار؟

فقال له: أنت حر لوجه الله»[٢].

---

(١) المصدر السابق (ص١١٩).

(٢) المصدر السابق (ص٢٥٥).

الأثر العظيم للمدرسة القادرية في دعم الدولة الزنكية والأيوبية والجهاد ضد الصليبيين، وإنهاء الوجود الفاطمي بمصر:

كان للشيخ عبد القادر الجيلاني الدور الكبير في التصدي للتطرق الشيعي الباطني والرد العظيم على الرافضة.

وقد لعبت المدرسة القادرية دورًا رئيسيًّا في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية.

ولقد قامت المدرسة القادرية بدور مهم في إعداد أبناء النازحين عن مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة، ولقد كان هؤلاء الطلاب يعرفون باسم «المقادسة» نسبة إلى بيت المقدس وكانت المدرسة القادرية، والقيادة الزنكية تعد أبناء النازحين لقيادة حركة الجهاد [1].

□ وهاجر العلماء من المدرسة القدرية للعمل في المدارس النورية، وشاركوا في الميادين السياسية مع نور الدين محمود زنكي، ومن كبار هذه المدرسة أسعد بن المنجَّا بن بركات، وكذلك علي بن بردوان بن زيد الكندي الذي حظي عند نور الدين» [2].

□ وكذلك الشيخ حامد بن محمود الحراني الذي صحب الشيخ عبدالقادر ودرس عليه، واتصل بنور الدين فولاه التدريس والقضاء والمظالم في حرَّان. وجاء إلى دمشق في حوائج إلى نور الدين [3].

---

(١) «هكذا ظهر جيل صلاح الدين» (ص٢٢٤– ٢٣٨).

(٢) المصدر السابق (ص٢٨٠).

(٣) المصدر السابق (ص٢٨٠).

□ وكان لزين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي الذي تتلمذ على يد الشيخ عبد القادر دور كبير ضد الفاطميين وتقويض بنيانهم، إذ أرسله الشيخ عبد القادر للشيخ عثمان بن مرزوق القرشي قائد المعارضة السُّنِّيَّة بمصر وشيخ المدرسة الإصلاحية بها، وقد قام ابن نجا بدور خطير ومهم في زحف جيش نور الدين إلى مصر انتهى بفتحها وتوحيدها مع الشام.

وتحالف ابن نجا مع الشيخ عثمان في تهيئة الأجواء العامة لتقويض الدولة الفاطمية، واستطاع ابن نجا اختراق بلاط الفاطميين وتعرَّف على مواطن الضعف والقوة عندهم، ولعب ابن نجا الذي كان صلاح الدين يشبهه بعمرو بن العاص رضي الله عنه الدور الكبير في كشف مؤامرة الفاطميين ضد صلاح الدين، وكان لابن نجا الدور الكبير في زوال الدولة الفاطمية. وكان لشيوخ المدرسة القادرية الدور الكبير كمتطوعين في تحرير بيت المقدس، وشكلوا جانبًا مهمًّا في جيش صلاح الدين حتى مَنَّ الله على صلاح بتحريره وفتحه.

المدرسة الربانيَّة لشيخ الإسلام ابن تيمية وأعظم ثمارها ابن قيم الجوزية.. وإصلاح العقائد وأخذ الإسلام بشموله:

شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبدالسلام ابن تيمية الحَرَّاني الحفصلي أشهر في الدنيا من الدنيا.

نشأ في تصون تام، وعفاف، وتأله، تقيًّا ورِعًا عابدًا ناسِكًا صوَّامًا قوَّامًا، ذكرًا الله تعالى في كل أمر، وعلى كل حال، رجَّاعًا إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقَّافًا عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، آمرًا

بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، فارِغًا من شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذّة له في غير نشر العلم وتدريسه، عُرِضَ عليه منصب قضاء القضاة ومشيخة الشيوخ فلم يقبل، وقبل وظائف والده في التدريس وله إحدى وعشرون سنة.

وانتهت إليه الإمامة في العلم، والعمل، والزهد، والورع، والشجاعة، والكرم، والتواضع، والحلم، والأناة، والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة، والعِفَّة والصِّيانة، وحسن القصد، والإخلاص، والابتهال إلى الله تعالى، وشدة الخوف منه، ودوام المراقبة له، والتمسك بالأمر، والدعاء إلى الله تعالى، وحُسْن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم.

وكان رحمه الله سَيْفًا مسلُولًا على المخالفين، وشجًى في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين، وإمامًا قائمًا ببيان الحق ونصرة الدين، طَنَّت بذكره الأمصار، وضنَّت بمثله الأعصار.

جهاد الإمام ومحنته:

بدأ تعويل الأمة عليه في دفع أعدائها عنها في نوبة غازان [(١)]، فقام بأعباء الأمر بنفسه، واجتمع بنائبه وجرؤ على المغول وتوجه بعد ذلك بعام إلى الديار المصرية لما اشتد الأمر بالشام من المغول، واستصرخ بأركان الدولة وحضهم على الجهاد، ثم عاد بعد أيام إلى دمشق، وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الأمراء على ذلك إلى ورود الخبر بانصرافهم، وقيامه القيام المحمود في وقعة «شَقْحَب» سنة اثنتين وسبعمئة واجتماعه

(١) غازان: قائد جيش التتار الذي حاصر دمشق في المرة الأولى سنة ٦٩٩.

بالخليفة والسلطان، وأرباب الحل والعقد، وتحريضهم على الجهاد.

ثم توجهه في آخر سنة أربع وسبعمئة لقتال الكسروانيين[١] واستئصال شأفتهم.

«كثرت تأليفه؛ لأنه كان يؤلف من صدره، حفظ الكتاب والسنة وما دوِّن في شروحها، وما قاله العلماء في تفسيرهما، وقد ساعده كثرة محفوظه، وفيض خاطره، وسعة بيانه على تدوين حقائق لم يكتب لعالم مثله في موضوعه، ولو لم يكن له إلَّا «منهاج السُّنَّة» لكفاه على الأيام فخرًا لا يبلى، ففيه مثال من علمه وقوة حجته، ومعرفته باللل والنحل، وإذا قلنا: إنه لم يؤلّف نظيره في الرد على المخالفين لأهل السنة، لصدقنا كل منصف من أهل القبلة.

وكتاب «منهاج السنة» من أصح الشهادات على علوِّ كعبه في معرفة الشرع وما تقلب عليه، وما حاول بعض أهل الأهواء من العبث به، وفيما أورده الموافقون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها، وكان عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الإسلام، وتاريخ الملل والنحل.

ولو ادعينا: أنه لم يأت عالم «مثله» يعرف ما طرأ على الدين ومذاهب أهله فيه ساعة ساعة ويومًا يومًا ما قدر أحد على رد دعوانا.

رد على المعتزلة، وعلى الجهمية، وعلى الشيعة، وعلى الفلاسفة وعلى غيرهم، فجاء بالعجيب من الآراء التي استخرجها من روح الشريعة واستنبطها ببعد نظره، وشدة بحثه، فما كتب لإمام من الأئمة في عصره

---

(١) الكسروانيون: هم سكان جبل كسروان، وقد جرت المعركة معهم سنة أربع وسبعمئة.

وبعد عصره أن يناقضه ويرد أقواله.

وما سمع لأحد علماء الدين في عصره صوت مثل صوته، في إحقاق الحق، ونصرة سلطان الإسلام»[(١)].

قالوا عن شيخ الإسلام ابن تيمية:

□ قال الحافظ الذهبي: «شيخنا وشيخ الإسلام، وفريد العصر علمًا ومعرفةً وشجاعةً، وذكاءً، وتنويرًا إلهيًّا، وكرمًا ونصحًا للأمة، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر.

سمع الحديث، وأكثر بنفسه من طلبه، وكتب وخرَّج، ونظر في الرجال والطبقات، وحصل ما لم يحصله غيره، وبرع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه، بطبع سيال، وخاطر وقاد إلى مواضع الإشكال. واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها.

وبرع في الحديث وحفظه، فقلَّ من يحفظ ما يحفظ من الحديث معزوًا إلى أصوله مع شدة استحضاره له وقت إقامة الدليل.

وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب، وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب. بل بما يقوم دليله عنده.

وأتقن العربية أصولًا وفروعًا، وتعليلًا واختلافًا.

ونظر في العقليات وعرف أقوال المتكلمين ورد عليهم، ونصر السنة.

وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي، فلو حلفت بين الركن والمقام

---

(١) «مواعظ شيخ الإسلام ابن تيمية» لصلاح أحمد الشامي (ص١٥- ١٧)- طبع المكتب الإسلامي.

لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه.

وقال: كان بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث».

□ وقال الحافظ الزملكاني: «كان إذا سئل عن فن من العلم، ظنَّ الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدًا يعرف مثله.

وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك.

ولا يعرف أنه ناظر أحدًا فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلَّا فاق فيه أهله.

واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها».

□ وقال الحافظ ابن سيد الناس: «ألفيته ممن أدرك من العلوم حظًا، وكان يستوعب السنن والآثار حفظًا.. برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه».

□ وقال الشيخ عماد الدين الواسطي: «قال بعد ثناء جميل ما لفظه: فوالله ثم والله لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية، علمًا وعملًا، وحالًا وخلقًا واتباعًا.. وقيامًا في حق الله عند انتهاك حرماته.

أصدق الناس عقدًا وأصحهم علمًا.. وأكملهم اتباعًا لنبيه محمد ﷺ. ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلي النبوة المحمدية وسنتها من أقواله وأفعاله إلَّا هذا الرجل.. يشهد القلب الصحيح: أن هذا هو الاتباع حقيقة».

□ وقال الشيخ ابن دقيق العيد: «رأيت رجلًا سائر العلوم بين عينيه

يأخذ ما شاء منها، ويترك ما شاء».

□ وقال الحافظ المزي: «ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله، ولا أتبع لهما منه».

□ وقال الشيخ أبو عبد الله بن قوام: «ما أسلمت معارفنا إلَّا على يد ابن تيمية».

□ وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «كانت العلماء والصلحاء والجند والأمراء والتجار، وسائر العامة تحبه؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلًا ونهارًا بلسانه وعلمه»[1] اهـ.

ومدرسة ابن تيمية مدرسة ربانية مباركة تخرّج من سادات العلماء الربانيين مثل ابن قيم الجوزية، وابن كثير، والحافظ الذهبي.. ولو لم يكن لهذه المدرسة من ثمرة إلَّا الإمام الرباني ابن قيم الجوزية لكفى هذه المدرسة فخرًا.

فكيف وقد أينعت ثمارها بقيام دولة التوحيد في عصرنا وقرننا في الديار السعودية على فكر وكتب ابن تيمية رحمه الله وجعل ذلك في ميزان حسناته.

عبد الله بن ياسين بن مكوك الجزولي العابد الزاهد مؤسس دولة المرابطين:

الشيخ عبد الله بن ياسين الجزولي ولد في قرية قرب أودغشت في طرف صحراء غانة تتلمذ على يد الشيخ وجاج بن زولو الذي أمره أن

(١) «شذرات الذهب» (٦/ ٨٠- ٨٥).

يسير إلى وطن الملثمين «موريتانيا» داعيًا ومصلحًا آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، وكان رحمه الله متبعًا هدى السلف فحارب البدع وأصلح العقائد، وبنى رباطًا ربَّى فيه من دخله على الزهد والتقشف وتعليم الكتاب والسنة، وكان يرسل من رباطه بعوثًا إلى القبائل لترغيب الناس في الاتباع، واجتمع له من التلاميذ نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة، وقام عبد الله بن ياسين خطيبًا في تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة، وقام عبد الله بن ياسين خطيبًا في تلاميذه فوعظهم وذكّرهم بنعمة الله عليهم بأن هداهم إلى الصراط المستقيم وأن عليهم الآن أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وأن يجاهدوا في الله حق جهاده فقالوا: مرنا بما شئت تجدنا سامعين طائعين، ثم أمر هؤلاء المرابطين أن يخرجوا على بركة الله لينذروا قومهم ويخوِّفوهم عقاب الله ويبلّغوهم حجته، «فإن تابوا ورجعوا إلى الحق فخلّوا سبيلهم، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيِّهم ولجوا في طغيانهم استعنَّا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين».

وتمكن من إخضاع قبيلة جدالة بعد قتالهم وذلك في سنة ٤٣٤هـ، ثم سار إلى لمتونة وقاتلهم حتى ظهر عليهم وأذعنوا إلى الطاعة والتوبة، وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة. وكذا فعل بأهل مسوفة ثم باقي قبائل صنهاجة، وجعل يعلمهم القرآن وشرائع الإسلام، وجعل يحيى بن عمر أمير المرابطين فضرب عبد الله بن ياسين أعظم المثل في الزهد في المناصب والملك والمجد ولخّص دوره للمرابطين في قوله: «إنما أنا معلم دينكم».

ثم سار إلى مملكة غانة وخضعت مدينة أودغست سنة ٤٤٦ للمرابطين.

□ ولما اجتمع فقهاء سلجماسة ودرعة بالمغرب الأقصى سنة ٤٤٦هـ وكتبوا إلى عبد الله بن ياسين يرغبّونه في الوصول إلى بلادهم ليطهرها من المنكرات وشدة العسف من الأمراء. وعرفوه ما هم فيه من الذل والصغار من جرّاء أميرهم مسعود بن وانودين المغزاوي، وكان هذا النداء مدعمًا بخطاب من شيخه وجاج يؤكد فيه ضرورة نجد أهل لسلجماسة ودرعة. واستطاع أن يردع أهل درعة وأن يقتل مسعود المغراوي بعد غزوه وقتاله سنة ٤٤٦هـ.

□ وبعد احتلال درعة دخل عبد الله بن ياسين سلجماسة وأقام بها وأصلح أحوالها، وأزال المنكرات، وقطع آلات اللهو، وأحرق الدور التي كانت تباع فيها الخمور، وأزال المكوس والمغارم، ومحا ما أوجب الكتاب والسنة.

□ ثم سار إلى قبائل وريكة وهيلات من قبائل المصامدة بأغمات فأمرهم ونهاهم، ثم سار إلى السوس وماسة، وتقدم المرابطون إلى تارودانت بالسوس وكان فيها قوم من الشيعة والروافض يدعون البجلية نسبة إلى عبد الله البجلي الرافضي فأخضوعهم للكتاب والسنة.

□ ثم سار إلى تامسنا [١] وكانت بها قبائل برغواطة وكانوا ذوي نحلة ضالة وعقائد فاسدة، ورأى ابن ياسين أن جهاد هؤلاء البرغواطيين المارقين عن الدين من أوكد الأمور، واعتبره من أولويات المرابطين لاستئصال شأفة هذا المنكر المستشري الذي استعصى على من حكموا

---

(١) تامسنا: سهل يقع إلى الشمال من وادي أم الربيع يمتد على ساحل المحيط من الرباط إلى الدار البيضاء وتُسَمَّى الآن بالشوية.

المغرب قبل ذلك من بني يفون.

واستشهد في قتالهم عبد الله بن ياسين بعد أن أصيب في هذه المعركة، وحُمِل إلى عسكره وبه رمق، فجمع أشياخ المرابطين ورؤساءهم وقال لهم: «يا معشر المرابطين! إنكم في أرض أعدائكم وإني ميت في يومي هذا فإياكم أن تجبنوا أو تفشلوا فتذهب ريحكم، وكونوا أعوانًا على الحق وإخوانًا في ذات الله تعالى»[(١)]. ويوم مات رحمه الله ترك للمرابطين دولة تمتد من محدود نهر السنغال إلى وسط المغرب الأقصى لقد ترك عبد الله بن ياسين لأتباعه هدفًا ساميًا يعيشون من أجله هو إعلاء كلمة الله، وقد حرص عبد الله أن يتجلى هذا في كل أعمال المرابطين، فالنقود التي ضربوها منذ سنة ٤٥٠هـ مكتوب عليها الشهادتان والآية الكريمة ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]. وكان قوام منهج الالتزام بشرع الله في كل الأمور صغيرها وكبيرها. وقد أثمر ذلك المنهج أنمحاء البدع والفرق الضالة وتوحيد المغرب الأقصى مذهبيًّا على مذهب أهل السنة والجماعة لأول مرة في تاريخه[(٢)]. وكتب المرابطون اسم الخليفة العباسي على سكتهم.

- لقد كان عبد الله بن ياسين رحمه الله ذا علم واسع، وكان خطيبًا مفوّهًا بليغًا ومؤمنًا مخلصًا لرسالته متفانيًا في تحقيقها صابرًا على ما أصابه فيها.
- وكان نموذجًا حيًّا لما يدعو إليه فقد كان كثير الصوم متورعًا لا

---

(١) «عبد الله بن ياسين» (ص٢٦)، و«روض القرطاس» لابن أبي زرع (ص١٣٢).
(٢) «عبد الله بن ياسين» لعبد الله بن كنون (ص٢٣).

يأكل إلَّا من الصيد أو عمل يده متقشفًا في المأكل والمشرب[(١)].

أولئــك آبــائي فجئنــي بمــثلهم إذا جمعتنــا يــا جريــرُ المجــامع

ونختم بشيخ المالكية مالك الصغير أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن النفزي (ت ٣٨٦):

إمام المالكية في عصره وشيخ القيروان، وجامع المذهب، وشارح أقواله، وكان واسع العالم كثير الحفظ الرواية، وقَّافًا عند الدليل، جمع بين العلم والعمل والصلاح والتقوى، والحرص على نفع المسلمين، والزهادة في الدنيا.

◻ قال أبو عبد الله الميروقي: «اجتمع فيه العلم والورع والفضل والعقل، شهرته تغني عن ذكره»[(٢)].

◻ قال أبو القاسمي اللبيدي: «اجتمع عيسى بن ثابت العابد بالشيخ أبي محمد، فجرى بينهما بكاء عظيم وذكر لله عَزَّوَجَلَّ، فلما أراد فراقه، قال له عيسى: أريد أن تكتب اسمي في البساط الذي تحتك، فإذا رأيته دعوت لي، فبكى أبو محمد، وقال: قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]»[(٣)].

✍ فاللهم ارزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وسِرْ بنا على طريق الربانيين واحشرنا معهم.

---

(١) «روض القرطاس» (ص١٢٤).

(٢) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٢/ ٤٩٣- ٤٩٤).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٩٦).

وقفات مضيئة في التربية مع الشيخ الدكتور محمد أمين المصري:

فضيلة الشيخ الدكتور محمد أمين المصري علم بارز واسم لا يُمحى، وقمة سامقة في قرننا.

ولد رحمه الله عام ١٩١٤م بدمشق، وحصل على الدكتوراه عام ١٩٥٩م في «معايير النقد عند المُحَدِّثين»، وفي عام ١٩٦٥ سافر إلى المملكة السعودية للتدريس في جامعة الملك عبد العزيز – كلية الشريعة- في مكة المكرمة، وقد شارك في تأسيس قسم الدراسات العليا فيها، وقبل وفاته بثلاث سنوات انتقل إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنور ١٩٧٤م رئيسًا للدراسات العُليا فيها، وكان له دور في وضع مناهجها.

□ يقول الدكتور محمد العبدة عن الشيخ محمد أمين المصري: «من الكتابات أو الآراء التي لا تبلى مع الزمن، ولا يذهب تأثيرها وأهميتها، ما سطره أو تحدث به الشيخ محمد أمين المصري رحمه الله؛ لأن هذه الكتابات كانت نابعة من القلب ومن همٍّ متجدد حول مستقبل الأمة، وحول تربية الفرد.

لم يكن الشيخ ممن يُزوِّقون الكلام، ولا يكثرون من التأليف، كان جُلُّ اهتمامه تربية المسلم تربية الأحرار، تربية القادة، وكان هذا واضحًا في محاضراته ودروسه وأحاديثه.

إن الدعوة الإسلامية – بعد عشرات السنين- ما تزال بحاجة إلى تجديد في الأساليب وفي مناهج الدعوة، وإلى ثقافة تتيح للفرد الإبداع والإنتاج، وهذا ما كان يقلق الشيخ، وقد عاش فترة خصبة من المد الإسلامي، عاشها مدرسًا في الجامعات ومشرفًا على مناهجها، ومشاركًا

في الفكر والثقافة، وموجهًا للشباب، وكانت له نظرات تخالف بعض نظرات الآخرين، بل له شخصيته المستقلة في كثير من آرائه التربوية.

وقد عشتُ مع فضيلته رحمه الله قبل انتقاله للعمل في جامعة أم القرى والجامعة الإسلامية، وكانت دروسه المهمة تتركز في تفسير القرآن وفي السيرة النبوية.

وعشت معه في السنوات الأخيرة من عمره المبارك وهي السنوات التي كان فيها فضيلة الشيخ محمد أمين المصري رحمه الله رئيسًا للدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وأعتقد أن هذه السنوات كانت من أخصب سِنِي حياته ليس من الناحية العلمية فحسب، ولكن من ناحية القلق والألم على ما آل إليه المسلمون في الوقت الحاضر، وتحريض الشباب على العمل، والتشديد على موضوع التضحية والجهاد.

لقد كان شديد النقد لنفسه ولحاملي لواء الدعوة الإسلامية بأنهم ليسوا على المستوى المطلوب، وأنهم لم يقدموا كل ما عندهم في سبيلها، ولو قدموا لكانوا معذورين، وأما الاعتذار بالواقع وأنه ليس بالإمكان أفضل مما هو موجود، هذا الاعتذار كان مرفوضًا عند الشيخ.

والفكرة التي كانت تؤرقه هي: أين الرجال الذين يتحملون المسؤولية، الذين بلغوا من الإخلاص والفهم والتضحية والثقافة مبلغًا يرفعون به هذه الأجيال إلى المستوى المطلوب.

وكان زائروه وتلامذته يلاحظون أن هناك مواضيع كان يلح عليها ويكررها ولا يسأم من تكرارها.

ويمكن أن نستخلص من مجموع ما كتب ودرس وحدث بعض ركائز أفكاره:

أولًا:

موضوع التربية، والتركيز على تربية المنْزل وتربية الأم بالذات، ويستشهد بصحابيات قدمن أولادهن للمعارك الإسلامية مثل الصحابية الجليلة عفراء، ويقارن بين هذه التربية وتربية الأمهات في هذا العصر والتي من أقصى أمانيها أن يتخرج ابنها موظفًا أو طبيبًا، وتصور له الحياة بأنها العيش الرغيد ولا يخطر على بالها أن تربي ابنها على الجهاد.

كما يتحدث كثيرًا عن تربية المدرسة، وينتقد طرق التربية التقليدية التي لا تزال في مدارسنا وجامعاتنا كنظام الامتحانات الذي يجعل الهدف من التعليم هو النجاح والشهادة بدل أن يجعل الهدف هو حب العلم.

ثم ينتقل الشيخ إلى تربية الشباب سواء في المدرسة أو المسجد أو المجتمع، ويؤكد هنا على ضرورة تربيتهم تربية القادة لا تربية العبيد، تربية الاستقلال لا تربية الخضوع والخنوع والمريدين بكل ما في الكلمة من معنى. فإن البعض يعجبه أن يتعلق به الأتباع تعلقًا أعمى، ويحلو لهم مغالاة الأتباع في تعظيمهم، ويغلب على هؤلاء الأتباع نسيان الفكرة ويصبح التعلق بالشخص ولو انحرف عن الفكرة.

• بينما التربية التي يريدها هي التربية القرآنية كما ربى رسول الله ﷺ أصحابه فكان لا يمتاز عنهم بشيء من ملبس أو مظهر أو مكان، وكان يكره أن يقوم له أصحابه وكان يستشيرهم في كل مناسبة، وعمل برأي الحباب بن المنذر في بدر، وسلمان الفارسي رضي الله عنهما في الخندق ويقول لهم: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم**».

ثانيًا:

الجهاد الذي تركه المسلمون وحوَّره وبدَّله المتعالمون المنهزمون، أمام ضغط الواقع وضغط الاستشراق الخبيث، وللشيخ هنا كلمة مأثورة وهي: «إن الطفل في الأسرة المسلمة يجب أن ينام على أحاديث الجهاد ويستيقظ عليها». ولذلك كان الذين لا يعرفونه يظنون أنه لا يتقن غير تفسير سورة الأنفال، وإنما كان يكررها لتأكيد هذا المعنى، كما كان يكثر من تفسير سور: آل عمران والتوبة والأحزاب لتضمنها صور المعارك الكبرى في حياة الرسول ﷺ. وله أبحاث قيمة في مثل هذا الموضوع مثل بحثه حول الحديث الضعيف أو الذي لا أصل له: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»[1]، وكيف أثر هذا الحديث وأمثاله على نفسية المسلمين.

ثالثًا:

الأخطار الداخلية: هناك أمراض أصيب بها المسلمون، هي أمراض نفسية وعقلية تنخر في كيانهم وتسبب لهم الضعف. هذه الأمراض هي الخطر الداخلي.

إن أكبر المصائب أن يصاب الفرد بنفسه وأن يلقي التبعة دائمًا على غيره، ويعلق أخطاءه على مشجب الآخرين، وهذا يريحه من تأنيب الضمير وعتب العاتبين. ومن أكبر المصائب أن نبرر أخطاءنا ولا نعترف بها، نبررها بأسباب سطحية تافهة، ونسوغ ما نحن فيه ولا نعترف

---

(١) قال عنه ابن تيمية: لا أصل له، ونقل كلام ابن حجر عنه قال: هو من كلام إبراهيم ابن عبلة.

بعجزنا، ونلجأ إلى خداع النفس لكي تتهرب من الواقع. ومن المصائب أننا لا نبحث أمورنا بشكل جدي، بل نبحثها على مستوى السمر والتسلية وهو مرض استسهال الأمور.

□ يقول رحمه الله في أحد بحوثه: «اليأس القتّال والخور المميت والثقة المفقودة كل هذه هي العدو الحقيقي والعقبة الكبرى التي تواجه المسلمين، أما العدو الخارجي فأمره يهون إذا استطعنا أن نغير ما بأنفسنا». هذا الموضوع كان يستأثر باهتمام الشيخ؛ لأنه يعتبر الأخطار الداخلية هي السبب الرئيسي لما حصل للمسلمين على مر العصور من تخلف.

وأعتقد هنا أنه في هذا الموضوع قد استفاد من كتابات المفكر الجزائري «مالك بن نبي» في سلسلة كتبه «مشكلات الحضارة» والتي تكلم فيها عن دور الحضارة عند المسلمين.

رابعًا:

كما كان ينعي كثيرًا على المسلمين الفهم غير الصحيح لبعض أحاديث رسول الله ﷺ وآيات القرآن الكريم؛ بحيث إنهم يجعلون من هذه الأحاديث تكأة لعجزهم وضعفهم فيردون أحاديث الفتن، وأن الأمر ليس له مرد، وأن كل زمان أسوأ من الذي قبله؛ ولذلك فلا داعي للعمل والتبليغ، هذا فضلًا عن احتجاجهم بالأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التي توهن العزائم وتبرر القعود.

خامسًا:

لا بد من قلة تنقذ الموقف؛ قلة هي النخبة التي تستطيع حمل الأمانة، وحمل الأمانة بنفسه يفجر الطاقات. هذه النخبة يصفها في أكثر بحوثه،

يقول في رسالة «المعاني الدخيلة على التربية الإسلامية»: «فالأمة التي يفقد أبناؤها حمل الرسالة تفقد معاني الجهاد وتفقد قيمة الحياة. وحين لا يكون للأفراد رسالة يشغل الخواء القلبَ، وتمتد الشهوات وتستعلي الغرائز».

□ ويقول أيضًا من بحث حول تربية القادة: «إن حمل الرسالة يعطي الفرد قوة ما كان ليحلم بمثلها في الحالات العادية، والشعب في حال حمل الرسالة يستمر في النهوض، فإذا فترت هذه الروح كان سيره بقوة الدفعة الأولى إلى حين».

هذه بعض الأفكار الرئيسية التي كان الشيخ يهتم بها، ويكفي أنها ناصعة صحيحة ولا يزال المسلمون بحاجة إلى سماعها وفهمها»[1] اهـ.

١- التنشئة الاجتماعية غرض عظيم من أغراض التربية:

□ يقول الدكتور محمد أمين المصري: «كانت الثروة المادية هي العمود الفقري الذي تسعى الدول لتدعيمه وتقويته، غاضة النظر عن كل ما يضحى في سبيل ذلك، وأصبح اليوم الأمر على العكس تمامًا، إذ أصبحت ثروة الأمم والشعوب لا تقاس أبدًا بما تشتمل عليها أرضها من ذهب وفحم وحديد أو أرض خصبة، بل أصبح المقياس هو مدى قدح الأمة لزناد التفكير لدى أبنائها، وأصبح مفهوم الثروة البشرية أو الطاقة البشرية في كل مجتمع صالح المكانة الأولى، ونشأ عن هذا الاهتمامُ بمشكلة الأجيال القادمة، وأخلصت المجتمعات العناية بها والحفاظ بها والحفاظ

(١) مقدمة كتاب «المسؤولية» للدكتور محمد أمين المصري (ص٥- ١٠)، والمقدمة للدكتور محمد العبدة – طبع دار الأرقم بريطانيا- مكتبة الكوثر بالرياض، ودار الصفوة.

عليها ومنحها كل الفرص، لتنمو أحسن نمو يمكن أن تنموه ويجني المجتمع من وراء ذلك أطيب ثمراتها.

٢- التنشئة الاجتماعية هي سبيل التماسك الاجتماعي:

ثم إنه قد لوحظ أن تماسك المجتمع لا يتم إلَّا عن طريق عملية تنشئة اجتماعية خاصة، وهذه التنشئة إنما تتم في عقول الأفراد ونفوسهم، فهي داخلة في الناحية البشرية ولها مكانتها أهميتها في وحدة الأمة وتماسك المجتمع.

ويحدد العمليةَ الاجتماعية أهدافُ المجتمع، وإذا كنا نجد اختلافًا بين الأمم في عملية التنشئة الاجتماعية، فمرد ذلك إلى أهداف كل مجتمع من المجتمعات، وإلى طبيعة الفلسفة الاقتصادية والاجتماعية التي يقوم عليها كل مجتمع. فالتربية الغربية ترمي إلى الكشف عن مواهب أبنائها وتنمية هذه المواهب حتى تبلغ بها أقصى ما يمكن أن تبلغه، ولكن ذلك في سبيل المبادئ التي سيطرت على المجتمع والمثل التي تتطلع إليها الأمة والأهداف التي ترمي إليها.

٣- وظيفة المدرسة:

تتلخص المشكلة التربوية، بالبحث عن الوسائل الفعالة التي تتيح لكل فرد من أفراد الأمة، أن ينال قسطه من التربية والتعليم إلى أطول مدة، ليتيسر له الخروج إلى المجتمع مزودًا بالكفاءات الضرورية وذلك ليتم له غرضان: أولهما: النجاح في عيشه، والثاني: التعاون مع إخوانه. فوظيفة المدرسة التأثير في سلوك الأفراد تأثيرًا منظمًا يرسمه المجتمع ممثلًا في السلطات التعليمية العليا، وبذلك تقوم المدرسة بنقل الحضارة ونشر

الثقافة وتوجيه الناشئة، لتصل بهم إلى كسب العادات التي تساعدهم على التكليف الصحيح في المجتمع والتقدم بهذا المجتمع.

المدرسة وظيفتها بكلمة موجزة، الإشراف على عملية التنشئة الاجتماعية. وهذه التنشئة تتضمن التأثير في سلوك الأفراد التأثير الذي يريده المجتمع.

وتستعين المدرسة في سبيل ذلك بكل العلوم الإنسانية. ولعل من الخير أن نثبت هنا تقريرًا قدمه الأستاذ أبو الحسن علي الندوي حول موضوع التربية والمدارس يقول: «حضرات أصحاب المعالي وزراء التربية في الدول العربية الموقرة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، فأنتهز فرصة اجتماعكم في البلد العربي الكويت لدراسة القضايا التعليمية في الحكومات العربية ووضع مخططات لها، فأقدم إليكم هذه الرسالة كمعنيٍّ بموضوع التعليم في الأقطار الإسلامية والشرقية، وكعضو متواضع في هذه الأسرة الكريمة، التي تلتقي على صعيد الإسلام وعلى صعيد الاهتمام بشؤون العالم العربي وعلى موضوع التعليم.

لقد أصبح من المقرر في كل بلد واع حريص على سلامته وشخصيته أن دور التربية ليست إلَّا جهازًا يغرس المعاني والأسس التي يؤمن بها هذا الشعب، الأسس التي درجت عليها أجياله، يعيش بها ويعيش فيها، في التاريخ الماضي وفي العالم المعاصر، فمن أول واجبات نظام التعليم في الأمة الواعية أن تغرس هذه العقائد والحقائق في قلوب الناشئة، وتغذي بها حتى يكون إيمانها إيمانًا علميًّا موضوعيًّا صادقًا، وحتى تتحمس في سبيل الدعوة إليها، والمثابرة عليها، وقد أصبح من المقرر عند أساطين

التعليم الحديث في الغرب: أن كل شعب من شعوب العالم، إنما يصوغ نظامه التعليمي وفق نظرية الحياة التي يؤمن بها. فيقول (سير برس) الذي كان يحتل المكانة الأولى بين رجال التربية في بريطانيا في مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية: «لقد سلك الناس مسالك مختلفة للتعريف بالتربية، ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعًا: أن التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها.

إن وظيفة المدرسة أن تمنح القوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ، القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة، وتربي التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمديدها إلى الإمام».

□ إن «جون ديوي» الذي كان تأثيره في نظام التربية الأمريكي أكبر من تأثير كل رجل في هذا العصر، يقول في كتابه «الديمقراطية والتربية»: «إن الأمة إنما تعيش بالتجديد، وإن عملية التجديد تقوم على تعليم الصغار. إن هذه الأمة تُكَوِّن من الأفراد الأميين ورثة صالحين لوسائلها ونظرية حياتها، وتصوغهم في قوالب عقائدها ومناهج حياتها».

□ ويقول البروفسور «كلارك»: «مهما قيل في تفسير التربية فمما لا محيص عنه أنها تعني الاحتفاظ بنظرية سبق الإيمان بها، وعليها تقوم حياة الأمة وتجاهد في سبيل تخليدها. ونقلها إلى الأجيال القادمة».

لذلك ليس من المعقول ولا من الجائز أن تستورد أمة لها شخصيتها ورسالتها، ولها عقائدها ومناهج حياتها، ولها طبيعتها ونفسيتها، ولها تاريخها وماضيها، ولها محيطها الخاص وظروفها الخاصة، أن تستورد نظامًا

تعليميًّا من الخارج، ولا أن تكل وظيفة التعليم والتربية وتنشئة الأجيال، وصياغة العقول إلى أناس – مهما بلغوا من البراعة في التدريس، وإتقان اللغات والفنون- لا يؤمنون بهذه الأسس والعقائد، ولا يتحمسون لشرحها وتعضيدها.

◻ يقول الأستاذ الأمريكي الدكتور «ج. ب. كونكن» في كتابه التعليم والتربية: «إن عملية التعليم ليست عملية تعاط وبيع وشراء، وليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل، إننا في فترات من التاريخ خسرنا أكبر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الانجليزية أو الأوربية إلى بلادنا الأمريكية».

وعلى هذا الأساس يتفق المعسكران الشرقي والغربي، وقد دل ما سبق من أقوال خبراء التعليم وقادة الفكر في أوربا وأمريكا على وجهة نظر هؤلاء إلى التربية، وأنها ليست إلَّا أداة مؤثرة لترسيخ العقيدة ونظرة الأمة إلى الحياة والكون، وتعميق جذورها في قلوب الناشئة ونفوسها، ونقل التراث العقلي والعقائدي والاجتماعي إلى الأجيال القادمة وإقناعها بضرورة الاحتفاظ بها والمثابرة عليها والجهاد في سبيلها.

أما المعسكر الشرقي الذي اشتهر بالثورة على جميع الأسس والقيم، ونقد القديم وبلبلة الأفكار، فإنه شديد التمسك بهذه النظرية للتوفيق بين التربية والعقيدة التي يختارها والفلسفة التي آمن بها، وإخضاع علم التربية لهذا الغرض وصياغته في قالبها صياغة دقيقة متقنة.

◻ يقول عالم من كبار علماء الطبيعة في البلاد السوفيتية: «إن العلم الروسي ليس قسمًا من أقسام العلم العالمي «ديس» في البلاد السوفيتية

ولكنه قسم منفصل قائم بذاته يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف.
إن سمة العلم السوفيتي الأساسية: أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة.
إن أساس علومنا الطبيعية الفلسفة المادية التي قدمها ماركس وأنجلز وستالين».

ومن المآسي التي تحير العقل وتجرح القلب أن تظل الأقطار الإسلامية وحدها في فوضى تَعارُضٍ وغموض والتباس بين الحقائق التي تؤمن بها، وبين نظام التربية الذي تطبقه.

ولا تفكر في التوفيق بين الإيمان بهذه الحقائق وبين التربية التي تنفق عليها أكبر جزء من إمكانياتها. وكانت حريَّةً أن تكون أبعد الناس عن تلك الخطة التي تعيش فيها متطفلة على مائدة الأمم الأجنبية، وكانت حَرِيَّةً أن تزيل جميع العقبات في سبيل الوئام والتعاون بين العلم والدين..

إن المنقذ الوحيد للعالم من النهاية الأليمة التي ترتقبه هو وجود نظام للتربية يقوم على التوفيق بين العقيدة والثقافة، بين قوة العاطفة والتهاب جذوة الإيمان، وبين العلم الواسع والفكر النير، ومعرفة أحدث ما وصلت إليه الأجيال البشرية من تجربة واكتشاف.

□ وأقدم لكم العناصر التي تنافي هذه الغاية وترزأ هذه الأمة شخصيتها:

١- استيراد المناهج الدراسية والمواد التعليمية من الخارج.
٢- استيراد الأساتذة والمعلمين من أوربا وأمريكا الذين أقل ما يقال فيهم: إنهم لن يخلصوا في إنشاء الجيل الجديد على عقيدة الأمة.
٣- الاهتمام الزائد باللغات الأجنبية وإعطاؤها أكثر من حقها، فإنها

تنمو على حساب اللغة العربية. إن تدريس عدة لغات في وقت ما قد أصبح موضع بحث عند خبراء التعليم خصوصًا في المراحل الابتدائية والمتوسطة.

٤- وجود مدرسين لا يؤمنون بأهداف الأمة ونظرتها إلى الحياة. وكيف يصح أن يكون أمثال هؤلاء أساتذةً مربين وقادة موجِّهين، هذا شيء لا يقبله عقل ولا منطق»، انتهت كلمة الأستاذ الندوي بتصرُّف»(١).

التربية السليمة هي التي تساير الفطرة، والتوحيد مبدأ الفطرة:

المبدأ الأول الذي دعت إليه التربية الإسلامية وأوضحه رسول الله هو عبادة الله وحده وهو صفة الفطرة وصبغة الخالق جل وعلا لنفوس عباده، فلقد فطرهم على التوحيد وصبغهم بصبغة الإيمان.

• قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم**»(٢).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلَّا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء**(٣)»(٤).

* وقال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ

---

(١) «المسؤولية» للشيخ محمد أمين المصري (ص١١٩- ١٢٥).
(٢) رواه مسلم واجتالتهم عن دينهم: أي حوّلتهم عنه.
(٣) الجمعاء: سالمة الأذن والجدعاء مقطوعتها.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الروم: ٣٠].

* وقال الله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة].

«على أنه لم تخل أمة من وجود غافلين غمرتهم تكاليف الحياة وأعباؤها فلم يجدوا من الفراغ ما يمكنهم من رفع رؤوسهم للنظر في الحقائق العليا، كما أنه لم تخل أمة من مفكرين ساخرين حسبوا الحياة لعبًا ولهوًا، وهم في الغالب من المترفين الذين لم يلقوا من عبر الحياة ما يهز قلوبهم وعقولهم. كما أنه لا ينكر أن عقائد قد استحدثت وصنوفًا من العبادات قد اخترعت، كل ذلك قد وقع، ولكن فكرة التدين في جوهرها كانت مسايرة لوجود الإنسان.

يقول معجم «لاروس» للقرن العشرين: «إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية. وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة، هي إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية».

ويقول أيضًا: «إن هذه الغريزة الدينية لا تختفي، بل لا تضعف ولا تذبل إلَّا في فترات الإسراف في الحضارة وعند عدد قليل جدًّا من الأفراد»[1].

□ وثمرة مبدأ الفطرة أنه ليس لبشر أن يستعلي في الأرض ويدعي الألوهية، فالغرض من دعوى الألوهية وعبادة الأوثان، استعباد الإنسان للإنسان، وتشريع الناس للناس من صميم دعوى الألوهية.

---

(١) «المسؤولية» (ص١٢٩).

وحين يدّعي الإنسان الألوهية ينحط إلى مرتبة دون مرتبة الأنعام، فما وجدنا حيوانًا يُنصِّب نفسه إلهًا لبقية الحيوانات، وما عثرنا على حشرة تدَّعي بين مثيلاتها أنها إلهًا من بينهم، فانحطَّ الإنسان إلى أدنى مرتبة.

وهذه الألوهية التي ادعاها فرعون والنمروذ، ليست بقاصرة عليهما، بل هنالك في كل زمان ومكان من يدعيها، وبلاد فارس كانت تخاطب ملوكها بلفظ: «خدا» ومعناها الإله، وكذلك شأن البيوتات الحاكمة في الهند كانت تدعي نسبتها إلى الآلهة.

«وألوهية الإنسان للإنسان أصل المصائب ومصدر البؤس والشقاء اللذين يصيبا الإنسان، والسبيل الوحيدة للنجاة، الكفر بالطواغيت جميعها والإيمان بالله العزيز الحميد.

هذا الإيمان هو الذي يحرر العقول والأفكار من أغلال العبودية التي يرسف فيها البشر وهو الذي يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

والنظام الإسلامي ليس فيه لأمير من أمراء المسلمين ولا لمجتهد ولا عالم من علمائهم ولا لمجلس تشريعي ولا لجميع المسلمين في العالم أن يغيروا نصًّا من نصوص الكتاب أو السنة في أي شأن من الشؤون، أما الأمور التي لا يوجد بشأنها في الشريعة حكم صريح فمردُّها إلى إجماع علماء المسلمين ومجتهديهم.

وعليه فإن مهمة الإسلام إنقاذ الإنسان من عبادة الإنسان وإنقاذ عقل الإنسان من الضلالات والأوهام. وما عبادة الإنسان للإنسان إلّا تسلط على قلب الإنسان وتسخير لعقله، وقد خلق الإنسان ليكون حرًّا ولتكون له قيمة الإنسان. فإذا استعبد قلبه وسخر عقله فقد قيمته الإنسانية، أدرك

ذلك أصحاب رسول الله إدراكًا عميقًا، وعبروا عنه تعبيرًا جليًّا حين وقف أفراد عاديون منهم أمام رستم قائد الفرس فقالوا له: «جئنا لنخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[1].

يا ابنَ أمِّي:

خُلِقْتَ طليقًا كطيْفِ النَّسيمِ ... وحُرًّا كنُورِ الضُّحَى في سماهْ
تُغَرِّد كالطير أين اندفَعْت ... وتشدو بما شاءَ وَحْيُ الإلهْ
وتمرَحُ بين وُرودِ الصَّباحِ ... وتنعَمُ بالنُّورِ أَنَّى تراهْ
وتمشِي كما شِئْتَ بينَ المُروجِ ... وتقْطُف وَرْدَ الرُّبَى في رُبَاهْ
كَذا صَاغَكَ اللهُ، يا ابنَ الوُجودِ ... وأَلْقَتكَ في الكونِ هذي الحياةْ
فما لكَ ترضَى بِذُلِّ القيودِ ... وتَحْنِي لمن كَبَّلُوك الجِبَاه؟
وتُسْكِتُ في النَّفْسِ صوتَ الحياة ... القوِيَّ إذا ما تَغَنَّى صَدَاه؟
وتُطبِقُ أجفانك النَّيِّرات عن الفَـ ... ـجْرِ، والفَجْرُ عَذْبٌ ضِيَاهْ
وتَقْنَعُ بالعيشِ بين الكهوفِ ... فأين النَّشِيدُ؟ وأينَ الإِياهْ؟[2]
أتخشَى نشيدَ السَّماءِ الجميلَ؟ ... أَتَرْهَبُ نورَ الفَضا في ضُحَاهْ؟
أَلَا انهض وَسِرْ في سبيلِ الحياةِ ... فمَنْ نامَ لم تنتظِرْه الحياةْ

---

(١) «المسؤولية» (ص١٤٤)، وهذه المقولة للصحابي الجليل ربعي بن عامر رضي الله عنه.

(٢) الإياه: الشعاع.

ولا تخْـــش ممـــا وراءَ الـــتِّلاعِ
فــما ثَــمَّ إلَّا الــضُّحى في صِــباهْ

وإلَّا ربيــعُ الوجــودِ الغريــرُ (١)
يُطــــرِّزُ بـــالوردِ ضـــافي رِدَاهْ

وإلَّا أريُــجُ الزُّهـــورِ الـــصِّباحِ
ورَقْـــصُ الأشـــعَّة بـــين المِيـــاهْ

وإلَّا حَمـــامُ المـــروجِ الأنيـــقِ
يُغَـــرِّدُ منْطَلِقًـــا في غِنـــاهْ

إلى النـــورِ! فـــالنُّورُ عـــذبٌ جميـــلٌ
إلى النُّـــورِ فـــالنُّورِ صـــفة الإلـــهْ

إلى طواغيتِ العالَمِ وطُغاته :

ألا أيُّهـــا الظـــالمُ المُـــسْتَبِدُّ
حبيـــبُ الظـــلام، عَـــدُوُّ الحيـــاةْ

سَـخَرْتَ بأنَّـاتِ شَـعْبٍ ضـعيفٍ
وكَفُّـــكَ مخـــضوبةٌ مِـــن دِمـــاهْ

وَسِرْتَ تُـشَوِّه سَـحْرَ الوجـودِ
وتبـــذُرُ شـــوكَ الأســـى في رُبـــاهْ

رُوَيْـــدَكَ! لا يَخْـــدَعنْك الربيـــعُ
وصَحْوُ الفضاءِ، وضـوءُ الـصباحْ

ففي الأُفق الرَّحْـبِ هَـوْلُ الظَّـلامَ
وقَصفُ الرُّعودِ، وعَصْفُ الرِّيَـاحْ

حـذارِ! فَتَحْـتَ الرَّمـادِ اللَّهِيـبُ
ومَـنْ يَبْـذرِ الـشَّوْك يَجْـنِ الجِـرَاحْ

تَأمَّـل! هنالِـكَ.. أنَّـى حَـصَدْتَ
رؤوس الـورى، وزهـورَ الأمـلْ

وروَّيــتَ بالــدَّمِ قلــبَ الــترابِ
وأشربتَـهُ الـدَّمْعَ حتـى ثَمِـل (٢)

سـيجرُفُكَ الـسَّيْلُ سَـيْلُ الـدماءِ
ويأكلُـــكَ العَاصِـــف المُـــشْتَعِلْ

---

(١) الغرير من العيش: ما لا يُفزِّع أهله. ويريد هاهنا الحُسن.

(٢) ثَمِل: سكر.

إلى علماءَ التربية.. ربُّوا الشعوب على الخُضوعِ لتشريع الله فتشريعُ البشر ظلمة وجاهلية:

* قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة].

* وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك].

□ قال الدكتور محمد أمين المصري: «من أمثلة فشل البشر في التشريع – حتى فيما يجب أن يحرم – تحريم الخمر في أمريكا؛ ذلك أنه لم يرتكز على أساس الإيمان بالله واليوم الأخر.

لقد أيقنت الأمة الأمريكية في يوم من الأيام من الوجهتين العقلية والعلمية، أن الخمر مضرة بالأجسام مفسدة للقوى الفكرية هادمة لبناء المدنية الإنسانية، فأصر الرأي العام الأمريكي على حكومته أمام هذه المفاسد أن تضع قانونًا يمنع شرب الخمر، فقررت الحكومة وضع قانون يمنع الناس من شرب الخمر؛ ولكن ما الذي تم بعد ذلك؟

إن الذين وضعوا القانون أنفسهم، لم يلبثوا أن طفقوا يبحثون عن الوسائل التي يصلون بها إلى الخمر من الطرق الخفية المستوردة، وبلغ التفنن في ذلك مبلغًا عظيمًا وأصبح عدد الذين يتعاطونها أكثر بكثير مما كان من قبل، وفشا بسبب الضغط والإكراه والوسائل الخفية أنواع من المنكرات والفواحش لم تكن معروفة من قبل. وكل ذلك قد اضطرهم إلى نقض ما أبرموه وحل ما عقدوه، وعادت الضارة عندهم نافعة. وهنا يتساءل الناظر كيف عادت الضارة نافعة؟ أكان ذلك بدليل علمي أم عقلي؟

أنها النفس الأمارة بالسوء واتخاذ الهوى إلهًا، وإنه لمثال بعيد المرمى

يضع بين يدي المتأمل المنصف نموذجًا من نماذج تصرفات هذا الإنسان حين يريد أن يشرع بعقله، وأن تكون قوانين نظامه في صيانة حياته تبعًا لهواه.

وإنها لتجربة قامت بها أمة من أعلى الأمم شأنًا في التقدم الحضاري على مرأى منا ومسمع، وفي التاريخ تجاربُ كثيرة توضح لنا أن الإنسان لا يستطيع أن يستقل بالتشريع لنفسه؛ ذلك أنه معرض لخطرين: أولهما عبادة الآلهة الكاذبة، وثانيهما النزعات الشيطانية الكامنة في نفسه والشهوات الجاهلية، ولذا كان لا بد من هداية للإنسان منذ بدء أمره وتحديد حريته بالحدود التي تصلح لفطرته، وإعلامه بأن هذه الحدود من عند علام الغيوب الذي يعلم ما يصلح له. فإذا انتقلنا بعد هذا إلى تحريم الخمر لدى المسلمين، وقد كان العرب شديدي الولوع، عظيمي التعلق بها، فلما نزل تحريمها قال عمر: «انتهينا يا رب»، وقال أنس: «حرمت ولم يكن يومئذٍ عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر. قال: فأخرجنا الحُباب إلى الطريق فصببنا ما فيها؛ ولقد غمرت أزقة المدينة بعد ذلك حينًا كلما مطرت استبان فيها لون الخمر وفاحت ريحها»[(١)].

أيها المُرَبون: إنْ أردتم فلاحَ هذه الأمة فربّوا شباب الأمة على تنمية روح المسؤولية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهر بالحق بضوابطه، وتكافؤ الفُرص:

للقيادة مكانتها وحبها واحترامها، ولكن الإسلام أوجد الانسجام

---

(١) «المسؤولية» (ص١٤٦- ١٤٧) وانظر كتاب «نحنُ والحضارة الغربية» للأستاذ أبي الأعلى المودودي (ص٤٣) بين الشريعة الرّبانية والقانون الوضعي.

الكامل بين طاعة القيادة واحترامها وامتثال أمرها ما دامت تُمثل الفكرة الإسلامية تمثيلًا صحيحًا، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وبين تربية الأفراد على حمل روح التَّبعة فهي طاعة واعية لا يذوب فيها الأفراد في القيادة، وجهادٌ في سبيل العقيدة فكم تكن تربية الإسلام تربية أتباعٍ تذوب شخصيَّتهم في شخص القائد ويزداد ارتباطهم بالقائد وتعلَّقهم به وثقتهم به حتى تضيع أنفسهم إذا فقد القائد، وليست من التربية التي يصبح حب القيادة فيها هوى يعمي ويصم، ولكنه حب واع يقظ ذلك أن القيادة تحب وتطاع بمقدار امتثالها لأمر الله وتعلقها به.

وهكذا كان عتاب الله جل شأنه للمؤمنين في غزوة أحد منبهًا إلى هذه المسألة لافتًا الأنظار إليها مقررًا أن تعلق المؤمن إنما هو بالمبدأ والفكرة والعقيدة، وأن جهاد المؤمن إنما هو في سبيل المبدأ والعقيدة، فإذا فقد القائد أو غاب أو مات أو قتل، لم يصح أن يبطئ المؤمن أو يتقاعس أو يتخاذل عن نصرة الدعوة والموت في سبيلها.

* قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران].

والانقلاب على الأعقاب كناية عن ترك الدعوة أو فتور العزيمة عن الجهاد في سبيلها. ومعنى الآية الكريمة أن من كان على يقين من دينه وبصيرة من ربه، لا يرتد بموت الرسول ﷺ أو قتله، ولا يفتر عما كان عليه؛ ذلك لأنه يجاهد لربه لا للرسول ﷺ، وكما قال أنس بن النضر رضي الله عنه عم أنس ابن مالك – يوم أحد حين أرجف بقتل رسول الله ﷺ وشاع

الخبر وانهزم المسلمون وبلغ إليه تقاول بعضهم: ليت فلانًا يأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان. وقول المنافقين: لو كان نبيًّا ما قتل قال: يا قوم إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله، قوموا فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني اعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه وقاتل حتى قُتِلَ رضي الله عنه.

□ عن أنس رضي الله عنه قال: «غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع؛ فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين-، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أُحُد».

قال سعد رضي الله عنه: «فما استطعت يا رسول الله، ما صنع».

قال أنس رضي الله عنه: «فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل، وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلَّا أخته ببنانه».

□ قال أنس رضي الله عنه: «كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣][(١)].

كانت تربية أصحاب رسول الله ﷺ تربية الطاعة التامة للقيادة،

---

(١) أخرجه البخاري- كتاب الجهاد- باب قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

ولكنها في الوقت نفسه تربية على القول بالحق والجهر به أينما كانوا لا يخشون في الله لومة لائم.

□ وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»[١].

فهذه التربية التي تلتزم الطاعة في المعروف ليست طاعة عمياء ولكنها طاعة واعية مبصرة تعرف الحق وتلتزم الطاعة في سبيله، وتقول بالحق وتجهر به أينما كانت لا تخشى في الحق لومة لائم.

في هذه التربية تنمو لدى الأفراد روح طلب الحق وإيثاره على الآباء والأبناء والأهواء، ويتبع ذلك قوة شخصية الأفراد واضطلاعهم بحمل التبعات والمسؤوليات»[٢] اهـ.

إن التربية على الصراحة بالحق والجهر به بضوابط أهل السُّنَّة والجماعة تربية تهدف إلى إنشاء قادة يستطيعون أن يضطلعوا بأعباء القيادة إذا فقدت القيادة. وتربية محمد ﷺ هي القدوة الصحيحة الكاملة للتربية الإسلامية؛ وكل تربية تبعد عن سبيل هذه التربية تعتبر منحرفة بمقدار ابتعادها. في التربية الإسلامية يشعر كل فرد بأنه مسؤول عن الدعوة الإسلامية حتى لو كان وحده ولم يكن هنالك أحد يعضده، وكل فرد في الجماعة مسؤول عن وظيفته الخاصة ومسؤول أيضًا عن سير الجماعة كلها

---

(١) متفق عليه.

(٢) «المسؤولية» (ص١٥١ – ١٥٤).

ولأدنى فرد في هذه الجماعة أن يقف أمام أمير الجماعة أو قائدها ليدلي برأيه وليعارض أي رأي أو قول أو فعل يجد فيه خطأ.

- التربية الإسلامية لا تفرق بين طبقات المجتمع وتقرِّر مبدأ «تكافؤ الفرص» فالناس في المجتمع الإسلامي سواسية ليس لأحد فضل على آخر إلَّا بالتقوى عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ إلَّا بالدِّين، أوْ عَمَل صالح..»**[١].

- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله قد أَذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية، وتعاظُمَها بآبائها، فالناسُ رجلان: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كريمٌ على الله، وفاجِرٌ شقِيٌّ هَيِّنٌ على الله، والناسُ بنو آدم، وخُلِقَ آدمُ مِن تراب»**[٢].

□ قال الدكتور محمد أمين المصري: «وفي مثل هذه التربية لا يحول حائل من جهة النسب أو المكانة أو الحرفة بين فرد أو جماعة وبين بلوغ ما تؤهله له كفاءته الذاتية وسجاياه وملكاته، ولا يحال بين أي فرد وتنمية مواهبه هذه والبلوغ بها أعلى الدرجات.

فلكل فرد من أفراد المجتمع أن يرتقي ما شاء الله له أن يرتقي، ولكل فرد أن يبلغ ذروة ما يؤهله له ما حباه الله به من مواهب واستعدادات».

---

(١) صحيح: رواه البيهقي في «شعب الإيمان»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٣٨)، و«صحيح الجامع» (٥٤١٩).

(٢) حسن: رواه الترمذي عن ابن عمر، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٦٧)، وانظر «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢١، ٣٤).

والأمثلة الواضحة في هذا المضمار:

الموالي وأبناؤهم، فقد نصبوا ولاة على الأقاليم وقوادًا للجنود وقد اتبع أمرهم شيوخ البيوتات العليا الشريفة وعاشوا تحت ولايتهم راضين غير كارهين، وكذلك أصبح كثيرون ممن كانوا من قبل في مهن ضئيلة أئمة للناس، وغدا النساجون والبزازون أئمة يفتون الناس، وكل هؤلاء يعدون من علماء المسلمين ومشيخة السلف الصالح»[(١)].

---

(١) «المسؤولية» (ص١٥٨- ١٥٩).

علو الهمة في التزكية

التزكية لُغَةً:

التزكية في اللغة مأخوذة من «زكا يزكو زكاة» أي: نَمَا وطَهُرَ؛ فالتزكية هي النَّمَاء والطهارة والبركة(١).

□ والتزكية هي تطهير النَّفْس من نزعات الشر والإثم، وتنمية فطرة الخير فيها مما يؤدي إلى استقامتها وبلوغها درجات الإحسان»(٢).

□ ونُسِبت التزكية إلى الله سبحانه بمعنى الهداية والتوفيق في الدنيا، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩]، كما نُسِبت إليه سبحانه في الآخرة بمعنى التطهير للمؤمنين من دَنَس الذنوب، ومنه قوله تعالى عن الكُفَّار: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة].

□ ونُسبت التزكية إلى العبد؛ لأنه يزكي نفسه بالإيمان والمجاهدة، وهي مقصودنا في الكلام.

* ولقد أقسم الله ﷻ أحد عشر قسمًا متتاليًا ما أتت إلَّا في موضع واحد من كتابه الكريم أن فلاح النفس بتزكيتها فقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ٨ قَدْ

---

(١) «لسان العرب» (١٤/ ٣٥٨)، و«المفردات في غريب القرآن» للأصفهاني (ص٢١٣).

(٢) «منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله تعالى» للدكتور أنس أحمد كرزون (ص١٦)- دار ابن حزم.

أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

ومن زكى نفسه ذاق طعم الإيمان:

• قال ﷺ: «ثلاث من فَعَلهُنَّ فقد ذاق طعم الإيمان: مَنْ عَبَدَ الله عَزَّوَجَلَّ وحده بأنه لا إله إلَّا هو، وأعطى زكاة ماله طيِّبةً بها نفسُه في كل عام، ولم يُعْطِ الهَرِمَة ولا الدَّرنة، ولا المريضة، ولكن من أواسط أموالكم، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لم يسألكم خيرها ولم يأمركم بشرِّها، وزكَّى نفسه». فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «أن يعلم أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ معه حيث كان»[(١)].

□ وفسَّر التزكية بأحد مقامات الإحسان «وهو أن يعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ معه حيث كان».

• وكان النبي ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها أنتَ خيرُ مَنْ زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها»[(٢)].

التزكية هي التقوى بنص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

التزكية هي التقوى لا شيء غيرها بنص كتاب الله والحديث السابق مباشرة.

* قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

* وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم]،

---

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١/ ٢٠١)، والبيهقي في «السنن» (٤/ ٩٥)، وصححه في «الصحيحة» رقم (١٠٤٦).

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٤١- نووي) بزيادة في أوله وآخره، وأحمد (٤/ ٣٧١)، (٦/ ٢٠٩) بلفظ: «رب أعط نفسي تقواها» من حديث زيد بن أرقم.

وقوله عَجَلَّ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ [الليل]، فهذه الآيات نص في أن تزكية النفوس هي تقوى الله.

معنى التزكية والتقوى:

لما كانت التقوى هي عين التزكية نذكر هنا معناها:

□ سأل عمر بن الخطَّاب أُبيَّ بن كعب عن التقوى؟ فقال أبي: أمَا سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال عمر: بلى. قال أُبيّ: فما عملتَ؟ قال: شمَّرتُ واجتهدت. قال أُبيٌّ: فذاك التقوى.

□ وأخذ هذا المعنى ابن المعتزّ فقال:

خَـلِّ الـذُّنوبَ صـغيرَها ... وكبيرَهـا فَهُـوَ التُّقَـى
واصـنَعْ كَـماشٍ فَـوْقَ أَرْ ... ضِ الـشَّوْكِ يَحْـذَرُ مـا يَـرَى
لا تَحْقِـرَنَّ صَـغِيرَةً ... إن الجبـالَ مِـن الحَـصَى [(١)]

أصل التقوى أن يعلم العبد ما يتَّقي ثم يتَّقي:

□ ذكر معروف الكرخي عن بكر بن خنيس قال: «كيف يكون مُتَّقِيًا مَن لا يدري ما يتقي؟ ثم قال معروف الكرخي: إذا كنتَ لا تُحسِنُ أن تتقي أكلتَ الرِّبَا، وإذا كنتَ لا تُحسِن أن تتقي لقيتك امرأة فلم تغضَّ بصرك، وإذا كنتَ لا تُحسِنُ أن تتقي وضعت سيفك على عاتقك»[(٢)].

□ وعن بكر المزني؛ قال: «لما كانت فتنة ابن الأشعث؛ قال طلق بن حبيب: اتقوها بالتقوى. فقيل له: صِفْ لنا التقوى. فقال: «العمل

---

(١) «منهج الأنبياء في تزكية النفوس» (ص٢٨) لسليم الهلالي – دار ابن عفان.

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص١٥٠).

بطاعة الله، على نورٍ من الله. رجاء ثواب الله، وترك معاصي الله، على نور من الله؛ مخافة عذاب الله».

□ قال الإمام الذهبي مُعَلِّقًا: «أَبْدع وأَوْجز؛ فلا تقوى إلَّا بعمل، ولا عمل إلَّا بتروٍّ من العلم والاتباع، ولا ينفعُ ذلك إلَّا بالإخلاص لله، لا ليُقال: فلانٌ تاركٌ للمعاصي بنور الفِقه، إذ المعاصي يفتقر اجتنابها إلى معرفتها، ويكون التَّرْك خَوْفًا من الله، لا ليُمْدَح بتركها، فمنْ داوَم على هذه الوَصيّة فقد فاز»[١].

□ وقال الإمام أحمد: التقوى هي ترْك ما تهْوَى لِمَا تخشى.

□ وقيل: هي أن لا يراك حيث نهاكَ، ولا يفقدك حيثُ أمرك.

□ وقيل: هي عِلْمُ القلب بقُرْب الربِّ.

□ وقيل: هي الخوف من الجليل، والرضا بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل.

□ وقال ابن القيم رحمه الله: «وأما التقوى فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنهي وخوفًا من وعيده، كما قال طلق ابن حبيب: «إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى. قالوا: ما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله». وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى، فإن كل عمل لا بد له من مبدإ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض لا

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٠١).

العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك، بل لا بد أن يكون مبدأه محض الإيمان وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب.

• ولهذا كثيرًا ما يقرن بين هذين الأصلين في مثل قول النبي ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا**»(١)، «**ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا**»(٢) ونظائره. فقوله: «**على نور من الله**» إشارة إلى الأصل الأول وهو مصدر العمل والسبب الباعث عليه. وقوله: «**ترجو ثواب الله**» إشارة إلى الأصل الثاني، وهو الاحتساب، وهو الغاية التي لأجلها توقع العمل ويقصد به»(٣).

□ قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه ، فتقوى عقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه، وتارة تضاف التقوى إلى اسم الله عز وجل، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩٦﴾ [المائدة].

* وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨﴾ [الحشر].

* فإذا أضيفت التقوى إليه سبحانه وتعالى فالمعنى اتقوا سخطه وغضبه وهو أعظم ما يتقي، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي،

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١١٥) الصوم.

(٢) رواه البخاري (٤/ ٢٥٥) فضل ليلة القدر، ومسلم (٦/ ٤٠، ٤١) صلاة المسافرين.

(٣) «الرسالة التبوكية» بتحقيق أشرف عبد المقصود ونشر مكتبة التوعية الإسلامية (ص١٥- ١٧).

قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

* وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر] فهو سبحانه أهل أن يُخشى ويُهاب ويُجَلَّ ويُعظَّم في صدور عباده، حتى يعبدوه ويطيعوه، لما يستحقه من الإجلال والإكرام، وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش.

* وتارة تضاف التقوى إلى عقاب الله، أو إلى مكانه كالنار، أو إلى زمانه كيوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة:].

* وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة]، ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات.

* قال تعالى: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ (1) [البقرة].

□ وقال العلامة نعمان بن محمود الألوسي رحمه الله: «وفي «تحفة الإخوان»: التقوى إمتثال الأوامر واجتناب النواهي، ولها ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك، وعليه قوله

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص١٤٨ - ١٤٩) باختصار.

تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦].

والثانية: التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم، وهو المتعارف بالتقوى في الشرع، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ [الأعراف: ٩٦] وعلى هذا قال عمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه: التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير.

الثالثة: أن يتنزه عما يشغل سره عن الله تعالى، وهذه هي التقوى الحقيقية المطلوبة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: ألَّا ترى نفسك خيرًا من أحد»[١].

□ وقال الغزالي رحمه الله: «اعلم أولًا - بارك الله في دينك وزاد في يقينك- أن التقوى في قول شيوخنا رحمهم الله هي تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله، حتى تحصل لك من القوة والعزم على تركه وقاية بينك وبين المعاصي».

* فإذن لما حصلت وقاية بين العبد وبين المعاصي من قوة عزمه على تركها، وتوطين قلبه على ذلك، فيوصف حينئذ بأنه متقٍ، ويقال لذلك التنزيه والعزم والتوطين: التقوى. والتقوى في القرآن: تطلق على ثلاثة أشياء: أحدها بمعنى الخشية والهيبة. قال الله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]،

---

(١) «غالية المواعظ ومصباح المتَّعظ وقبس الواعظ» (٢/ ٤٨) دار المعرفة. وقول ابن عمر رضي الله عنهما يشير إلى نوع من التقوى، وليست التقوى الكاملة، إذ إنه يشير إلى نوع من الزهد، وهو الزهد في النفس، وهو أقصى وأعلى الزهد.

والثاني: بمعنى الطاعة والعبادة قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أطيعوا الله حق طاعته».

□ وقال مجاهد: «هو أن يطاع فلا يعصى، وأن يُذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر».

والثالث: بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب، فهذه هي الحقيقة عن التقوى دون الأولين، ألا ترى أن الله يقول: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور] ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى، فعلمت أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية، وهي تنزيه القلب عما ذكرناه، ثم قالوا: منازل التقوى ثلاثة:

تقوى عن الشرك، وتقوى عن البدعة، وتقوى عن المعاصي الفرعية، ولقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في آية واحدة وهي قوله جل من قائل: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ [المائدة: ٣٩].

فالتقوى الأولى عن الشرك، والإيمان الذي في مقابلتها التوحيد، والتقوى الثانية من البدعة والإيمان الذي ذكر معها إقرار عقود السنة والجماعة، والتقوى الثالثة عن المعاصي الفرعية، ولا إقرار في هذه المنزلة فقابلها بالإحسان وهو الطاعة والاستقامة عليها، فتكون منزلة السنة، ومنزلة استقامة الطاعة.

قال: وأنا وجدتُ التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال»[1].

(١) «التقوى» للشيخ أحمد فريد (ص٧- ١١)- طبع دار العقيدة.

١- التزكية والتقوى وصية الله عَزَّ وَجَلَّ للأولين والآخرين:

* قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

□ قال الغزالي: «أليس الله تعالى أعلم بصلاح العبد من كل أحد، أوَليس هو أنصح له وأرحم وأرأف من كل أحد، ولو كانت في العالم خصلة هي أصلح للعبد، وأجمع للخير، وأعظم للأجر، وأجل في العبودية، وأعظم في القَدْر، وأولى بالحال، وأنجح في المآل، من هذه الخصلة التي هي التقوى، لكان الله تعالى أمر بها عباده، وأوصى خواصه بذلك لكمال حكمته وسعة رحمته، فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة، وجمع الأولين والآخرين من عباده في ذلك واقتصر عليها، علمت أنها الغاية التي لا متجاوز عنها، ولا مقصود دونها، وأنه عَزَّ وَجَلَّ قد جمع كل نصح ودلالة وإرشاد وتنبيه وتأديب وتعليم وتهذيب في هذه الخصلة الواحدة، كما يليق بحكمته ورحمته، وعلمت أن هذه الخصلة التي هي التقوى هي الجامعة لخيري الدنيا والآخرة الكافية لجميع المهمات المبلغة إلى أعلى الدرجات.

وهذا أصل لا مزيد عليه، وفيه كفاية لمن أبصر النور واهتدى وعمل بذلك واستغنى، والله ولي الهداية والتوفيق بمنه»[١].

٢- دعوة الأنبياء إلى تزكية النفوس:

لما كانت التقوى هي التزكية فقد دعا جميع المرسلين أقوامهم إلى تحقيقها والسير على هداها:

(١) «منهاج العابدين» (ص٧٢- ٧٣) باختصار.

* فهذا نوح عليه الصلاة والسلام، أول رسول إلى الناس، يخاطب قومه قائلًا – كما أخبر الله ﷻ عنه–: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)﴾ [الشعراء].

* وهذا هود عليه السلام ينذر قومه بالأحقاف؛ قائلًا – كما أخبر الله عنه–: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾ [الشعراء].

* وكذلك صالح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١)﴾ [الشعراء].

* ولوط عليه السلام كذلك: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥)﴾ [الشعراء].

* وشعيب عليه السلام كذلك: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ

شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الشعراء].

* وموسى عليه السلام: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف].

* وقول موسى عليه السلام لفرعون؛ كما أخبر تعالى عنه: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات].

* وعيسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزخرف].

* وقال تعالى مخبرًا أيضًا عنه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران].

* وهذا ما سار عليه جميع المرسلين؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون].

٣- التزكية ركن ركين في دعوة نبينا ﷺ، بل هي رُبْع الرسالة المحمَّدِيَّة:

نُسبت التزكية إلى رسولنا ﷺ؛ لأنه المُرَبِّي والمُزَكِّي لأمته ومرشدها إلى كل خير، والتزكية هي أصيل أصيل في دعوة رسولنا ﷺ، بل هي رُبع الرسالة المحمدية.

* قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة].

* وقال جلَّ ثناؤه: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

* وقال تبارك اسمه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة].

* ومن ثم؛ فلقد كانت هذه المهمة النبويَّة ركنا في دعوة أبينا إبراهيم ﷺ كما أخبر الله عنه: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة].

٤- التزكية والتقوى هي وصية النبي ﷺ لأمته:

• عن العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح فوعظنا موعظةً بليغةً ذَرفت منها العيون ووجِلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع فأوصنا فقال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبدًا حبشيًّا، فإنه من يعش منكم فسيرى**

اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»(١).

• وعن أبي ذر جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: **«اتق الله حيث ما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»**(٢).

وقوله ﷺ: **«حيثما كنت»** أي: في السر والعلانية، حيث يراه الناس وحيث لا يرونه.

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يومًا لأصحابه: **«من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن، أو يعلم من يعمل بهن؟»**، قال أبو هريرة: قلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي وعد خمسًا فقال: **«اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب»**(٣).

• وعن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٦- ١٢٧)، وأبو داود (٤٥٨٣) السنة، والترمذي (٢٦٧٦) العلم، وابن ماجه (٣٤)، والدارمي (١/ ٤٤- ٥٤) المقدمة، والبغوي (١/ ٢٠٥) شرح السنة وقال الترمذي: «حسن صحيح». وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٨/ ١٥٥) البر وقال: هذا حسن صحيح، وأحمد (٥/ ١٥٨)، وحسنه الألباني (١٦١٨) صحيح الترمذي.

(٣) رواه الترمذي (٩/ ١٨٣- ١٨٤) الزهد وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلَّا من حديث جعفر بن سليمان، ورواه أحمد (٢/ ٣١٠) وابن ماجه (٤٢١٧) الزهد بمعناه وحسنه الألباني وكذا في تحقيق «جامع الأصول».

فقال: «اتقوا الله وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم»[١].

• وعن أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فإن رَوحُك في السماء وذِكرُك في الأرض»[٢].

• وعن أبي ذر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيته، وإذا اسأت فأحسن، ولا تسألن أحدًا شيئًا، ولا تقبض أمانة، ولا تقض بين اثنين»[٣].

• وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرف»[٤].

• ولعظم التزكية ولكونها هي التَحَلِّي بمكارم الأخلاق وأحسنها كان النبي ﷺ يدعو بها في دعاء الاستفتاح: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا

---

(١) رواه الترمذي (٦١١ تحفة)، الصلاة وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه أحمد (٥/ ٢٥١)، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٨٢)، وحسنه الألباني بشاهده وهو في «الصحيحة» رقم (٥٥٥).

(٣) رواه أحمد (٥/ ١٨١) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٥٤١).

(٤) رواه أحمد (٢/ ٣٢٥- ٣٣١)، وابن ماجه (٢٧٧١) الوصايا، والحاكم (١/ ٤٤٥- ٤٤٦) (٢/ ٩٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «الصحيحة» (١٧٣٠): وهو كما قالا إلَّا أن أسامة بن زيد الليثي فيه كلام يسير حسن الإسناد.

يهدي لأحسنها إلَّا أنت، واصرِفْ عني سيِّئها، لا يصرف عني سيئها إلَّا أنت».

• وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم كما حَسَّنت خَلْقِي فحَسِّنْ خُلُقي»(١).

• وعن عم زياد بن علاقة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من مُنكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء»(٢).

٥- أهل التقوى والتزكية هم أولياء الله ﷻ وهم أكرم الناس:

* قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

* وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية].

* وقال ﷻ مبينًا أنه لا يستحق الولاية إلَّا أهل هذه المنزلة العالية والرتبة السياسية، فقال ﷻ: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال].

* وجعل الله ﷻ التقوى هي الميزان الحق الذي يوزن به الناس، لا ميزان الحسب والنسب والمال والشهرة، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وهذا الميزان كذلك هو ميزان النبي ﷺ.

• عن أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ من أكرم الناس؟ قال:

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» عن ابن مسعود، وصححه الألباني في «الإرواء» (٧٤)، و«صحيح الجامع» (١٣٠٧).

(٢) صحيح: رواه الترمذي، والطبراني، والحاكم في «المستدرك»، وصححه الألباني في «تحقيق المشكاة» رقم (٢٤٧١)، و«صحيح الجامع» (١٢٩٨).

«أتقاهم لله..»[(١)].

□ قال الشنقطي رحمه الله: «إن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل، ولقد صدق من قال:

فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

□ وقد ذكروا أن سلمان رضي الله عنه كان يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم لله، ولا كرم ولا فضل لغير المتقي ولو كان رفيع النسب»[(٢)].

فأولياء الله هم أهل التزكية.. هم أهل التقوى:

• وقد أخبر النبيُّ ﷺ عن حال أولياء الله وما صاروا به أولياء؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى قال: مَن عادى لي وليًّا؛ فقد آذنته بالمحاربة، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب مما افترضتُه عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتى أحبَّهُ، فإذا أحببتُه؛ كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّهُ، ولئن استعاذني لأعيذنَّهُ»**[(٣)].

«لما ذكر أن معاداة أوليائه محاربة له؛ ذكر بعد ذلك وصف أوليائه الذين تحرم معاداتهم وتجب موالاتهم، فذكر ما يتقرَّب به إليه، وأصل

---

(١) رواه البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء (٦/ ٤١٧).

(٢) «أضواء البيان» (٧/ ٦٣٥) باختصار وتصرُّف.

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٣٤٠- ٣٤١) «فتح».

الولاية القرب، وأصل العداوة البعد، فأولياء الله هم الذين يتقرَّبون إليه بما يقرِّبهم منه، وأعداؤه الذين أبعدهم عنه بأعمالهم المقتضية لطردهم وإبعادهم منه، فقسم أولياءه المقرَّبين إلى قسمين:

أحدهما: من تقرَّب إليه بأداء الفرائض، ويشمل ذلك فعل الواجبات، وترك المحرَّمات؛ لأن ذلكم كله من فرائض الله التي افترضها على عباده.

الثاني: من تقرَّب إليه بعد الفرائض بالنوافل، فظهر بذلك أنه لا طريق يوصل إلى الله تعالى وولايته ومحبَّته سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله، فمن ادَّعى ولاية الله، والتقرُّب إليه، ومحبَّته؛ بغير هذه الطريق؛ تبيَّن أنه كاذب في دعواه.

فأولياء الله على درجتيْن:

أحدهما: المتقرِّبون إليه بأداء الفرائض، وهذه درجة المقتصدين أصحاب اليمين، وأداء الفرائض أفضل الأعمال، وذلك لأن الله عَزَّ وَجَلَّ إنما افترض على عباده هذه الفرائض ليقرِّبهم منه، ويوجب لهم رضوانه ورحمته.

الدرجة الثانية: درجة السابقين المقرَّبين، وهم الذين تقرَّبوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع، وذلك يوجب للعبد محبة الله؛ كما قال: «**ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتَّى أحبَّه**»، فمن أحبه الله؛ رزقه محبَّته وطاعته والاشتغال بذكره وخدمته، فأوجب له ذلك القرب منه، والزلفى لديه، والحظوة عنده؛ كما قال تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ

لَآيِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ [المائدة].

□ ففي هذه الآية إشارة إلى أن من أعرض عن حبِّنا وتولَّى عن قربنا؛ لم نبالِ، واستبدلنا به مَن هو أولى بهذه المحنة منه وأحق، فمَن أعرض عن الله؛ فما له من الله بدل، ولله منه أبدال..

مَـا لي شَّـغْلٌ سـواهُ مَـا لي شُـغْلُ ... مَا يَعْرِفُ عَـنْ هَـواهُ قَلْبي عَـذْلُ

ما أصنعُ إنْ جَفـا وخـابَ الأمَـلُ ... مِنِّـي بَـدَلٌ ومنـهُ مـا لي بَـدَلُ

□ من فاته الله؛ فلو حصلت له الجنة بحذافيرها؛ لكان مغبونًا، فكيف إذا لم يحصل له إلَّا نزر يسير حقير من دار كلها لا تعدل جناح بعوضة؟!

مَـنْ فَاتَـهُ أَنْ يَـراكَ يَوْمًـا ... فَكُـلُّ أوْقاتِـهِ فَـواتُ

وحَيْـثُما كَنْـتُ مِـن بـلادٍ ... فَـلي إلى وَجْهِـكَ التفـاتُ

فأهل هذه الدرجة من المقرَّبين ليس لهم همٌّ إلَّا فيما يقرِّبهم ممَّن يحبُّهم ويحبُّونه.

□ قال بعض السلف: «العمل على المخافة قد يُغيِّره الرجاء، والعمل على المحبَّة لا يدخله الفتور».

□ ومن كلام بعضهم: «إذا سئم البطّالون من بطالتهم؛ فلن يسأم محبُّوك من مناجاتك وذكرك».

□ وقال بعضهم: «المحبُّ لله طائر القلب، كثير الذكر، متسبِّب إلى رضوانه بكلِّ سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل دوْبًا دوْبًا، وشوْقًا وشوْقًا، وأنشد بعضهم:

كُـنْ لِرَبِّـكَ ذَا حُـبٍّ لِتَخْدِمَـهُ ... إنَّ المُحِبِّـينَ للأحْبـابِ خُـدَّامُ

قوله: «فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها»، وفي بعض الروايات: «وقلبَه الذي يعقل به، ولسانه الذي ينطق به»؛ المراد بهذا الكلام أنَّ مَن اجتهد بالتقرُّب إلى الله بالفرائض، ثم بالنوافل؛ قرَّبه إليه، ورقّاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبدُ الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبَّته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنْس به والشوق إليه، حتَّى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدًا له بعين البصيرة كما قيل:

سَاكِنٌ فِي القَلْبِ يَعْمُرُهُ ... لَسْتُ أَنْسَاهُ فَأَذْكُرُهُ
غابَ عَنْ سَمْعِي وعَنْ بَصَرِي ... فَسُويدا القَلْبِ تُبْصِرُهُ

ولا يزال هذا الذي في قلوب المحبِّين المقرَّبين يقوى حتَّى تمتلئ قلوبُهم به، فلا يبقى في قلوبهم غيرُه، ولا تستطيع جوارحُهم أن تنبعث إلَّا بموافقة ما في قلوبهم، ومَن كان حالُه هذا؛ قيل فيه: ما بقي في قلبه إلَّا الله، والمراد معرفته ومحبَّته وذكره.

□ وفي هذا يقول بعضهم:

لَيْسَ للنَّاسِ مَوْضِعٌ في فُؤادِي ... زَادَ فيهِ هَواك حتَّى امتلا

□ وقال آخر:

قَدْ صِيغَ قَلْبِي على مِقْدارِ حبِّهُمُ ... فَمَا لِحُبٍّ سِواهُمْ فيهِ مُتَّسَعُ

فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى؛ محا ذلك من القلب كلَّ ما سواه، ولم يبق للعبد شيءٌ من نفسه وهواه، ولا إرادة إلَّا لما يريدُه منه مولاه،

فحينئذٍ لا ينطقُ العبد إلَّا بذكره، ولا يتحرَكُ إلَّا بأمره، فإن نطقَ؛ نطق بالله، وإن سمع؛ سمع به، وإن نظرَ؛ نظر به، وإن بطشَ؛ بطش به.

فهذا هو المرادُ بقوله: «**كنتُ سمعه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها**»، ومَن أشار إلى غير هذا؛ فإنَّما يشير إلى الإلحاد مِن الحلول أو الاتِّحاد، والله ورسولُه بريئان منه.

ومن هناك كان بعضُ السَّلف -كسليمان التيمي- يرون أنَّه لا يحسن أن يعصي الله.

ووصَّتِ امرأةٌ مِن السَّلَف أولادها، فقالت لهم: تعوَّدوا حبَّ الله وطاعته؛ فإنَّ المتَّقين ألِفوا الطَّاعة، فاستوحشت جوارحُهم من غيرها، فإن عرض لهم الملعون بمعصيةٍ؛ مرَّت المعصيةُ بهم محتشمةً، فهم لها منكرون.

ومن هذا المعنى قولُ عليٍّ: إنْ كنَّا لنرى أنَّ شيطان عمر ليهابُه أن يأمُرَه بالخطيئة.

وقد أشرنا فيما سبق إلى أنَّ هذا مِن أسرار التوحيد الخاصَّة؛ فإن معنى لا إله إلَّا الله: أن لا يؤلَّهُ غيرُه حبًّا ورجاءً وخوفًا وطاعةً، فإذا تحقَّق القلب بالتَّوحيد التامِّ؛ لم يبق فيه محبَّةٌ لغير ما يحبُّه الله، ولا كراهة لغير ما يكرهه الله، ومن كان كذلك؛ لم تنبعثْ جوارحُه إلَّا بطاعة الله، وإنَّما تنشأ الذُّنوب من محبَّة ما يكرهه الله، أو كراهة ما يحبُّه الله، وذلك ينشأ من تقديم هوى النفس على محبَّة الله وخشيته، وذلك يقدحُ في كمال التوحيد الواجب، فيقعُ العبدُ بسبب ذلك في التفريط في بعض الواجبات، أو ارتكاب بعض المحظورات، فأمَّا من تحقَّق قلبُه بتوحيدِ الله؛ فلا يبقى له همٌّ إلَّا في الله وفيما يُرضيه.

□ وفي هذا يقول بعضهم:

قَالُوا تَشَاغَلَ عَنَّا واصْطَفَى بَدَلًا ... مِنَّا وذلك فعلُ الخائِنِ السَّالي

وكيفَ أَشْغَلُ قَلْبِي عَنْ مَحَبَّتِكُمْ ... بِغَيْرِ ذِكْرِكُمُ يا كُلَّ أَشْغَالِي

قوله: «ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه»، وفي الرواية الأخرى: «إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيتُه»؛ يعني أن هذا المحبوب المقرَّب، له عند الله منزلةٌ خاصَّةٌ تقتضي أنه إذا سأل الله شيئًا؛ أعطاه إياه، وإن استعاذ به من شيء؛ أعاذه منه، وإن دعاه؛ أجابه، فيصير مجابَ الدعوة لكرامته على ربه عَزَّ وَجَلَّ»(١).

٦- التقوى وصية السلف الصالح رضي الله عنهم:

□ قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «ولم يزل السلف الصالحون يتواصون بها: كان أبو بكر رضي الله عنه يقول في خطبته: أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾ [الأنبياء].

□ ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر دعاه فوصاه بوصيته، وأول ما قاله له: «اتق الله يا عمر».

□ وكتب عمر إلى ابنه عبد الله رضي الله عنهما: أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده، واجعل

(١) «إيقاظ الهِمَمْ» المُنْتَقَى من «جامع العلوم والحكم» (ص٥١٩- ٥٢٥) باختصار.

التقوى نصب عينيك، وجلاء قلبك.

□ وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل: «أوصيك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلَّا أهلها، ولا يثاب إلَّا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين».

□ ولما ولي خطب فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أوصيكم بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فإن تقوى الله عَزَّوَجَلَّ خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله خلف».

□ وقال رجل ليونس بن عبيد: «أوصني، فقال: أوصيّك بتقوى الله والإحسان، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون».

□ وكتب رجل من السلف إلى أخ له: «أوصيك بتقوى الله؛ فإنها من أكرم ما أسررت، وأزين ما أظهرت، وأفضل ما ادخرت، أعاننا الله وإياك عليها وأوجب لنا ولك ثوابها».

□ وقال شعبة: «كنت إذا أردت الخروج قلت للحكم: ألك حاجة فقال: أوصيك بما أوصى به النبي ﷺ معاذ بن جبل: **«اتق الله حيث ما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»**»(١).

□ وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ودَّع ابن عون رجلًا فقال: عليك بتقوى الله، فإن المتقي ليس عليه وحشة».

□ وقال زيد بن أسلم: «كان يقال: من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا».

□ وقال الثوري لابن أبي ذئب: «إن اتقيت الله كفاك الناس، وإن

---

(١) باختصار «جامع العلوم والحكم» (ص١٥٠- ١٥١)، والحديث تقدَّم تخريجه.

اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيئًا»[١].

٧- التقوى أجمل لباس يتزين به العبد:

* قال الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فبعد أن تمنن الله عز وجل على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش.

واللباس ما يستر به العورات، والريش والرياش ما يتجمل به – فالأول من الضروريات والثاني من الزيادات التكميليات – دلهم على أفضل لباس وهو ما يواري عورات الظاهر والباطن ويتجمل به، وهو لباس التقوى.

□ قال القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ [الأعراف: ٢٦] بين أن التقوى خير لباس كما قيل[٢]:

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى ... تقلب عريانًا وإن كان كاسيًا

وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان عاصيا[٣]

□ وروى قاسم بن مالك عن عوف عن معبد الجهني قال: «لباس التقوى الحياء».

□ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لِبَاس التَّقْوى». هو العمل الصالح. وعنه أيضًا: السمت الحسن في الوجه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «الفوائد» (١٧) دار الدعوة الإسكندرية.

(٣) البيتان منسوبان لأبي العتاهية.

وقيل: ما علمه الله عَزَّوَجَلَّ وهدى به.

ومن قال: إنه لُبْسُ الخشن من الثياب، فإنه أقرب إلى التواضع وترك الرعونات فدعوى، فقد كان الفضلاء من العلماء يلبسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى»[1].

٨- التقوى هي أفضل زاد يتزود به العبد:

* قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة].

□ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا، أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] لما ذكر اللباس الحسي، نبه مرشدًا إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع والطاعة والتقوى، وذكر أنه خير من هذا وأنفع، قال عطاء الخرساني في قوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ يعني زاد الآخرة»[2].

٩- ولشرف التقوى أمر الله عَزَّوَجَلَّ المسلمين بالتعاون عليها ونهاهم عن التعاون على ما يخالفها:

* قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

□ قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الماوردي: ندب الله سبحانه إلى التعاون

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٢٦٢٠- ٢٦٢١) باختصار.
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٣٩)- دار المعرفة.

بالبر وقرنه بالتقوى لله؛ لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته».

□ وقال بن خويز منداد في أحكامه: «والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه، فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم، ويعينهم الغني بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمين متظاهرين كاليد الواحدة، قال رسول الله ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»[١].

□ وقال بن القيم رحمه الله: «وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم فيما بينهم بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كان عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين، وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق، فأمَّا ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاونًا على مرضاة الله وطاعته، التي هي غاية العبد وفلاحه، ولا سعادة له إلَّا بها، وهي البر والتقوى، الذين هما جُمَّاع الدين كله»[٢].

تمام التقوى والتزكية وعلو الهمة فيها:

«هذا باب لا يدخل فيه إلَّا النفوس الفاضلة الشريفة الأبية، التي لا تقنع بالدون، ولا تبيع الأعلى بالأدنى بيع العاجز المغبون.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٢٠٤٤)، والحديث رواه أبو داود (٤٥٠٧) في الديّات، وابن ماجه في الحدود (٢٦٨٣)، وصححه الألباني.

(٢) «الرسالة التبوكية» (ص١٢).

فبعد أن بينا شرف التقوى وتشوقت النفوس إليها فقد يقول قائل:

بالله عليك كيف أحوز هذه الجوهرة النفيسة وأصل إلى هذه المرتبة الشريفة، فإن المؤمن إذا رغِّبَ في الخير رغب، وإذا خُوِّفَ من الشر هرب، ولا خير فيمن إذا زجر لا ينزجر، وإذا أمر لا يأتمر.

□ قال الغزالي رحمه الله: «إنما الفضيلة في أمر هذه النفس أن تقوم عليها بقوة العزم فتمنعها عن كل معصية، وتصونها عن كل فضول، فإذا فعلت ذلك كنت قد اتقيت الله تعالى في عينك وأذنك ولسانك وقلبك وبطنك وفرجك وجميع أركانك، وألجمتها بلجام التقوى، ولهذا الباب شرح يطول، وأما الذي لا بد منه ها هنا فأن نقول: من أراد أن يتقي الله فليراع الأعضاء الخمسة فإنهن الأصول: وهي العين والأذن واللسان والقلب والبطن، فيحرص عليها بالصيانة لها عن كل ما يخاف منه ضررًا في أمر الدين من معصية وحرام وفضول وإسراف من حلال، وإذا حصل صيانة هذه الأعضاء فمرجو أن يكف سائر أركانه، ويكون قد قام بالتقوى الجامعة بجميع بدنه لله تعالى»[(١)].

فإن قلت: كيف لي أن أصون الأعضاء الخمسة عن معصية الله عز وجل؟ وكيف أقيدها بطاعة الله، فإن هذا لب السؤال وغاية الآمال والسبب الموصل إلى رحمة الكبير المتعال؟ قلت: سوف أجمع لك من السطور ما يبين لي ولك الطريق، والله لي التوفيق.

وألخص ذلك في خمسة أمور:

١ - محبة الله عز وجل تغلب على قلب العبد يدع لها كل محبوب ويضحي في

(١) «التقوى» (ص٢٧ - ٢٨).

سبيلها بكل مرغوب.

٢- أن تستشعر في قلبك مراقبة الله ﷻ وتستحي منه حق الحياء.

٣- أن تعلم ما في سبيل المعاصي والآثام من الشرور والآلام.

٤- أن تعلم كيف تغالب هواك وتطيع مولاك.

٥- أن تدرس مكائد الشيطان ومصائده، وأن تحذر من وساوسه ودسائسه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]:

التقوى الحقيقية هي أن يجتهد العبد في ترك الذنوب كلها صغارها وكبارها، ويجتهد في الطاعات كلها الواجبات والنوافل ما استطاع، لعل كثرة النوافل تعوض ما قد يعرض من تقصير واجتناب الصغائر يجعل بين العبد وبين الكبائر جنة حصينة كما قال ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فمثل هذا يستحق اسم المتقي، واجتهاده في الطاعات كلها من الواجبات والنوافل وترك المعاصي ما استطاع من كبائر وصغائر وترك ما لا بأس به حذرًا مما به بأس هو التقوى التي دارت عليها أقوال السلف.

□ قال أبو الدرداء: «تمام التقوى أن يتقي اللهَ العبدُ حتى يتقيه من مثقال ذرة، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا، يكون حجابًا بينه وبين الحرام، فإن الله قد بين للعباد الذي يصيرهم إليه فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة] فلا تحقرن شيئًا من الخير أن تفعله ولا شيئًا من الشر أن تتقيه».

□ قال الحسن: «ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال

مخافة الحرام».

□ وقال الثوري: «إنما سموا متقين؛ لأنهم اتقوا ما لا يتقى».

□ وقال موسى بن أعين: «المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام، فسماهم الله متقين».

□ وقال ميمون بن مهران: «المتقي أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح لشريكه. وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. قال: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر»(١).

□ قال ابن رجب رحمه الله: «وشكره يدخل فيه جميع فعل الطاعات ومعنى ذكره فلا ينسى: ذكر العبد بقلبه لأوامر الله في حركاته وسكناته وكلماته فيتمثلها، ولنواهيه في ذلك كله فيجتنبها، وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات، كما قال أبو هريرة وسئل عن التقوى فقال: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه: قال ذاك التقوى»(٢).

• والقلب محل التقوى، فقد قال رسول الله ﷺ: «**التقوى ها هنا**»، وأشار إلى صدره ثلاث مرّات(٣).

فإذا امتلأ القلب بتقوى الله، أفاضها على الجوارح فصلحت وصلح

(١) صحيح: رواه الحاكم (٢/ ٢٩٤)- دون قوله: «وأن يشكر فلا يكفر»، وقال: على شرط الشيخيْن ولم يخرِّجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) «التقوى» للدكتور أحمد فريد (ص١٢ - ١٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة.

الجسد كله؛ لأن تقوى الله علامتها تعظيم شعائر الله الناتج عن تعظيم الآمر والناهي:

ولذلك قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج].

حقيقة التقوى وتمامها:

□ قال عمر رضي الله عنه: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدعَ ما حاكَ في الصدر»(١).

وهذا هو التسليم لحكم الله الديني الأمري، فأجل مقامات الإيمان وأكملها التسليم والرضا.

صفات علاة الهمم أهل التقوى والتزكية:

* هذه صِفات المتَّقين الكُمَّل علاة الهمم والمؤمنين الخُلَّص أهل الهداية الحقيقيَّة بالقرآن الذين زكت نفوسهم، وصَفَت أرواحُهم وقلوبُهم نأتي بها مجملة وقد فصَّلنا الكلام عليها في فصول هذه الموسوعة قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة].

١- هم المؤمنون بالغيب - وهو قطب التوحيد-:

فالصفة الأولى للمتقين أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولًا وعملًا واعتقادًا.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٤٥) «فتح» مُعَلَّقًا بصيغة الجزم.

* والإيمان بالغيب - هو قطب التوحيد - تزكية وطهاره وصلاح، وهو صريح في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر].

٢- هم المقيمو الصلاة:

وإقامة الصلاة: أداؤها بأركانها وواجباتها وسننها وهيئاتها في أوقاتها، وهي عامل هام في تزكية النفس وجعلها ربَّانية التصور.. ربَّانية الشعور.. ربَّانية السلوك.. ربانيَّة التلقِّي.

* وإقام الصلاة تزكية كما جاء في آيات سورة فاطر السابقة؛ ولأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى]؛ فقد جعل الله صفة من تزكى أن يذكر اسم ربه فيتوجه إليه بالصلاة.

٣- وهم المنفقون مما رزقهم الله:

تطهَّرت نفوسهم من الشح، وزكت بالإنفاق والبِرِّ، وانعتقت أرواحهم من ربقة الحرص، والأثرة وحب المال الذي يقبض الأيدي عن الإنفاق، ويقبض النفوس عن الإشفاق، ويقبض الأرواح عن الانطلاق، وتحرَّرت من عبودية الدرهم والدينار التي تستذل النفوس، وتنكِّس الرؤوس، وتذلُّ أعناق الرجال.

٤- الإيمان برسالات رسل الله أجمعين صلوات الله وسلامه عليهم:

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة].

وهذه الصفة اللائقة بأئمة المتقين، وورثة الأنبياء، والمحافظين على ميراثهم، وحداة موكب الإيمان إلى آخر الزمان.

٥- اليقين بالآخرة:

واليقين بالآخرة هو مفرق الطرق بين من يعيش بين جدران الحسِّ المُغلَقة ومن يعيش في الوجود الرَّحب.

٦- وهُم أهل العفو والصفح:

* قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

٧- لا يقارفون الكبائر، ولا يُصرُّون على الصغائر:

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف].

□ قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر وتركوا ما عنه زجر، أنهم إذا مسهم -أي: أصابهم- طيفٌ وقرأ الآخرون طائف، وقد جاء فيه حديث وهما قراءتان مشهورتان فقيل: بمعنى واحد، وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصدع ونحوه، ومنهم من فسره بالهمِّ بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب، وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ أي: عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده ووعيده فتابوا وأنابوا ورجعوا إليه من قريب: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه»[١].

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٩).

٨- هم أهل الصدق :

هم أصدق الناس إيمانًا وأقوالًا وأعمالًا وأحوالًا.

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر].

قيل: الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ، وقيل: جبريل عليه السلام، وقال مجاهد: أصحاب القرآن المؤمنون: يجيئون يوم القيامة فيقولون: هذا ما أعطيتمونا فعملنا بما أمرتمونا.

□ قال ابن كثير: «وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين، فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله»(١).

* وقال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

٩- وهم المعظِّمون لشعائر الله :

* قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

فهم المعظمون لله وأمره ونهيه ودينه وشعائر دينه.

١٠- وهم أهل العَدْل المتحرُّون له :

* قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة].

(١) المصدر السابق (٤/ ٥٣).

١١- ومن صفاتهم أنهم يتبعون سبيل الصادقين من الأنبياء والمرسلين وصحابة سيد الأولين والآخرين ﷺ:

* قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة].

وقد فسر بعض العلماء هذه الآية على أنها تحريض على الصدق وأمر به كابن كثير والقاسمي، ورجح بعضهم أنها حض على التزام طريق الصادقين، كالشوكاني، ونقل عن سعيد بن جبير والضحاك «كونوا مع الصادقين» أبو بكر وعمر، وذكر القرطبي وابن جرير القولين ورجح ابن جرير الثاني منها فقال: والصحيح من التأويل في ذلك هو التأويل الذي ذكرناه عن نافع [(١)] والضحاك، وذلكم أن رسوم المصحف كلها مجمعة على ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهي القراءة التي لا أستجيز لأحد القراءة بخلافها، وتأويل عبد الله رحمة الله عليه [(٢)] في ذلك على قراءته تأويل صحيح غير أن القراءة بخلافها [(٣)].

□ وقال القرطبي: «هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين، واختلف في المراد هنا بالمؤمنين الصادقين على أقوال، فقيل: هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب، قيل: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي مع الذين خرجوا مع

---

(١) الأثر عن نافع قال: قيل للثلاثة الذين خلفوا: يا أيها آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين محمد وأصحابه.

(٢) قال ابن جرير: «وكان ابن مسعود فيما ذكر عنه يقرأه ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ويتأوله أن ذلك نهى من الله عن الكذب.

(٣) «جامع البيان في تفسير القرآن» (١١/ ٤٦) دار المعرفة بيروت.

النبي ﷺ لا مع المنافقين، أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم. وقيل: هم المهاجرون لقول أبي بكر يوم السقيفة: إن الله سمانا الصادقين فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨] الآية ثم سماكم بالمفلحين فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الحشر: ٥٩] الآية. وقيل: هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم».

▫ قال ابن العربي: «وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى، فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفة في العمل، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ﷺ ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم، وأما تفسير أبي بكر الصديق فهو الذي يعم الأقوال كلها، فإن جميع الصفات فيهم موجودة»[1].

١٢- وهم أحرص الناس على أعمال البر كلها:

* فالتقوى تنبثق عن أعمال البرِّ جميعًا، مصداق ذلك كتاب الله ﷻ وكلامه، وكلام الملوك ملوك الكلام، قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

* واقرأ بتدبر قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٣١٢٨) باختصار.

تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ [البقرة: ١٨٩]. تجد الآفاق العاليات النيِّرات الطاهرات للمتقين.

وسائل وطرق تزكية النفوس هي شعائر الدين كلُّها:

«إن تزكية النفوس، وتنقيتها من قبائحها، وتصفيتها من أدرانها، والسمو بها إلى مكارم الأخلاق وصالحها: من مهمات الرسل، التي بُعِثوا من أجلها، وقد شغلت حيِّزًا كبيرًا في حياة رسول الله ﷺ؛ لأنها ركن أساس في استئناف حياة إسلامية على منهاج النبوَّة.

والذي شرع الغاية لم ينس الوسيلة؛ فقد شرع الله وسائل تزكية النفوس، وبيَّنها رسول الله ﷺ للوصول إلى هذه الغاية، ولذلك؛ ليس لتزكية النفوس أعمال خاصَّة بها دون شعائر الإسلام»(١).

□ وعند استقراء شعائر الإسلام كلها وربطها بهذه الغاية، نتبيَّن أنه ليس لتزكية النفوس أعمال خاصَّة من مجموع شرائع الإسلام، بل إن الإسلام عقائد وأحكام، نهايتها التقوى وتزكية النفوس؛ لتستقيم على أمر الله أفرادًا وجماعات ومجتمعات، ودونك بيان ذلك:

التوحيد تزكية للنفوس: إن الاعتراف بالحق أس الفضائل وأم الأخلاق، فرأس الحكمة معرفة الله وعبادته ومخافته، وليس هناك حقٌّ أكبر من الله، ولا أظهر منه عند كل ذي مُسْكةِ عقل، ولهذا كان الشرك بالله عزَّ وجلَّ رجسٌ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وهكذا يجسم التعبير القرآني نجاسة أرواحهم وخبث نفوسهم،

---

(١) «منهج الأنبياء في تزكية النفوس» (ص٥٩).

فيجعلها ماهيتهم وكيانهم، فهم بكليتهم وحقيقتهم نجس؛ يستقذره الحس، ويتطهَّر منه المتطهِّرون.

□ قال ابن كثير رحمه الله: «ودلَّت هذه الآية على نجاسة المشرك كما ورد في «الصحيح»: «**المؤمن لا ينجس**»(١)، وأما نجاسة بدنه؛ فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم»(٢).

هؤلاء دنست قلوبهم، فلم يرد الله أن يطهِّرها، وأصحابها يلجون الدَّنس ويختارون الرِّجس.

* قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١ ﴾ [المائدة].

* وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧ ﴾ [فصلت].

□ قال ابن القيم رحمه الله: قال تعالى: ﴿ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٣٩٠) «فتح»، ومسلم (ص٣٧١) من حديث أبي هريرة.
(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٦٠).

﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾: «أي لا يأتون ما تُزَكَّى به أنفسهم من التوحيد والإيمان؛ ولهذا فسَّرها غيرُ واحد من السلف بأن قالوا: ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لا يقولون: لا إله إلَّا الله، فعبادةُ الله وحده لا شريك له، وأن يكون الله أحب إلى العبد من كلِّ ما سواه هو أعظم وصيَّةٍ جاءت بها الرسل ودعوا إليها الأمم»[١].

□ وقال رحمه الله: «وقال أكثر المفسِّرين ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلَّا الله والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمَّن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كلِّ زكاة ونماء، فإن التزكِّي – وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة– فإنه إنما يحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي ينتظم الأمْرين جميعًا فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد. والتزكية: جعل الشيء زكيًّا إمَّا في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر عنه كما يُقال: عدّلته وفسَّقته إذا جعلته كذلك في الخارج وفي الاعتقاد والخبر»[٢].

* وبهذا كله يتبيَّن أن الإسلام كله طهر وزكاة ونماء وفضائل، فمن هدي إليه؛ فقد شرح بالإيمان صدرًا، فهو على نور من ربِّه، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام].

* **والوضوء طهارةٌ**: كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص٤٥٧).

(٢) «إغاثة اللهفان» (ص٤٩).

يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة].

* والغسل والتيمُّم طهارة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة].

* واعتزال النساء في المحيض والنفاس طهارة وزكاة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة].

ولذلك جعلت أحكام الوضوء والغسل والتيمُّم في أبواب الطهارة من كتب الفقه.

□ والطهارة في كتاب الله وسنة رسوله تنتظم طهارة القلب والجوارح.

* أما طهارة القلوب؛ ففي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

* وأما طهارة الجوارح؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ [الأحزاب].

* وطهارة الجوارح مقترنة بطهارة القلوب؛ لذلك عطف على طهارة الجوارح عصمتهم من رجز الشيطان والربط على القلوب وتثبيت الأقدام

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال].

* وبه نطق الكتاب العزيز: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدثر: ٤].

□ قال ابن قيم الجوزية في تفسيرها: «قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهِّر من الذنب، فكنى عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم والضَّحَّاك والشعبي والزهري والمحقِّقين من أهل التفسير».

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تلبسها على معصية، ولا قذر، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإنِّي بِحَمْـدِ الله لا ثَـوْبَ غَـادِرٍ لَبِسْتُ ولا مِـنْ غَـدْرِهِ أَتَقَنَّـعُ

□ والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: «طاهر الثياب»، وتقول للفاجر والغادر: «دنس الثياب».

□ وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: «لا تلبسها على الغدر والظلم والإثم، ولكن البسها وأنت برٌّ طاهر».

□ وقال الضحاك: «عملك فأصلح».

□ وقال السدي: «يقال للرجل إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثياب».

□ وقال سعيد بن جُبير: «وقلبك وبيتك فطهِّر».

□ وقال الحسن والقرطبي: «وخُلقك فحسن».

□ وقال ابن سيرين وابن زيد: «أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها؛ لأن المشركين كانوا لا يتطهّرون ولا يطهرون ثيابهم».

□ قال طاووس: «وثيابك فقصِّر؛ لأن تقصير الثياب طهرة لها».

✍ والقول الأول أصح الأقوال، ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق؛ لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن، ولذلك أمر القائم بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ بإزالتها والبعد عنها»[١].

□ **والصلاة تزكية النفوس**؛ لأنها تطهِّر النفس والجوارح من الفحشاء والمنكر.

* **والزكاة طهارة وتزكية**: كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣].

□ ولهذا كانت زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث؛ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طُهرةً للصائم من اللغو والرفث، وطُعمةً للمسكين»[٢].

إذن؛ فإنفاق المال ابتغاء مرضاة الله وسيلة لتزكية الأنفس وتطهيرها ونمائها وصلاحها.

* قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل].

* والصوم تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة].

---

(١) «التفسير القيم» (ص٥٠٢، ٥٠٣).

(٢) حسن بشواهده.

* والحج تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة].

* والنسك تزكية: كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج].

* ومكارم الأخلاق وجُمَّاع أمرها الصدق، وهو تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر].

* والحكم بما أنزل الله تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة].

* والبر جميع خصال الخير التي يحبها الله أصل التقوى؛ كما في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

فمن صنع البر؛ فقد اتَّقى، ومَن اتَّقى؛ فقد تزكَّى؛ لأن النفس والقلب يطمئنان إلى البر.

• عن وابصة بن معبد رضي الله عنه؛ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «جئتَ تسأل عن البر والإثم؟». قلتُ: نعم. قال: «استفتِ قلبكَ، البرُّ ما اطمأنَّت إليه النفس، واطمأنَّ إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردَّد في

الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»[١].

• وقال ﷺ: «البِرُّ ما سكنت إليه النَّفْس، واطمأنَّ إليه القلبُ، والإثم ما لم تسكن إليه النَّفْسُ، ولم يطمئن إليه القلبُ، وإنْ أفتاكَ المُفتُون»[٢].

• وقال ﷺ: «البرُّ حسن الخلقِ، والإثم ما حاك في صدرك، وكَرِهت أن يَطَّلع عليه الناس»[٣].

* وتقوى الله بتزكية النفوس هي ثمرة العبادة: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].

* وهذا هو منهج الأنبياء في تزكية النفوس، حيث أمرهم الله سبحانه بعبادته كما في قوله تعالى بعد أن ذكر كثيرًا من المرسلين والأنبياء: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء].

* ثم أمرهم الله بتقوى الله؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون].

فتبيَّن بذلك أن الطريق المؤدِّي إلى تقوى الله بتزكية النفوس هي العبادة: «والعبادة هي اسم جامع لكل ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود،

(١) صحيح لغيره.

(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبي ثعلبة، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» وتحقيق «المشكاة» (٢٧٧٤)، و«صحيح الجامع» (٢٨٨١).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد»، ومسلم، والترمذي عن النوَّاس بن سمعان.

والأمر المعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميِّين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

- والعبادات القلبية خير وسيلة لتزكية النفوس.

- ومجاهدة النفس وسيلة زاكية للتزكية، والأخذ بالحظ الوافر من قيام الليل، وصيام النافلة، وتلاوة القرآن، والمداومة على الذكر أنجع الوسائل لتزكية النفوس.

فتمسَّك بغرْز رسول الله ﷺ وهديه وعبادته وذكره، وإياك وبنيات الطريق، ودع ما أحدثه أهل المواجيد وفلاسفة الصوفية وأصحاب الرياضات البِدْعية، وخيالات أهل الجوع والاتحادية، فإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

أقوال مضيئة في تزكية النفوس لأئمة سلفنا الصالح

أسباب انشراحِ الصَّدر:

□ قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «أعظمُ أسبابِ انشراح الصدر:

أولًا: التوحيد: وعلى حسب كماله، وقوَّته، وزيادَتِهِ يكونُ انشراحُ صدرِ صاحبه.

* قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام].

فالهُدى والتوحيد من أعظم أسبابِ شرحِ الصدر، والشركُ والضَّلالُ من أعظمِ أسبابِ ضيقِ الصدر وانحراجه.

ثانيًا: نورُ الإيمان: وَهُوَ النورُ الذي يقذِفُهُ الله في قلبِ العبد، فإنَّهُ يشرحُ الصدرَ ويوسِّعُهُ، ويُفرِّجُ القلب، فإذا فُقِدَ هذا النورُ من قلبِ العبد، ضاقَ وحَرِجَ، وصارَ في أضيقِ سجنٍ وأضيعه.

• وقد روى ابن مسعودٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال: «إذا دَخَلَ النُّورُ القلبَ، انفسحَ وانشرح»، قالوا: وما علامةُ ذلك يا رسولَ الله؟ قَالَ: «الإنابةُ إلى دارِ الخلودِ، والتَّجافي عن دارِ الغرور، والاستعداد للمَوتِ قبلَ نزوله»[1].

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٧) من حديث ابن مسعود، وذكر السيوطي في «الدر المنثور» =

فيصيبُ العبدُ من انشراحِ صدره بحسب نصيبه من هذا النور، وكذلك النورُ الحِسِّيُّ، والظلمة الحسِّية، هذه تشرح الصدر، وهذه تضَيِّقُهُ.

ثالثًا: العلم، فإنه يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسع علم العبد، انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم، بل العلم الموروث عن الرسول ﷺ وهو العلم النافع، فأهله أشرح الناس صدرًا، وأوسعهم قلوبًا، وأحسنهم أخلاقًا، وأطيبهم عيشًا.

رابعًا: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، ومحبته بكل القلب، والإقبال عليه، والتنعُّم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك. حتى إنه ليقول أحيانًا: «إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة، فإني إذًا في عيش طيب». وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلَّا من له حس به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد، كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيق إلَّا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قذى عينه، ومخالطتُهم حُمَّى روحه.

ومن أعظم أسبابِ ضيقِ الصدر: الإعراضُ عن الله تعالى، وتعلُّقُ القلبِ بغيره، والغفلةُ عن ذِكْرِهِ، ومحبةُ سواه، فإنَّ مَن أحبَّ شيئًا غيرَ الله عُذِّبَ به، وسُجِنَ قلبهُ في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسفَ بالًا، ولا أنكدَ عيشًا، ولا أتعبَ قلبًا.

(٣/ ٤٤)، وأورده الحافظ ابن كثير (٢/ ١٧٤) عن عبد الرزاق، وابن ابي حاتم وابن جرير، ثم قال: فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضًا، وانظر تحقيق الشيخ شعيب وعبد القادر الأرنؤوط على «زاد المعاد».

فَهُمَا محبتان: محبةٌ هي جنةُ الدنيا، وسرور النفس، ولذةُ القلب، ونعيم الروح، وغذاؤها، ودواؤها، بل حياتُها وقُرَّةُ عينها، وهي محبةُ الله وحده بكلِّ القلب، وانجذابُ قُوى الميل، والإرادة، والمحبة كلِّها إليه.

ومحبةٌ هي عذابُ الروح، وغمُّ النفس، وسِجْنُ القلب، وضِيق الصدر، وهي سببُ الألم والنكد والعناء، وهي محبةُ ما سواه سبحانه.

خامسًا: دوامُ ذِكْرِه على كلِّ حال، وفي كُلِّ موطن، فللذِّكْرِ تأثير عجيبٌ في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلةِ تأثيرٌ عجيبٌ في ضيقه وحبسه وعذابه.

سادِسًا: الإحْسَانُ إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال، و؟؟ والنفع بالبدنِ، وأنواعِ الإحسانِ، فإنَّ الكريمَ المحسن أشرحُ الناسِ صدرًا وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسانٌ أضيقُ الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًّا وغمًّا.

سابعًا: الشجاعةُ، فإنَّ الشجاعَ منشرحُ الصدرِ، متَّسِعُ القلب، والجبان أضيقُ الناس صدرًا، وأحصرُهُمْ قلبًا، لا فرحةَ له ولا سرور، ولا لَذَّةَ له، ولا نعيم إلَّا من جنس ما للحيوان البَهيمي، وأما سرور النفس ولذَّتُها، ونعيمها وابتهاجها، فمحرَّمٌ على كلِّ جبانٍ، كما هو محَرَّمٌ على كل بخيلٍ، وعلى كُلِّ معرضٍ عن الله سبحانه، غافلٍ عن ذِكْرِهِ، جاهل بأسمائه تعالى وصِفاتِه ودينه، متعلِّقُ القلبِ بغيره.

وإن هذا النعيم والسرور، يصير في القبر رياضًا وجنةً، وذلك الضيق والحصرُ ينقلبُ في القبرِ عذابًا وسجًا. فحالُ العبدِ في القبرِ كحاله في الصدر، نعيمًا وعذابًا وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرةَ بانشراحِ صدر لعارضٍ، ولا بضيقِ صدرِ هذا لعارضٍ، فإنَّ العوارضَ تزولُ بزوالِ أسبابها وإنما

المعوَّلُ على الصِّفَةِ التي قامت بالقلب توجبُ انشراحه وحبسه. الميزان.. والله المستعان.

ثامنًا: إخراجُ دَغَلِ القلبِ من الصِّفاتِ المذمومة التي توجبُ ضيقه وعذابه، وتحولُ بينه وبين حصولِ البُرءِ، فإنَّ الإنسان إذا أتى الأسباب تشرحُ صدره، ولم يُخرجْ تلك الأوصافَ المذمومةَ من قلبه، لم يحصل انشراحِ صدره بطائلٍ، وغايته أن يكون له مادَّتانِ تعتَوِرانِ على قلبه، وهو للمادة الغالبةِ عليه منهما.

تاسعًا: تركُ فضولِ النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطةِ، والأكل، والنوم، فإنَّ هذه الفضولَ تستحيلُ آلامًا وغمومًا، وهمومًا في القلب، تحصُرُهُ وتحبسه، وتضيِّقُهُ ويتعذَّبُ بها، بل غالبُ عذابِ الدنيا والآخرةِ منها.

فلا إله إلَّا الله ما أضيقَ صدرَ مَن ضربَ في كلِّ آفةٍ من هذه الآفاتِ بسهم، وما أنكَدَ عيشَهُ، وما أسوأ حاله، وما أشدَّ حصرَ قلبه!!

ولا إله إلَّا الله، ما أنعمَ عيشَ من ضربَ في كلِّ خَصْلَةٍ من تلك الخصال المحمودةِ بسهمٍ، وكانت هِمَّتُهُ دائرةً عليها، حائمةً حولها!!.

* فلهذا نصيبٌ وافرٌ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار]، ولذلكَ نصيبٌ وافرٌ من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار]، وبينهما مراتبُ متفاوتةٌ لا يُحصيها إلَّا الله تعالى.

والمقصود: أنَّ رسول الله ﷺ كان أكملَ الخلقِ من كُلِّ صفةٍ يحصُلُ بها انشراحُ الصدر، واتِّساعُ القلب، وقُرَّةُ العين، وحياةُ الروح، فهو أكملُ الخلقِ في هذا الشرح والحياة، وقُرَّةِ العين مع ما خُصَّ به من الشرح الحِسِّيِّ، وأكملُ الخلقِ متابعةً له، أكملُهم انشراحًا ولذَّةً وقُرَّةَ عين، وعلى

حسب متابعته ينالُ من انشراح صدره، وقُرَّةِ عينه، ولذَّةِ روحه ما ينالُ، فهو ﷺ في ذُروةِ الكمالِ من شرحِ الصدر، ورفعِ الذِّكْرِ ووضع الوِزْرِ.

وهكذا لأتباعه نصيبٌ من حفظ الله لهم، وعصمتهِ إيَّاهم، ودفاعه عنهم، وإعزازِهِ لهم، ونصرِهِ لهم، بحسب نصيبهم من المتابعة؛ فمستقلٌّ، ومستكثرٌ. فمن وجد خيرًا، فليحمدِ الله. ومن وجد غير ذلك، فلا يلومنَّ إلَّا نفسه».

تشخيصٌ دقيقٌ لأمراض النفس:

□ يقول الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ تعالى: «تأمَّلتُ في الخلقِ وإذا هُم في حالةٍ عجيبة، يكاد يُقطع معها بفساد العقل.

وذلك أنَّ الإنسانَ يسمع المواعظ وتُذْكَرُ له الآخرة فيعلم صِدقَ القائل، فيبكي وينزعج على تفريطه، ويعزم على الاستدراك، ثُمَّ يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه.

فإذا قيل له: أَتَشُكُّ فيما وُعِدتَ به، قال: لا والله، فيقال له: فاعتمل، فينوي ذلك ثُمَّ يتوقفُ عن العمل.

وربما مال إلى لذَّةٍ محرمة، وهو يعلم النهيَ عنها.

ومن هذا الجنس تأخر الثلاثة الَّذِينَ خُلِّفوا ولم يكن لهم عذرٌ وهم يعلمون قُبح التَّأخُّر، وكذلك كلُّ عاصٍ ومفرِّط.

فتأملتُ السبب مع أنَّ الاعتقاد صحيح والفعل بطيء، فإذا له ثلاثة أسباب:

أحدها: رؤية الهوى العاجل، فَإِنَّ رؤيته تشغل عن الفكر فيما يُجْنيه.

والثاني: التسويف بالتوبة، فلو حضر العقل لحذر من آفاتِ التأخير، فربما هجم الموت ولم تحصل التوبة.

والعجب ممن يُجوِّزُ سلبَ روحِه قبل مُضِيِّ ساعةٍ ولا يعمل على الحزم، غير أنَّ الهوى يطيل الأمد، وقد قال صاحب الشرع ﷺ: «صَلِّ صلاةَ مودِّع»، وهذا نهاية الدواء لهذا الداء، فإنه مَن ظنَّ أنه لا يبقى إلى صلاةٍ أخرى جَدَّ واجتهد.

والثالث: رجاء الرحمة فيَرَى العاصي يقول: ربي رحيم، وينسى أنه شديد العقاب.. فنسألُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أن يهب لنا حَزمًا يَبُتُّ المصالح جزمًا»[1].

علاج ناجح لأمراض النفس:

□ يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أوَّلُ ما يطرق القلبُ: **الخطرةَ**، فإن دفَعَها استراحَ مِمَّا بعدها، وإن لم يدفعها قَوِيَتْ فصارت **وسوسةً**؛ فكان دفعُها أصعب، فإن بادرَ ودَفَعَها، وإلَّا قَوِيَت وصارت **شهوة**. فإن عالجها، وإلَّا صارت **إرادةً**، فإن عالجها وإلَّا صارت **عزيمة**. ومتى وصلت إلى هذه الحال لم يُمْكِنْ دفعها، واقترن بها الفعل ولا بد. وما يقدر عليه مرة بدون مقدماته.

وحينئذٍ ينتقل العلاج إلى أقوى الأدوية، وهو الاستفراغ التام **بالتوبة النصوح**، ولا ريب أنَّ دفعَ مبادئ هذا الداء من أوله أيسر وأهون من استفراغه بعد حصوله -إن ساعدَ القدرُ وأعانَ التوفيق-، وإنَّ الدفع أولى به. وإن تألَّمَتِ النفسُ بمفارقةِ المحبوب: **فليوازن** بين فوات هذا المحبوب الأخَسِّ المنقطع النَّكِدِ المشوبِ بالآلامِ والهموم، وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم الذي لا نسبة لهذا المحبوب إليه ألبتَّة لا في قَدْرِه، ولا في بقائه. **وليوازن** بين ألم فوته وبين ألم فوت المحبوب الأخس. **وليوازن** بين

(١) «صيد الخاطر» (ص٣١٣- ٣١٤).

لذة الإنابة والإقبال على الله تعالى، والتَّنَعُّم بِحُبِّه، وذِكْرِهِ، وطاعتِه، ولذَّةِ الإقبال على الرذائل، والإتيان بالقبائح. وليوَازن بين لذة الظفَرِ بالذنب ولذة الظفر بالعدُوِّ، وبين لذة الذنب ولذة العِفَّة، ولذة الذنب ولذة القوة وقهر العدو، وبين لذة الذنب ولذة إرغام عَدُوِّهِ، ورَدِّه خاسئًا ذليلًا. وبين لذة الذنبِ ولذة الطاعة التي تحول بينه وبين مراده، وبين فوت مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه، وفوت حُسن جزائه وجزيل ثوابه، وبين فرحة إدراكه وفرحة تَرْكِهِ لله تعالى عاجلًا، وفرحة ما يُثِيبُه عليه في دنياه وآخرته. والله المستعان»[1].

استقامة القلب وشفاؤه من أمراضه:

□ يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحابِّ، فإذا تعارض حُبُّ الله تعالى وحُبُّ غيره، سبق حبُّ الله تعالى حبَّ ما سواه، فرُتِّبَ على ذلكم مقتضاه، وما أسهل هذا بالدعوى، وما أصعبه بالفعل، فـ«عند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان»..

وقد قضى الله تعالى قضاءً لا يُرَدُّ ولا يُدْفَع، أَنَّ مَن أَحَبَّ شيئًا سِواهُ عُذِّبَ به ولا بد، وأنَّ مَن خاف غيره سُلِّطَ عليه، وأنَّ مَن اشتغل بشيء غيره كان شؤمًا عليه، ومَن آثَرَ غيره عليه لم يبارك فيه، ومَن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد.

الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمِرِ الناهي، فَإِنَّ الله تعالى ذمَّ مَن لا يعظِّمُه ولا يعظِّمْ أمره ونهيه..

(١) «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص٢٦٣- ٢٦٤).

فعلامة التعظيم للأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحسينها وفِعلها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حقٍّ من حقوقها، كَمَنْ يحزن على فوتِ الجماعة، ويعلم أنه لو تُقُبِّلَت منه صلاته منفردًا، فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضِعْفًا، ولو أنَّ رجلًا يعاني البيع والشراء يفوته في صفقة واحدة في بلده من غير سفرٍ ولا مشقةٍ سبعة وعشرون دينارًا، لأكلَ يديه ندمًا وأسفًا، فكيف وكلُّ ضعفٍ مما تضاعف به صلاة الجماعة خيرٌ من ألفٍ، وألفِ ألفٍ، وما شاء الله تعالى، فإذا فوَّتَ العبد عليه هذا الربح خسر قطعًا..

وأما علاماتُ تعظيم المناهي: فالحرص على التباعد من مظانِّها وأسبابها وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرِّب منها، كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها، وأن يدَعَ ما لا بأسَ به حذرًا مما به بأس، وأن يجانب الفضول من المباحات خشيةَ الوقوع في المكروهات، ومجانبة مَن يجاهر بارتكابها ويُحسِّنها ويدعو إليها، ويتهاون بها، ولا يبالي ما ركب منها، فَإِنَّ مخالطة مثل هذا داعيةٌ إلى سخط الله تعالى وغضبه، ولا يخالطه إلَّا مَن سقط من قلبه تعظيمُ الله تعالى وحرماته»[1].

(١) «الوابل الصيب» لابن القيم (ص١٢) وما بعدها.

علو الهمة

في

تحمل المسؤولية.. والفاعلية

علو الهمة في تحمل المسؤولية.. والفاعلية

أين حملة المسؤولية.. من يَحْمِل هَمَّ الإسلام؟

دَهْرُنا هذا قد غَرْبَلَ أَهْلِيه أشدَّ غَرْبلة، وسفسف أخلاقهم، وخَبَّت أعراقَهم، وسَفَّه أحلامهم، واحتوى عليهم الجَهل؛ فلبثوا في غير سبيل الرُّشد، يعلِّلون أنفسهم بالباطلِ، وذلك من أَدَلِّ الدلائل على فرط جهلهم واغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، وغفلتهم عن سَدِّ ثغرهم، حتى ظلَّ عدوهم الساعي لإطفاء نورهم يتبجح عِرَاص دورهم، ويستقرئ بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم منهم طرفًا ويبيد أمة، ومَن لديْنا وحوالينا صُمُوت عن ذكرهم، لُهَاة عن بثِّهم، ما إن يسمع بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا مذكِّر لهم أو داعٍ لهم، فضلًا عن نافر إليهم أو مُوَاسٍ لهم؛ حتى كأنهم ليسوا منَّا، أو كأن فتقهم ليس بمُفْضٍ إلينا، قد بخلنا عليهم بالدعاء، فَبُؤْنَا بالعناء، عجائب فَاتَتِ التقدير»[1].

أمــورٌ لــوْ تَــدَبَّرَها حَكــيمٌ ... إِذَنْ لَنَهَــى وَهَيَّــبَ مــا اسـتطاعَا

□ ولله در القائل:

قـالوا شـهِرتَ وفي فـؤادك حُرْقَـةٌ ... تُــذْمِي وألــف تــساؤلٍ يــتردَّدُ

وعــلى جبينــك قــصَّةٌ مكلومَــةٌ ... تَـرْوِي المـآسي للجميـع وتـسرُدُ

ودموعُـكَ المـلأى بـألف حِكايـةٍ ... رَسَمَتْ عـلى خـدَيْكَ نـارًا تُوقَـدُ

أنا يا صِحَابُ من الجراح مُعَـذَّبٌ ... في كــل أرض جُرحنــا يتمــدَّدُ

(١) «البيان المغرب» لابن عذارى (٣/ ٢٥٥).

في كُـلِّ أرضٍ تُـستباحُ دماؤنـا ... في كُـلِّ أرضٍ يُـستباحُ المـسجِدُ

□ كُلٌّ منهم: أساءَ ذهَابًا في الكِبْر، وتهاونًا بالأمْرِ، وقُعودًا عن النَّصْر، واستظهارًا بأحزاب الكُفر، سِلْمُه باطِلٌ وبَطَالَة، وحَرْبُه غِوَايَةٌ وجَهَالة، في المشركين نجومُه وَدَيْمُه، ولهم مواثيقهُ وذِمَمُهُ، وفي المسلمين سَمُومُه وحميمُه وعِنْدَهم بوائقُهُ ونِقَمُهُ».

هل من فتى؟!!! يقول «واإسلاماه» و«واإسلاماه».

إذا القومُ قالُوا مَنْ فتًى؟ خِلْتُ أنَّني ... عُنيتُ، فلـم أَكْسَل ولم أَتبَلَّـدِ[1]

□ هَل من فَتًى؟!

إنَّ الفَتَـى حَمَّـالُ كُـلِّ مُلِمَّـةٍ ... لـيسَ الفتـى بِمُـنَعَّمِ الـشُّبَّانِ

□ واإسلاماه

لا يَنْهضُ الشَّعبُ إلَّا حينَ يَدْفَعُهُ ... عَزْمُ الحياةِ، إذا مـا استيقظتْ فيـهِ

والحُـبُّ يخـترقُ والغَـبْرَاءَ منـدَفِعًا ... إلى الـسماءِ إذا هبَّـتْ سـناديهِ

والقيدُ يألَفُـهُ الأمـواتُ، مـا لبِثُـوا ... أمَّـا الحيـاةُ فيُبليهـا وتُبْلِيـه

✍ في واقعنا المُرّ يقعُدُ الناس حيارَى كُسَالى ضائعين، أو يحسبوا أنهم ليسوا مسؤولين إذا افتُقِد العلماء، أو ضَعُفُوا عن القيام بواجبهم.

«وإن كون العلماء حياة الأمة وأساس منطلقها إلى الخير، يجب ألا يخفف في نفوسنا معنى المسؤولية الفردية، ومعنى القيام بالواجب. ويجب ألا ينسينا الأوامر العظيمة والتحذيرات الخطرة في كتاب الله وسنة نبيه

---

(١) «ديوان طرفة» المُعَلَّقة.

ﷺ، الدافعة لكل فرد مسلم إلى بيع النفس والمال في سبيل الله، أي: في سبيل دعوة الحق، وفي سبيل الأمة الإسلامية، والإنسانية كلها»(١).

إن حالة سيئة جدًّا تشاهد في البلاد الإسلامية لدى طلاب الكليات – وهم العنصر الهام في بناء الأمة – ولدى العلماء، والمثقفين، والمفكرين، كل هؤلاء لا تجد لديهم حرارة الاندفاع في سبيل إنقاذ الأمة، وفي سبيل إصلاحها ولا تجد لديهم طمأنينة الواثق بعمله المؤمن، بأن جهاد العامل المخلص، لا بد وأن يلقى نصيبه من النجاح، وأن من المستحيل جمع كلمة المسلمين، ومن العسير القيام بأي عمل مجد.

هذا الطابع الذي طبع عليه المسلمون اليوم، قلة الاهتمام بشأن الأمة، وضعف الثقة، والعزوف عن القيام بالواجب الأكبر والجهاد في سبيله، والاحتجاج بأن المسؤولية تقع على العلماء والأمراء، هذا الطابع وهذه المعاني هي أخطر ما يهدد الأمة الإسلامية.

اليأس القتَّال والخَوَر المميت والثقة المفقودة، كل هذه هي العدو الحقيقي، والعقبة الكبرى التي تواجه المسلمين، أما العدو الخارجي الصهيونية، والصليبية، والدعوات الملحدة، فكلها أمرها يهون إذا استطعنا أن نغير ما بأنفسنا لنقر فيها معاني الإيمان، واليقين، والصبر والجلد، والثقة، والعمل.

إن أكبر الأخطار التي تواجه المسلمين اليوم، كامنة في النقص في تربية أفرادهم، والضعف الذي أصيب به أبناؤهم.

* وأكبر المصائب أن يصاب الفرد في نفسه، ذلك أن معالجة أي خطر

---

(١) «المسؤولية» للدكتور محمد أمين المصري (ص٨٣).

ممكنة ميسرة حينما تكون تربية الأفراد تربية قوية تستطيع أن تجابه المصاعب وتصمد للشدائد.. بيَّنَ الله تباركت أسماؤه بشأن يهود بني النضير حين غلبهم المسلمون أنهم لم يؤتوا في نقص في ذخيرتهم أو عددهم أو منعة حصونهم، ولكنهم أصيبوا من قبل أنفسهم إذ قذف الله في قلوبهم الرعب، فكان ذلك أكبر المصائب وكان العامل في تسليم ديارهم وتخريب بيوتهم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر].

* وقد أتي المسلمون اليوم من قبل أنفسهم، وقذف الوهن في قلوبهم، والله تباركت أسماؤه يناديهم من علياء سمائه نداءه الأزلي، يقول لهم: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران].

□ قال أحد الباحثين المحدثين: «إن الأسباب الحقيقية لكل انحطاط، داخلية لا خارجية، وليس علينا أن نلوم العواصف حين تحطم شجرة نخرة في أصولها، إنما اللوم على الشجرة النخرة نفسها».

* والقرآن الكريم، يهدي إلى هذه السنة، ويبين للناس بأن ما يقع على الأمم من ظلم واضطهاد مرجعه إلى الناس أنفسهم وما كسبت أيديهم، ولذا نجد التعبير بظلم النفس يتكرر في مواطن كثيرة في القرآن الكريم. يقول تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝١١٨﴾ [النحل].

تحديد المسؤولية:

إذا أجرينا استفتاء في أي مجتمع من المجتمعات الإسلامية، طارحين

السؤال السابق. لوجدنا أن تسعة وتسعين في المئة من أفراد المجتمع يقولون: إنا لا نحمل أي تبعة، ولا يصح أن يوجه إلينا أي لوم. ذلك أنه ليس بيدنا أية سلطة وليس لنا توجيه الأمة، وإن قلنا فلا يسمع لقولنا، ولذلك فنحن أبرياء من كل تبعة فدعونا أيها اللائمون ووجهوا سهام نقدكم إلى فريقين من الناس العلماء والأمراء.

وليس من شك في أن هذا القول نصيبًا كبيرًا من الحق، ولكن ليس الحق كله، كيف لا يكون في هذا القول نصيب من الحق؟! وقد أوجب الله في كتابه إيجابًا طاعة أولي الأمر. وهل تكون الطاعة إلَّا لمن يحمل أمر الأمة ويكون مسؤولًا عنها؟! قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

• وطاعة أولي الأمر واجبة ما أطاعوا الله ورسوله لا يختلف فيها اثنان ولا ينتطح فيها قرنان فقد قال ﷺ: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»(١).

وقد أمر جلَّ شأنه الرعاة والولاة بأداء الأمانات إلى أهلها، وأكبر مهام الولاة ونهاية ألمعيتهم وبعد نظرهم هو في اختيار الأكفَّاء.

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة**»، قيل: يا رسول الله وما إضاعتها؟ قال: «**إذا وُسِّد الأمر إلى غير**

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، والحاكم في «المستدرك» عن عمران والحكم بن عمرو الغفاري، وكذا رواه الطيالسي، والطبراني في «المعجم الكبير»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٩)، و«تخريج المشكاة» (٣٦٩٦)،و«صحيح الجامع» (٧٥٢٠).

أهله فانتظر الساعة»[١].

وهذه الرواية جعلت ضياع الأمانة مساوية لتوسيد الأمر إلى غير أهله، وجعل ذلك كله مساويًا لخراب الكون وقيام الساعة، وهذه نظرة لا تخرج إلَّا من معدن النبوة، فليس صلاح الحال إلَّا بتولية الصالحين، وليس فساده إلَّا بتولية المفسدين. وليس انتقاء الصالح أمرًا يسيرًا ذلك أن الصالح الذي يجمع بين الخبرة التامة والمعرفة الكاملة والإخلاص ونزاهة اليد، نادر أشد الندرة. ولقد أتعب هذا الانتقاء الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان يقول: «إني لأتحرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه».

ليس من المغالاة أن يقال: إن سر عبقرية المسؤولين، معرفة الأشخاص، وحسن انتقائهم، والأمة التي مهرت في هذا في العصر الحاضر هي الأمة الإنكليزية، والمثل السائر عندهم «خير إنسان في خير مكان».

ومن المؤسف أن أغلب الأمة تعتقد بأنه ليس على الأفراد تبعة، حتى الذين يعتبرون في قمة الثقافة وذروة التوجيه، وقد يكون فيهم الأدباء والكتاب والمفكرون والمربون.

أفحق أن هؤلاء وأمثالهم لا يجب أن يحملوا تبعة، ولا يسوغ أن يوجه إليهم لوم؟ أحق أن أمثال هؤلاء ليس لهم أي دخل؟

والصحف ووسائل الإعلام والدعاة، كل هؤلاء مسئولون في البلاد الإسلامية عن توعية الشعوب توعية صحيحة، وإيقاظ وجدانها وإيقافها

(١) رواه البخاري، وقد سبق تخريجه.

على الأخطار التي تحدق بها، وهذه الوسائل اليوم توجه الأمم، وتلعب بالعقول ويسيطر عليها اليهود في كبريات دول العالم، ومن المؤسف أن ما يتناوله الكتاب في البلاد الإسلامية، وما تذيعه دور الإذاعة، لا يتناسب والنكبات التي تعانيها البلاد.

* ولعل من الخير أن نأتي على طرف يسير من مكانة القيادة في الأمة وفي حياة الأمة، وحسبنا ما قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾

[النحل: ١٢٠].

□ قال ابن كثير: «قال مجاهد: «أمة» أي أمة وحده، فحياته حياة أمة وموته موت أمة. والأمة في الآية بمعنى الجماعة، وقال ﷺ في زيد بن عمرو بن نفيل: «**يبعث أمة وحده؛ لأنه لم يشرك في دينه غيره**».

وليس ينكر منكر مكانة القيادة في توجيه الأمة. وليس يجحد أحد أن القيادة تستطيع أن تغير صفحة التاريخ، والمثل الأعلى للقيادة محمد ﷺ، فقد نقل الأمة العربية من جاهليتها إلى حضارة لا تجارى، ونقل العالم من جاهليته إلى حضارة إنسانية سامقة.

ومن أمثلة القيادة الرائعة، قيادة صلاح الدين الذي طرد الصليبيين من بيت المقدس. ومن أمثلة القيادة الخالدة، قيادة ابن تيمية عليه رحمة الله ولم يكن ذا سلطان ولا ملك، ولقد تألب عليه أعداؤه وحساده، ومات عليه رحمة الله في سجنه وخلف من بعده رجالًا يناضلون عن الحق وينافحون في سبيل العقيدة والدين الخالص.

وليس يستطيع أن ينكر منكر أن جماعة من الجماعات مهما كان لونها لا تستطيع أن تسير دون توجيه القيادة. والقيادة الرشيدة هي التي تسخر

جميع طاقاتها وكل قواها في سبيل حماية الجماعة ومنعتها وقوتها، وتقاس كفاءة القيادة بمقدار نجاحها في تنظيم الجماعة، وتجنيد كل فرد من أفرادها للإسهام في خدمة أهداف الجماعة ولا يتم ذلك إلَّا بمعرفة دقيقة بالأفراد ووزن صحيح لمواهبهم في الحياة والمجالات التي يستطيعون النجاح فيها، واتصال حسن بهم، وفهم عميق لنفوسهم منبعث عن روح اجتماعية قادرة على النفوذ والتأثير. ونتيجة ذلك كله توسيد الأمور إلى أهلها وإلى خير من يقوم بها، وحصيلة ذلك أن تسير الجماعة سيرًا مطردًا، وقد رضي كل فرد بمكانه وعمله، فبذل أحسن جهد، وأعطى خير انتاج. وهكذا تقاس كفاءة القيادة بما تحدثه من تغيير في إنتاج الجماعة، ومفتاح عبقرية القيادة معرفتها بالرجال.

عزل عمر خالدًا، وولى مكانه أبا عبيدة، فظل خالد يعمل تحت لواء أبي عبيدة وإمرته، وانتهز خالد فرصة، ففتح قنسرين وكان فتحها إحدى معجزاته الحربية. وكانت كلمة عمر التي قرظه بها «أَمَّرَ خالد نفسه رحم الله أبا بكر كان أعلم مني بالرجال»، إنها كلمة خالدة سجلت عبقريات ثلاث، عبقرية خالد، وعبقرية أبي بكر، وعبقرية عمر يجر أذياله وراء أبي بكر ويتابع خطواته رضي الله عنهم.

وليس ينكر منكر، أن القيادة تقدم للناس نماذج قوية، وأمثلة رائعة يحتذيها الناس وسيرون وراءها، ومن عادة الإنسان أن يتعشق القوة، ويرهب البطولة وتأخذ المعاني الرائعة بمجامع قلبه وتسري إلى فؤاده، فتوقظ مشاعره وتفتح وجدانه، فتستبين له معاني الحق واضحة قوية، فيسهل عليه اتباعها.

ولولا رسول الله ﷺ، لما كان أصحابه الأقربون، ولولا هؤلاء لما كان من بعدهم.

ولكن السؤال الأول الذي يجب أن يطرح هو ما يلي:

أكان القائد يعمل وحده؟ وما سر نجاحه؟ وما مدى تأثير التجاوب بينه وبين إخوانه في نجاحه؟ وبتعبير آخر، ما مدى تأثير بيئته عليه وعلى نجاحه؟ وهل التأثير متبادل بين القائد وأتباعه وبيئته؟ «بمعنى أن القائد يؤثر ويتأثر فالتفاعل مشترك»؟

أليس في التاريخ عبقريات قد أطفئت؛ لأن البيئة لم تستطع أن تستجيب لها؟ أليس هنالك قيادات تضيع لسبقها على زمنها سبقًا شاسعًا؟ لِمَ لَمْ يؤمن مع نوح عليه السلام بعد أن دعا قومه قرابة ألف عام إلَّا قليل جدًّا؟ ألم يقيض الله للرسل أصحابًا وحواريين؟ ألم يقيض الله لمحمد ﷺ أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليًّا، والزبير، وطلحة، وسعدًا، وسعيدًا، وأبا عبيدة، وعبد الرحمن بن عوف، وخالدًا، والمهاجرين السابقين، وأصحاب البيعة الكبرى، وأصحاب بدر، والأوس، والخزرج رضي الله عنهم؟

□ قد يقال: إن محمدًا ﷺ قد نفخ في أصحابه روح البطولة. ذلك حق، وحق أيضًا أن استعدادهم كان يؤهلهم لذلك، ولم يكن للوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وهشام بن الحكم، وعقبة بن أبي معيط وأكابر مجرميها الذين قتلوا في بدر، وسحبوا إلى القليب، لم يكن لدى هؤلاء مثل ذلك الاستعداد.

□ إن الذين يلقون التبعة عن كواهلهم، ويحملون القيادة التبعة كلها، ينظرون إلى القضية من طرف واحد، ويحتجون بالدليل في أحد جوانبه وهم

يشبهون بمن يقول: إن الحب هو الذي ينبت الزرع، فيحسب السامع أن الحب قادر على إنبات الزرع وحده، والحق أن ذلك محال إذ لا بد من تربة، ولا بد للتربة من شروط، فإذا لم تكن التربة جيدة، كان النبات سقيمًا عليلًا. وعلى هذا فشأن التربة، ليس بأقل من شأن الحب الذي يلقى فيها، وكذا الحال في الجماعة ليس شأنها بأقل من شأن القيادة في نجاح الأمة.

□ استطاع الإسلام أن يحقق الانسجام التام بين الجماعة والقيادة، فالطاعة واجبة للقيادة، وامتثال أمرها والسير في دائرتها والإخلاص لها، كل ذلك فرض على الأفراد محتم عليهم المضي فيه، ولكن جانب الأفراد محترم أيضًا فليس عليهم إلَّا الطاعة في الحق، وهذه غاية العدل وأعلى درجات الإنصاف، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وهذا يشمل كل المعاني السامية والمثل الأخلاقية والعدالة التامة والتزام الجادة، فإذا انحرفت القيادة أو حادت أو خالفت فلا طاعة، ولا امتثال. إلى جانب كل هذا واجب الأفراد، النصح للقيادة وتبصيرها بالحق وتحذيرها من اتجاه يبعد عن هدى أو يؤدي إلى ردى.

□ كل هذا مغزاه ومؤداه إلى أن الأفراد في المجتمع الإسلامي ليسوا آلات ولا أدوات. ولكنهم جانب أساسي يعمل إلى جانب القيادة بصدق وإخلاص ونصح، يراقب أعمال القيادة ويمحضها النصح فهو جانب واعٍ يقظ، ليست مسؤوليته وأعباؤه بأقل من مسؤولية القيادة وأعبائها؛ وهذه قولة عمر رضي الله عنه: «لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها».

□ وكل هذا مؤداه إلى خطأ الفكرة التي شاعت في المجتمعات الإسلامية، تلك الفكرة التي أدت إلى تقاعس الأفراد عن الاهتمام بشأن

الأمة، وزهدهم في التفكير فيما أصابها، وإعراضهم عن التدخل في شؤونها التدخل البصير الواعي الحكيم.

وهي الفكرة التي يخشى خطرها، وقد نشأت بعد الخلافة الراشدة في العصور التي بدأ فيها الانحراف عن معاني القرآن.

وقد غدت – بكل أسف- هذه الفكرة فكرة الجماهير في المجتمعات الإسلامية. هي فكرة انسحابية انعزالية، تنافي روح الإسلام وطبيعته، تلك الروح التي ترمي إلى تنمية ذاتية الفرد، ودفعها إلى أقصى درجات نمائها وقوتها في سبيل الخير والمعاني المثالية وصالح الجماعة.

وأدى ذلك على أن أصبح أفراد المجتمع دون المستوى الذي يطلبه الإسلام من وعي وانتباه، ووجد الدخلاء ثغرة واسعة للدس والإفساد وبث أحابيل المكر ونشر مصائد الكيد في جماعة غافلة نائمة.

إن الواقع المؤلم المرير أن الجماعات المعادية تجد مرتعًا خصبًا في البلاد الإسلامية، مرتعًا ليس هنالك من يحميه فلا يكفها عن كيدها زاجر، ولا يردعها رادع، ولا يحول بينها وبين شرورها عيون يقظة أو عقول ساهرة، ولكنها تتجمع كما تتجمع الجراثيم الفتاكة، وتنتظم وتعمل، وأفراد الأمة مشتتون، موزعون، غافلون، ولو انتبهوا انتباهة واحدة؛ لرأوا أما يشده العقول من مكر العدو وجرأته ومخططاته.

لقد غفلنا عن العدو، ثم فتحنا أعيننا في نوم، فإذا العدو جاثم على صدورنا متمكن من رقابنا، إن القيادة لا تستطيع أن ترعى كل صغيرة وكبيرة، إلَّا إذا كان كل فرد في رعيتها مجندًا واعيًا متيقظًا، يرى أنه على ثغرة يجب أن يحميها، يرصد العدو ويرقب حركاته، فإذا رآه اقترب أو

حاول التسلل. كانت صيحة الإنذار، وصرخة الخطر، والنداء للضرب على يد العدو وسحقه.

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **«من خير معاش الناس لهم رجل يمسك بعنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة، طار على متنه يبتغي القتل أو الموت في مظانه»**.

✍ أنت على ثغرة فلا يؤتين الإسلام من قبلك. هذه المعاني توحي بيقظة الأفراد في الجماعة الإسلامية، وحرصهم على حماية الجماعة، وتوحي بفشل أولئك النائمين الغافلين وتخاذلهم، وإن المرء ليتساءل: أيعتبر هؤلاء من أفراد الجماعة؟

كل فرد له حق الحماية والرعاية، وكل فرد مسؤول عن دائرته ومنطقته، وبذلك يشارك الأفراد جميعًا في بناء الجماعة وحمايتها وتوجيه دفتها.

فمن المسؤول إذن؟

• قال رسول الله ﷺ: **«كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولةٌ عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»**.

□ إنَّ أصل الإسلام قائم على حمل مسؤولية، وأداء أمان، والقيام بواجب؛ ذلك أن الأصل الأول الذي يقوم عليه الإسلام ولا يخرج عن حكم من أحكامه ولا فرع من فروعه، ولا تخرج عنه حركة من حركات المؤمن ولا سكنة من سكناته، هو توحيد الله جل شأنه في ألوهيته، وفي

ربوبيته، وفي صفاته؛ فهو وحده المستحق للعبادة، وهو وحده الخالق الرازق مالك الملك، بيده الأمر، وهو وحده المتصرف القاهر، وهو المستعان وحده والمستغاث به وحده.

ويتبع هذا كله أن يكون الإنسان عبدًا لله خاضعًا لأوامره؛ محياه لله ومماته لله ونسكه لله، ومثل هذا المؤمن في هذا المستوى ليس إنسانًا يعيش لطعامه وشرابه وملذاته، ولكنه يعيش لربه وخالقه، قد باع نفسه وقدم ماله لخالقه جل شأنه، ومثل هذا يعيش لله ويجاهد في سبيله.

وليس هذا المؤمن من النوع الذي لا يحمل همًّا لأمته، ولا يعاني نصبًا ولا وصبًا في سبيل جماعته، ولكنه النوع الذي يحمل رسالة ويؤدي أمانة، تلك الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان.

المؤمن يحمل رسالة ويؤدي أمانة، والذي يحمل رسالة يحمل بصيرة ويحمل إرادة، ولا يكون آلة مشلولة[(١)].

لفتة دقيقة جميلة من آية كريمة:

* قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

وفي الآية الكريمة لفتة دقيقة، فهي تجعل خلافة المؤمنين هذه في الأرض خلافة عامة تشمل المؤمنين جميعًا فالوعد للذين آمنوا جميعًا لكل من صدق عليه وصف الإيمان، والاستخلاف في الأرض لهم جميعًا، وفي

(١) «المسؤولية» (ص٨٩- ٩٠).

هذا المعنى إشارة واضحة إلى أمرين اثنين:

أولهما: أن هذه الخلافة لا يستبد بها فرد من المؤمنين، بل هي مشتركة بينهم جميعًا، فكل مؤمن خليفة من عند الله، وكل واحد مسؤول أمام ربه عن هذه الخلافة كما جاء في الحديث: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**»، فليس أحد منهم في هذا الشأن وفي جميع الشؤون الاجتماعية، بأحط منزلة من الآخرين.

• قال ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، ألا لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهدٍ في عهده**».

• وفي لفظٍ آخر: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمَّتهم أدناهم، ويُجير عليهم أقصاهم، وهم يدٌ عَلَى مَن سِوَاهم، يردُّ مُشِدُّهُم على مُضعَفِهِم، ومُسْرِعُهُم على قاعدهم، لا يُقتل مؤمن بكافرٍ، ولا ذو عَهْدٍ في عَهْدِه**»[1].

الثاني: أن المسلمون في هذه الخلافة جماعة واحدة ويد واحدة وجسم واحد؛ وليس معنى إنتقاء واحد من المسلمين ليقوم بشؤون المسلمين أن الآخرين أصبحوا في حل من الاهتمام بشؤون الأمة وضاعت مسؤوليتهم، بل الجميع مسئولون على سبيل التعاون والتآزر والتكامل والتكافل[2].

(١) حسن: رواه أبو داود، وابن ماجه عن ابن عمرو، وحسَّنه الألباني في «إرواء الغليل» (٢٢٠٨)، و«صحيح الجامع» (٦٧١٢).

(٢) «المسؤولية» (ص١٥٠- ١٥١).

إن تربية الإسلام هي تربية تنمية روح المسؤولية:

وللقيادة مكانتها وحبها واحترامها، لكن الإسلام أوجد الانسجام الكامل بين طاعة القيادة واحترامها وامتثال أمرها ما دامت تمثل الفكرة الإسلامية تمثيلًا صحيحًا، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وبين تنمية روح المسؤولية في الأفراد وروح حمل التبعة.

إنها الطاعة الواعية التي لا يذوب فيها الأفراد في القيادة، وجهاد في سبيل العقيدة.

من عُلُوِّ الهمَّة في تحمُّلِ المسؤولية أن لا نُدافِعَ عن ذواتنا بشكل حيلٍ لا شُعُوريَّة:

إننا حين نتحدث عن المجتمع الإسلامي، وحين نبدأ بالشعور بالألم نجد المعاذير قد تبدت وألوانها من الحجج الواهية قد برزت مسوغة ما نحن فيه من تقصير، معلنة أن الأمر لا دفع له، وأنه ليس بيدنا حول ولا طول. ذلك أن ما هو واقع من فعل القدر، ومن يستطيع رد القدر؟!

• وهذا الواقع قد أخبرت به الروايات الصادقة عن رسول الله ﷺ، فهو إذن لا بد من وقوعه، وأي محاولة لدفعه محاولة تؤدي إلى الإخفاق، فقد روى مسلم في «صحيحه» في كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها»**[1].

وهناك أعذار ترجع الأمر إلى الماضي وإلى التاريخ فما نحن فيه إنما هو

---

(١) رواه مسلم (٢/ ١٧٧)، ويأرز: أي ينضم ويجتمع. وبين المسجدين، أي: مسجدي مكة والمدينة.

ثمرة الأيام الماضية ونتيجتها، وليس لنا فيه صنع، ولا دخل لنا به. وهناك أعذار أخرى ترجع الأمور إلى تضافر الناس جميعًا في الشرق والغرب على حرب المسلمين والكيد لهم واستعمار بلادهم واستعباد أفرادهم، وإلَّا لكان المسلمون بنعمة وعافية.

وهنالك أعذار وأعذار..

هذا الدفاع عن أنفسنا، وهذه الأعذار كلها مغالطات نفسية وحيل لا شعورية، ذلك أنها تريد أن تبرئنا من كل خطأ، وتزيح عن كواهلنا الاعتراف بالتقصير.

إن المشكلة ها هنا أكبر بكثير، والاستعداد لها أضأل بكثير، وهنا كانت الطامة، صعاب من أكبر الصعاب ومشكلات من أعظم المشكلات، وفتن تحار بها العقول، وأنواع من المكر تشيب لها الولدان، كل ذلك يقابل بنفوس ضعيفة وعزائم مسترخية وهمم مستخذية.

الاعتذار بالقدر:

إن المسلمين الذين أخفقوا في ميادين الحياة.

وجولات البطولة، وينحون باللائمة على القدر وعلى الأيام وعلى الآباء والأجداد وعلى كيد الكائدين من الأعداء، ولا يخطر في بال أحدهم أن يعود على نفسه بِذَرَّة من اللوم ويسير من العتاب يبصره بخطئه، ويضع يده على تقصيره آثمون إن الاعتذار بالقدر حيلة شيطانية وخديعة من الإنسان لنفسه.

* فالذي يرتكب معصية، ويلوم القدر كذاب أشر. هكذا جاء في الآية القرآنية: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا

حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

* فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام].

وهكذا شأن من قصر في أداء واجب واتهم القدر، كاذب في دعواه.

إن تقصيره أمر واقع محسوس ملموس، وتقصيره مرده إليه، فكيف يدع الاعتراف بتقصيره الذي يدركه ويحسه ويفر إلى القدر، وهو أمر مغيب مجهول ليس إليه تدبيره وليس له به علم.

ولقد دفع أصحاب رسول الله ﷺ القدر بالقدر، دفعوا الكفر والفسوق بالجهاد والاستبسال والموت، وغيروا وجه الدنيا وأطفئوا عبادة الأوثان بالإيمان الصادق.

أما في مجتمعنا الإسلامي - فمع الأسف الشديد حين يتحدث المتحدثون عن واقع المسلمين وما يلاقونه في شتى ديارهم، ومختلف أصقاعهم من ظلم وعسف وبغي واضطهاد، وحين يشعر فريق من المسلمين بوخز يسير في ضمائرهم وألم طفيف في مشاعرهم، ينبري هؤلاء أنفسهم يدفعون عنهم ما يجدون، فيسوغون لأنفسهم ما هم فيه من قعود ونكوص بألوان من المعاذير وأصناف من الحجج الواهية: فالزمن قد أدرك نهايته والفتن كقطع الليل.

وبمثل هذه الحجج التي يقدمها الشيطان وتسولها النفوس المريضة، سبعمئة مليون مسلم في العالم الإسلامي يسومون سوء الخسف ويتلظون بنار الهوان، وينطلقون جميعًا بدعوى واحدة، دعوى الضعف والموت

المعنوي، وبهذا الفهم السقيم الهزيل وبهذه الروح الضعيفة الخائرة يعطل المسلمون معاني الإسلام القوية ويصمون آذانهم عن نداءاته التي تتصدع لها الجبال، ويعرضون عن رفع رايته والاستظلال بعظمته.

* كثير منا اليوم -أعني: المسلمين- يتصفون بصفات بعيدة عن صفات المؤمنين حقًّا وهم يرون أنهم أحسن الناس إيمانًا. ألسنا نعتذر بمعاذير شبيهة بالمعاذير التي كان يقدمها المنافقون حين قالوا: ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١]، فقال لهم الله -تباركت أسماؤه-: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾ [التوبة].

* وقال تعالى حاكيًا طريقتهم في الاعتذار فاضحًا نواياهم كاشفًا عن نفوسهم الخاسرة وقلوبهم المريضة، قال تعالى على لسانهم: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣)﴾ [الأحزاب].

* ونحن اليوم نقول -وإني لفي طليعة هؤلاء القائلين-: لا نستطيع أن نعمل في سبيل الله، ولا نستطيع أن نجاهد في سبيله، نخشى أن نتخطف من الأرض، ونخشى أن يموت أولادنا وأهلونا جوعًا. والحق أنا ما نريد إلَّا فرارًا. وقد نسينا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾ [الحجرات].

* نسينا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)﴾ [الأنفال]. يتوكلون على ربهم فلا يخشون موتًا ولا يخشون فقرًا.

وقد حكى الله تبارك أسماؤه قولة المنافقين في غزوة أحد حين رجعوا

عن القتال فجرى وراءهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر بن عبدالله فقال: يا قوم، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم وبينكم. فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبو إلَّا الانصراف قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه.

* قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالًا لاتبعناكم، ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال، ولكنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة.

* وقال تعالى في شأنهم: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

* وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. وقد بينوا حالهم وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم.

* إن معاذير المسلمين اليوم ليست معاذير صادقة، ليست تلك المعاذير التي يصدق عليها قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]. ولكنها يصدق عليها قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة].

* ومن المعاذير التي يقدمها المسلمون وفيها ضلال عن دين الله، وانحراف عن كتاب الله؛ الاعتذار بالقدر، وأن ما واقع بالمسلمين أمر الله وقضاؤه ولا راد لأمره ولا دافع لقضائه. ولست أنسى مسلمًا من المسلمين

كان خطيبًا في قرية من قرى الشام مدعيًا محبة العلم وأهل العلم، كنت أكلمه فيما أصاب المسلمين فأراد نصحي ودعوتي إلى الخير فتلا علي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ثم تلا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]. فهو يرى كمال الإيمان في التسليم والرضا والإذعان، وإن طغى الكفر وعم الفسوق، وكدت أتميز من الغيظ للذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ولكني تصنعت الأناة وتكلفت الحلم، وحاولت أن أخرجه مما هو فيه من ضلال وزيغ.. وقد اقتنع عقله بعد جهد جهيد بخطأ قوله واعتقاده.

كثير من المسلمين يحتجون بالقدر، ويتخذون من حجتهم هذه ذريعة للمضي في دنياهم وسعيهم من أجلها وتهالكهم عليها، وقعودهم عن نصرة دين الله.

□ قال الإمام شمس الدين بن القيم الدمشقي رحمه الله في كتابه «طريق الهجرتين» بعد أن سرد أحاديث القدر: «فالجواب أن ها هنا مقامين: مقام إيمان وهدى ونجاة، ومقام ضلال وردى وهلاك. فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة فمقام إثبات القدر والإيمان به، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها، وأن ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن،وإن شاء الناس».

الآثار كلها تحقق هذا المقام وتبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد، ولبس جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه. وهذا في كل

كتاب أنزله الله على رسله.

وأما المقام الثاني وهو مقام الضلال والردى والهلاك، فهو الاحتجاج به على الله، وحمل العبد ذنبه على ربه، وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمارة بالسوء.

□ وسمعته – يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية- يقول: «القدرية المذمومون في السُّنَّة، وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثة: نفاة القدر: وهم «القدرية المجوسية»، والمعارضون به للشريعة الذين قالوا: لو شاء الله ما أشركنا وهم «القدرية المشركة»، والمخاصمون به للرب سبحانه وهم أعداء الله وخصومه وهم «القدرية الإبليسية»، وشيخهم إبليس وهو أول من احتج على الله بالقدر، قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف]، ولم يعترف بالذنب ويبؤْ به كما اعترف به آدم، فمن أقر بالذنب وباء به ونزه ربه، فقد أشبه أباه آدم ومن أشبه أباه، فما ظلم ومن برأ نفسه واحتج على ربه بالقدر فقد أشبه إبليس.

وأما «القدرية الإبليسية والمشركية» فكثير منهم منسلخ عن الشرع عدو لله ورسله، لا يقر بأمر ولا نهي وتلك وراثة عن شيوخه الذين قال الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ..﴾ [الأنعام: ١٤٨].

* وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ

هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يس].

فهذه أربعة مواضع في القرآن الكريم بيَّن سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل».

تحريف معاني الأحاديث الصحيحة لتسويغ قبول الواقع:

• كذلك احتج كثير من المسلمين بالأحاديث التي جاءت في كتب الفتن وقد أساءوا فهمها، وعكسوا الغرض منها. ولكم سمعنا من خاصة المسلمين وعامتهم أن رسول الله ﷺ قد قال: «**لا يأتي عليكم زمان إلَّا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**»(١).

□ قال الشيخ الألباني في شرح هذا الحديث: «إنه من العام المخصوص؛ فعندما نفهمه في ضوء الأحاديث الأخرى التي تبيِّن وجود الخلافة الراشدة بعد المُلْك الغضوض وغيرها، نعرف أنه من العام المخصوص».

وهؤلاء المتخاذلون جميعًا يستخلصون من قول رسول الله ﷺ أن الأمر ميئوس منه، فأي فائدة في الدعاء وأي ثمرة من النداء؟

وهكذا تنحدر النفوس الضعيفة بالمعاني السامية فتنزلها إلى مستواها المتدني، وهكذا تفهم هذه النفوس تحذير رسول الله ﷺ من الفتن وتخويفه منها على أنها دعوة لتيئيس الناس من العمل ومن الجهاد، وتعطيل لآيات

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن – باب لا يأتي زمان إلَّا الذي بعده شرٌّ منه رقم (٦٨٠٧).

الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كيف يمكن مع فهم هؤلاء أن تستجيب لقول الله تعالى: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [النساء].

* وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [النساء].

* وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [آل عمران].

وأن الله تباركت أسماؤه قد أخبرنا بأن الشدائد تصيب المسلمين، ويدال عليهم ويغلبون ليتبين المؤمنون، ويتقدم المجاهدون. ولو أن المسلمين أخذوا برأي هؤلاء اليائسين الميئسين لاستسلموا للتتار، ولغارات الصليبيين أبد الدهر، ولما وجد من يحمل الراية في الأيام العصيبة، ويقدم نفسه وماله في ساعات الشدة.

• أيعقل أن يكون الغرض من حديث رسول الله ﷺ وهو يحذر أصحابه الفتن وهو سيد المرسلين وقائد الأبطال الميامين وهو الذي قدم أعلى مثل لحياة المجاهد الذي لا يفتر ولا يكل ولا يغفل طرفة عين. الذي يقول: «**والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار**»(١).

أيعقل أن يكون كلامه دعوة لليأس واستسلامًا للقنوط؟! لا، وإيم

(١) وقد أخرج هذه القصة مختصرًا الطبراني في «الأوسط» و«الكبير».

الحق، ولكنها وسوسة إبليس وحيلة ضعيفة من نفوس خائرة هزيلة.

ليس كلام رسول الله ﷺ بهذه المنزلة التي وضعوه فيها، ولكنه أجل وأرفع. وما غرض رسول الله ﷺ إلَّا التنبيه للفتن، حتى إذا أدرك المسلم زمانها، أخذ حذره وأعد لها عدته، وعاش عيشة اليقظ المتحفز، يخشى أشد الخشية أن تأخذه الفتن في مسيرتها أو أن تطويه في ثناياها.

ولقد ملكت الفتن كثيرًا من المسلمين، وطوت كثيرين، لم تدع بيتًا إلَّا دخلته ولا مسلمًا إلَّا سخرته، وطغت في بلاد المسلمين وطمت وعمت، والمسلمون غافلون، وكثير منهم يحسب أنه في منجاة من تلك الفتن التي ذكرها رسول الله ﷺ.

* ومن عجب أن يقلب المسلمون معاني كتابهم ومعاني سنة نبيهم لتصبح معاني رخيصة ويصبح الغرض منها الرضا بالواقع الأليم، ولقد صدر البخاري كتاب الفتن في «صحيحه» بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال: ٢٥].

والفتنة في الأصل: إدخال الذهب في النار لتظهر جودته. ومن هنا كانت الفتنة بمعنى الاختبار، وتطلق على العذاب، قال في «القاموس»: «والفتنة»: الضلال والإثم والكفر والفضيحة والعذاب والإضلال والجنون والمحنة والمال والأولاد واختلاف الناس في الآراء»، وعلى هذا فالسكوت على المنكر وتفرق الكلمة، والقعود عن الجهاد، وتقليد اليهود والنصارى، كل هذا من الفتن، وقوله تعالى: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾. أي: إن أصابتكم فلا تقتصر إصابتها على الذين ظلموا وحدهم، بل تشملهم وغيرهم، وتعم الجميع بسبب شؤم الصحبة،

وتعدي الرذيلة كقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

فالآية الكريمة تحذير للمؤمنين من وقوع الفتنة في المجتمعات الإسلامية، وبيان لطبيعة الفتنة ومبلغ شرها، فهي تبدأ في عدد يسير من الأفراد، ثم لا تلبث أن يستفحل أمرها ويطغى شرها، فإذا انتهت إلى هذا الحد خرجت من أيدي المصلحين، ولم يعد بالإمكان كف شرها أو كبح جماحها، وهذا هو المشاهد الملموس اليوم في البلاد الإسلامية في فتنة المدينة الغربية، وواجب المسلمين الوقوف أمام الفتنة وقطع دابرها من يومها الأول، هذه تعاليم القرآن وهدي محمد ﷺ وقد جاءت الأحاديث محذرة أولئك الذين ينساقون في تيار الفتنة.

• فعن أسماء بنت الصديق رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**أنا على حوضي أنتظر من يرد علي، فيؤخذ بناس من دوني** –أي: يؤخذون من عند رسول الله عليه صلوات الله– **فأقول: أمتي! فيقول: لا تدري مشوا القهقرى**»[1].

□ قال ابن أبي مليكة أحد الرواة من التابعين: «اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن»، فهل يفهم من الحديث إلَّا التحذير من الوقوع في الفتنة، وأعظم الفتن اليوم فتنة المدنية الغربية في فلسفتها وآرائها الزائفة وعبادتها للمادة وافتتانها بالمال والنساء، ولهوها ولغوها وغنائها وفجورها.

• والرواية الثانية يرويها البخاري عن مغيرة عن أبي وائل، قال: قال عبد الله، قال النبي ﷺ: «**أنا فرطكم على الحرض** – الفرط: المتقدم إلى

(١) رواه البخاري.

الحوض ليهيئه لأصحابه- **ليرفعن إلى رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني** –أي: سلبوا من عندي- **فأقول: أي رب أصحابي يقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك**»(١).

✍ وجاءت الأحاديث تبين ما على المؤمن أن يفعل في أيام الفتن:

• عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات، مات ميتة جاهلية**»(٢).

وفي الحديث الأمر بالصبر وليس المراد من الصبر السكوت على المنكر، يعرض ذلك الأحاديث الواردة في التحذير الشديد من السكوت على المنكر، كما يعارضه الحرص على الجماعة، فهل يستقيم أمر الجماعة إذا عم المنكر؟ ولكن الحديث فيه هدى إلى لزوم الجماعة، والصبر على الدعوة إلى الحق وعدم السكوت عن المنكر وعلى النصح لأئمة المسلمين وعامتهم.

• وروى البخاري في «صحيحه» عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج فقال: «**اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمان إلَّا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**» سمعته من نبيكم ﷺ.

وقد أرشدنا الحديث إلى الصبر على التزام الأوامر واجتناب النواهي مهما اشتدت الأمور واحلولك الظلام.

• وروى الحاكم في «مستدركه» عن ابن عباس رضي الله عنهما، والطبراني عن أم

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

مالك اليهزية: «**خير الناس في الفتن رجل آخذ بعنان فرسه خلف أعداء الله يخيفهم ويخفونه، ورجل معتزل في بادية يؤدي حق الله الذي عليه**»[(١)].

□ قال النووي: «في الحديث بيان فضل العزلة في أيام الفتن، إلَّا أن يكون له قوة على إزالة الفتن فيلزمه السعي في إزالتها عينًا وكفاية.

والحديث واضح بيِّن يهدي إلى العلاج الناجح، ويرشد إلى أنه ليس هنالك إلَّا سبيلان لا ثالث لهما: إما اعتزال الفتنة اعتزالًا تامًّا بحيث لا يمسه أثرها ولا يصل إليه رشاشها، وإما الخوض مع أعداء الله حاملي لواء الفتنة يخيفهم ويخيفونه ويجاهدهم لإطفاء نارها، وإخفاء معالمها. أما أنصاف الحلول بأن نعيش في رحاب الفتنة، ونفتح لها صدورنا ومنازلنا فتصيب أبناءنا وأهلينا وتجتاح ديارنا، ثم نبكي بدموع كاذبة، فليس ذلك مما وصفه رسول الله ﷺ وأرشدنا إليه، ولكنه أرشد إلى أمرين لا ثالث لهما، إما أنك ضعيف لا تستطيع مصاولة أعداء الله دعاة الفتن فلا مقام لك بينهم، ولا مستقر لك في أرضهم، ولكنك تجافيهم في بادية بعيدة، وتتجنبهم وتقاطعهم. وإما الثانية: المصاولة والمقارعة. والثانية، خير وأحب إلى الله، ولسنا اليوم في الأولى ولا الثانية، ولكنا منغمسون في الفتنة ساكتون عليها متأولون لكلام رسول الله ﷺ»[(٢)].

الاحتجاج بالأحاديث الموضوعة للتهرب من المسؤولية:

• روى الترمذي في «جامعه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كانت أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأموركم**

---

(١) قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي.

(٢) «المسؤولية» (ص٥٩ – ٧٤) وزيادة قول الشيخ الألباني في معنى الحديث.

شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كانت أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».

وإني لأعلم أن مثل هذا الحديث يروق كثيرًا من المسلمين، ويصيبهم شيء من الخشوع لدى سماعه، ذلك أن معانيه في رأي كثيرين تنطبق على حال أكثر المسلمين في أكثر البلاد الإسلامية اليوم، والحديث يقول: «**فبطن الأرض خير لكم من ظهرها**».

□ والشارح المناوي يقول: فلا حرج في تمني الموت حينئذ. ويبين الشارح سبب ورود الحديث فيقول: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مت فظهر الأرض خير لكم أم بطنها؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم.. فذكره.

□ ولعلي أفجع كثيرين حين أقول: إن الحديث غير صحيح، وإن المعاني التي تضمنها من تمني الموت يجب أن تنتزع من قلوب المسلمين انتزاعًا. أما كونه غير صحيح، فالترمذي راويه يقول: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلَّا من حديث صالح المري، وصالح في حديثه غرائب لا يتابع عليها وهو رجل صالح». يريد الترمذي أن هذا الحديث لم يروه إلَّا راوٍ واحد وهو صالح المري، وصالح المري له غرائب لا يتابعه الرواة عليها، أي: إنه يروي مرويات ليس في رواة الحديث من يقبلها ويؤيد صدق روايتها، وهذا طعن فيه ويسمى من هذا حاله: «منكر الحديث».

□ ومن الخير ألَّا نكتفي بقول الترمذي وحده بل نرجع إلى أقوال النقاد الآخرين لنطمئن إلى حال المري هذا: أما ابن حجر فيوجز القول بشأنه في «تقريب التهذيب» فيقول: «صالح بن بشير المري: القاص الزاهد، ضعيف».

□ وهكذا يتسامح ابن حجر ويكتفي بوصفه بالضعف. فإذا أردنا زيادة تفصيل ورجعنا إلى «ميزان الاعتدال» للذهبي نجده يقول: «ضعفه ابن معين والدارقطني، وقال الفلاس: منكر الحديث جدًّا، وقال النسائي: متروك، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال أحمد: هو صاحب قصص ولا يعرف الحديث».

□ وروى حاتم بن الليث عن عفان قال: «كنا نحضر مجلس صالح المري، فإذا أخذ في قصصه كأنه رجل مذعور يصرعك أمره من حزنه وكثرة بكائه كأنه ثكلى، كان شديد الخوف من الله».

فالحديث بإيجاز يتفرد بروايته قاص يعرف القصص، ولا يعرف الحديث. وشأن القصاصين أنهم يروون من الحديث ما لا سنام له وخطام، ينسبونه إلى رسول الله ﷺ.

لا يدعو الإسلام اتباعه إلى الموت، ولكنه يدعوهم إلى الحياة، وليس في معاني الإسلام معنى تمنى الموت، وإن اشتدت الفتن، وليس في الإسلام فقدان كل أمل، وضياع كل رجاء، ولكن روح الإسلام وروح الأمل، وروح الجهاد، وروح القوة المستمدة من عند الله، والثقة بنصره ولاطمئنان إلى عونه.

أين يقع تمني الموت من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾ [آل عمران]؟.

يخاطب بها المؤمنون في الماضي كما يخاطبون بها اليوم وإلى أبد الدهر ولفظة «الأعلون» فيها تشريف وتكريم ليس بعده تكريم، وصف بها الله جل شأنه أنبياءه، فقال لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨)﴾ [طه].

وبمثل هذا الخطاب خاطب الله جل شأنه هذه الأمة الإسلامية. فهل يتفق مع هذا تمني الموت القعود، والفرار من مقابلة العدو؟

• إن الذي يتمنى الموت على فراشه – ضعيف ذليل جبان- قد فقد كل أمل، وأضاع كل رجاء، ويئس من كل خير، وكل هذا يتنافى وصفات المؤمن ويتنافى وتعاليم الإسلام، فلقد قال ﷺ: «**لن يبرح هذا الدين قائمًا يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة**»(١).

• وقال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس**»(٢).

• وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة**»(٣).

• وقال ﷺ: «**لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك**»(٤).

وكل هذه الروايات في «صحيح مسلم».

• نعم صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه دعا فقال: «**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرًا لي**»(٥). وأين هذا من تمني الموت، ولكنه دعاء يوحي بعدم

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه النسائي والحاكم وأحمد عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

الحرص على الحياة، ولا يعطي الروح السلبية التي يعطيها تمني الموت، والمرء مستضعف مستذل. وتمني أصحاب رسول الله ﷺ الموت فعاتبهم جل شأنه لا على تمني الموت؛ ولكن على جبن أصاب بعضهم حين رأوا الموت، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [آل عمران].

فالذي تمناه أصحاب رسول الله الموت والشهادة في سبيل الله، وهذا هو المعنى الذي يجب أن يشيع بين المسلمين ويملأ قلوبهم وتلهج به ألسنتهم.

وكيف يتمنى المؤمنون الموت بعد رسول الله ﷺ؟! وقد أمروا أن يحملوا رسالته، ويبلغوا دعوته، ويقتفوا أثره، ويثبتوا على طريقه، وقد أخبرهم عليه صلوات الله بأن الأمر سيتم، وبأن قصور كسرى وقيصر ستفتح عليهم، وبأنهم يستخلفون في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم.

أيتناسب هذا الدافع وهذا الانطلاق في حمل أعباء الدعوة والموت في سبيلها، مع تمني الموت؟!. إن حمل الرسالة، وتبليغ الدعوة واجب المسلمين في كل زمان وفي كل حين.

يجب أن تُنتزع هذه المعاني من قلوب المسلمين، معاني الضعف واليأس والخور لتحل محلها معاني الإيمان، معاني الشهادة، والموت في سبيل الدعوة.

لقد كان حزن أصحاب رسول الله رضي الله عنهم على رسول الله ﷺ عظيمًا حين وفاته، فلقد انقطع لموته ما لم ينقطع لموت نبي من قبله. ولكن أمرًا عظيمًا هو أكبر من الحزن، حمل رسالته، والمضي في دعوته، ولا يتم هذان

الأمران إلَّا على ظهر الأرض لا في بطنها، ولا يتهان إلَّا على جثث الشهداء وأرواح المقاتلين في سبيله.

إن كلمة أنس بن النضر رضي الله عنه هي النبراس الذي يجب أن يملأ قلوب المؤمنين حين قيل له: إن محمدًا قد مات فقال: «لئن مات محمد، فإن رب محمد حي لا يموت، قوموا فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه». وقاتل حتى استشهد، وعلى جثته وجثة أصحابه السابقين بني صرح الإسلام»[١].

✍ **هام:**

• روي أن رسول الله ﷺ قال: «**قدمتم خير مقدم، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، مجاهدة العبد هواه**».

هذا الحديث مشتهر بين المسلمين. أثير لدى كثير منهم ذلك أنه في هذه الشدائد والمحن يعطي هذا الحديث، وأمثاله كثيرًا من المسلمين شيئًا غير يسير من الطمأنينة في أن ما هم فيه هو الجهاد الأكبر، وأي طمأنينة أعظم من أن يكون المرء في الجهاد الأكبر؟ ولكن الحديث يرويه الخطيب البغدادي في ترجمة واصل الصوفي، ويرويه الديلمي عن جابر رضي الله عنه، ويقول البيهقي بشأنه: إسناده ضعيف، ويتبعه العراقي فيحكم بضعفه أيضًا، وكذا السيوطي في «جامعه الصغير» يحكم على الحديث بالضعف[٢].

---

(١) «المسؤولية» (ص٧٠- ٧٨).

(٢) وننقل هنا بالتفصيل تخريج الشيخ الألباني لهذا الحديث الذي ينحرف كثيرًا عن معاني الإسلام الصحيحة، وتصغيره للجهاد والقتال في سبيل الله الذي جعله رسول الله ﷺ =

ذروة سنام الإسلام.

قال الألباني: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

منكر: قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٦): «رواه البيهقي في «الزهد» من حديث جابر، وقال: هذا إسناد فيه ضعف». وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكَشَّاف» (٤/ ١١٤- رقم ٣٣) بعد أن حكى كلام البيهقي فيه: «وهو من رواية عيسى بن إبراهيم عن يحيى بن يعلى عن ليث بن أبي سليم، والثلاثة ضعفاء، وأورده النسائي في «الكنى» من قول إبراهيم بن أبي عبلة أحد التابعين من أهل الشام».

قلت: عيسى بن إبراهيم هو البركي، وقد قال فيه الحافظ في «التقريب»: «صدوق ربما وهم»، فإطلاق الضعف عليه -كما سبق- ليس بجيِّد. وهذا هو الذي اعتمده الحافظ؛ أنه من قول إبراهيم هذا، فقد قال السيوطي في «الدرر» (ص١٧٠): «قال الحافظ ابن حجر في «تسديد القوس»: هو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة في «الكنى» للنسائي». ثم تعقّبه السيوطي بحديث جابر الآتي من رواية الخطيب، ولو تعقّبه برواية البيهقي السابقة لكان أوْلى لخُلُوِّها من مُتَّهَم؛ بخلاف رواية الخطيب ففيها كذَّاب كما يأتي قريبًا بلفظ: «قدمتم خير مقدم..»، ونقل الشيخ زكريا الأنصاري في «تعليقه» على «تفسير البيضاوي» (ق١١٠/ ١) عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه قال: «لا أصل له». وأقرَّه. وقال في مكان آخر (١/ ٢٠٢): «رواه البيهقي وضعّف إسناده، وقال غيره: لا أصل له».

وأما قول الخفاجي في «حاشية على البيضاوي» (٦/ ٣١٦): «وفي سنده ضعف مغتفَر في مثله».

فغير مستقيم؛ لأن ظاهره أنه حسن، وكيف ذلك وفي سنده ثلاثة ضعفاء، وقد اتفق من تكلَّم فيه على ضعفه؟!

ثُمَّ بعد سنين، وقفت على الحديث في «الزهد» للبيهقي (١/ ٤٢)، فإذا هو بلفظ: «قدمتم خير مقدم، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ومجاهدة العبد هواه»، وكذلك رواه أبو بكر الشافعي في «الفوائد المنتقاة» (١٣/ ٨٣/ ١) من طريق عيسى بن إبراهيم البركي قال: نا يحيى بن يعلى قال: نا ليث عن عطاء عن جابر قال: قدم على النبي ﷺ قومٌ عراةٌ، فقال النبي ﷺ.. فذكره.

=

أين أنت يا يوسف الأحلام، ويا حامل المسؤوليات العظام:

□ قال معاويةُ لعمرِو بن العاص: «من طلب عظيمًا خاطر بعَظِيمتِه».

□ وكان عمرٌو يقول: «عليكم بكُلِّ أَمْرٍ مَزْلَقَةٍ مَهْلَكَة»[١].

□ وقال الشاعر:

لا يُدْرِكُ المَجْدَ مَنْ لا يَرْكَبُ الخَطَرَا ... ولا ينالُ العُلَا مَن قَدَّم الحذَرَا

ومَنْ أَراد العُلَا صَفْوًا بلا كَدَرٍ ... قَضَى ولم يَقْضِ من إدراكه وَطَرَا

قلت: وهذا سند ضعيف، ليث بن أبي سُليم، وهو ضعيف لاختلاطه، ويحيى بن يعلى؛ الظاهر أنه الأسلمي، وهو ضعيف أيضًا، وبقية رجاله ثقات.

والحديث رواه الخطيب أيضًا في «تاريخه» (١٣/ ٥٢٣- ٥٢٤) من طريق الحسن بن هاشم عن يحيى بن أبي العلاء، قال: ثنا ليثٌ به. والحسن بن هاشم؛ لم أجد له ترجمة.

ويحيى بن أبي العلاء لعلّه يحيى الكذاب، ولكن يغلب على الظن أنه يحيى بن يعلى المذكور في سند أبي بكر الشافعي والبيهقي، تحرّف اسم أبيه على ناسخ «التاريخ»، فإنه المذكور في الرواة عن ليث، ويؤيده أن السيوطي أورد الحديث في «الدرر» (ص١٧٠) من رواية الخطيب مُتَعَقِّبًا به على الحافظ ابن حجر جزمه بأن الحديث من قول إبراهيم بن أبي عبلة، فلو كان في سند الخطيب الوضّاع المذكور، لما تعقّب به السيوطي إن شاء الله تعالى ثم رأيته على الصواب في «ذم الهوى» لابن الجوزي (ص٣٩) من طريق الخطيب، بدلالة أحد الإخوان جزاه الله خيرًا.

والحديث قال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٩٧): «لا أصل له، ولم يروه أحدٌ من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله، وجهاد الكفار من أعظم الأعمال، بل هو أفضل ما تطوّع به الإنسان..».

ثُم ذكر بعض الآيات والأحاديث الدَّالّة على أنه من أفضل الأعمال، فكأنه رحمه الله يشير بذلك إلى استنكار تسميته بالجهاد الأصغر» انتهى من «السلسلة الضعيفة» (٥/ ٤٧٨- ٤٨١) حديث رقم (٢٤٦٠).

(١) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٣٣٥)، أيْ: عليكم بجسام الأمور.

وأَحْزَمُ الناس مَنْ لوْ ماتَ مِن ظَمَأٍ   لا يَقْرَبُ الوِرْدَ حتى يَعْرِف الصَّدَرا (١)(٢)

إن الأعداء في الخارج يرقبون حركات المسلمين ويتربصون بهم الدوائر ويكيدون لهم كيدًا ويمكرون بهم مكر الليل والنهار، ومرجع هذا الصراع إلى عصور مترامية تمتد إلى الحين الذي دكت فيه عروش القياصرة والأكاسرة وامتد حكم الإسلام إلى أطراف العالم: فهنالك الحركة الصليبية، وهنالك الصهيونية والاستعمار الغربي والشرقي وهؤلاء جميعًا يختلفون فيما بينهم، ولكنهم يصطلحون على حرب المسلمين، ويجمعون أمرهم كيلا تقوم للمسلمين قائمة ولا تجتمع لهم كلمة.

ويعتبر هذا الجانب خارجيًّا، وهو – وإن بلغ ذروة الكيد- ليس أكبر الجانبين أهمية بل هو –كما سنرى- نتيجة تابعة للعامل الثاني الذي هو الجانب الداخلي وهو المجتمع الذي يعيش فيه المسلمون، وهنا نجد عقبات في الأفراد أنفسهم وفي تنشئتهم وتربيتهم.

وليس من شك في أن أكبر الأخطار التي تواجه المسلمين اليوم كامنة في النقص في تربية أفراد المسلمين أنفسهم، والضعف الذي أصيب به شبانهم.

وأكبر المصائب أن يصاب الفرد بنفسه؛ ذلك لأن معالجة أي خطر ممكنة ميسرة حينما تكون تربية الأفراد تربية قوية تستطيع أن تجابه المصاعب وتصمد للحوادث.

* ومن عادة الضعيف أن يلقي بأسباب ضعفه على عوامل خارجية

---

(١) الصَّدَرُ: الانصراف عن الماء.

(٢) «الفلاكة والمفلكون» للإمام الدلجي (ص١٤٠).

يدَّعي أنه لا يملك التصرف فيها ليسوغ لنفسه ما هو فيه، ولقد اعتدنا أن نفعل ذلك وأن نلقي تبعات ما نحن فيه من ضعف وتقصير على الاستعمار أولًا، وعلى الماضي ثانيًا، وعلى مجتمعنا ثالثًا، ولا يخطر ببال أحدنا أن يجعل نفسه مركز الاتهام بينما يجعل القرآن العامل الأساسي فيما يصيب الإنسان من مصيبة هو نفسه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

* يبين الله تعالى بشأن بني النضير حين غلبهم المسلمون أنهم أتوا من حيث لم يحتسبوا، وكان ذلك من قِبَل أنفسهم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر].

• لم يؤت هؤلاء من نقص في ذخيرتهم أو عددهم أو حصونهم، ولكنهم أتوا من قِبَلِ أنفسهم أيضًا. قال رسول الله ﷺ: «**ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن**»، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[(١)].

الحديث الكريم يخبر عن سنة عميقة من سنن الاجتماع تبين ما تنتهي إليه الجماعة حين تفسد فطرتها وتملأ الدنيا قلوب أفرادها، ولقد كشف هذه الحقيقة الباحثون المحدثون لدراسة الجماعات وعوامل انحطاطها.

قال أحد هؤلاء: إن الأسباب الحقيقية لكل انحطاط داخلية لا خارجية. وليس علينا أن نلوم العواصف حين تحطم شجرة نخرة في

---

(١) جزء من حديث صحيح سبق تخريجه رواه أبو داود (٤١٢٩).

أصولها، إنما اللوم على الشجرة النخرة نفسها.

* والقرآن الكريم يهدي إلى هذه السنة ويبين للناس بأن ما يقع على الأمم من ظلم واضطهاد مرجعه إلى الناس أنفسهم، وما كسبت أيديهم، ولذا نجد التعبير بظلم النفس يتكرر في مواطن كثيرة في القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١].

والأمة التي تصاب بأبنائها هي التي تتعرض للمصائب والنكبات وتصبح عرضة لغزو العدو.

فهي إذن عوامل ثلاثة تعمل معًا: عدو خارجي متربص ومجتمع وأفراد، والمكانة التي تشغلها الأمة من محصلة هذه العوامل الثلاثة، فقد تكون بسبب ضعفها الداخلي مغزوة من الخارج، وقد تكون بسبب قوتها الداخلية وتماسك مجتمعها غازية في الخارج.

✍ وليست الحياة إلَّا صراعًا تقاوم فيه الصعوبات التي تتحدى الفرد والجماعة، ثم تكون الغلبة والانتصار أو الاستسلام والهزيمة، تلك سنة الله منذ بدء الخليقة.

التداخل بين العاملين الداخلي والخارجي:

ولقد بلغ الضعف بالمسلمين أن وصل الأعداء – لا إلى الدس في صفوفهم فحسب بل – إلى محاولة تغيير عقول المسلمين ونفوسهم، أي: أن العامل الخارجي انتهى إلى مس العامل الداخلي والتأثير فيه وذلك غاية ما يمكن أن يصل إليه العدو من النكاية.

□ يقول شاتليه في مقدمة كتابه «الغارة على العالم الإسلامي»: «ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنيًّا قبل كل شيء على قواعد التربية

العقلية. ويشرح هذه الجملة فيقول: أي يجب التأثير على عقول أبناء الشرق وقلوبهم».

□ ثم يقول المؤلف: «وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلَّا بالتعليم الذي يكون تحت إشراف الجامعات الفرنسية».

✍ مما سبق يتبيَّن أن: العامل الفردي أصل العوامل الثلاثة وأقواها في ضعف أمة، أو قوتِّها.

□ إن الغوغاء والدهماء بل أكثر المسلمين الآن يلاحظ أبناء الآخرة من العلماء الربانيين والدعاة المخلصين: السطحية في تفكيرهم وأعمالهم وفي خُلُقهم وفي عباداتهم.

وما أسرع ما تقبل العامة بل والطبقة المثقفة في بلاد المسلمين الأفكار المغلوطة والمنحرفة والغامضة الخاطئة والدعايات الكاذبة، وأعقب هذا انحراف في المفاهيم، وعدم وضوح المعاني الإسلامية أو الوسائل التي تؤدي إلى هذه المعاني، وأصبح إيمانهم خامدًا هامدًا لا يدعو إلى بذل، بل ببغائِية ونعني بها: ذكر الألفاظ والتبجُّح بها وترديدها دون إدراك عميق لمدلولاتها.

ويقترن بكل هذا أيضًا ضعف القدرة لمواجهة المشكلات وإيجاد الحلول الصحيحة لها. وفشت في المسلمين الأثرة نموُّ الفردِيَّة، وضمورُ روح التضحية والتعاون، وعدم الإقدام وفقدان روح الجُرأة وانعدام روح المغامرة في سبيل الحق.

□ إن ثروات الأمة المعنوية هي أغلى وأثمن من الثروات المادية، إنها ثروة الرجال وثروة الأفكار ضيَّعتها الأمة حين لم تُحسن الأمة الاستفادة

من اختصاصات رجالها، ولم تضع كل رجل في مكانه، فأفسدت مرّتين: أفسدت بإضاعة الكسب من اختصاص المتخصِّص، وأفسدت في وضعه في غير مكانه فكانت الخسارة مضاعفة.

وسبيل الخلاص عُلُوُّ الهِمَّة في تحمّلِ المسؤولية :

١- لا بد من كسر الأطواق وتحطيم الأغلال:

ونعني بالأغلال: تلك الأغلال التي صنعتها جاهلية العصور المتأخرة في البلاد الإسلامية تلك الأغلال التي عاش فيها المسلمون ردحًا من الزمن مستسلمين إلى الضعف والخور والتردد والحذر، مستسلمين إلى الأعراف التي تحيط بهم في الملبس والمسكن والحياة والتفكير والسلوك.

* لا بد من الخروج من آثار هذه البيئة الجاهلية التي بلغت أعماق نفوسنا، ولقد بعث الله الرسل ليحرروا الناس من الأغلال الفكرية والنفسية والخلقية، الأغلال التي وضعتها بيئاتهم ومجتمعاتهم قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف: ١٥٧].

ولكسر هذه الأطواق لا بد من أمور:

أولها: الشعور بالأطواق شعورًا واضحًا جليًّا، وإنها لتحيط بأعناقنا ولكن أكثر الناس لا يشعرون بأي غل يحيط بهم.

ثانيها: إدراك مدى أخطارها.

ثالثها: العزيمة المصممة التي تدفع إلى كسر القيود والخروج منها، ومن حالة الإخلاد إلى الأرض، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾

[التوبة].

* وقال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

رابعها: مشاهدة نقص البيئة وأثر هذه البيئة فينا وفيمن حولنا، وليس بالأمر اليسير إلَّا على من يسره الله له ومن فتح الله عقله، وأكبر من ذلك شأنًا القدرة على انتزاع النفس من البيئة السلبية، والانطلاق في أجواء الخير والإيمان.

ولقد كان أعظم ما أتى به المصلحون انتزاعهم أنفسهم من بيئتهم وانتزاعهم إخوانهم، ثم تقديم أمثلة جديدة وتكوين مجتمع جديد.

* ولقد نعى الإسلام على المشركين خضوعهم لآثار بيئتهم، وعدم قدرتهم انتزاع أنفسهم من ربقتها قال تعالى حاكيًا حال المشركين في جمودهم ناعيًا عليهم عدم قدرتهم على الانفلات من أغلال بيئتهم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف].

* وكان زعماء مكة يحتجون بأن محمدًا يريد أن يصرفهم عن إلفهم وعاداتهم، وكان ذلك أمرًا عظيمًا لديهم، قال -تباركت أسماؤه- على لسانهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾﴾ [ص].

وكان أبو لهب يتبع محمدًا ﷺ، ويقول للناس: إن هذا يريد أن يلفتكم عن عبادة اللات والعزى.

• ليس خروج الإنسان عن مألوفه بالأمر اليسير، ولعل خروج الروح من الجسد أهون من خروج الفرد عما ألف. لعل هذا ما كان يعنيه رسول الله ﷺ حين دعا ربه فقال: «**اللهم اهد قومي؛ فإنهم لا يعلمون**».

فلقد كان ﷺ يرى صعوبة خروجهم عما ألفوا فكان يدعو الله أن يعينه على إنقاذهم.

٢- لا بد أيضًا من مُثل واقعية ونماذج قوية:

لا يتم كسر القيود إلَّا برؤية مُثل ورؤية نماذج من البشر تقدم للناس أمثلة رائعة.

يرهب الإنسان القوة ويحترم البطولة، وتأخذ المعاني الرائعة بجماع قلبه وتثري إلى فؤاده فتوق مشاعره، وتنفتح أمامه معاني الحق، ويسهل عليه اتباعه، وأعلى درجات القوة قوة الحق والدعوة إليه والصبر في سبيله.

ولولا رسول الله ﷺ لما كان أصحاب رسول الله ﷺ القريبين منه، ولولا هؤلاء لما كان من بعدهم من الناس ولولا الفتح لما دخل الناس في دين الله أفواجًا، وليس شيئًا من هذا ماديًّا، ولكن القوة المادية تخضع في النهاية لقوة الحق.

لقد تم الإصلاح الذي تم ببعثة محمد ﷺ، وغَيَّر صفحة التاريخ، لقد تم بمحمد ﷺ وأصحاب محمد ﷺ، وكانوا العنصر العملي التنفيذي، وكان العنصر الأول الوحي الذي كان يتلقاه محمد ﷺ من خالق الأرض والسماء، ويبلغه أصحابه. كان الوحي داعيًا إلى كسر أغلال الجاهلية، وكان الوسيلة القوية إلى ذلك محمد وأصحابه نماذج الحق والقوة التي حطمت الأغلال وأهابت بالناس أن يخرجوا أنفسهم من القيود الجائرة.

* وليس لنا من سبيل إلَّا هذه السبيل، طليعة تتأسى خطوات محمد ﷺ وأصحابه شبرًا بشبر وذراعًا بذراع في كل ظاهرة وخفية وفي كل دقيقة وجليلة، في العبادة والتفكير والحرب والتدبير والسياسة والدعوة والجرأة والحكمة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ولا يصلح آخر هذه الأمة إلَّا بما صلح عليه أولها كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى.

٣- رجل العقيدة لا الرَّجُلُ الصفر:

وأهم شيء في الموضوع تكوين رجل العقيدة، ذلك الإنسان الذي تصبح الفكرة همه: تقيمه وتقعده ويحلم بها في منامه وينطلق في سبيلها في يقظته.

وليس لدينا – بكل أسف- من هذا النوع القوي والعبقري، ولكنْ لدينا نفوسًا متأملة متحمسة مستعدة بعض الاستعداد، ولا بد للنجاح من أن ينقلب هؤلاء إلى مثلٍ قوية تعي أمرها، وتكمل نقصها ليتم تحفزها الذي ينطلق من عدم الرضا بالواقع والشعور بالأخطار التي تتعاقب، وينتهي باستجابة لأمر الله ونداءات الكتاب الحكيم، ومراقبة وعد الله ووعيده، والتأسي بسيرة الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه.

وليس ما ذكر من نوع الفكرة التي يحلم بها الفرد في ساعات الراحة، وتذهب فيها أحلامه كل مذهب تلك هي أحلام اليقظة التي يعتبرها

علماء النفس متنفسًا للرغبات الدفينة، ونوعًا من التعويض عن تحقيق ما يرغب الفرد فيه، فإذا سيطرت هذه الأحلام على الفرد، وشغلت أكثر وقته كان ذلك انحرافًا عن الحال السوية، وتعود هذا الإنسان أن يلجأ إلى أحلامه كلما استعصت الأمور، ولعل أكثر مشروعات شبابنا من هذا النوع من الأحلام.

إن محمدًا ﷺ لم يعمد إلى إصلاح إقتصادي أو أخلاقي أو صحي أو سياسي أو إداري أو علمي، ولكنه عمد إلى إصلاح الإيمان، ودعا بدعوة التوحيد فكان من بعد ذلك كل إصلاح، وكل قوة وكل خير.

ولا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلَّا بما صلح عليه أولها. فرجل العقيدة السبيل الوحيد لعلاج أنواع الانحرافات التي سبق ذكرها جميعًا، ذلك أن رجل العقيدة سهم يندفع في تحقيق أهدافه، وهو إنسان ملأت نفسه عقيدته، فهو يعيش من أجلها ويرضى بكل أذى في سبيلها، ويبذل جهده وكل غالٍ ورخيصٍ، ورجل العقيدة أعظم ذخر نقدمه للعقيدة وأكبر رصيد نعده في سبيل نصرتها.

رجل العقيدة إن لم تكن لديه الوسائل الكاملة سعى في إيجادها، ولو كان أمرها مستحيلًا، فالوسيلة الفعالة القوية هي تكوين أمثال هؤلاء الرجال، والإصلاح الذي نرقبه لا يتم إلَّا في إيجاد أمثال هؤلاء.

صفات رجل العقيدة:

ولا بد لنا من وصف عاجل وتحديد مجمل لرجل العقيدة:

إن السلوك الأول الفطري الذي يأتي به المخلوق إلى هذه الدنيا، هو السلوك الغريزي، وهذا السلوك يظل لدى الإنسان فعَّالًا مؤثرًا حياة المرء

كلها.

يولد الطفل وبعد ساعات قليلة يسترجع وعيه، ويأخذ بالبحث عن ثدي أمه مصدر طعامه وشرابه، وتظل هذه الغريزة فعالة قوية لدى حياته كلها وبعد زمن يسير تبدو لدى الطفل غريزة الخوف، ثم غريزة الغضب، ثم غريزة الظهور والاستعلاء وما إلى ذلك.

ويسلك الطفل في سنيه الأولى مستجيبًا لغرائزه وحدها، فإذا نما قليلًا لم يعد يقبل منه ذلك السلوك الغريزي الذي كان يقبل أولًا، بل يؤخذ الطفل بالتربية والتهذيب فيعلم بأنه لا يحسن به أن يمد يده إلى الطعام كلما اشتهاه، وأنه ليس له أن يمد يده إلى كل ما يجتذب نظره، فإذا أطاع أثيب، وإذا عصا عوقب، وهكذا ينتقل الطفل فيجد نفسه أمام عامل آخر يدفعه إلى الفعل أو الترك، هذا العامل الثاني هو الثواب والعقاب وهكذا تعدل الغرائز، وتقوم بالثواب والعقاب، ثم يزداد نموه فيجد عاملًا جديدًا غير عامل الثواب والعقاب، وهو عامل الرضا والسخط، رضا الناس الذين حوله وسخطهم ورضا المجتمع الذي يعيش فيه وسخطه، ولهذا الدافع الجديد سلطان لا يقل عن سلطان الدافع الغريزي إن لم يكن أقوى منه، فنجد المجتمع يتحكم في سلوكنا وعاداتنا وأعمالنا وملبسنا ومطعمنا ومشربنا فيفرض علينا أمورًا ويحرم علينا أخرى سواء رضينا أم سخطنا، وكثير من الناس يحكمهم المجتمع طيلة عمرهم، وليس ما يسمى خوف العيب والعار إلَّا خوفًا من المجتمع.

• وفي مجتمع كمجتمعنا لا يليق بشخص محترم أن يحمل حاجاته إلى منزله مع أن ذلك مما يثاب المرء عليه، وفي مجتمع كمجتمعنا لا بد من

التبذير ولا بد من الترف، فالأرائك في المنزل لا يحسن أن تكون من خشب رخيص وفراش بسيط بل لا بد من المغالاة بأثمانها، وذلك محرم في عرف الشارع؛ لأنه تبذير للأموال ووضعها في غير موضعها، ولكن سخط المجتمع أكبر عند الناس من الحلال والحرام، وقد قال ﷺ: «**ومن أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس**».

ويتحكم المجتمع في الأزياء تحكُّمًا يقارب عبادة الوثن.

كثيرون أولئك الذين يعيشون من أجل رضا الناس وخوفًا من سخطهم لا يستطيعون التفلت من هذه القيود حياتهم كلها، وهذا المستوى يرتبط بالمستوى الغريزي الأول ذلك أن الإنسان اجتماعي بفطرته يعيش مع الناس ويحرص على رضاهم.

وقليل أولئك الذين يستطيعون أن يتجاوزوا هذا المستوى ويتخطوه إلى مستوى أعلى من مستوى العقيدة فيعيشون لعقيدة ويمضون في سلوكهم بما تملي به عليهم عقيدتهم سواء سخط الناس أم رضوا، وليس فوق هذا المستوى حين يندفع المرء بوحي عقيدته وإيمانه غير مبال برضا راض أو سخط ساخط، ليس فوق هذا المستوى مستوى أرفع منه.

ذكرنا بأن غرائز المرء لا بد من تعديلها، ولا يستطيع أفراد المجتمع أن يعيشوا عيشة راضية إذا كان الذي يحكم الأفراد هو غرائزهم، وتعديل الغرائز في التربية التقليدية يتم على الغالب عن طريق الثواب والعقاب، وبذلك يدع المرء دافعه الغريزي، ويكتبه طمعًا في ثواب أو خوفًا من عقاب أو رغبة في ثناء أو رهبة من هجاء، ولكن الغريزة في كل هذه الأحوال شديدة قوية فعالة مالكة إلَّا أنه قد حيل بينها وبين ما تشتهي

لوجود العقاب أو تعيير المجتمع وسخطه وعقابه، وقد يقع المرء في مثل هذه الحال فريسة لصراع الغريزة وغريزة الخوف من المجتمع، وقد ينوء هذا الإنسان الموزع بحمل العبء فتخور قواه وتنهار أعصابه.

إن خير وسيلة لتربية الغرائز وتعديلها تربية العقيدة تربية قوية. هنالك تظل الغريزة ولكنها تصبح مملوكة غير مالكة، تابعة غير متبوعة خادمة غير مخدومة، هنالك في ظل العقيدة المثلى يلين قياد الغرائز جميعها وتصبح كلها جنودًا طيعة للقيادة العليا، فغريزة الجمع لا تفقد قوتها ولا حدتها ولكن وجهتها بعد هيمنة العقيدة ليست إلى الترف والتفاخر والتكاثر بل إلى خدمة العقيدة؛ فالمال يجمع لينفق دفعة واحدة في سبيل العقيدة.

وكذلك الأبناء يحبون ما داموا عونًا على خدمة العقيدة ونصرتها، وكذا الإخوان وكذا الأهل والعشيرة.

والغضب لا تزول شرته ولكن تتغير أسبابه ودوافعه، أما دافعه الفطري فهو دفع اعتداء على مال أو جاه أو شيء يخص ذاتية الفرد، فإذا هيمنت العقيدة، وكان الاعتداء على واحد مما ذكر لم يبال الفرد ولم يغضب. نثر التراب على رأس محمد ﷺ، وكان ذلك من قِبَل سفيه من سفهاء قريش، فعاد ﷺ إلى منزله ولم تظلم الدنيا في عينيه ولم تكبر الفعلة الشنيعة في نظره؛ لأن كبرياء النفس قد زال في سبيل العقيدة واستبدل به عظمة الصبر والحلم في سبيل العقيدة، رجع الرسول إلى منزله بهدوء ووقار وأسرعت ابنته إليه تبكي وتغسل رأس أبيها، فيقول الرسول الكريم ﷺ: «**لا تبك يا بنية؛ فإن الله مانع أباك**».

* والخوف يزول لدى صاحب العقيدة، ولكن أسبابه ودوافعه الأولى لا تزول، لقد كان يخشى الظالم ويرهب الجائر فلما وجدت العقيدة لم يخش الظلم ولا الجور ولكن خشي السكوت عن الحق وخشي الجبن عن الصدع بالحق، وهكذا يخشى الوعيد الذي جاء في الآية الكريمة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة].

إن حفنة يسيرة من رجال العقيدة يستطيعون أن يغيروا معالم التاريخ.

البيئة التي هي مظنة وجود رجل العقيدة:

أين تجد رجل العقيدة؟ وما المجال الذي هو مظنة رجل العقيدة؟ المجال الذي يجب أن نفكر فيه هو مجال المثقفين المؤمنين، هؤلاء وحدهم محط الأمل ومعقد الرجاء في تحقيق معاني الطليعة.

إن شروط الطليعة أقرب أن تتحقق في هؤلاء الذين جمعوا بين ثقافة العصر الحديث والإيمان بالدين الإسلامي، وإن كان ينقصهم زيادة معرفة بالدين وزيادة معرفة بالعلوم الحديثة، فإن عليهم أن يزدادوا علمًا بالموضوعين معًا.

هؤلاء هم أقدر الناس على دراسة الموقف ومعرفة النواقص التي تسربت إلى النفوس من آثار البيئة أو الاستعمار والصليبية، وهم أقدر على تخليص أنفسهم من هذه الآثار السيئة والانطلاق في سبيل الدعوة.

وهم أجدر بأن يقدموا للأمة المثل الصحيحة متحققة في سلوكهم،

وهم أجدر أيضًا بأن يكونوا في الطليعة ويجتذبوا الناس إلى المثل الصحيحة.

ومن العوامل التي تساعد على تكوين رجال العقيدة: الشعور بالخطر الذي ينتاب الأمة الإسلامية في كل قطر من أقطارها، وفي كل بلد من بلادها ويلي ذلك الشعور بالخطر الذي يداهم العالم كله ويهدده بالدمار بين آونة وأخرى.

من يشعر بالخطر..؟

لا يستطيع الشعور بالخطر كل إنسان، ذلك أن دهماء الناس لا يستطيعون أن ينفذوا ببصائرهم إلى ما بعد الحاضر القريب الذي يحيط بهم مثل هؤلاء تليهم مشاغلهم القائمة عن النظر في أي أمر، ولا تستطيع أبصارهم أن تتجاوز أنوفهم، هؤلاء أنفسهم إذا دقت ساعة الخطر فوجئوا بما لم يكن في حسبانهم فهلعت نفوسهم وانخلعت أفئدتهم من شدة الهول وهؤلاء هم الذين أتى القرآن الكريم على ذكرهم في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

* وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾ [الأعراف].

* وقد صرحت الآيات الكريمة بأن أخذهم بغتة كان السبب فيه أنفسهم؛ لأنهم غفلوا وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، هؤلاء الذين يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢﴾ [المعارج]. فالمصلون لا يؤخذون بغتة ولا يهلعون ولا يجزعون؛ لأنهم يرقبون أمر الله.

مات ولد لعمر بن عبد العزيز فلم يجزع عليه فقيل: إنك لم تجزع. فقال

ما معناه: «كنت أقدر أنه قد يموت في كل حين، فلما وقع الموت لم أجزع».

* يظن الناس أن النعمة لن تفارقهم، وأنهم خالدون في مساكنهم وما أترفوا فيه، وقد قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ [يونس: ٢٤].

وقليل أولئك الذين يستطيعون أن يخلصوا من مشاغل الساعة لينظروا إلى مكانهم الذي هم فيه، والكثيرون لا يستطيعون ذلك؛ لأن صفتهم صفة الطفولة اللاهية التي لا تعرف الاعتبار ولا تستطيع النظر فيما سبق وأكبر من ذلك أن تستطيع أن تنفذ ببصرها إلى بعيد، أو أن ترى الأشياء قبل وقوعها.

ومن المؤسف جدًّا أن تفقد الأمة الأفراد الذين ينظرون إلى بعيد ويضعون الأمور موضعها، ولذلك نجد أنفسنا تفجأ في كل حين بالأمر الداهم ولم نعد له عدته.

الشعور بالخطر يرتبط بإدراك وطأة الماضي والإحاطة بالموقف الحاضر والنظر إلى المستقبل، وكل ذلك لا يطيقه إلَّا نافذ البصيرة.

ويتفاوت الشعور بالخطر بتفاوت الأشخاص فمنهم من لا يشعر بالخطر أي شعور ومنهم من يطغى عليه هذا الشعور حتى يصبح حالة مرضية يؤدي بصاحبه إلى اليأس ويشل حركته ويحول بينه وبين العمل. وهنالك شعور بالخطر مقترن بالأمل مشفوع بأمضى أنواع العزيمة وأنفذ ألوان البصيرة، والمثل الكامل لذلك محمد ﷺ الذي جاء في «الصحيح» عنه أنه كان يقول: «**أنا النذير العريان، النجاء النجاء**».

وهنالك من لا يشعر بالخطر الشعور الذي يوازي الخطر بل يشعر

شعورًا أقل من الشعور الواجب، وهذه هي حالة شبابنا الواعين.

والاندفاع في سبيل الإنقاذ يوازي الشعور بالخطر، أو هو أقل منه وذلك إذا كان الفرد واعيًا معتدلًا غير مغلوب على أمره.

□ يقول مالك بن نبي في كتابه «تأملات في المجتمع العربي»: «يمكن أن نعتبر الصعوبات من ناحية أوضح دليل على النهضة واليقظة.. ونقول مع توينبي: «إن الصعوبات هي تحدٍّ خلاق؛ لأنه يستحث الرد عليه». ولا يشك أن الرد لا يمكن أن يكون بغير الكد والتفكير».

فمن العوامل الدافعة لتكوين رجل العقيدة الشعور بالخطر لدى شباب الأمة الإسلامية في كل قطر من أقطارها ويلي ذلك الشعور بالخطر الذي يداهم العالم كله ويهدده بالدمار بين آونة وأخرى والخلاص من الخطرين سبيله واحدة هي حمل المسلم رسالته إلى إخوانه المسلمين وإلى العالم كله»[(١)].

ولا بد لرجل العقيدة من أن يشعر أنه ولد ولادة جديدة، وأن هنالك انقطاعًا بين حياته الماضية وحياته الحاضرة، لقد آمن أصحاب رسول الله ﷺ فانقطعت صلتهم بماضيهم وبمجتمعهم الجاهلي ولدوا ولادة جديدة ووصلوا حبالهم بحبال مجتمع جديد.

هذا الشعور خير معوان على كسر الأطواق والتخلُّص منها إلى غير رجعة وهو خير معوان على الاندفاع في سبيل العقيدة.

---

(١) «المسؤولية» (ص٣٨- ٤٧).

العوامل التي تُساعِد على تكوين رجلِ العقيدة:

أولا: الشعور بالخطر الخارجي:

١ - الصهيونية.

٢- الصليبية.

٣- مخططات الاستعمار.

ثانيًا: الشعور بالخطر الداخلي في المجتمع:

٤ - دراسة التاريخ تكشف عن عوامل الانحراف.

٥- دراسة الحركات الإصلاحية والعقبات التي قامت في وجهها.

٦- كشف مخططات الأعداء في الداخل.

٧- الغزو الفكري الغربي.

ثالثًا: العامل الداخلي المتعلق بالأفراد:

٨- السطحية بما يتبعها.

٩- الفردية والأثرة وضعف روح التعاون.

١٠ - روح الترددِ والحذر والجبن وعدم الإقدام.

١١ - فقدان روح المغامرة والدافع للعمل.

رابعًا: دواعي الخير والاستجابة لنداء الواجب:

أ- التربية الفكرية:

١٢ - التأسي برسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم «دراسة السيرة».

ب- التربية الوجدانية:

١٣ - الإصاخة لنداءات القرآن الكريم.

١٤ - العبادة خير وسيلة للتربية.

١٥ - الجماعة فرض.

١٦ - الدعوة تزيد الإيمان.

جـ- التربية العملية:

١٧ - الولادة الجديدة.

□ قال الشيخ الدكتور محمد أمين المصري شارحًا هذه العوامل: «وللتبصير بسبيل الخلاص لا بد من تحليل العوامل الداخلية والخارجية، ونعني بالعوامل الخارجية: المخططات التي يرسمها أعداء هذه الأمة منذ دهور طويلة، وما يزالون يمكرون ويكيدون ويرقبون نتائج أعمالهم السيئة بدقة وحذر.

هذه الأخطار الخارجية ليست قليلة الأهمية، وليس من اليسير على المسلمين اليوم تتبعها واكتشافها، ومن المؤسف أن المسلمين في هذا الشأن عالة على الغربيين ينتظرون ما يتسرب إليهم، منهم من نصوص تظهر أغراض هؤلاء ونواياهم، وشيئًا من مخططاتهم.

ومما يجب ألا يغيب عن الذهن المؤسسات العالمية التي تشترك فيها أكثر الأمم الإسلامية، تلك المؤسسات التي تجمع إحصاءات عن كل ما يتصل بالتربية لدى المسلمين، بواسطة الوسائل الدقيقة التي لديها، وهذه المؤسسات بتتبعاتها ونشراتها وخبرائها جديرة بالدراسة.

والمدارس التبشيرية واستقلالها في البلاد الإسلامية، وصلاتها بمؤسساتها الأجنبية حتى لكأنها حكومة ضمن حكومة والقائمون عليها الذين هم من مخلفات الحملات الصليبية جديرة أيضًا بأن يستيقظ لها

المسلمون ويخشوا شرها.

ووسائل هؤلاء لا تعد ولا تحصى، تمثل كلها تسلط الماكر الغادر اللئيم على إنسان ساذج بسيط. ألفت وزارة الخارجية في دولة غربية لجنة عالمية من الاختصاصيين، وكانت مهمة هذه اللجنة دراسة العالم العربي، وبصورة خاصة النزاع العربي الإسرائيلي، وتحديد المشاكل والصعوبات وتربيتها تبعًا لأهميتها، ثم البحث عن حلول، سواء كانت ذات نوازع قانونية رشيدة أو لم تكن كذلك.

وتقول هذه الوزارة: لقد كنا في حاجة إلى قائد عربي تتجمع بين يديه سلطات تفوق كل ما تيسر لأي زعيم عربي من قبل.. سلطات تمكنه من اتخاذ قرار سواء رضي به الشعب أم لم يرضى. والرجل الوحيد الذي يستطيع الحصول على مثل هذه السلطة هو الشخص الذي يتطلع بشوق إليها..

٥- دراسة البيئة والمقدرة التأثيرية فيها:

ومن سبل الخلاص أيضًا: دراسة البيئة التي نعيش في أخطائها وانحرافاتها، ولا بد أيضًا من دراسة أحوال المصلحين وخطتهم في الإصلاح في الأمة، ودراسة العقبات التي قامت في وجههم. ومن ذلك حال عامة المسلمين على مر العصور من حب الدنيا وكراهية للموت وميل إلى الترف والدعة، وأكبر من كل هذا أهمية اختلاف وجهات المسلمين وضعف إدراكهم حقائق الأمور كما بيَّنا.

وهذا لا بد أيضًا من دراسة التاريخ الإسلامي، والوقوف على ما اعترى المسلمين حكامهم وعلماءهم وعامتهم خلال فترات التاريخ من

انحراف عن المعاني الصحيحة التي جاء بها محمد ﷺ، ونتائج هذا كله في عودتهم إلى جاهليتهم.

ولا بدَّ أيضًا من دراسة الحركات الإصلاحية منذ حقب طويلة من الزمن، ودراسة أسباب إخفاقها وتتبع هذه الحركات واحدة بعد واحدة، وبيان مدى النجاح الذي انتهت إليه أو الإخفاق الذي منيت به والدائرة المحدودة التي استطاعت العمل فيها. ولنلاحظ أن دراسة هذه الموضوعات يحتاج إلى زمن ليس باليسير، وليس معنى دراستها التوقف حتى نحصل على نتائج هذه الدراسة. إن مجالات العمل واسعة ويجب المضي فيها ونحن عالمون بثقل المهمة.

ومن النواحي الهامة التي يحسن أن يلاحظها الشاب المندفع في سبيل الإيمان أن الفكرة لها تأثير مختلف في النفوس، فهنالك فكرة تؤرق صاحبها وتسهده وتحمل صاحبها على التفكير في الأمور وبدء النظر فيها وإعادته، وهذه الفكرة قد تبلغ أعماق النفس، وقد تخالط شغاف القلب، وتصبح هم الفرد وشغله ويقال حينئذٍ: إن الفكرة مازجت أزاء النفس وتفاعلت وإياها تفاعلًا تامًّا، فهي فكرة فعالة قوية تحمل صاحبها على المضي. وهنالك فكرة خامدة لا تفعل في النفس، ولا تؤثر فيها ويمكن أن يقال: إنها أضيفت إلى عقل الإنسان إضافة وحملت فيه حملًا قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

الفكرة الأولى تحدث في النفس انفعالات شتى من الخوف والقلق على ضياع الفكرة، ثم الشجاعة الإقدام في سبيلها، ولا تكون كذلك إلَّا إذا

اتصلت بحاجات النفس العميقة وأغراضها البعيدة، وأهداف الإنسان الحيوية الهامة، وبذلك تصبح شديدة اللصوق به بل تصبح جزءًا من النفس.

ومثل هذه الفكرة إما أن يكتشفها الإنسان فتصبح جزءًا منه، وإما أن تلقي إليه فيشعر بأنه وجد فيها ضالته وأن بينه وبينها صلة عميقة ونسبًا قريبًا.

وهكذا تلقى الفكرة في نفس فتتلقاها تربتها مبتهجة بها أو تعارضها وتنبذها لعدم وجود التجانس معها، وهكذا كان القرشيون في مستوى لا يسمح لهم بإدراك دعوة محمد ﷺ. والذي يصرف الفرد عن الفكرة ويحرمه استعداد تقبلها مستواه الفكري أو مستواه الخلقي والأهواء المسيطرة والنزعات التي تعمي عن رؤية الحق، ويضاف إلى كل ذلك المشاغل التي تصرف عن تقدير الفكرة وتشغل الفرد عن وعيها.

وتنطبق في مجتمعنا هذه المعاني كلها، فالفكرة الإسلامية لا تدرك إدراكًا صحيحًا، وأن أماثلنا قد استنفذت جهودهم الدنيا وانحطت همتهم وتدنت مستوياتهم الفكرية والخلقية والإرادية عن مستوى الفكرة الإسلامية، يقول رسول الله ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي**

أرسلت به».

والمؤسف أن المسلمين يحملون معاني لا تتفاعل ونفوسهم أي تفاعل، ولكنها تكسبهم غرورًا، فهم يستطيعون التحدث في كل معنى ويفيضون في كل حديث يدعو إلى خير ويشيد بمكرمة، ولكنهم يعرفون ذلك معرفة كلامية يتبجح بها صاحبها، ولقد كان الجهل خيرًا من هذه المعرفة.

هؤلاء الذين يتأثرون بفكرة الحق ويناضلون في سبيلها لا بد أن يسبق بلوغهم هذه المرحلة مرحلة أخرى هي التعطش إلى معرفة الحقيقة، والبحث عنها وتتسم هذه المرحلة بالسمات التالية:

١ - شوق إلى معرفة الحقيقة وتعطش إلى الوصول إليها، وإخلاص لها وبذل الوسع في سبيل بلوغها.

٢ - إيثار للحقيقة على كل ما عداها.

٣ - تيقظ كامل لما يضع الناس من عقبات في سبيل سدل الستار على الحقيقة، وإخفائها عن أعين الناس.

٦ - الجماعة:

ولا يتم شيء من المعاني التي ذكرت إلَّا ضمن الجماعة، ولذا كان وجود الفرد في الجماعة أمرًا ضروريًّا دينيًّا. يروي الترمذي في حديث صحيح أن رسول الله ﷺ قال: **«آمركم بخمس: بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد، ومن خرج من الجماعة فكأنما نزع ربقة الإسلام من عنقه»**.

إن معنى الأخوة ومعنى التعاون لا يتحققان إلَّا وسط الجماعة والجماعة خير عون للفرد، تذكره إذا نسي وتوقظه إذا غفل وتدفعه إذا أبطأ.

ولا يتم معنى الجماعة إلّا إذا شعر الفرد بالاعتزاز بانتمائه إليها والطمأنينة في وجوده فيها، وأنها حققت أمانيه، وأنه إلى جانب ذلك خلية في الجماعة يمدها ويستمد منها، وأنه لبنة أساسية في بنائها، خلية إذا انفصلت عن جسمها عدمت، وإذا ظلت متصلة به تستمد الحياة، والجسم تتكامل وظائفه بشتى خلاياه ويضيره أن يفقد واحدة منها[١].

لا.. لا للرجل الصِّفر دنئ الهمّة:

▢ لا للخامل الكسلان.

• قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل»[٢].

▢ لا للراضي بالدون مع قدرته على ما هو أحسن وأفضل.

▢ لا للمتقيد بنمط هامد في الحياة ولا يتطلع إلى أُفق جديد..

لعمـرك مـا الرَّزيَّـة فقـدُ مـالٍ ... ولا شـاة تمـوتُ ولا بعـيرُ
ولكـنَّ الرَّزيّـة فَقْـدُ فَـذٍّ ... يمـوت بموتِـهِ خَلْـقٌ كثـيرُ

▢ ولله درُّ إبراهيم بن أدهم وهو يردِّد هذه الأبيات الطَّيِّبة:

إذا مـا مـات ذو عِلْـمٍ وتقـوى ... فقـد ثُلِمَـتْ مـن الإسـلام ثلمـةْ
فمـوت الحـاكم العـدل المـولى ... بحكـم الأرض منقـصة ونقمـةْ
ومـوت فتـى كثـير الجـود نحـل ... فـإن بقـاءه خـصب ونعمـةْ

---

(١) «المسؤولية» (ص٤٩- ٥٤).

(٢) رواه البخاري (٢٨٣٢، ٢٨٩٣، ٦٣٦٩)، ومسلم (٤٩) من حديث أنس بن مالك.

وموت العابد القوَّام ليل ... يناجي ربه في كل ظلمةْ
وموت الفارس الضِّرغام هدمٌ ... ولا تشهد له بالنقص عزمةْ
فحسبك خمسة يبكي عليهم ... وباقي الناس تخفيفٌ ورحمةْ
وباقي الخلق هم همجٌ رعاعٌ ... وفي إيجادهم لله حكمة

أترضى أن تكون من التخفيف والرحمة»[١].

□ لا للرجل الصفر المستجيب للنفس الأمَّارة، المُضيِّع لأوقاته.

□ لا للرجل الصفر غير المستعد للإلتزام بشيء..

ولم أجد الإنسان إلَّا ابن سعيه ... فمنْ كان أسعى كان بالخير أجدر
وبالهمَّة العلياءِ ترقى إلى العُلَا ... فمن كان أعلى همَّة كان أظهرا
ولم يتأخر من أراد تقدُّما ... ولم يتقدمْ مَن أَراد تأَخُّرَا

□ لا للرجل الصفر المعطل لعقله.. الهامد أمام عقدة «المستحيل» وعدم الاستطاعة والقُدرة..

قمْ رابطَ الجأْشِ وارفعْ رايةَ الأمَلِ ... وسِرْ إلى الله في جِدٍّ بلا هَزَلِ
وإنْ شعرتَ بنقصٍ فيك تعرِفُهُ ... فغَذِّ روحَكِ بالقرآن واكتمل
وحارب النفس وامنعها غوايتها ... فالنفس تَهْوي الذي يدعو إلى الزَّلل

□ ولا للرجل الصفر المُثبِّط للآخرين الذي يزرع اليأس في الآخرين..

واحمل بعزم الصدق حملة مُخْلِصٍ ... متجَرِّدٍ لله غير جبان

---

(١) «الرجل الصفر» للشيخ إبراهيم الدويش (ص١٤) طبع مكتبة أبي حذيفة السلفية.

واثبت بصبرك تحت ألوية الهُدَى ... فإذا أصبتَ ففي رضا الرحمنِ
والحق منصورٌ وممتَحَنٌ فلا ... تعجَبْ فهذي سُنَّةُ الرحمنِ
لكنما العُقْبى لأهل الحق إنْ ... فاتتْ هنا كانت لدَى الديَّان

□ لا للرجل الصفر المتردِّد الحيران المرتاب..

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا عزيمةٍ ... فإنَّ فسادَ الرأي أن تترَدَّدا

المعيارُ الحقيقيُ للجَدِّ في حمل المسؤولية وعلو الهمَّة فيها الشغل كل الشغل والهم كل الهم بقضية القدس وفلسطينْ:

كيف ننام وما نامت جراح بيت المقدس، والمسجد الأقصى جرحه فوّار هل حملتَ همَّ الأقصى والإسلام.

المسجد الأقصى هو المركز في قصة صراع الحق والباطل بين أتباع الديانات الثلاث؛ ولذلك فمنه ابتدئ سرد ثوابتنا الإسلامية؛ التي يُراد التصدي لها، أو القفز من فوقها إلى حيث ثوابت المغضوب عليهم والضالين، ومن دار في فلكهم من المنافقين:

□ المسجد الأقصى ليس مجرد مسجد يمكن استبداله، أو التفريط فيه؛ فهو يرمز إلى المعتقد الحق، الذي جاء به رسول الحق ﷺ، ناسخًا الشرائع السابقة؛ ولذا فإن التفريط فيه تفريط في العقيدة والشريعة معًا.

□ الأرض المباركة حول المسجد الأقصى، قُدست لارتباطها بقدسية الرسالات السماوية التي ختُمت برسالة خاتم الأنبياء ﷺ - كما دلت حادثة الإسراء، والاعتراف بحق اليهود في الوجود فيها كدولة، هو خيانة لله وللرسول ﷺ وللمسلمين.

□ هذه الأرض فتحها المسلمون الأوائل من الصحابة ومن تبعهم؛ فلكل المسلمين فيها حقوق وعليهم واجبات؛ لأنها وَقْفٌ عليهم جميعًا، ولهذا لا يحق لكائن من كان أن ينفرد بتقرير مصيرها لغير صالح الإسلام والمسلمين؛ لأن نُصرتها أمانة في أعناقهم جميعًا بأرضها وشعبها ومقدساتها ومجاهديها ومرابطيها وأسراها وجرحاها.

□ قضايا المسلمين الكبرى – كقضية فلسطين- لا بد أن يُرَدَّ الفصل فيها لأهل الحل والعقد من المسلمين، الذين يمثلهم في الأساس أهل العلم والفقه على مستوى العالم الإسلامي، أما الساسة والمتنفذون؛ فما عليهم إلَّا التنفيذ في حال القدرة والاستطاعة، إذا كانوا حقًّا مخلصين للأمة.

□ اليهود كانوا – وسيظلون للأبد- أشد الناس عداوة للذين آمنوا، ويدخل في حكمهم من شايعهم من النصارى وغيرهم، ولهذا فإن دعوى «السلام الدائم والعادل» معهم، افتراء على الحق، وتضييع للحقيقة؛ لأن عداوتهم زادت وتضاعفت باغتصابهم لحقوق المسلمين وأراضيهم، وجهاد هؤلاء لا يمكن القول بإبطاله أو تأجيله عن وقته، فضلًا عن القول بنبذه والتبرؤ منه؛ لأنه شرعة واجبة إما عينيًّا أو كِفائيًّا، وبخاصة في أرض فلسطين.

□ الشريعة الإسلامية – لا النظم العلمانية- ستظل مرجع الحاكمية الواجبة في فلسطين وغيرها؛ فالتحاكم إليها واجب حتى عند عدم القدرة على تنفيذها، والعجز عن الحكم بها لا يسوِّغ التحاكم أو الرضى بغيرها، فضلًا عن السعي لتمكين غيرها للحكم في رقاب المسلمين ودمائهم

وأعراضهم وسائر شؤونهم.

□ أرض فلسطين وسائر بلاد الشام، فتحها سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين الذين أحلوا فيها نهج الحق والسُّنَّة، فيجب تعظيم قدرهم فيها، وتعظيم المنهج الذي أحلُّوه فيها، دون فتح المجال لإجلال وتمكين البدعة وأهلها فيها من أعداء الصحابة وأعداء منهجهم الحق، كما حدث ذلك فيما جاور فلسطين من بلاد الشام.

□ كما ظلت القومية والوطنية العلمانية، وكذلك الثورية والليبرالية، تمثل خطرًا على مسار القضية الفلسطينية من الخارج؛ فإن التقيد بالحزبية أو القطرية أو المجاملات الرسمية، يمكن أن يؤخر مسار التقدم باتجاه هذه القضية المركزية عند كل المسلمين.

أعرف أن هناك من سيقول: أين نحن مما تتحدثون عنه، في زمن هوان المسلمين، وظروف تمكن الأعداء، ومناخ المعادلات الدولية والنظرات الواقعية لموازين القوى المؤثرة في طبائع الأحداث؟! فأقول: الواقع ليس حُكمًا على الشريعة والعقيدة، هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية: فإن هذا الواقع يتغير بسرعة لصالحنا كلما غيَّرنا ما بأنفسنا، كما تشهد بذلك ساحات الانتصارات الأخرى. ومن ناحية ثالثة: فإن في مقابل تلك الثوابت الإسلامية، هناك ثوابت «دينية» صهيونية، نصرانية تقابل كل بند فيها، ولعلِّي أترك للقارئ إجراء تلك القابلة والمقارنة، التي لم تحجزهم عنها أوهام الواقعية أو العصرانية.

ومن جهة رابعة: فإن الأجيال الإسلامية، لا بد أن تنشأ على المفاهيم والثوابت الإسلامية في قضاياها، حتى إذا عجزنا نحن، لم نورِّثهم ذلك

العجز، أو نسلِّمهم لمسلَّمات وثوابت المبطلين، من العلمانيين وأشياعهم.

إن العلمانية العربية هي أكثر الأطراف حديثًا عن «الثوابت»، ولكنها ثوابت تختلف عن ثوابتنا الإسلامية؛ ومع هذا فإنها كانت ولا تزال الأكثر تفريطًا فيها وتجاوزًا لها.

• إن فلسطين في حاجة إلى مزيد من التشبث بتحرير الولاء لله، لتحرير المقدسات والأراضي والمقدرات من أعداء الله، وهذا ما سوف يحدث قطعًا، عندما تكون الرايةُ الإسلام، والغايةُ العبوديةَ؛ فبهذين الوصفين، سيلتفت العرب وسيتضامن المسلمون، بل سينطق الحجر والشجر لنصرة المظلومين ضد اليهود الظالمين، مصداقًا لقول النبي ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله! إلَّا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود»**[(١)].

فالنداء هنا بوصف الإسلام ووصف العبودية وليس بالقومية أو الوطنية العلمانية التي أضاعت الأرض والعرض في فلسطين لنحو تسعين عامًا» اهـ.

✍ اللهم ارزقنا أفضل الشهادة في سبيلك.

صرخة الأقصى[(٢)]**:**

▢ ربط القرآن بين البيت والأقصى رباطًا أبديًّا

لم يكن ربط مناخ بمناخ.. بل رباطًا عقديًّا

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٢) للدكتور عبد الغني التميمي – مجلة البيان العدد (٢٣٥) (ص٦٠- ٦١).

لم يكن ذاك خيارًا أو قرارًا عربيًّا
أو شعارًا مستعارًا ثانويًّا
كل من فرَّق بين البيت والأقصى فقد
كذَّب القرآن أو خان النبيّا

❊❊❊

□ يا أخي المسلم، هذا المسجد الأقصى الجريحْ
في سكون الليل لو يُسمع كالطفل يصيحْ
جرحه الغائر لا تشبهه كل الجروحْ
إنه جرح أليم داخل القلب يقيحْ
مزقته آلة المحتلِّ بالحفر المذلِّ المستبيحْ
إنهم أعداء إبراهيم من قبلُ وموسى والمسيحْ

❊❊❊

□ أمة التوحيد يا مستقْبَلي الآتي ويا يومي وأمسي:
كيف أصبحت جموعًا بين عميانٍ وطرشان وخُرْسِ
ما لديها غير شكوى، وجعجعاتٌ دونها طِحْنٍ، وهمسِ
لست أدعوكم لعجز أو لإحباطٍ ويأسِ
أو لترثوا بدموع منتهى ذُلِّي وبؤسي
إنني أصرخ والهيكل يُبنى فوق رأسي:
قطَّع الحفرُ شراييني وأنفاسي وحسِّي
أترجَّى منكم النخوة في حرقي وطمسي
أم تُرى أنعى لكم نفسي بنفسي؟!

ربما أصبح؛ لكن رغم أنفي لست أمسي
أرسل الأقصى خطابًا فيه لومٌ واشتياقْ

□ قال لي وهو يعاني من هوانٍ لا يُطاقْ:
بلِّغ الأمة أني عِيل صبري بين حفر واحتراقْ
هتك العهر اليهودي خشوعي من رُواق لرواقْ
أشعلوا أرضي وساحاتي فجورا
وصفيرًا وسفورا!
دنّسوا ركني ومحرابي الطهورا
فأنا اليوم أعاني بل أعاني منذ دهرٍ
ألم القهر أسيرا
لم يزل قيدي مشدود الوثَاقْ
لم تفدني الخطب الجوفاء شيئًا
أو شعارات الرِّفاقْ
أو ما يكفي نفاقًا؟ ضقت من هذا النفاقْ
أرسلوا من صلاح الدين خيلًا
أرسلوها من حمى الشام ونجد
من سرايا جيش مصر، وصناديد العراقْ
من ثرى المغرب والمشرق للمجد تساقْ
تنشر الهيبة للإسلام بالدَّم المراقْ

منذ هرٍ لم تزرني هذه الخيل العتاقْ

◻ قال لي الأقصى: سلامًا من مقامي
بلغ الأمة – بالله- سلامي
من معاني سورة الإسراءِ، قُدسيّ الهيامِ
سلفي الوجد سني العناقْ
لا سلامًا خائن النشأة عبريّ المذاقْ
قل لهم: يا أهلُ، قد طالَ الفراق
وأنا أُشوى على جمر المشاق
أأنا أغدو مكانًا أثريًا بصنوف الحفر ضاق؟!
أأنا أنضم للحمراء من أندلسٍ
وأعيش الذل في ذات السياقْ؟!
وأعيش الأمل المقتول في ذاك النِّطاقْ؟
يا بني الإسلام! ما حلَّ بكم؟!
هل نسيتم أنني بوابة السبع الطِّباقْ؟
من رحابي وَاصَلَ الرحلةَ في الكون البُراقْ

◻ صرخ الأقصى حزينًا خافض الرأس بئيسًا:
هل أقضي العمر – كالسارق- في السجن حبيسًا؟
ضقت من صحبة قوم أضجروا من قبلُ موسى
صادروا كل دروس العلم في ظلِّي.. فمن يُحيي الدروسا؟

سرقوا قرآن فجري ومَحوا أول صفِّي
مزَّقت آلاتهم بالحفر أحشائي وجوفي
وأشاعوا أن موتي حتف أنفي
هذه الأنفاق تحتي تزرع الأرض كهوفا
كهل كهف فاغرٌ فاه لكهف
فمتى يَبْلغُ عني لبني الإسَلام في العالم خوفي؟
أم تراهم يرقبون اليوم ميعادًا لنسفي؟!
هل يغارون إذا أضحيت كالأطلال مهجورًا دريسا،
وإذا بُدِّلت للتهويد بوقًا وطقوسًا؟
أئذا أصبح محرابي يومًا ومصلَّاي كنيسا؟!

□ وأخيرًا صرخ الأقصى يقول:
فهِّموني كيف أهوى طاعني في مقتلي؟
كيف أهديه دمي مع قُبَلي!
وأحيِّي سارقي، بل أدَّعي أن ما يسرق مني ليس لي؟!
لغة للذلّ لا أفهمها كدت أنهارُ لها من خجلي!

□ آه ما آلم جرح الكبرياءْ!
آهٍ ما أوجع مكتوم البكاءْ!
حينما نُطعَن في عزَّتنا
حينما نبكي كما تبكي ضعيفات النساءْ

نحن لا نملك من نخوتنا
غير صرخات وشجب ودعاءْ
حرَّم السيَّف علينا الزعماءْ
هل ترى فرقًا كبيرًا بيننا اليوم
وما بين الجواري والإماءْ؟!
كلنا في ساحة العجز سواءْ

❑ كانت الحرب شعارًا
وجهاد المعتدي كان فخارًا
ثم أضحت لغة الحرب فرارًا
وغدا التفكير بالحرب أو
النطق بذكر الحرب عارا!
سُحِب الجندي من عز الصناديد الغيارى
وغدَا حارس رملٍ وصحارى
آلة يزجي التحيات لأنذال يهود أو نصارى
وترى الناس سكارى
من رضا الذلِّ وما هم بسكارى!

❑ اعذرونا إن صرخنا
إن في أعماقنا الموت الزؤامْ
لا نظنُّ الصارخ المذبوح -إن صاح- يلامْ

اعذرونا إن فتحنا مرةً أفواهنا
أنتَنَتْ ألفاظنا في الحلق من شدِّ اللثامْ
كلمَة المعروف شاخت وهي تحيا في الظلامْ
أهَوْ ظلم أن يقال الحق جهرًا، أهو عيب واختراق للنظام؟!
قبَّح الله لسانًا يألف الصمت الحرام!

أتحمل همَّ الإسلام وتنام.. ماذا قدَّمت لدين الله وأنت هامد جامد:

إن جراح المسلمين في كل شبر في العالم، ونجيع الدم الفوَّار للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان في العراق والفلبين وكشمير وأفغانستان يصنع الرجال.. ويوقظ الهمم.

إن الصِّدِّيق ﵁ ما رضى حين أسلم أن يكون هامدًا، بل على الفور قام ودعا إلى الله فأسلم على يديه خمسة من العشرة المبشرين بالجنة في ميزان حسناته يوم القيامة.. فماذا وضعتَ في ميزان حسناتك؟ وماذا أنت واضع؟! هل أنت قائل لمآسي المسلمين، وبكاء اليتامى وأنين المستضعفين وأنات الشيوخ وصرخات النساء «أنا لها» «واإسلاماه واإسلاماه».

ألا توقظك جرأة العلمانيين واليهود والنصارى وتطاولهم على أعظم الثوابت على رسولك ﷺ وعلى الإسلام:

في زمن تنطق فيه الرُّويبضة [(١)]، ويعلو التحوت الوعول، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنها ستأتي على الناس سنون خدَّاعة**

(١) الرُّويبضة: تصغير الراضة: وهو العاجز الذي ربض عن معالي الأمور، وقعد عن طلبها وهو التافه الخسيس.

يُصدَّق فيها الكاذب، ويكذَّبُ فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخوّن فيها الأمين، وينطق فيها الرُّوَيْبضة» قيل: وما الرويبضة؟ قال: «السفيه يتكلم في أمر العامة»(١).

حينئذٍ تتحول الحياة إلى مستنقع آسنٍ، وترتكس الدجاجلة من العلمانيين ومعهم الغوغاء في الحمأة الوبيئة، وفي الدرك الهابط، وفي الظلام البهيم ويعلو أهل الله بمرتعهم الذكي، ومرتقاهم العالي، ونورهم الوضيء، وعلى الطرف الآخر شياطين العلمانية اللئام، فسدت بهم الأرض وأسنت الحياة، وتعفنت الوديان بأهل الحداثة التنويرين الإرهابيين التقدميين قادة الفكر العلماني المتعفن الظلامي الذين تطاولوا على الله وسخروا من دينه، وأنكروا وتنكروا لكل معلوم من الدين بالضرورة، وحاولوا هدم السنة، ولمزوا رسول الله ﷺ وتنقّصوا قدره تعريضًا وتلميحًا بل وتصريحًا، وسودوا الصحائف والكتب في ذلك..

يرمرم في فتات الكفر قوتًا ... ويشرب من كؤوسهم الثمالةْ

يُقبل راحة الإفرنج دومًا ... ويلثمُ دونها خجل فِعالـه

□ مسخوا عقل الأمة وضميرها وفكرها ويومها وأرادوا مستقبلها، وأضاعوا شباب الأمة في التيه الكبير.. وتطاول كل ظلامي علماني نابح ناعق.. تطاول على ثوابت الإسلام ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المجادلة].

• فضحهم حديث رسول الله ﷺ الذين لا ينطق عن الهوى: فعن

---

(١) إسناده جيد: رواه أحمد في «مسنده»، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٥/ ٣٧- ٣٨): إسناده حسن ومتنه صحيح، وقال ابن كثير: إسناده جيد.

عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**من اقتراب الساعة**»، وفي رواية: «**من أشراط الساعة**»[1]، أن تُرفعَ الأشرارُ، وتُوضعَ الأخيارُ، ويُفتحَ القولُ، ويُخزنَ العَمَلُ، ويقرأ القوم بالمثناة «ويُقرأ في القوم بالمثناة» ليس فيهم أحدُ ينكرها. قيل: وما المثناة؟ قال: ما استكْتِب سوى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ».. وكم للعلمانيين من مثناة ومثناةٍ ومثناة!.

□ أيها الزبد النافش المنتفخ الغثاء.. أنتم باطل يطفو ويعلو وينتفخ ولكنه جفاء مطروح ينزوي ويغور، يضيع ويموت.

□ يا أمثال الذر اخسئوا فلن تعدو قدركم، يا من تزدحم أنفسكم باللدد والخصومة لله ورسوله وشرعه، مهما اتقنتم الدجل والكذب والتمويه والدهان إن الله سيفتح نيَّاتكم وسيراها الناس في محياكم ووجوهكم.. لن تخدعوا الناس بعد اليوم بزلاقة ألسنتكم، ونعومة الدهان..

□ كلكم هش.. كل منكم سريع العطب مهما حاول أن يُموّه على العين أنت أشقى من على الأرض ومعكم ساداتكم من اليهود والصليبيين أنتم زيف.. إلى مزابل التاريخ.. ويبقى الإسلام ورسوله.. يبقى الرسول ﷺ شامخًا، نورًا نيرًا، وسيدًا، نبراسًا، مباركًا، صلحت به الحياة وبدينه.

✍ كلمة أخيرة أقولها لبعض إخواننا من الدعاة الذي يقولون لماذا

---

(١) صحيح: رواه الحاكم (٤/ ٥٥) وصححه، ووافقه الذهبي، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ٥٩٣)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٢٦)، وقال: رواه الطبراني ورجال رجال الصحيح، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٨٢١)، وذكره الدارمي في «سننه» موقوفًا (ح رقم ٤٩٣)، وقال الشيخ حسين الداراني: إسناده جيد.

نردّ على كل متطاول وهم كثر، وما جدوى الرد والله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٥] أقول لواجب بالأمر والنهي عن المنكر، ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾ [الأعراف].

✍ وحتى يفكر كل قزم آلاف المرات قبل أن ينطق ببنت شفة حين يرى دنيا المسلمين قد قاموا ونكَّلوا بمن سبقه.

✍ وحتى لا تتفشى الدرَّه في المجتمع ويهون على الناس أن يرتدوا بتطاولهم على رسول الله ﷺ.

✍ وحتى لا يتفشى القول المنكر القبيح من اليهود والنصارى.. الدانمارك وغيرهم.. ليجاريهم أناس من جلدتنا.. دعاة على أبواب جهنم.. وتأخذ النسوة نصيبها من الردة حين يجبن الرجال.. وهذا ما ظهر أخيرًا من التي لاكت عرض رسول الله ﷺ وعائشة أم المؤمنين ﵂.. وقالت مقالة الرِّدة.. وفي هذه الجعلانة، قال ابن أمي لله دره حماه الله ورعاه الرائعة التي أختم بها هذا الفصل.

علو الهمة في تحمل المسؤولية.. والفاعلية

تَبَّتْ يَدَاكِ

إِلَيْهَا تِلْكَ الجُعْلَانَةِ التي عَابَتْ أَطْهَرَ الخَلْقِ وأَشْرَفَ الرُّسُلِ ﷺ، وإلى أَذْنَابِهَا مِنْ سُلَالَاتِ البقَرِ والحَمِيرِ.. ويَالَيْتَهُمْ يَفْقَهُونَ!!

قِئْتِ الخِرَاءَ[١]، وقَبْلًا قَاءَهُ البَقَرُ ... فَلَيْسَ دُونَكِ فِي مِرْحَاضِهِمْ قَذَرُ
مَنْ يَرْضَعِ الخُرْءَ[٢] لَا يَسْلُو نَجَاسَتَهُ ... وَطَفْحُ الخُرْءِ، لَا يُبْقِي ولَا يَذَرُ
وقَدْ رَضَعْتِ ضَلَالَ الكُفْرِ عَاشِقَةً ... فَلَسْتِ إِلَّا الَّذِي قَدْ غَاطَتِ[٣] الفِكَرُ
وأَرْذَلُ القَوْلِ - لَوْ تَدْرِينَ - أَكْذَبُهُ ... وشَرُّهُ الفُحْشُ والإِسْفَافُ[٤] والدَّعَرُ[٥]
وقَدْ تَهَارَجَ[٦] فِيكِ الزُّورُ أَجْمَعُهُ ... مَعَ البَذَاءِ كَمَا تَسَّافَدِ[٧] الحُمُرُ!!
فَكَيْفَ بَاشَرْتِ طُهْرَ الخَطِّ دَاعِرَةً ... هَلْ يَفْقَهُ الطُّهْرَ مَنْ فِي القُدْسِ قَدْ عَهَرُوا[٨]؟!

---

(١) الخِرَاءَ: العَذِرَة.

(٢) الخُرْءَ: العَذِرَة.

(٣) غَاطَتِ: كِنَايَةٌ عَنِ التَّبَرُّز.

(٤) الإِسْفَافُ: إِتْيَانُ الحَقِيرِ مِنَ العَمَلِ.

(٥) الدَّعَرُ: الفِسْقُ: الفُجُورُ: الفَسَادُ: الزِّنَى: دَعِرَ: إذا كانَ يَسْرِقُ ويَزْنِي.

(٦) تَهَارَجَ: الهَرْجُ: كَثْرَةُ النِّكَاحِ.

(٧) تَسَّافَدِ: تَتَنَاكَحْ.

(٨) عَهَرُوا: عَهَرَ: فجر وزَنَا في أَيِّ وَقْتٍ كَانَ.

كَيْفَ اجْتَرأْتِ -بِحَقِّ اللهِ- أَنْ تَرِدِي ... نَهْرَ الرَّسُولِ، وأَنْتِ الرِّجْسُ والمَذَرُ[(١)]؟!
مَا كَانَ يَكْفِيكِ مَاءُ الأرْضِ مُذْ خُلِقَتْ ... حَتَّى يُطَهِّرَ أَرْجَاسًا بِكِ النَّهَرُ[(٢)]
مَا كَانَ يَكْفِيكِ زَهْرُ الأرْضِ أَعْطَرُهُ ... حَتَّى يُعَطِّرَ نَتْنًا مِلْئَكِ الزَّهَرُ
مَا كَانَ يَكْفِي لِخَطِّ الحَرْفِ مَادِحَةً ... هَذَا الرَّسُولَ، فَذَاكَ العَاطِرُ الطَّهِرُ
مَا كَانَ يَكْفِي وَلكِنَّ الفُؤَادَ غَوَى ... وأَزَّهُ[(٣)] السَّفَهُ المَجْنُونُ والبَطَرُ[(٤)]
فَرُحْتِ تَهْجِينَ خَيْرَ الرُّسْلِ قَاطِبَةً ... وأَطْهَرَ الخَلْقِ إِنْ قَالُوا أَوِ افْتَخَرُوا
ذَاكَ الطَّهُورُ الَّذِي مِنْ طُهْرِ سِيرَتِهِ ... تَطِيبُ مِنْ ذِكْرِهَا الأَخْبَارُ والأَثَرُ
ويُطْرِقُ الطُّهْرُ هَيْمَانًا إِذَا ذُكِرَتْ ... وتَسْتَقِي طُهْرَهَا الأَسْحَارُ والمَطَرُ
ويَرْشُفُ الكَوْنُ مِنْ أَنْهَارِهَا نَهَمًا ... كَيْفَ العَفَافُ وكَيْفَ الحُبُّ والوَطَرُ[(٥)]
طُهْرٌ أَفَاضَ طَهُورًا[(٦)] بَيْنَ رَاحَتِهِ ... فَأَنْطَقَ الصَّخْرَ حَتَّى سَلَّمَ الحَجَرُ!
ورَاحَ صَلْدُ الحَصَى مَا بَيْنَ رَاحَتِهِ ... إِذْ لَامَسَ الطُّهْرَ بالتَّسْبِيحِ يَنْهَمِرُ!
وأَسْكَبَ الجَمَلُ المَقْهُورُ عَبْرَتَهُ ... إِلَيْهِ ثُمَّ شَكَا لِلْحِبِّ مَنْ قَهَرُوا!

---

(١) المَذَرُ: الفَسَادُ والخَبْثُ.
(٢) النَّهَرُ: وَاحِدُ الأَنْهَارِ.
(٣) أَزَّهُ: أَغْرَاهُ وهَيَّجَهُ.
(٤) البَطَرُ: الطُّغْيَانُ فِي النِّعْمَةِ: كَرَاهَةُ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَحِقَّ الكَرَاهِيَةَ.
(٥) الوَطَرُ: كُلُّ حَاجَةٍ كَانَ لِصَاحِبِهَا فِيهَا هِمَّةٌ والمُرَادُ هُنَا: الجِمَاعُ.
(٦) طَهُورًا: الطَّهُورُ: الطَّاهِرُ فِي نَفْسِهِ المُطَهِّرُ لِغَيْرِهِ.

وحَدَّثَ الذِّئْبُ عَنْ أَنْبَاءِ بِعْثَتِهِ ... وخَدَّتِ(١) الأَرْضَ مِنْ شَوْقٍ لَهُ الشَّجَرُ!
وراحَتِ الغَيْمَةُ السَّكْرَى تُظَلِّلُهُ ... وقَرَّ وَحْشُ الفَلَاةِ الشَّارِدُ النَّفِرُ!
يَا حَبَّذَا الطُّهْرُ والقُدُّوسُ وَاهِبُه ... ومَا أَفَاضَ إِلَهِي لَيْسَ يَنْحَسِرُ
فَيَا لِطُهْرٍ هَفَا(٢) قَلْبُ الجَمَادِ لَهُ ... وراحَ يَهْجُوهُ فِي أَوْطَانِنَا الغَجَرُ!
يَا وَيْحَ عَقْلِي وكَمْ بِالسُّؤْلِ يُرْهِقُنِي ... مَتَى يَحِنُّ إِلَى طُهْرِ الدُّنَا القَذَرُ؟!

يَا قَيْنَةَ العُهْرِ: كَيْفَ ارْتَدْتِ سَافِرَةً ... نَبْعَ الحَيَاءِ أَأَعْشَى عَيْنَكِ العَهَرُ؟!
فَرُحْتِ تَهْجِينَ أَحْيَا الخَلْقِ قَاطِبَةً ... مَنْ عَلَّمَ الكَوْنَ كَيْفَ السَّمْعُ والبَصَرُ
ذَاكَ الحَيِيَّ حَيَاءً مِنْ بَرَاءَتِهِ ... يَحْمَرُّ بِكْرُ الحَيَا بَلْ يَخْفِرُ الخَفَرُ(٣)!
وتَكْسِفُ الشَّمْسُ مِنْ أَنْوارِهِ خَجَلًا ... إِنْ عَنَّ(٤) يَوْمًا لَهَا أَوْ يَخْسِفُ القَمَرُ!
ويَخْشَعُ القَلْبُ مِنْ تَذْكَارِهِ وَجَلًا ... بَيْنَ الضُّلُوعِ هُنَا يَهْوَى ويَسْتَتِرُ
فَكَيْفَ فِي ذَا الحَيَاءِ النَّهْرِ قَدْ وَلَغَتْ(٥) ... سُودُ الكِلَابِ وفَرَّتْ نَحْوَهُ الحُمُرُ؟!
فَهَلْ سَبَرْتِ يَقِينًا غَوْرَ(٦) سِيرَتِهِ ... فَهَالَكِ الضِّدُّ مِمَّا يَزْعُمُ البَشَرُ؟!

---

(١) خَدَّتْ: شَقَّتِ الأَرْضَ فِي سَعْيِهَا إِلَيْهِ ﷺ.
(٢) هَفَا: حَنَّ وتَشَوَّقَ.
(٣) الخَفَرُ: شِدَّةُ الحَيَاءِ.
(٤) عَنَّ: ظَهَرَ.
(٥) وَلَغَتْ: وَلَغَ الكَلْبُ فِي الإِنَاءِ: شَرِبَ فِيهِ بِأَطْرَافِ لِسَانِهِ.
(٦) سَبَرْتِ غَوْرَ: سَبَرَ غَوْرَهُ: خَبَرَهُ وعَرَفَ كُنْهَهُ وسِرَّهُ.

فَهَبَّتِ الرُّوحُ تُجْلِي الحَقَّ ثَائِرَةً ... يَؤُزُّهَا [١] الطُّهْرُ في يُمْنَاكِ والخَطَرُ
أَمْ أَنَّهُ الزُّورُ إِذْ أَمْسَيْتِ مَرْتَعَهُ ... وسَوْرَةُ [٢] الحِقْدِ مِلْءُ القَلْبِ والبَطَرُ؟!
فَأَيْنَ حَقُّ الَّذِي عُلِّمْتِهِ زَمَنًا؟! ... وأَيْنَ مِيثَاقُكِ المَزْعُومُ والحَضَرُ؟!
أَيْنَ الأَمَانَةُ؟! هَلْ رَاعَيْتِ حُرْمَتها؟! ... وكَيْفَ خُنْتِ مَوَاثِيقَ الأُلَى سَطَرُوا؟!
يَا ضَيْعَةَ الحَرْفِ إِذْ تَأْوِي أَمَانَتَهُ ... إِلَى حِيَاضِ الأُلَى بِالحِبِّ قَدْ غَدَرُوا!!
مَنْ لَمْ يَرَ اللهَ في مَا خَطَّ نَاظِرَهُ ... فَلَيْسَ يَصْدُقُ في مَا خَطَّهُ خَبَرُ
يَا هَذِهِ: لَوْ عَرَفْتِ الصِّدْقَ ثَانِيَةً ... لَكُنْتِ أَعْرَبْتِ مَنْ خَانُوا ومَنْ فَجَرُوا
وكَيْفَ بَاعُوا رِيَاضَ الخَيْرِ خَاصِبَةً ... بِالبَخْسِ حَتَّى بكَاهَا الجِذْعُ والثَّمَرُ!
وكَيْفَ بَاعُوا التُّرَابَ الحُرَّ وَا أَسَفَى ... حَتَّى تُقَامُ بِهِ في قُدْسِنَا الجُدُرُ!
وكَيْفَ عَاثَ [٣] الفَسَادُ الفَجُّ [٤] في صَلَفٍ [٥] ... والرَّأْيُ مَا قَدْ رَأَوْا، والأَمْرُ مَا أَمَرُوا!
وكَيْفَ بِالحَانِ [٦] والمَاخُورِ [٧] في بَلَدِي ... عَلَى بِغَاءِ البَغَايَا يَسْكَرُ السَّكَرُ [٨]!

---

(١) يَؤُزُّهَا: أَزَّ: أَغْرَى وهَيَّجَ.
(٢) سَوْرَةُ: حِدَّةُ.
(٣) عَاثَ: أَفْسَدَ وأَخَذَ مِنْ غَيْرِ رِفْقٍ.
(٤) الفَجُّ: البَعِيدُ المُتَناهِي في فَسَادِه.
(٥) صَلَفٍ: الصَّلَفُ: الغُلُوُّ في الظُّرْفِ مَع تَكَبُّرٍ «الكِبْرُ».
(٦) الحَانَ: الحَانَةُ: حَانُوتُ الخَمَّارِ.
(٧) المَاخُور: بَيْتُ الرِّيبَةِ ومَجْمَعُ أَهْلِ الفِسْقِ والفَسَادِ وبُيُوتِ الخَمَّادِينَ.
(٨) السَّكَرُ: الخَمْرُ.

وكَيْـفَ قَـدْ بَلَغُـوا بِالـسِّعْرِ مَـا بلَغُـوا ... ونَحْـنُ في الـتُّرْبِ يَغْـذُونَا ونَعْتَـذِرُ!

وكَـمْ أَذَلُّـوا جِبَـاهَ العِـزِّ في وَطَنِـي ... حَتَّـى غَـدَوْنَا بِكَـأْسِ الـذُّلِّ نَنْتَحِـرُ!

وكَيْـفَ كَيْـفَ إِلَى المِلْيَـوْنِ إِنْ تَـشَأْيِ ... هَـلَّا سَـمِعْتِ وهَـلَّا أَبْـصَرَ البَـصَرُ؟!

قَـدْ كَـانَ يَكْفِـي إِذَا مَـا كُنْـتِ صَـادِقَةً ... كَيْ تَذْبَحِي بِسُيُوفِ الحَرْفِ مَنْ فَجَـرُوا

قَـدْ كَـانَ يَكْفِـي ويَكْفِـي أَلْـفَ ثَـائِرَةٍ ... لكِنَّـهُ الجُـبْنُ مِـلْءُ القَلْـبِ والخَـوَرُ[(١)]

يَأَيُّهَـا القَلْـبُ كَـمْ أَرْهَقْتَنِـي أَمـلًا ... هَلْ يُنكِرُ العَهْرَ بَيْنَ النَّاسِ مَنْ عَهَرُوا؟!

أَمْ -يَا ابْنَةَ الزُّورِ- قَد بَكَّ[(٢)] النُّهَى خَبَلٌ ... حَتَّى عَدَتْ لِشِعَارِ الطُّهْـرِ تَبْتَـدِرُ[(٣)]؟!

أَمْ أَنَّـهُ العَفَـنُ المَغْمُـورُ غَـرَّرَهُ ... حُبُّ الظُّهُـورِ فَـأَعْمَى قَلْبَـكِ الغَـرَرُ؟!

فَرُحْتِ تَهْجِينَ رَأْسَ الطُّهْـرِ مَـنْ فَتِيَتـا ... عَـدْوًا وَرَاءَ مَـدَاهُ الـشَّمْسُ والقَمَـرُ؟!

فَكَيْـفَ رُمْـتِ صُرُوحَ المَجْـدِ سَـافِلَةً ... هَلْ يَبْلُغُ المَجْدَ مَنْ فِي الوَحْلِ قَدْ مَخَرُوا[(٤)]؟!

لَئِنْ صَعِدْتِ فَنَحْوَ القَـاعِ قَـدْ صَـعِدَتْ ... مِنْـكِ الرَّزَايَـا، وحُـقَّ المَنْـزِلُ الكَـدِرُ

لَئِنْ صَعِدْتِ، فَعَرْشُ الكُفْرِ جَاثِمَـةٌ[(٥)] ... عَـلَى رُؤُوسِ البَغَايَـا والأُلَى كَفَـرُوا!!

---

(١) الخَوَرُ: الضَّعْفُ والانكِسَارُ.
(٢) بَكَّ: خَرفَ وفَرَّقَ: دَقَّ العُنُقَ.
(٣) تَبْتَدِرُ: ابْتَدَرَ القَوْمُ أَمْرًا: بَادَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَيْهِ: أَيُّهُمْ يَسْبق إِلَيْهِ فَيَغْلِبُ عَلَيْهِ.
(٤) مَخَرُوا: مَخَرَت السَّفِينَةُ: جَرَتْ تَشُقُّ المَاءَ مَعَ صَوْتٍ: اسْتَقْبَلت الرِّيحَ في جَرْيِهَا.
(٥) جَاثِمَةٌ: جَثَمَ: لَزِمَ مَكَانَه فَلَمْ يَبْرَحْهُ: وقِيلَ: أَنْ يَقَعَ عَلَى صَدْرِه.

أَمْ هَلْ دَهَاكِ بَرِيقُ المَالِ فاهْتَرَأَتْ (١) ... لَهُ اليَدَانِ وأَغْوَى قَلْبَكِ النَّضَرُ (٢)؟!
فَرُحْتِ تَلْغِينَ (٣) في ذَا الطُّهْرِ سَافِرَةً ... وسَطَّرَ الغَيُّ مَا أَمْلَاهُ مَنْ أَجَرُوا؟!
فَالْيَوْمَ أَخْفَى عِدَاةُ الطُّهْرِ نَبْحَهُمُ ... واسْتَنْبَحَ المَالُ مَنْ بَاعُوا ومَنْ تَجَرُوا
قَدْ يَبْلُغُ المَالُ في أَحْشَاءِ مَنْ دَنِسُوا ... مَا يَبْلُغُ الطُّهْرُ في أَرْوَاحِ مَنْ طَهُرُوا!!
فكَيْفَ بِعْتِ جَلَالَ الدِّينِ خَاسِرَةً ... وصِرْتِ ذَيْلًا لِمَنْ ضَلُّوا ومَنْ خَسِرُوا؟!
يَا لِلْعَفِيفَةِ والأَهْوَالُ تَسْحَقُهَا ... فَتَمْضَغُ التُّرْبَ مِنْ جُوعٍ ولَا تَزِرُ
غَدًا سَيَفْنَى الَّذِي أَغْرَتْكِ نُضْرَتُهُ ... ويَلْزَمُ العَارُ مَنْ عَاشُوا ومَنْ قُبِرُوا

أَمْ – يَا ابْنَةَ الجُبْنِ – قَد أَغْرَاكِ مَنْ صَمَتُوا ... مَنْ أَدْمَنُوا النَّوْمَ إِنْ مَا حَصْحَصَ (٤) الخَطَرُ؟!
إِنَّ الكُرُوشَ بِأَكْلِ السُّحْتِ قَدْ مُلِئَتْ ... فَنَامَ فَوْقَ حَشَاهَا الرَّأْسُ والدُّبُرُ!!
فَإِنْ أَفَاقَتْ عَلَى لَحْنِ الهَوَى سَكِرَتْ ... فَعَاثَ بَيْنَ ثَنَايَا عَقْلِهَا الخَدَرُ
فَمِلْؤُهَا الجُبْنُ في سِلْمٍ ومُعْتَرَكٍ ... يَنْدَى لِذَا الجُبْنِ في أَعْمَاقِهَا الخَوَرُ
القَوْمُ لِلزُّورِ عَاشُوا مُنْذُ مَوْلِدِهِمْ ... ولَيْسَ لِلدِّينِ في أَعْمَاقِهِمْ أَثَرُ!!
والرُّؤُسُ لَمَّا لِغَيْرِ اللهِ قَدْ سَجَدَتْ ... بَالَتْ عَلَى ذُلِّهَا الفِئْرَانُ والهِرَرُ

---

(١) هَرَأَ في مَنْطِقِه: أَكْثَر في خَطَإٍ أو قَالَ: الخَنَا والقَبِيحَ.
(٢) النَّضَرُ: النَّضْرُ: الذَّهَبُ والفِضَّةُ.
(٣) تَلْغِينَ: لَغَا: تكَلَّم باللَّغْو: وهُوَ السَّقْطُ ومَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ مِنْ كَلامٍ وَغيْرِه ولا يَحْصُلُ مِنْهُ عَلَى نَفْعٍ ولَا فَائِدَةٍ: عَدَلَ عن الصَّوَابِ: قَالَ بَاطِلًا: خَابَ.
(٤) حَصْحَصَ: ظَهَرَ وبَرَزَ.

أَمَا وَرَبِّ الوَرَى لَوْ شِيكَ كلبُهُمُ ... بِهَمْسَةِ الطَّلِّ [١] مَا كَانُوا لِيَنْتَظِرُوا
لَفَتَّشُوا الكَوْنَ عَنْ آثَارِ هَمْسَتِهِ ... حَتَّى «يُبَلِّغَ» عَنْ أَخْبَارِهَا المَطَرُ
وحَرَّزُوا «الوَرْدَ» إِذْ نَدَّتْ «بَرَاعِمُهُ» ... وفَجَّرُوا هَمْسَهَا القَتَّالَ وانْفَجَرُوا!
أَمَّا إِذَا سُبَّ خَيْرُ الخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ ... وقَالَ في عِرْضِهِ الشُّذَّاذُ والبَقَرُ
فَالقَوْمُ عَنْ ذَاكَ قَدْ صُمَّتْ مَسَامِعُهُمْ ... بَالَ اللَّعِينُ بِهَا واسْتَفْحَلَ الوَقَرُ [٢]
وإِنْ تَعَالَتْ مِنَ الدَّهْمَاءِ [٣] صَيْحَتُهُمْ ... هَانَ الصِّيَاحُ عَلَى الآذَانِ والهَذَرُ
وإِنْ تَمَادَى الصُّرَاخُ الحُرُّ واحْتَدَمَتْ ... مِنْهُ القُلُوبُ فَتَنْفِيسٌ ومُؤْتَمَرُ
يَحْنُو الهِجَاءُ لَدَى أَحْدَاثِهِ غَزِلًا ... لِكِنَّهَا خَفِرُ الآهَاتِ.. مُخْتَصَرُ
حَتَّى يَحُطَّ عَلَيْهِ الوَحْلُ لَافِتَةً ... مَاتَ الأَعَالِي فَلَا حِسٌّ ولَا خَبَرُ
بِئْسَ الرُّؤُوسُ إِلَى نَعْلِ العِدَا سَجَدَتْ ... تَبُوسُ أَسْفَلَ نَعْلَيْهَا وتَعْتَذِرُ!!
بِئْسَ «الرُّؤُوسُ» وبِئْسَ المَالُ سَائِقُهَا ... وبِئْسَ حَادٍ لَهَا في «رَعْيِهَا» الحَذَرُ
عَارٌ عَلَيْهَا أُنُوفٌ لَمْ تَعُدْ أُنُفًا [٤] ... عَارٌ عَلَى رُؤْسِهَا التِّيجَانُ والدُّرَرُ
عَارٌ عَلَيْهَا أَنَاشِيدٌ لَهَا ابْتُدِعَتْ ... عَارٌ عَلَى صَمْتِهَا أَلْقَابُهَا الغُرَرُ
عَارٌ عَلَيْهَا القُصُورُ البِيضُ شَاهِقَةً ... قَدْ كَانَ أَوْلَى بِهَا - بَيْنَ القَذَى - الحُفَرُ

---

(١) الطَّلّ: المَطَرُ الصِّغَارُ القَطْرِ الدَّائِمُ، وهُو أَرْسَخُ المَطَرِ نَدًى.
(٢) الوَقْرُ: ثِقَلٌ في الأُذُنِ.
(٣) الدَّهْمَاءُ: جَمَاعَةُ النَّاسِ وكَثْرَتُهُمْ.
(٤) أُنُفًا: كَلأٌ أُنُفٌ: إِذَا كَانَ بِحَالِهِ لَمْ يَرْعَهُ أَحَدٌ ولَمْ يُوطَأْ.

أَمْ -يَا ابْنَةَ الجُبْنِ- قَدْ أَغْرَتْكِ عَقْلَتُنَا ... وغَيْبَةُ العَقْلِ فِي ذَا الشَّعْبِ والخَدَرُ
شَعْبٌ تُطِيحُ بِهِ أَنْغَامُ أُغْنِيَةٍ ... فَيَرْقُصُ «الكِرْشُ» و«الأَطْرَافُ» و«الدُّبُرُ»
وتَسْكُنُ الرَّأْسَ مِنْ تَفْكِيرِهِ كُرَةٌ ... حَتَّى تَكَادُ بَضَرْبِ «النَّعْلِ» تَنْفَجِرُ
يُلْهِيهِ «فِلْمٌ» و«حَلْقَاتٌ مَسَلْسَلَةٌ» ... والكَوْنُ مِنْ حَوْلِهِ.. يَغْلِي ويَسْتَعِرُ!!
حَتَّى تَقُومَ عَلَى الدُّنْيَا قِيَامَتُهَا ... والشَّعْبُ فِي غَيِّهِ رَاءٍ ومُنْتَظِرُ!!
شَعْبٌ يُجَاهِدُ «فَالتِّلْفَازُ» مَلْعَبُهُ ... والرُّؤْسُ[1] «لِلْمَلْعَبِ الفِعْلِيِّ» قَدْ والزَّهَرُ
شَعْبٌ بِحُبِّ رَسُولِ اللهِ مُهْجَتُهُ ... تَفِيضُ حَتَّى يَرِفَّ المَرْجُ والزَّهَرُ
لِكَنَّهُ خَامِلٌ فِي الحُبِّ ذُو دَعَةٍ ... والحِبُّ يُؤْتَى ولَا يَأْتِي الأُلَى خَدَرُوا
شَعْبٌ يَثُورُ لِمَنْ يَهْوَى لِثَانِيَةٍ ... كَالنَّارِ فِي لَحْظَةٍ تَعْلُو فَتَحْتَضِرُ!!

إِنْ كَانَ أَغْرَاكِ فِي آرَاسِنَا[2] خَوَرٌ ... والجُبْنُ فِي شَعْبِنَا والنَّوْمُ والهَذَرُ
فَبَيْنَنَا الأُسْدُ والأَهْوَالُ لُعْبَتُهَا ... ودَيْدَنُ الشِّبْلِ -لَوْ تَدْرِينَهُ- الظَّفَرُ
تَمُوتُ دُونَ حِمَاهَا لَيْسَ تُسْلِمُهُ ... وإِنْ تَدَاعَتْ لَهَا الذُّؤْبَانُ والبَقَرُ
وتَحْفَظُ العَهْدَ حَتَّى المَوْتِ عَاشِقَةً ... ذَاكَ الوَفَاءُ، ونِعْمَ المُرْتَقَى الوَعِرُ
فِي كُلِّ ثَغْرٍ لَدَى مِنْهَا جَنَا أُسُدٌ ... فَكَيْفَ تَخْلُصُ مِنْ آسَادِنَا الحُمُرُ

---

(١) الرُّؤْسُ: جَمْعُ كَثْرَةٍ مِنْ رأسٍ (عَلَى الحَذْفِ).
(٢) آرَاسِنَا: جَمْعُ قِلَّةٍ مِنْ رَأْسٍ (عَلَى القَلْبِ).

وخَـيْرُ آسَـادِنَا أَعْـلَامُ شِرْعَتِنَـا ... مَـنْ قَـدْ غَـذَا [١] قَلْبَـهُ القُـرْآنُ والأَثَـرُ

قَـدْ أَوْقَفُـوا لِكُنُـوزِ الحَـقِّ أَنْفُسَهُمْ ... واسْتَخْلَصُوهَا فَبَانَ التِّبْرُ والـدُّرَرُ

وبَيَّنُـوا الحُسْنَ نُـورًا مِـلْءَ سِـيَرتِهِ ... مِمَّـا اسْـتَنَارَتْ بِـهِ الأَخْبَـارُ والسِّيَرُ

وأَوْضَحُوهَا فَـذِي أَنْـوَارُ سِـيرَتِهِ ... بَيْضَاءُ تَغْشَى لَهُنَّ الأَنْجُمُ الزُّهُرُ [٢]

تِلْـكَ الأُسُـودُ وفَـضْحُ الـزُّورِ دَيْـدَنُهَا ... للهِ مَـا حَـدَّثُوا.. للهِ مَـا سَـطَرُوا

فَلْتَهْرِفُوا الزُّورَ مِـنْ مِرْحَاضِـكِمْ قَـذَرًا ... حَتَّـى يُبِـينَ النَّقَـاءَ الأَطْهَـرَ القَـذَرُ

إِنْ يَحْلُكِ اللَّيْـلُ تَقْلُ [٣] العَـيْنُ ظُلْمَتَـهُ ... وتُـدْرِكِ العَـيْنُ مَـا الأَبْـدَارُ مَـا القَمَـرُ

عِبْـتُمْ مَقَـامَ رَسُـولِ اللهِ فَـانْتَبِهُوا ... لِـذَلِكَ الطُّهـرَ مَـنْ بَـرُّوا ومَـنْ فَجَـرُوا

فَـأَدْمَنُوا الطُّهْـرَ فِي أَنْهَـارِ شِرْعَتِـهِ ... وغَـاصَ فِي لُجِّهَـا الأَفْـرَادُ والزُّمَـرُ

إِنْ يَنْـبَحِ الكَلْـبُ فِي الأَبْـدَارِ رَوْعَتَهَـا ... يَهْـفُ الفُـؤَادُ إِلَى الأَبْـدَارِ والنَّظَـرُ

فَلَـوْ عَلِمْـتِ الأُلَى فَـاؤُوا لـشِرْعَتِنَا ... لِمـتِّ غَيْظًـا وراحَ الكُفْـرُ يَنْتَحِـرُ

تِلْكَ الأَقَاحِي [٤] قَلَتْ أَرْجَاسَ بِيئَتِكُمْ ... أَنْتُمْ أَسَـاسُ القَـذَى والمَوْرِدُ العَكِـرُ؟!

---

(١) غَذَا: أَطْعَمَ.

(٢) الزُّهُرُ: الزُّهْرُ: الأَبْيَض النَّيِّرُ وهُوَ أَحسَنُ الأَلْوَانِ.

(٣) تَقْلُ: قَلَا: أَبْغَضَهُ وكَرِهَهُ غَايَةَ الكَرَاهَةِ فتَرَكَهُ.

(٤) الأَقَاحِي: جَمْعُ الأُقْحُوَانِ: نَباتُ الرَّبِيعِ مُفَرَّضُ الوَرَقِ دَقِيقُ العِيدَانِ، له نُورٌ أَبْيَضَ كَأَنَّهُ ثَغْرُ جَارِيَةٍ حَدِثَةِ السِّنِّ.

شُكْرًا لِنَبْحٍ هَدَى قَوْمًا لِشِرْعَتِنَا ... لَوْلَا النُّبَاحُ لَمَا فَاؤُوا ومَا اعْتَبَرُوا!!
فَلْتُدْمِنِي النَّبْحَ، فَالأَذْكَارُ تَعْقُبُهُ ... عَسَى يَفِيءُ الشَّرِيدُ الغَافِلُ الكَفِرُ
مَا لِي أَرَاكِ سَئِمْتَ النَّبْحَ وَا أَسَفَى ... هَلْ هَالَكِ الذَّبُّ [١] والغُرُّ الأُلَى نَفَروا؟!
لَنْ تَسْأَمِيهِ فَأَنْتِ النَّبْحُ مَعْدَنُهُ ... إِنْ يَسْأَمِ الكَلْبُ نَبْحًا يَنْبَحِ البَقَرُ
كَمْ يَنْصُرُ اللهُ بِالأَعْدَاءِ شِرْعَتَهُ ... وأَهْلُهَا النَّوْمُ مَا هَبُّوا ولا انْتَصَرُوا
يَا هَذِهِ لَوْ أَرَدْتُمْ نَيْلَ شِرْعَتِهِ ... فَذَا مُحَالُ الهَوَى بَلْ دُونَهُ العُمُرُ
فَلْتُطْفِئُوا الشَّمْسَ إِنَّ الشَّمْسَ مَسْرَحُهُ ... حِينَ النَّهَارِ ومَسْرَى لَيْلِهِ القَمَرُ
قَدْ زَادَنَا فُحْشُ مَا أَلْقَيْتِهِ أَلَقًا [٢] ... كَمَا اليَوَاقِيتُ إِذْ تَجْتَاحُهَا السُّعُرُ
فَمَا رَمَى السُّوءُ مِنْكُمْ طُهْرَ مِلَّتِهِ ... إِلَّا اسْتَبَقْنَا لِذَاكَ الطُّهْرِ نَبْتَدِرُ
حَتَّى ارْتَوَيْنَا بِذَاكَ الطُّهْرِ واغْتَسَلَتْ ... بِهِ القُلُوبُ وفَاحَ الطُّهْرُ والزَّهَرُ
ورَاحَ يَنْشُرُ مِلْءِ الكَوْنِ سِيرَتَهُ ... فَيَنْشَقُ [٣] الكَوْنُ رَيَّاهَا [٤] .. ويَعْتَذِرُ
ويَرْشُفُ [٥] الطُّهْرَ مِنْ أَسْفَارِهَا [٦] نَهِمًا ... رَشْفَ الرَّحِيقِ ويَرْوِي جَدْبَهُ النَّهَرُ

---

(١) الذَّبُّ: الدَّفْعُ والمَنْعُ.
(٢) أَلَقًا: أَلَقَ: لَمَعَ وأَضَاءَ أَلَقًا.
(٣) يَنْشَقُ: يُدْنِي الشَّيْءَ من خَيَاشِيمِهِ لِيُدْخِلَ رِيحَهُ إِلَيْهَا: يَشُمُّ.
(٤) رَيَّاهَا: الرَّيَّا: الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ.
(٥) يَرْشُفُ: يَشْرَبُ مَصًّا.
(٦) أَسْفَارِهَا: الأَسْفَارُ: الكُتُبُ الكِبَارُ وَاحِدُهَا سِفْرٌ.

ويَنْــذِرُ الــنَّفْسَ أَنْفَاسًــا لِدَعْوَتِــهِ نُــورَانِ زَادَاهُ: قَــوْلُ الحِــبِّ والــسُّوَرُ
فَــمَا أَرَدْتِ أَرَدْنَــا نَــشْرَ سِــيرَتِهِ حَتَّــى يُبَلِّــغَ عَنْــهُ الــصَّخْرُ والمَــدَرُ[1]
يَـا هَـذِهِ قَـدْ رَشَـفْنَا الطُّهْـرَ مِـنْ يَـدِهِ فَكَـانَ هَـذَا العَفَـافُ الرَّائِـقُ الطَّهِـرُ
بِــهِ نَعِــيشُ لَــدَى الجَنَّــاتِ أَفْئِــدَةً يُدَاعِبُ الطُّهْرَ شفى أَبْصَارِنَا الحَـوَرُ[2]
وتِلْكَ أَجْسَادُنَا في الأَرْضِ مَا بَرِحَـتْ تَرْوِي بُذُورَ الهُدَى في قَلْبِ مَـنْ فَجَـرُوا
هُــوَ الحَبِيــبُ الَّــذِي لله أَرْشَــدَنَا فَــالرُّوحُ تُحِبُّــهُ والــسَّمْعُ والبَــصَرُ
وكُــلُّ شَيْءٍ بِنَــا في الله يُحِبُّــهُ حَتَّــى تَكَــادُ بِــذَاكَ الحُــبِّ نُحْتَـضَرُ
وكَــمْ تَتُــوقُ إِلَى رُؤْيَــاهُ أَعْيُنُنَــا ويَــذْهَبُ الأَهْـلُ والأَمْـوَالُ والعُمُـرُ
فَهَــلْ نَــضِنُّ بِــأَرْوَاحٍ بِــهِ طَهُــرَتْ إِذَا أَرَادَ حِمَــاهُ النَّــتْنُ والقَــذَرُ؟!
تَفْدِيــهِ مِنَّــا النُّفُــوسُ الــشُّمُّ شَــائِقَةً لِــذَا المَقَــامِ الَّــذِي مَــا فَوْقَــهُ وَطَــرُ
نَفْدِيــهِ لَــوْ قَطَّعُونَــا بِالمُــدَى إِرَبًــا وصَـوَّتَتْ بِحَنَايَا رُؤُوسِـنَا الـدُّسُرُ[3]
يَفْدِيـهِ كَـوْنٌ بِمِـلْءِ القَلْـبِ يَعْـشَقُهُ نَمْـلُ الثَّـرَى والنَّـدَى والطَّـائِرُ النَّـسِرُ

---

(١) المَدَرُ: قِطَعُ الطِّين اليَابِسِ المُمَاسِكِ الذِي لَا رَمْلَ فيه.
(٢) الحَوَرُ: أَنْ يَشتدَّ بياضُ بَيَاضِ العَينِ وسَوادُ سَوَادِهَا وتشديدَ حَدَقَتُها وتَرِقَّ جُنونُها وبَيْيَضَّ مَا حَوَالَيْها.
(٣) الدُّسُرُ: جَمْعُ الدِّسَارُ: المِسْمَارُ.

والله مِــنْ قَبْلِــهِ مِــنْ بَعْــدُ نَــاصِرُهُ مَــنْ يَنْــصِرِ اللهُ مَنْــصُورٌ ومُنْتَــصِرُ

وصَلَى الله على محمَّدٍ وعلى آلهِ وصَحْبه وسلَّمَ.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس].

وكتبَهَا الفقيرُ إلى ربِّهِ

عَبْدُ اللهِ بنُ حُسَينٍ العَفانيُّ

السادسة صباح الثلاثاء

١٩ من صفر سنة ١٢٩هـ - ٢٦ من فبراير سنة ٢٠٠٨م

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

كمبيوتر الصديق
محمول/٠١٦١٩٠٣٦٨٥
٠١٨٤٤١٩٢٥٠
ت/٢٦٤٣٢٨٣٧

شذا الريحان ذكر جنة الرحمن

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٠٢/٢٥١٨٢٥٧

بني سويف ت: ٣٧٣٤٤/٠٨٢

كمبيوتر الصديق

محمول/ ٠١٨٤٤١٩٢٥٠

ت/ ٢٦٤٣٢٨٣٧

تعطير الأنفاس من حديث الإخلاص

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٠٢/٢٥١٠٨٢٥٧

بني سويف ت: ٠٨٢/٣١٧٣٤٤

كمبيوتر الصديق

محمول/ ٠١٨٤٤١٩٢٥٠

ت/ ٢٦٤٣٢٨٣٧

عيش السعداء بين الخوف والرجاء

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٠٢/٢٥١٨٢٥٧

بني سويف ت: ٠٨٢/٣١٧٣٤٤

كمبيوتر الصديق

محمول/ ٠١٨٤٤١٩٢٥٠

ت/ ٢٦٤٣٢٨٣٧

نزل الأبرار في الفرق بين المتقين والفجار

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٠٢/٢٥١٨٢٥٧

بني سويف ت: ٠٨٢/٣١٧٣٤٤

كمبيوتر الصديق

محمول/ ٠١٨٤٤١٩٢٥٠

ت/ ٢٦٤٣٢٨٣٧

زهر الجنان
من
حياة شيوخ الإسلام

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٠٢/٢٥١٨٢٥٧

بني سويف ت: ٠٨٢/٣١٧٣٤٤

كمبيوتر الصديق

محمول/ ٠١٨٤٤١٩٢٥٠

ت/ ٢٦٤٣٢٨٣٧

الكوثر الجاري من تفسير كلام المنعم الباري

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٠٢/٢٥١٨٢٥٧

بني سويف ت: ٠٨٢/٣١٧٣٤٤

كمبيوتر الصديق

محمول/ ٠١٨٤٤١٩٢٥٠

ت/ ٢٦٤٣٢٨٣٧

الروض الندي في حب النبي ﷺ

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٠٢/٢٥١٠٨٢٥٧

بني سويف ت: ٠٨٢/٣ ١٧٣٤٤

كمبيوتر الصديق

محمول/ ٠١٨٤٤١٩٢٥٠

ت/ ٢٦٤٣٢٨٣٧

بكاء الأفئدة
من
نار الله الموقدة

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٠٢/٢٥١٠٨٢٥٧

بني سويف ت: ٠٨٢/٣ ١٧٣٤٤

كمبيوتر الصديق

محمول/٠١٨٤٤١٩٢٥٠

ت/٢٦٤٣٢٨٣٧